# من لطائف التفسير

للشيخ أحمد فرج عقيلان
رحمه الله تعالى

المجلد الأول

دار القبلتين
للنشر والتوزيع

دار اليقين
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



دار اليقين للنشر والتوزيع
مصر - المنصورة
هاتف: ٣٥٥٢٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

ما جلست إلى القرآن الكريم أتلوه وأتملى تفسيره وبلاغته وإعجازه ، إلا أحسست أنى فى جو مزيج من مهابة تبعث الإيمان ، وسعادة تمنح السكينة ، ونور يضىء جوانب النفس بالعلم الصحيح والإقناع البليغ والإمتاع المعجز ، فأهتف من أعماق نفسى : ﴿ **الحَمدُ لله الَّذى أنزَلَ علَى عَبده الكتَابَ ولَم يَجعَل لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً** ﴾ [الكهف : ١، ٢] . ثم إنى على تكراره أحس أن له بشاشة متجددة ، وأنه فى كل قراءة يمنحنى جديداً من المعرفة يتوج قديمها ، وطارفاً من البلاغة يزكى تليدها، فأشعر بأنى إزاء كنز لا تفنى عجائبه ، وبحر لا تحتجب جواهره ، وزاد يغذى الروح روحاً وريحانا ، وعطاء إلهى يتحف النفس إسلاماً وإيماناً ، فأردد فى سعادة غامرة قوله عزّ وجلّ : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وهذا الكتاب العزيز تفيأ ظلاله رعيل العارفين السعداء ، فوصلهم بربّهم ، ورفعهم فى معارج القبول ، وأذاقهم حلاوة الإيمان ، فسمت طموحاتهم عن العرض الأدنى ، وتعلقوا بالحب الأعظم حب الله ورسوله . القرآن معجزة جليلة تخاطب العقول بالبرهان المقنع ، وتبهر القلوب بالأدب الممتع ، وتدعو ركب الحيارى إلى حظيرة الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة والبلاغة المعجزة .يقول الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ **فَأَعرِض عَنهُم وَعِظهُم وَقُل لَهُم فِي أَنفُسِهِم قَولاً بَلِيغاً** ﴾ [ النساء : ٦٣] . ألا ما أجمل أن يجعل الله البلاغة معجزة محمد .

وإذا كانت معجزات الأنبياء قد بهرت العقول بالخوارق ، فإن القرآن الكريم قد خاطب العقول بالحقائق فكان بحق معجزة المعجزات ، ومشرق الآيات ؛ ذلك لأن معجزات الأنبياء ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ قد انتهت بانتهاء حياتهم. أما معجزة محمد ﷺ فقد أنارت الأفهام فى حياته ، وأحيت القلوب بعد وفاته، ثم خلدت على تعاقب الأحقاب يعشو إلى ضوئها طلاب المعرفة ، ورواد الفلسفة ، وينهل من معينها المصلحون ، ويستهدى نورها علماء التشريع والقانون ، وعشاق البلاغة والفصاحة والأدب الرفيع(١) . وسأعرض على أسماع الإخوة المستمعين نبذاً من كلام أولياء الله الذين شمروا عن سواعد الجدّ لخدمة كتاب الله، ففتح لهم كريم رحابه ، ونظمهم فى سلك أحبابه وبارك جهودهم، فطلعوا على الأمة بتفاسيرهم المباركة ، وسأقتصر على لقطات من تفسير القرطبى ، وتفسير أبى السعود الذى سماه ( إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ) للإمام أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى ، ثم أجعل ختام المسك ، ومسك الختام قبساً من مقدّمة أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب من تفسيره الأدبى الممتع ( فى ظلال القرآن ) لأضع المستمع فى جوّ الروحانية والمهابة والخشوع الذى أظلّ هؤلاء الأئمة الأعلام حين صمدوا لذلك العمل الجليل ، محتسبين جهودهم المضنية عند ربهم الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فأنالهم الكريم الوهاب ما قصدوه ، وأصبحت تفاسيرهم سننا كريمة ، وحسنات جارية لهم أجرها وأجر من دعا بها، واستهدى هديها واستنار بسناها إلى يوم القيامة ؛ سائلاً الله أن يحيى قلوبنا بزاد القرآن ، ويجعل القرآن منهاج أخلاقنا فى الحياة الدنيا وشفيعنا

(١) وهذا ما عناه القرآن الكريم حين حكى عن المشركين الذين طالبوا محمداً بمعجزة من خوارق المرئيات فقال جل وعلا فى سورة العنكبوت : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾ [ العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١].

بين يدى الله يوم الدين .

إن من أعظم تفاسير القرآن ـ ذلك التفسير الواسع الشامل الذى ألفه أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى وسماه ـ : ( الجامع لأحكام القرآن) والذى يسميه طلاب العلم : ( تفسير القرطبى ) ، لقد صدّر القرطبى ـ رحمه الله ـ تفسيره بمقدمة ضافية استغرقت قرابة ثمانين صفحة من القطع الكبير بدأها بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، ثم لما أكرم به هذه الأمة من نبوّة محمد ﷺ ، ومن إنزاله القرآن الكريم على خير خلقه ، ثم قال : ( وبعد ) :

فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ، رأيت أن أشتغل فيه مدى عمرى ، وأستفرغ فيه منى ، وجعلته تذكرة لنفسى ، وذخيرة ليوم رمسى ، وعملاً صالحاً بعد موتى . قال الله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[القيامة : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الإنفطار : ٥] . وقال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله من الدنيا إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » . جعله الله خالصاً لوجهه ونفعنى به ووالدى ومن أراد بمنه ، إنه سميع الدعاء قريب مجيب.

ثم يمضى ـ رحمه الله ـ فى تلك المقدمة المباركة فيتحدث عن فضائل القرآن وفضل طالبه ، وقارئه ومستمعه، والعامل به، ويعقد بابا فى كيفية التلاوة، وبابا آخر فى تحذير أهل القرآن من الرياء والمخادعة، ويمضى فيتحدث عن فضل تفسير القرآن وأهل التفسير ، ويحذّر من تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك، ويرد على الرافضة طعنهم فى القرآن وجمعه ، كل ذلك فى أسلوب رائع تحس فيه نبض العاطفة النبيلة ، وبشاشة الصدق والإخلاص فى كل عبارة من عباراته. ولا عجب فأولئك الأبرار من مفسّرى القرآن من لدن الإمام ابن

جرير الطبرى إلى شهيد الإسلام سيد قطب ـ رحمه الله ـ كانوا يتعبدون إلى ربهم بتلك التفاسير ، حتى ليشعر أحدهم حين يمسك بقلمه ليسجل ما فتح الله به عليه أنه ماثل فى محراب العبادة ، يعيش مع كتاب الله كل حكمة من حكمه ، وكل إشارة من بلاغته ، وكل حكم من تشريعه ، ويشعر أنه فى رحاب التجليات الإلهية ، فيراقب ربه فى كل عبارة وكلمة وحرف يخطه ، مستشعراً من قرارة وجدانه مدى عظمة العمل الذى تصدر له ، فلما صحت منهم العزائم ،وصدقت منهم النوايا ، وخلصت لوجه الله منهم المقاصد ، بارك الله أعمارهم ، وأحسن أعمالهم ، وأخلصهم بخالصة ذكر الدار . أسأل الله لى وللمسلمين أن يمدنا منه بمدد من قوته ، وروح من روحه ، وعزيمة من إلهامه وتوفيقه ، نخدم بها ديننا ، ونعلى بها صرح إيماننا، ونعيد بها أمجاد الإسلام سيرتها الأولى .

* * *

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

لقد قطع الله جل وعلا على نفسه عهداً أن يحفظ القرآن الكريم ؛ لأنه كلامه العظيم ، وذكره الحكيم ، فقال تبارك وتعالى فى سورة الحجر : **﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾** [الحجر : ٩] ، ومما يلفت النظر فى هذه الآية الكريمة : كثرة ما فيها من أساليب التوكيد البليغة فكلمة : **﴿ إِنَّ ﴾** حرف توكيد ، وكلمة : **﴿ نَحْنُ ﴾** توكيد للضمير المتصل ، والفعل : **﴿ نَزَّلْنَا ﴾** من أساليب التوكيد ؛ لأن وزن فَعَّل يدلّ على التوكيد ، وفى تكرار كلمة : **﴿وإِنَّا ﴾** توكيد مزدوج من طبيعة اللفظ ومن تكراره ، وفى تقديم كلمة **﴿ لَهُ ﴾** توكيد ، واللام فى قوله : **﴿ لَحَافِظُونَ ﴾** حرف توكيد ، كما أن أسلوب الجمع المفيد للتعظيم هو من أساليب التوكيد يؤكد قدرة الله على حفظ كتابه لأنه العظيم القادر .

وتحقيقاً لهذا الوعد الإلهى العظيم ، فقد جند الله عز وجل عدداً من أوليائه العلماء الأجلاء ، ففتح عليهم فتوح العارفين ، وشرفهم بخدمة كتابه الكريم ، وألهمهم تفسير آيه ، وإيضاح تأويله ، حتى أصبح التفسير علماً عظيم القدر ، له أصوله ومناهجه ، وله رجاله ورواته ، وله حذاقه وحفاظه وثقاته .

ولكى يتبين للأخ القارئ مدى الصدق والإخلاص والاحتساب فى نفوس أشياخنا من أئمة التفسير ـ رحمهم الله ـ أورد هذه النتف من بعض كتب التفسير ؛ ليرى أن أولئك السادة الأجلاء كانوا من أشرف الناس هجرة ونية ومقصدا ، حين أقدموا على مهمتهم المقدسة ، وأنهم كانوا يعدون عملهم الجليل عبادة وجهاداً ، وعلماً نافعاً يبلغهم رضوان الله فى حياتهم وبعد مماتهم.

فى مقدمة تفسير الإمام أبى السعود العمادى ـ رحمه الله ـ وهو التفسير

الذى سماه ( إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ) يقول المصنف رحمه الله تعالى :

« لقد كان فى سوابق الأيام ، وسوالف الدهر والأعوام ، أن اشتغلت بمطالعة التفسير الكشاف وتفسير أنوار التنزيل ، فدار بخلدى أن أنظم درر فوائدهما فى نمطٍ دقيق ، وأرتب غرر فوائدهما على ترتيب أنيق ، وكنت أتردد فى ذلك بين إقدامٍ وإحجام لقصور شأنى وعزة المرام ، أين الحضيض من الذرى ، وشتان ما بين الثريا والثرى ، فشرعت فيه مع تفاقم المكاره علىّ ، وتزاحم المشادة بين يدى متضرعا إلى ربّ العظمة والجبروت أن يعصمنى عن الزيغ والزلل ، ويقينى مصارع السوء فى القول والعمل ، وأن يجعله خير عدة وعتاد ، أدّخره ليوم المعاد . فاللهم أفض علينا شوارق أنوار التوفيق ، وأطلعنا على أسرار التحقيق ، وثبت أقدامنا على مناهج هداك ، وأنطقنا بما فيه أمرك ورضاك ، اللهم لاربّ غيرك ، ولا خير إلا خيرك ، بيدك مقاليد الأمور ، ولك الخلق والأمر وإليك النشور » .

أما مقدمة أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب لتفسير ( فى ظلال القرآن ) فهى قطعة من الأدب الرفيع تستحق أن تنقش بمداد النور فى القرائح ، وتحفظ بين ذخائر العلم فى القلوب والجوانح ؛ ولهذا رأيت أن أوثرها بتلخيص شامل غير مخل ، سائلاً الله أن يرحم منشئها الفدائى الكريم وأن يسكنه جنات النعيم .

يقول الإمام الشهيد ــ قدس الله روحه ــ :

« الحياة فى ظلال القرآن نعمة ، نعمة لايعرفها إلامن ذاقها ، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه ، والحمد لله .... لقد منّ الله علىّ بالحياة فى ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيه من نعمته ما لم أذقه قط فى حياتى ، لقد عشت أسمع الله ــ سبحانه ــ يتحدث إلىّ بالقرآن .. أنا العبد القليل الذليل .

أى تكريم للإنسان هذا التكريم العلوى الجليل ؟! لقد عشت فى ظلال القرآن أنظر إلى الجاهلية التى تموج فى الأرض ، وإلى تعاجب أهلها بما لديهم من معرفة الأطفال ، كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأطفال ، ولثغة الأطفال . وأسأل : كيف تعيش الإنسانية فى المستنقع الآسن والدرْك الهابط وعندها ذلك المرتع الزكىّ وذلك المرتقى العالى وذلك النور الوضيء ؟!

وعشت فى ظلال القرآن أُحسُّ التناسب الهائل بين فطرة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذى أبدعه الله ، ثم أرى تخبط الإنسانية وانحرافها عن فطرتها ، وتصادمها بالتعاليم الشريرة ، فأقول فى نفسى : أى شيطان لئيم هذا الذى يقود خطاها إلى الجحيم !

وعشت فى ظلال القرآن أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المُشاهَد ، أرى عالم الغيب والشهادة ، وأرى الدنيا والآخرة ، وأرى أصالة الحق والخير والإحسان، وأرى زيف الفساد والباطل والضلال ، فأقرأ قول الله تعالى: **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾** [الرعد : ١٧] . إذ ذاك أطمئن فى ثقة إلى انتصار الحق والخير ، وأنتهى إلى يقين جازم حاسم.. أنْ لا صلاح لهذه الأرض ولاراحة لهذه البشرية ولابركة ولا طهارة ولا طمأنينة لهذا الكون إلا بالرجوع إلى الله ، والاحتكام إليه ، والعودة بالبشرية إلى منهج الله الذى رسمه لها فى كتابه الكريم ، والاحتكام إلى كتاب الله وحده فى شؤونها، وإلا فهو الفساد والشقاوة والارتكاس والجاهلية التى تعبد الهوى **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾**[القصص : ٥٠] . لقد كانت تنحية القرآن عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً ونكبة قاصمة لم تعرف البشرية لها نظيراً . ومما زاد النكبة الدهياء أنّ القرآن قد نُحّيَ لتتولى أمر الإنسانية الجَاهليّة مرة أخرى فى صورة التفكير المادّى الذى تتعاجب به ، كما يتعاجب الأطفَال بالثوب المبرقش

واللعبة الهشّة .

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين ـ أعداء البشرية ـ يخدعون الإنسانية، فيوقعون فى روعها أن المنهج الإلهى عدوٌ للإبداع ، وأن الناس إذا اختاروا حكم الإسلام ، سوف يجمّد هذا الاختيار العلم والفن ، ويتجاهل هؤلاء أن المنهج الإسلامى هو المنشئ لهذا الإبداع ، والموّجه له وجهة الحق والخير والإيمان ، وهو لا يحدُّ من انطلاقة الإبداع ، لكنه يرعاها لتتحرك فى نطاق ما يرضى الله ، أما أولئك الذين يزعمون أن طريقة الإسلام نقيضة لطريقة الإبداع فهم شريرون، يطاردون الإنسانية المتعبة ، كلّما همت أن تؤوب من المتاهة المهلكة وتطمئن إلى كنف الله .

إن الإنسانية لن تستريح من رحلة التيه إلا إذا جعلت منهج الإسلام نورَها ونظامها ، وحكمها ، وطاردت كلّ مضلل يريد أن يحول بينها وبين سنة الله الجارية ، وينحرف بها عن طريق ربّها الكريم ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

* * *

# ألفاظ موزونة بميزان الجوهر

سمع أعرابىٌ قارئاً يقرأ سورة المائدة حتى إذا بلغ إلى آية حدّ السّارق قرأها هكذا :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ واللَّهُ ( غفور رحيم ) ﴾ فقرأ ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بدلاً من ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨]، فصاح الأعرابى من بين الحضور : لايكون . فأعادها القارئ وقرأها صحيحة ﴿ واللَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال الأعرابى : يكون . ولما سأله القارئ كيف عرفت القراءة الصحيحة وأنت لاتحفظ القرآن ؟ قال الأعرابى : حين تقطع يد السارق جزاءً نكالاً نقول : إن ربنا عز فحكم ولا نقول : إنه عز وغفر ورحم !

إن كثيراً من الناس يظنُّ أنه لو بدل بختام آية من القرآن اسماً آخر من أسماء الله فإن ذلك لن يضير المعنى ولن يؤثر فيه ، والواقع أن هذا خطأ فادح ، فخواتيم الآيات هى عبارات فى غاية الدقة تتناسق تناسقاً عجيباً مع سياقها ، ولا يمكن أن يستبدل بها ما هو مثلها فى الجزالة ، وإنى مورد هذه الأمثلة من آيات الذكر الحكيم ؛ ليعلم المسلم أن هذا القرآن هو قمة الكمال فى البلاغة والإعجاز .

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَتَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَتَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١٥١]. ثم ختم الحقُّ جل وعلا هذه الآية بقوله : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١]؛ وذلك لأن الفطرة السليمة والعقل السليم يستنكران الشرك وقتل الأولاد وعقوق الوالدين وأنواع

الفواحش وقتل النفس ، ومن هنا كانت الخاتمة ﴿ **لَعَلَّكُم تعقلُونَ** ﴾ ، ثم تمضى الآيات الكريمة على هذا النحو ﴿ **وَلاَتَقْربُوا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بالَّتى هِيَ أحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ وأوفُوا الكَيلَ وَالمِيزَانَ بالقسط لاَنُكَلِّفُ نَفساً إلاَّ وُسعَهَا وَإذَا قُلتُم فَاعدلُوا ولَو كَانَ ذَا قُربَى وبِعَهدِ الله أوفُوا** ﴾[الأنعام : ١٥١]، ويختم الله جل وعلا هذه الآية بقوله : ﴿ **ذَلِكُم وَصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ** ﴾ ؛ وذلك لأن الفضائل المذكورة فى هذه الآية : وهى العفاف عن مال اليتيم ، وإيفاء الكيل ، وإقامة الميزان بالعدالة ، والتزام الحق والعدل فى كل كلمة يقولها الإنسان حتى ولو كان الحق على قريبه ، والوفاء بالعهد ؛ كل هذه الأشياء توقظ الضمير وتحييه ، وتسمو بالنفس فتجعلها لوامة لصاحبها كلما تبرّج له الحرام ، وتضيء العقل بأنوار الحقّ ، فتجعله ديدباناً يقظا، يذكّر صاحبه بالحساب كلما همّ أن يبتغى وراء الحلال ، ومن هنا ختم الآية بقوله : ﴿ **لَعَلَّكُم تذَكَّرُون** ﴾ ؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، وملتزم هذه الفضائل يعمق إيمانه ويزكو فتنفعه الذكرى كلما راودته النفس اللحوح .

ويمضى الحق جل وعلا فى آيات الوصايا التى عليها خاتم محمد ﷺ فيقول : ﴿ **وَأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبعُوهُ وَلاَ تَتَّبعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُم عَن سَبِيله** ﴾ [الأنعام : ١٥٣]، ويختم بقوله : ﴿ **ذَلِكُم وَصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ** ﴾ ؛ لأن تقوى الله ومخافة مقامه وخشيته فى السر والعلانية ، كل هذه هى الهدف الأسمى من العمل الصالح وهى أعظم ثمار التوحيد الخالص وأجلّ ما يهدى إلى ﴿ **صِرَاط الله الَّذى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرضِ ألاَ إلَى الله تَصِيرُ الأمُورُ** ﴾ [الشورى : ٥٣]. إن تقوى الله هى منزلة الإحسان ؛ لأنها تجعلك تعبد الله كأنك تراه ، وبالتقوى يتقبل الله الأعمال . يقول الله جلّ وعلا: ﴿ **إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وهذه المنزلة من منازل السلوك لا يحققها إلا من التزم طريق التوحيد الخالص. مهما تفرّقت من حوله

سبل الشرك والضلال . أسأل الله أن يؤتى نفوسنا تقواها ، لكى يتقبل عنها أعمالها ويضاعف لها حسناتها ، والله ولىٌّ المتقين .

إن ألفاظ القرآن الكريم موزونة بميزان الجوهر ، يروعك فيها الإيجاز البليغ والمعنى الكبير حتى كانَّ لكل لفظة من ألفاظه ظلالا وارفة مباركة يسبح الفكر فى روضها الأُنف ، فيعيش من شهدها متعة النفس والروح والفكر ، ومهما حاولت أن توجز الموجز من عبارات القرآن الكريم فلن تجد إلى ذلك سبيلا .

كان طلاب كلية الحقوق يتلقون من شيخهم الجليل درساً فى الفرائض ومنه قوله تعالى : ﴿ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾ [النساء : ١١] فوقف طالب يسأل الشيخ قائلاً : لقد علمتنا أنَ القرآن يصل إلى المعنى من أقرب الطرق وأبلغها ، وأن ألفاظه موزونة بميزان الجوهر ، فما يمكن أن يتزيد عليها متزيد ولا أن ينقص منها مختصر . قال له الشيخ : نعم وما زلنا نقول بهذا ونؤمن به . قال الطالب : ولكنْ ألا يمكن أن نختصر قول الله جل وعلا فى مطلع سورة النساء : ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾ فنجعله للأنثى نصف الذكر ، وبذلك نعبّر عن الفكرة بثلاثة ألفاظ بدلاً من أربعة !

فتضاحك الطلاب من أخيهم وتهامسوا : عبقرىٌّ يتحدى أسلوب القرآن ، فنهرهم الشيخ ـ رحمه الله ـ وقال لهم : إن أخاكم ينشُد الحقيقة ، ويبحث عن المعرفة ، والغوغائية تخدم الجهالة ، لأن كثيراً من الجهلة يسترون جهلهم بخلق جو من الفوضى والغوغائية ، ولما صمت الطلاب أقبل الشيخ على السائل فقال له : لاتنس أن العبارات القرآنية الواردة فى آيات الفرائض هى عبارات قانونية ، ولغة القانون لاينفع فيها الحذف والغموض ، وإنى سائلك : هل الأنثى لها نصف الذكر ـ بمعنى أن نقسم الذكر نفسه نصفين ثم نعطيها نصف الذكر ـ أم أن الأنثى لها نصف نصيب الذكر ؟ قال الطالب : بل لها نصف نصيب الذكر ، وشكر الشيخ ، وهم أن يجلس ، فقال له الشيخ : إن

الجواب لم يتم ، والعبارة تظل ناقصة ، حتى ولو قلنا للأنثى نصف نصيب الذكر ؛ لأن الأنثى لا تأخذ من الذكر نصف نصيبه إنما تأخذ من التركة ما يساوى نصف نصيب الذكر ، ولو قلنا فى لغة القانون للأنثى نصف نصيب الذكر ؛ لاقتضى ذلك أن نقسم نصيب الذكر نفسه نصفين ونعطيها أحدهما، وإذن فإن علينا أن نقول : للأنثى مثل نصف نصيب الذكر ، فنزيد كلمة على الأربع الكلمات الواردة فى الآية الكريمة ويخرج الأسلوب ركيكا تشوهه الإضافات المتتالية والألفاظ المتنافرة . إنك لو جلست عمرك كله تبحث عن بديل لآية فلن تجد أدق ولا أجمل وقعاً ، ولا أحلى جرْساً ، ولا أسمى أسلوباً من نص الكلمات القرآنية **﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾** ؛ لأنه لغة السَّماء وتنزيل الحكيم الحميد : **﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾** [الإسراء : ٨٨] صدق الله العظيم .

* * *

# القرآن الكريم والسنة المطهرة
# متلازمان متكاملان

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة متلازمان متكاملان ، فإذا تبحر المفسر فى السنة النبوية وفى السيرة النبوية ، سطعت أنوار التأويل نصب عينيه ، واهتدى بأنوار التنزيل بصره وبصيرته ولا عجب ، فلقد نزل القرآن الكريم منجّما يلابس ظروف الإنسانية وأحوالها ومشكلاتها ، فكان أول نزوله فى أول يوم من أيام البعثة ، وكان آخر ما نزل منه قبل وفاة النبى ﷺ بوقت قصير ، ومن هنا كانت حياة رسول ﷺ وسنة رسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير وعاءً منيراً لكتاب الله ، وبياناً مشرقاً لإشاراته ، وشرحاً وضاءً لإيجازه . ولعمر الحق إن من أراد أن يفرق بين القرآن والسنة المطهرة والسيرة العطرة إنما يمتثل لإيحاء شيطان يريد أن يقطع شجرة الإسلام ليحول بينها وبين جذورها الزكية وأصولها المغدقة المعطاء .

ومن هنا فقد اهتم الأئمة الأعلام ـ رحمهم الله ـ بمناسبات النزول وأسبابه، فألف الواحدى رحمه الله كتابه ( أسباب النزول ) ، وألف ابن سلامة ـ رحمه الله ـ كتابه ( الناسخ والمنسوخ ) ، وألف السيوطى ـ رحمه الله ـ كتابه (لباب النقول فى أسباب النزول ) واشتملت كتب السيرة النبوية على قدر عظيم من مناسبات النزول وأسبابه ، فساهمت فى تيسير التفسير وسطوع البيان ووضوح الغايات وجلاء التشريع .

ولنضرب لذلك مثلاً واحداً يوضح أثر السنة المطهرة والسيرة الشريفة فى إيضاح المقصود من الآية الكريمة : دعا النبى ﷺ أحد الصحابة الأجلاء، واسمه عبد الله بن جحش وقال له : «إنى مكلفك بأمر لا أخبرك به الآن ، ولكن خذ هذا الكتاب المقفل وسر فى طريق الطائف ولا تفتح الخطاب إلا بعد مسيرة

ليلتين فاقرأه ونفذ ما فيه » ، ومضى الصحابى - رضى الله عنه - على ما تعوده من السمع والطاعة ومعه ثمانية من الصحابة الكرام ، فلما سار ليلتين ، فتح الخطاب وإذا فيه : « انطلق إلى بطن نخلة بجوار الطائف وارصدوا قافلة لقريش تحمل من بضائع الطائف فأتونى بها » . واستشار عبد الله أصحابه فقالوا بالإجماع : نفذ أمر رسول الله ﷺ . وانطلقوا صوب نخلة ما عدا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ؛ فقد شرد بعيرهما الذى كانا يتعاقبانه فى السفر ، فانطلقا فى طلبه ، وسار الستة الباقون حتى إذا كانوا ببطن نخلة ، مرت قافلة لقريش فيها عمرو بن الحضرمى وثلاثة آخرون ، فهاجم المسلمون القافلة وهم يعتقدون أنهم ما زالوا فى شهر جمادى الثانية ، وقتلوا عمرو بن الحضرمى ، وأسروا رجلين ممن معه وفر الثالث ، وعادوا بالقافلة والأسيرين إلى المدينة ، وهناك اتضح لهم أن هجومهم على القافلة حصل فى أول شهر رجب ، ورجب شهر حرام كان العرب والمسلمون يحترمونه ويعظمونه ولا يقاتلون فيه ، فأمر النبى ﷺ عبد الله وصحبه ألا يدخلوا بالأسيرين والغنائم ، وهنا أسقط فى يد الصحابة المجاهدين ، وأسفوا أن تعبهم قد تحول إثماً بدلاً من أن يجنوا ثمرته ثواباً ورضاء من الله ورسوله .

واستغل المشركون الحادثة فقالوا : إن محمدا وأصحابه يهتكون حرمة الشهر الحرام ، ويقتلون فيه ويغنمون ، وشمت اليهود فطفقوا يشيعون الأراجيف، ويفسر أحبارهم الكلام طبق أهوائهم ، فقالوا : إن الذى قتل عمراً بن الحضرمى صحابى يقال له : واقد ، وهذا يعنى أن الحرب قد وقدت، والمقتول اسمه عمرو، وهذا يعنى أن الحرب قد عمرت ، وأبوه الحضرمى وهذا يعنى أن الحرب قد حضرت ، واشتد الأمر على الصحابة أهل السرية ، وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى بشهرين ؛ لأن بدراً وقعت فى رمضان ، وسرية عبد الله كانت فى أول رجب . فلما رأى النبى ﷺ شماتة اليهود ودعاية المشركين وسوء حال

المجاهدين قال لعبد الله : « أحضر الغنائم والأسيرين » وقبضهما رسول الله ﷺ ، ودفع الدعاية المضللة والشماتة الحاقدة ، حين تلا فى المؤمنين آيتين نزلتا تبرران موقف الصحابة المجاهدين ، وتعلنان فى سطوع هائل يدفع الباطل المضلل أن المشركين ينسون جرائمهم البشعة ، وأعمالهم الوحشية ، ويتشبثون بغلطة وقع فيها أصحاب رسول الله ﷺ .

يقرر القرآن الكريم حرمة الشهر الحرام وقداسته ، ويعلن أن القتال فيه أمر كبير عند الله لا يستهان به ، ولكن ماذا تساوى هذه الغلطة إزاء جرائم المشركين الذين صدوا المسلمين عن سبيل الله وعن الإيمان وعن المسجد الحرام وكفروا بدين الله وبحرمة المسجد الحرام وأخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم وعذبوهم ليفتنوهم عن دينهم ، وأعلنوا أنهم سوف يمضون فى قتال المسلمين حتى يردوهم عن دينهم ويطفئوا نور الله بأفواههم ؟!

وهنا قرر القرآن الكريم أن المؤمنين المجاهدين من أصحاب النبى ﷺ ما قاتلوا فى بطن نخلة إلا لأنهم يرجون بنصرة الإسلام رحمة الله ، وأن الله جلّ وعلا قد نوّلهم تلك الرحمة المنشودة رغم أراجيف المشركين ودعايات اليهود .

إن هذا الإطار من السيرة النبوية والسنة النبوية يجعل الآية الكريمة ساطعة البيان كأنها الشمس فى رابعة النهار . ولنستمع إلى الآية الكريمة بعد أن تجلت ظروفها ومناسبتها . يقول الله جل وعلا فى سورة البقرة :

**﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا**

وجاهدوا فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يرجُونَ رَحـمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٧ ـ ٢١٨].

أسأل الله أن يزيدنا بصيرة بكتابه وأن يكتبنا وإياكم فى أحبابه .

* * *

# حول الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم

من قديم حار الأدباء فيما تتحلى به ألفاظ القرآن الكريم من صفات وخصائص تطرب السمع وتقرع أوتار القلوب ، وقد بحثوا فى الأسرار التى وراء هذا السحر الحلال ، فذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، ثم رجعوا إلى السر الأعظم وراء هذا الإعجاز اللفظى ؛ وهو أنه كلام الله العظيم الذى أنزله معجزة لأشرف أنبيائه .

لقد كان فى اختيار الألفاظ وتأليفها ونظم دررها دروس لأهل الأدب وقفوا أولا إزاءها مبهوتين ، ثم لم يلبثوا أن أقبلوا على مناهلها العذاب ، فكان القرآن بحقٍّ منبع الأدب الرفيع ، والبيان المطرب وأستاذ الأدباء البلغاء إلى يومنا هذا .

حين أراد الله ـ جل وعلا ـ أن يثبت للنصارى بأن المسيح ابن مريم لم يكن سوى بشر فيه طبيعة البشر قال جل من قائل : ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** ﴾ [المائدة : ٧٥] واكتفى بهذا المستوى الرفيع من العبارة ، فلم يقل : إن المسيح وأمه كانا يتخلصان من فضلات الطعام كما يفعل البشر ، بل اكتفى بالإشارة الذكية ؛ إذ من البدهى أن كل من يأكل لابد أن يتخلص من فضلاته .

ولم تقع فى ألفاظ القرآن الكريم كلمة ( الجماع ) أبداً ؛ لأن لألفاظ القرآن مستوى رفيعاً لا يمكن أن تنحدر عن أفقه العالى ، وقد يقول قائل : إنه ذكر ما هو أصرح من ذلك فى آية سورة النور : ﴿ **وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ [النور : ٣٣] والجواب أن آيات التشريع يجب أن يذكر فيها لفظ الجريمة كالقتل والزنا لتحدد فى دقة لا يخالطها التواء ؛ إذ فى ذلك تحديد لما يترتب عليها من عقوبة .

ولقد جاء فى التعبير عن الجماع ألفاظ قرآنية فى غاية من ذوق الاختيار ، كقوله تعالى : ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [البقرة : ٢٢٣] ، وقوله جل من قائل ، ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وقوله جل وعلا : ﴿ أو لامستم النساء﴾ [النساء : ٤٣] وقوله : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ [البقرة : ٢٣٥] وقوله :﴿ فلما قضى زيد منها وطراً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] وقوله :﴿ فلما تغشاها ﴾ [الأعراف : ١٨٩] وقوله : ﴿ فالآن باشروهن ﴾ [البقرة : ١٨٧] ومن أجمل ذلك قوله تعالى : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ [يوسف : ٢٣] وبالمناسبة فإن فى هذه الآية ذوقاً لفظيا يبهر العقول . وتصور أنك استبدلت بألفاظ الآية ما يرادف معناها فقلت : ودعته امرأة العزيز إلى الزنا فكم يتحول الكلام السماوى عن مستواه السماوى؟!

وقد أورد الزركشى ـ رحمه الله ـ ألفاظاً من هذا القبيل كقوله تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ [الممتحنة : ١٢] والمقصد الزنا، وكقوله تعالى فى سورة ص : ﴿ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ﴾ [ص : ٢٣] ويعنى بالنعجة المرأة ، وكقوله عز وجل : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ [البقرة : ١٨٧] وكقوله تعالى : ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ [فصلت : ٢١] والمقصود: لفروجهم . وإن شئت موازنة بين ألفاظ القرآن وألفاظ البشر فاقرأ هاتين العبارتين : أولاهما من كلام الله ، والثانية مثل جاهلى ، وقيل : إنها من كلام على رضى الله عنه، وهو من هو فى البلاغة ونهجها .

أما مقالة البشر فهى قولهم : (القتل أنفى للقتل) ومعناه : إذا قتل القاتل انتفت من المجتمع جريمة القتل ، وأما مقالة الله فهى قوله تبارك وتعالى : ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وقد أورد الزركشى ـ رحمه الله ـ فى كتاب البرهان عشرين وجها لامتياز الآية على المثل، والحق أن الموازنة

نفسها فيها كلام ؛ إذ كيف يوازن كلام الله بكلام العباد ؟! القتل أنفى للقتل عبارة كلها قتل ، وفيها تكرار حرف القاف على ثقله ، وتكرار كلمة القتل على ما فيها من مدلول مزعج ، والعبارة مقصورة على جريمة القتل ، وأما الآية الكريمة ، فتشمل كل أنواع القصاص المترتب على الجرائم،وقد سلمت من ثقل الحروف، وفى كلمة ﴿حَيَاة﴾ روعة ساحرة حقاً ؛ إذ إنها تعنى حياة الأمن والسعادة والرخاء التى تسود المجتمع حين يحكم بشرع الله ويقتص من أى مجرم على حسب جرمه . ولو أنك وضعت المثل والآية بين يديك وكررت قولهم : ( القتل أنفى للقتل)لبدأ التنافر يكتنف لسانك من المرة الثالثة أو قبلها ، كذلك المثل الذى ضربه البلاغيون للألفاظ الثقيلة المتنافرة وهو قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

أما إن شئت أن تمتع وجدانك وسمعك ولسانك ، فانظر كيف تحلو الآية كلما كررتها ، وكيف يتلألأ معناها ويتألق كلما رددتها ! فسبحان من وسعت كلماته الأربع هذه فوائد تحكيم شرع الله ؛ إذ يقول فى كلامه المعجز : ﴿ **وَلَكُم فِي القِصَاصِ حَيَاة** ﴾ [البقرة : ١٧٩] و ﴿ **الحَمدُ لله الَّذِى أنزلَ عَلَى عَبدِهِ الكِتَابَ وَلَم يَجعَل لَهُ عِوَجَا** ﴾ [الكهف : ١] .

# لطائف حول المعجزة الخالدة

أخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أُعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » . وقد فسر الأئمة هذا الحديث الشريف أن معجزات الأنبياء قبل محمد كانت حسية تدرك بالحواس : كعصا موسى ، وناقة صالح ، وما كان يفعله عيسى من إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص وبث الروح فى الطين ، إذ كل هذه تدرك بالأبصار وينتهى أثرها بموت من أبصروها ، أما معجزة محمد ﷺ فتدرك بالبصائر المستنيرة والألباب المفكرة المتأملة ، والعقول المتجردة من الهوى ، وتلك أمور باقية فى الإنسان مهما تعاقبت الأجيال والأحقاب ، وهذا ما يجعل معجزة القرآن خالدة صالحة لكل عصر .

والحق أن المعجزات الحسية الخارقة هى أسرع فى جلب البشَر إلى الإيمان ، كما يشير الحديث الشريف فى عبارته : « ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر » ، ولكن المعجزة المستندة إلى العقول ، فلابد أن تجابهها من اليوم الأول العقول المقفلة والبصائر المطموسة ، ولابد أن يعاديها حلفاء الظلام الذين يكرهون النور ؛ إذ اللصوص عدوهم القمر وصديقهم الظلام ، وهذا ما حدث لرسول الله ﷺ حين تصدى لدعوته طواغيت الخرافة وسدنة الجهالة ، فكان الاستهزاء والإيذاء والتعذيب ، مما جعل محمداً ﷺ سيد أولى العزم من الرسل فى الصبر والشجاعة والثبات .

وقد اعترف المشركون أنفسهم أن القرآن الكريم معجزة باهرة ؛ ولهذا فقد كانوا يحشون آذانهم بالقطن خشية أن يسمعوه ، وكانوا إذا سمعوا القرآن لجؤوا إلى اللغو العالى والضوضاء الفوغائية والصيحات المعربدة ! يعتبرون هذه

الأساليب الهمجية نصراً لهم على الحق المنطقي المشرق الهادئ . يقول الله تعالى في سورة فصلت : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالغَوا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغلِبُونَ** ﴾ [فصلت : ٢٦] ولما لجأ المشركون إلى البذاء والسباب ، وطفقوا يصفون محمداً ﷺ بألفاظ ليس لها نصيب من الصحة فى سيرته ولا فى ماضيه : كالساحر والشاعر والكذاب والمجنون ، ولم يزد القرآن على أن دعاهم إلى أن يخلوا بأنفسهم ويعملوا الفكر المجرد والتفكير الهادئ ؛ ليستنتجوا بالعقول أن محمداً ﷺ ليس مجنونا وإنما هو نذير بين يدى عذاب شديد ، وأنهم إن لم يؤمنوا به فإن العذاب آتيهم وقد جاءهم فعلا فى دنياهم وآخرتهم . يقول الله عز وجل ﴿ **قُل إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَينَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ [سبأ : ٤٦] قال المفسرون : لقد دعاهم النبى ﷺ أن ينفرد كل منهم بفكره أو يتخذ من أصدقائه من يشاركه الجلسة والفكر ، ولم يدعهم إلى اجتماعات صاخبة ، إذ إن أمثال هذه الاجتماعات لا تخلو من الغوغائية والجدل الحامى، أما خلو المرء بنفسه أو جلوسه فى جلسة تفكير ومناقشة مع صديق ، فتلك ستوصله يقينا إلى استنباط الحقيقة ، والقرآن الكريم لا ينشد فى الناس أكثر من إدراك الحقائق ، وما التوحيد إلا حقيقة أزلية نادى بها الحكماء والعقلاء ، وأدركتها العقول السليمة والفطرة النقية .

ولقد حاول المشركون بادئ الأمر أن ينقصوا من أثر القرآن وإعجازه ، فزعم بعضهم أن القرآن ما هو إلا مجموعة أساطير ، وأنهم لو أرادوا لجاؤوا بمثله ، قال الله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿ **وَإِذَا تُتلَى عَلَيهِم آيَاتُنَا قَالُوا قَد سَمِعنَا لَو نَشَاءُ لَقُلنَا مِثلَ هَذَا إِن هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الأنفال : ٣١] ولكن القرآن الكريم تحداهم ، تحدى المعجز القاهر، تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة ، ثم دمغهم بالعجز ، وقرر المعجزة العظمى بقوله تعالى : ﴿ **قُل**

**لَئِنِ اجتَمَعَت الإنسُ وَالجنُ عَلَى أن يَأتُوا بمثلِ هَذَا القُرآنِ لاَ يَأتُونَ بمثله وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً ﴾** [الاسراء : ٨٨] وتروى كتب التاريخ أن بعض الفصحاء وبعض المتنبئين قاموا بمحاولات لمعارضة القرآن الكريم ، فجاءت محاولاتهم مضحكة لا تقاس بأى حال أو مقطع من كتاب الله . فظلت معجزة محمد ﷺ شامخة إلى الآن ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها معلنة أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه للذين آمنوا هدى وشفاء ، وأنه آيات محكمات فى صدور العلماء ، فتبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً .

اللهم اجعل القرآن لنا مؤنسا وشفيعاً وهاديا إلى سعادة الدنيا والآخرة .

# القرآن الكريم لا تبلى جدته
# ولا تفنى عجائبه

كلُّ كتاب قديم تعرَّض للنظريات العلمية فى الطب والفلك والفيزياء ، ولم يلبث مع الزمن أن نقضت نظرياته ، أو معظمها ، ولربما أصبح الكثير من نظرياته أباطيل وخرافات . والنظريات التى افترضها كثيرمن العلماء القدامى حول شكل الأرض والأفلاك والنجوم وظلمات البحار ، أصبح الكثير منها حديث خرافة ؛ خصوصاً بعد أن طويت المسافات وكشف الإنسان بمخترعاته كثيراً من ملكوت السموات والأرض .

لكنَّ القرآن الكريم ـ على كثرة ما تعرض له من القضايا العلمية والحقائق الكونية ـ لم تغير الأيام حقيقة مما قرره ، ولا فكرة مما أثبته ، وها هى بعد أربعة عشر قرنا لا تزال وضَّاءةً متلالئة ثابتة تكشف الأيام كل يوم عن صدقها ورسوخها وثباتها ، ولولا أن القرآن من عند الله لبليت مع الزمن أفكاره واختلفت مع الواقع نظرياته ، لكن ذلك أو شيئاً منه لم يحدث ، وصدق الله عز وجل إذ يقول فى محكم تنزيله فى سورة النساء : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

لقد ذكر القرآن الشمس والقمر فى عدة مواضع ، فذكر الشمس على أنها مصدر للحرارة والضوء ، وذكر القمر أنه نور من الشمس ينعكس على السطح . يذكر القرآن الشمس أنها سراج متوهج بالحرارة ، أما القمر فنوره ناجم عن انعكاس ضوء الشمس على سطح القمر ، فمن أين عرف محمد النبى الأمى هذه الحقائق عن هاتين الآيتين ، وأعنى ـ الشمس والقمر ـ ؟! لاشك أن علم محمد إنما هو وحى يوحى يتلقاه من شديد القوى ذى المرة الأمين على وحى

السماء ، ومن ثم لايمكن أن تبلى جدته ، ولا أن تفنى عجائبه ، ولا أن تنقص الأيام حرفاً من حروفه : يقول الله تعالى فى سورة يونس : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [يونس : ٥] ، وفى سورة نوح يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً** ﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]، ويذكر الله فى سورة (عمَّ) نعمة الشمس على عباده فيقول : ﴿ **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً** ﴾ [النبأ : ١٢ ـ ١٣] وقد أصبح اليوم مؤكداً بالمشاهدة أن الشمس جسم كروى هائل وهاج ملتهب بحرارة لايتصورها العقل ، بينما القمر جرم سماوى تشبه طبيعة سطحه طبيعة الأرض ، وهو غير مضىء بذاته ؛ ولكنه يستمد ضوءه ونوره من الشمس.

وتوضح الآية حقيقة يمر عليها علماء الفلك وهم عنها معرضون . يقول علماء الفلك إن عوامل مختلفة فصلت عن الشمس كتلاً هائلة اتخذت لها مدارات حول الشمس وهى الكواكب التى تكوّن النظام الشمسى ، وأن القمر انفصل عن الأرض أول تكوينها نظراً لدورانها السريع مع ميوعة سطحها ؛ لكن القرآن الكريم يضع النقط على الحروف ، فهو يعلن أن الشمس والقمر والكواكب والنجوم مسخرة للإنسان ، ولم تكن مصادفة أن وضع الله الشمس فى مكانها والقمر فى مكانه ، فالشمس قد وضعها الرب جل وعلا على بعد معين من الأرض ؛ بحيث لو كانت المسافة أقصر لاحترق أهل الأرض ، ولو كانت أطول لجمد الأحياء على الأرض ، ثم ألهم الله القمر أن يدور حول الأرض فى سرعة معينة تكوّن الأشهر القمرية ، وجعل للقمر منازل تحدد الأشهر، ذلك تقدير العزيز العليم . لقد توهم بعض العلماء أن الشمس ثابتة

تدور حولها الأرض إلى أن ثبت للعلماء أن الشمس تجرى فى مدار هائل لايحيط البصر بمداه ، حتى ليخيل للناظر فى التلسكوب أن الشمس تجرى متجهة فى اتجاه مستقيم إلى مستقر لاتحيط العقول بمداه ، وبهذا يثبت العلماء أنفسهم أن القرآن حقائق إلهية ثابتة لاتنال الأيام من ثبوتها وجدتها وعلميتها. يقول الله تعالى فى سورة يس : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[ يس : ٣٨ ـ ٤٠] ، ويوضح الله حكمة خلق الشمس والقمر فيبين أنهما خلقا : ليعرف الإنسان بهما حساب الأيام والشهور والأعوام، وليسعى الإنسان فى نور النهار ، ويسبت ويهدأ فى ظلام الليل : ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ أى لتطلبوا الرزق فى النهار ﴿ **وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ﴾ [الإسراء : ١٢] . إن بعد الشمس عن الأرض إنما هو بقدر وتقدير حكيم ، وبعد القمر عن الشمس وعن الأرض إنما هو بتقدير حكيم ، فكل شيء خلقه الله بقدر ، يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ** ـ وهى قوله كن ـ **كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ [القمر ٤٩ ـ ٥٠] .

لقد أعلن القرآن الكريم كرامة الإنسان ، فقد سخر الله كل ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً للإنسان ، وسوف تتضح هذه الحقيقة على مرّ الزمن، ولسوف يثبت لراصدى النجوم أن كل نجم إنما حدد له موقعه ومساره ليكون فى خدمة الإنسان .

اللهم ذكرنا من القرآن ما نسينا ، وعلمنا منه ما جهلنا ، وارزقنا تلاوته والعمل به آناء الليل وأطراف النهار .

# ليس فى القرآن حرف زائد

إذا رأيت فى القرآن الكريم آيتين متشابهتين ، ووجدتَ فى إحداهما حرفاً أو كلمة زائدة عن حروف الأخرى أو كلماتها ، فاعلم أن هنالك فارقاً فى المعنى تطلّب هذا الحرف أو تلك الكلمة ، ولنضرب هذين المثلين لتوضيح هذه القاعدة: يقول الله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيناه حكماً وَعلماً وَكَذَلِكَ نَجزِى المُحسنين** ﴾ [ يوسف : ٢٢] ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة القَصص عن موسى عليه السلام : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستَوَى آتَيناهُ حُكماً وَعلماً وَكَذَلِكَ نَجزِى المُحسنين** ﴾ [القصص: ١٤] ، ونلاحظ : أن الآية الأولى التى تذكر يوسف عليه السلام خلت من كلمة ﴿ **واستَوَى** ﴾ ، فى حين أن الآية الثانية التى تذكر موسى عليه السلام فيها كلمة : ﴿ **واستَوَى** ﴾ وهذا الأمر لم يأت مصادفة ، فكل كلمة فى كتاب الله لها إشارتها المعنوية وموقعها الضرورى . إن كلمة ﴿**استَوَى**﴾ معناها بلغ من القوة الحد الذى ليس عليه مزيد وهو الأربعون ، والذى يبدو أن يوسف عليه السلام آتاه الله الحكم والنبوة قبل استوائه فى الأربعين ، أما موسى عليه السلام فلم يؤتَ الحكم والنبوة إلا بعد أن استوى أى بلغ الأربعين ، وقد تسمع من النحويين قولهم : إن هذا الحرف زائد ، مثل ما بعد إذا كقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُم يَغفِرُونَ** ﴾ [الشورى : ٣٧] فيقولون ما زائدة . وهذا خطأ ؛ لأنه لا يوجد فى القرآن حرف زائد ، بل كل حرف له وزنه وتقديره ومعناه والحروف التى يسميها النحويون زائدة ، هى زائدة عندهم فى الإعراب ، أما فى النظم المعنوى والبلاغى فهى ليست زائدة . وإنى مورد هنا بعض ما أورده أشياخنا ـ رحمهم الله ـ من حروف وصفت بأنها زائدة مع أنها ذات أثر معنوى بليغ ، يقول الله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُم إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾

[يوسف : ٩٤] ويقول جل وعلا فى السورة ذاتها : ﴿ فَلَمَّا أن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ [يوسف : ٩٦] يقول النحويون : ( أنْ بعد لمَّا زائدة ) ، مع أن (أن) إذا جاءت بعد لما فإنها تؤكد وتضيف إشارة معنوية جديدة :

إن ورود الحرف أن بعد لما يفيد الإبطاء ، أما إذا لم يجئ هذا الحرف بعد لما فيفهم أن الفصل وقع على الفور . فقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير ﴾ يفيد أن الفصل : أى مفارقة البلد وقع على الفور ؛ لأن أهل القافلة يكونون على شوق للعودة فيفصلون فى سرعة، أما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أن جَاءَ الْبَشِير﴾ فيفيد أن وصول البشير من مصر أخذ وقتاً طويلاً ، ومثل ذلك قول الله جل وعلا يذكر موسى فى سورة القصص : ﴿ فَلَمَّا أن أَرَادَ أن يَبطِشَ بالَّذى هُوَ عَدُوٌ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أن تَقتُلَنِى كَمَا قَتَلتَ نَفساً بالأمسِ إن تُرِيدُ إلاَّ أن تكُونَ جَبَّاراً فِى الأرضِ وَمَا تُرِيدُ أن تكُونَ مِنَ الْمصلحِينَ ﴾ [ القصص : ١٩] إن وجود أن بعد لما ، أفاد بأن موسى عليه السلام كان متردداً فى البطش وأنه أقبل وهو يفكر خصوصاً وأنه قد وكز رجلاً قبل يومين فقضى عليه ، ولهذا استمع إلى الرجل وهو يقول له أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، ولو كان موسى مستعجلاً لقتل الرجل قبل أن يكمل مقاله ، أما قوله تعالى عن موسى أيضاً : ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أن يَهدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص : ٢٢] ، فالتوجه قد حصل على الفور؛ لأن موسى عليه السلام خرج خائفاً مسرعا بعد أن تطوع رجل فقال له : ﴿ يَامُوسَى إنَّ المَلأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقتُلُوكَ فَاخرُج إنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] .

ومثل ذلك الحرف (ما) حين يسبقه (الباء) حرف الجر يقول النحويون

عندئذ : ما زائدة، كما في قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وَجَعَلنَا قُلُوبَهُم قَاسِية** ﴾ [المائدة : ١٣] ، وكقوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **فَبِمَا رَحمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] يقول النحويون: إن (ما) فى الآيتين زائدة ، بدليل أنك إذا قلت : فبنقضهم ميثاقهم لعناهم ، وإذا قلت فبرحمة من الله لنت لهم، ظل المعنى معقولاً ، والحق أن (ما) هذه التى وصفوها أنها زائدة تفيد التوكيد وتهويل شأن ما بعدها أو تعظيمه ، بينما إذا وردت (الباء) غير متبوعة بـ (ما) لم يكن لما وراءها تهويل ولا تعظيم، وإذن فقول الله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وَجَعَلنَا قُلُوبَهُم قَاسِية** ﴾ [المائدة : ١٣] فيه توكيد للنقض وتهويل لفظاعته . وقوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم**﴾ [آل عمران : ١٥٩] فيه توكيد للرحمة التى غمرت محمداً ﷺ . كما أن فيه تعظيما لشأن تلك الرحمة التى هدت محمداً ﷺ إلى اللين بالأمة والرفق فى معاملتها ، فكان من ثمار ذلك أن التفت حول النبى الكريم وأحبته وآمنت به ، ولولا ذلك لانفضت عنه . إن قول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ **فَبِظُلمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمنَا عَلَيهِم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُم** ﴾ [النساء : ١٦٠] ليس فيه توكيد مثل قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم** ﴾ [المائدة : ١٣] لأن ظلمهم لأنفسهم فى الآية الأولى كان على هيئة معاصٍ وجدلٍ وأسئلة متنطعة وبتلك الأمور حرمهم الله من طيبات أحلت لهم ، أما قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم** ﴾ ففيه تأكيد لنقض الميثاق ، كما أن فيه تهويلاً لفظاعة تلك الجريمة .

وهنالك حرف فى القرآن الكريم يأتى فى أوائل بعض الآيات والسور يقول عنه النحويون إنه زائد وهو ، فى الحقيقة ، ذو دلالة ، ذلك الحرف هو (لا) التى تأتى قبل القسم كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **لاَ أُقسِمُ بِهَذَا البَلَد** ﴾ [البلد : ١] وكقوله ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ [القيامة : ١] وكقوله : ﴿ **فَلاَ أُقسِمُ**

**بمواقع النجوم** ﴾ [الواقعة : ٧٥]، وكقوله ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون** ﴾ [الحاقة : ٣٨ ، ٣٩] و ﴿**فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون** ﴾ [المعارج : ٤٠] ، وكقوله : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] وقوله : ﴿ **فلا أقسم بالشفق** ﴾ [الانشقاق : ١٦] وقوله : ﴿**فلا أقسم بالخنس** ﴾ [التكوير : ١٥] يقول النحويون إن لا التى تسبق القسم هى مجرد صلة ، أى زائدة ، والحق أنها ليست زائدة ،وإنما هى نافية نفياً بليغاً للقسم ، وهو نفى يفيد إثبات القسم مع إضافة بلاغية يدركها اللبيب . إنك إذا قلت لصديقك : لا أريد أن أقسم لك بالله إنى ما نسيت عهدكم . فإن هذه العبارة أغنت عن القسم ؛ لأنها أفادت ما يؤكد القسم ، وزادت على ذلك بأنه لا داعى للقسم ؛ لأن المقسم موثوق بصدقة وموثوق أيضاً بخبره . والخلاصة أنه ليس فى كتاب الله حرف زائد . اللهم زدنا بكل حرف من كتابك خيراً وبركة وإيماناً وتسليماً .

# حول البلاغة المعجزة فى روعة الاستهلال وجلال الختام

براعة الاستهلال فنٌّ من الفنون البديعية ومعناه : أن تكون بداية الكلام رائعة بليغة جذابة مؤثرة تروع السامع وتجتذبه من أول لحظة ، وتعطيه انطباعاً من الإعجاب يشده إلى المتكلم مهما طال العمل الأدبى .

أما حُسْن الختام : فهو فنٌّ بديعى آخر ، ومعناه : أن يكون آخر مقطع من الكلام فخماً جزلاً عظيم الوقع فى السمع والقلب معاً ؛ بحيث إذا توقف المتكلم ترك فى أوتار القلوب هزّة طويلة التأثير بديعة الإيقاع ، وكلا هذين الفنين من فنون البلاغة لازمان للأديب ؛ لأن أى عمل أدبى إذا بدأ بداية ضعيفة متهالكة ، فلربما صرف السامعين عن استماع البقية ، لأن الانطباع الأول مهم فى اجتذاب الجمهور ، كما أن أى عمل أدبى إذا كانت خاتمته ضعيفة، فلربما أنست المستمعين ما وقع فى وسط الموضوع من إبداع ، وتركت الجمهور وقد انطفأت فى مشاعره جذوة الحماسة .

وقد جاء فى كتب البلاغة نماذج رائعة من براعة الاستهلال فى الشعر والنثر كقول لبيد فى مطلع قصيدة فى الرثاء :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وكقول الشاعر فى مطلع مرثيته :

أيتها النفس أجملى جزعا ... إن الذى تحذرين قد وقعا

ومن أجمل ما قرأته من أمثلة حُسْن الختام ، قول شوقى ـ رحمه الله ـ فى ختام قصيدته نهج البردة :

يا رب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل واكتب حسن مختتم

لقد قدمت بهذه المقدمة البلاغية البديعية ، لأخلص إلى الإعجاز الإلهى العظيم الذى يتجلى فى استهلال سور القرآن الكريم ، وفى خواتيمها الكريمة ، وسوف نتناول فى هذه الحلقة ، وفى حلقات قادمة إن شاء الله نماذج من فواتح سور القرآن ومن خواتيمها لنعيش مع السحر الحلال ، والبلاغة المعجزة فى روعة استهلالها ، وجلال ختامها .

افتتح الله تبارك وتعالى سورة البقرة بقوله : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١ ـ ٢] أما الحروف الثلاثة فهى : أكثر الحروف العربية شيوعاً فى اللغة العربية ، وكأن الحق جل وعلا يقول لمن تقولوا فى القرآن الأقاويل ، حين عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله : إن هذا القرآن حروف عربية ، ومعظم حروفه هى من الحروف الشائعة التى تنطقونها ، فلماذا أعجزكم؟! وقد لاحظ المهتمون بالنظر فى القرآن : أن افتتاح سورة البقرة يتعلق بالمؤمنين ، وأن ختامها أيضاً يتعلق بالمؤمنين ، وهذا من التناسق العجيب الذى لوحظ فى كثير من سور القرآن . إن افتتاح سورة البقرة لخص الإيمان كما يتمثل فى صفات المؤمنين ، وكان لإيجاز ذلك الافتتاح ، وشدة سطوعه ووضوحه وقع جميل فى النفوس تلين به القلوب إلى ذكر لله ،وتستبشر به النفوس برضوان الله ؛ لأن ترى كيف يكون الإيمان وكيف يكون ثوابه ، يكون الإيمان بتقوى الله ، وبالإيمان بكل ما أخبر من الغيب ، كما يكون بأداء أركان الإسلام ، بالإيمان العميق بكل رسول أرسله الله ، وبكل كتاب أنزله الله، أما جزاء المؤمنين فقد أوجزه الحق جلّ وعلا فى آية قصيره : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٥] وأى فضل يتطلع إليه العاقل أعظم من أن يؤيده بهداية إلهية من عنده ، ويكتب لهم الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وما أجمل قول الله : ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ إنه هدى ربانى

يعصمهم من أن يهوى بهم الهوى فى مزالق الضلال ، وكنتيجة لهذه الهداية اللدنّية ، يكون لهم الفلاح وخير الدارين .

ومن الملاحظات التى تلفت النظر فى مستهل السورة : الإشارة إلى القرآن باسم الإشارة ذلك ، وهو يستعمل للبعيد ، وكأنه وصف للقرآن أنه وإن كان بين أيديكم إلا أن آفاق عظمته بعيدة . ثم إنه لم يصرح هنا بلفظ القرآن بل قال: ﴿ **ذَلِكَ الكِتَاب** ﴾ كأنه لا كتاب غيره ، وكل ما عداه من الكتب ليس شيئاً إذا قيس إليه ، كما تقول فى وصف رجل عظيم : ذلك هو الرجل وكأنك تحصر الرجولة فيه .

أما خاتمة سورة البقرة فلها قصة طريفة خلاصتها : أن المؤمنين حين نزل إليهم قوله تعالى : ﴿ **لله مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرضِ وَإن تُبدُوا مَا فِى أنفُسِكُم أو تُخفُوهُ يُحَاسِبكُم به الله** ﴾ [البقرة : ٢٨٤] كبر عليهم هذا القول، وفزعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونَه : أو يحاسبنا ربنا بما نخفيه فى نفوسنا ؟ وهل يعاقبنا بما نحدث به أنفسنا؟ إن كان الأمر كذلك فهو الهلاك لا محالة . وعندئذ قال لهم رسول لله ما معناه : ( إن الصدق مع الله والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والدُّعاء الصادق الصادر من القلوب المخلصة كل هذه تجلب رحمة الله وترفع بإذن الله عن المؤمنين إصرهم وما يثقل عليهم ) ، فتوجّه المسلمون إلى الله بما أمرهم به رسوله وبالدعاء العظيم الذى أنزله فى محكم كتابه ، فكان أن طمأنهم رسول الله ﷺ : أن الله جل وعلا لا يعذب الناس يوم القيامة بما تحدثهم به أنفسهم رأفة منه جل وعلا بعباده .ولروعة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ، فقد ورد فى فضلهما أحاديث تدل على عظمة معدنهما ، فأنعم بهما من ختام لهذه السورة العظيمة ، يقول رسول الله ﷺ : « أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن أحد قبلى » ، وفى حديث ابن عباس أن النبى ﷺ لما دعا بالدعوات التى فى آخر سورة البقرة

قال له الله تعالى عند كل كلمة : « قد فعلت » ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦].

# حول بيان خطر اليهود وهتك أستارهم

كان اليهود فى مطلع القرن الحالى يبدون للناس وكأنهم ضعفاء مسالمون يجرون وراء لقمة عيشهم ، مهاجرين وراءها فى جميع أصقاع الأرض . وقلما ظهر لهم نشاط ، أو أثر فى المجتمعات ، مما خدع العرب عن حقيقتهم ، فأكرموهم ، وأحسنوا إليهم ، وتعاملوا معهم فى التجارة والنشاط الاقتصادى.

وكان تلاميذى يسألوننى : لماذا يخصص الله جل وعلا قدرا كبيرا من القرآن الكريم لهؤلاء الأذلة ، ويخاطبهم مذكراً إياهم بنعمته عليهم ، وتفضيله إياهم بالنبوة ؟ ولماذا يحذر الدنيا من خطرهم ، مع أنهم أذل وأقل وأهون من أن يستحقوا كل هذا الاهتمام ؟ .

ودارت الأيام وإذا هم فى أواخر الأربعينيات الميلادية يقيمون دولتهم ، وفى الخمسينيات يملؤونها سلاحاً مدّمرا ، وفى الستينيات يفاجئون العرب الغافلين ، فيحتلون بقية فلسطين ، وجزءاً من الأراضى العربية المجاورة ، حتى إذا جاءت السبعينيات إذا هم يتحكمون فى سياسة الدول الكبرى ، ويفرضون ويملون ما يشاؤون على الكتلتين الشرقية والغربية ، بوسائل شيطانية قذرة . فلما تم لهم ذلك التحكم العالمى ، كشفوا فى الثمانينيات أقنعتهم ، فإذا هم عصابة من مجرمى الأرض همها سفك الدماء ، وروحها وريحانها دموع الثكالى ، وشريعتها ذبح الأطفال والشباب على مرأى من ذويهم ! هنا لك اتضح للناس أن القرآن الكريم هو نبع العلم والحكمة ، ولو أن العرب فهموه حق فهمه ، وفقهوا جلائل حكمه لما استناموا ، ولظلوا لحبائل اليهود بالمرصاد ، ولما سمحوا أن يمد الأخطبوط جذوره القاتلة فى قلب الأمة الإسلامية .

لو درس العرب قرآنهم كما يجب أن يدرس لوجدوا أنه قد فضح من أسرار

اليهود كل ما ستروه ، وهتك من دسائسهم كل ما بيتوه ، لكنّ العرب ظلوا فى غفلتهم حتى زلت بهم القدم ، فندموا حين لاينفع الندم .

كان العرب فى مطلع القرن الحالى يعتقدون أن شراذم اليهود المشتتة هى أحقر شأناً وأهون على الله من أن تنهض لملايين العرب والمسلمين ، ولو فطنوا لكلام الله لما تركوا حبائل الشر تلتف حول أعناقهم ، وهم غافلون ، ولما سمحوا لأرباب المال من اليهود أن يستولوا على أكثر من ثمانين فى المائة من مجموع المال فى الدول العربية .

هذه المقدمة أوردها لأخلص منها إلى أن القرآن الكريم قد أنذر المؤمنين خطورة اليهود ، ولم يترك من أستار اليهود ستراً إلا هتكه ، مع أن اليهود اشتهروا أنهم كاللصوص لا يدبرون خططهم إلا فى الظلام ، حتى لقد عرفوا من بين سائر الشعوب بالجمعيات السرية المجرمة ، ومازالوا على تلك العادات اللئيمة، حتى لقد ثبت فى هذه الأيام أن معظم عصابات الإجرام التى تسمى المافيا من ورائها التخطيط اليهودى ، واللؤم اليهودى ، وأنه ما من مشكلة بين الأمم أو فتنة فى داخل المجتمعات إلا من ورائها اليهود الذين كتبوا فى سجلات حكمائهم أن إثارة الفتن هى من أعظم الوسائل التى تحقق أهدافهم اللئيمة .

والآن لابد أن نستعرض بعض الحقائق التى سجلها القرآن الكريم عن نفسيات اليهود وأخلاقهم وأهدافهم اللئيمة :

**أولاً** : يقرر القرآن الكريم أن اليهود هم الشياطين الذين يقفون من وراء المنافقين والعملاء والكفار ويوحون إليهم دروساً فى عداء الإسلام ومحاربة أهله، يقول الله تعالى فى سورة البقرة يصف المنافقين : ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٤] وشياطين المنافقين هم اليهود . ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى**

**الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْـوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْـلِ الْـكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُم**﴾[الحشر : ١١] وإخوان المنافقين في هذه الآية هم يهود المدينة .

**ثانيا** : واليهود كما يعريهم القرآن : يفضلون أي عقيدة من عقائد الكفر أو الشرك على دين الإسلام مع أن دين الإسلام شريعة سماوية ، بينما الوثنية هي من الخرافات ! يقول الله تعالى في سورة النساء :

﴿ **أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾ [النساء:٥١] ، والذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود الذين ذهبوا إلى مكة يحرضون المشركين على قتال المسلمين ، فقال لهم المشركون حتى تجيبونا : (هل دين محمد أهدى من ديننا أم ديننا أهدى من دين محمد؟ ) قال اليهود : بل دينكم أهدى من دين محمد ، وبذلك خانوا أمانة العلم التي أودعهم الله إياها ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

**ثالثاً** : ويصف القرآن الكريم اليهود بأنهم قتلة الأنبياء بغير حق وأنهم سافكو دماء ، يقتلون الأبرياء ، ويصادرون ديارهم . يقول الله تعالى مخاطبا اليهود : ﴿ **ثُمَّ أَنتُم هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُم وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِم تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [البقرة : ٨٥] ويقول جلّ من قائل : ﴿**وَضُرِبَت عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ٦١] .

**رابعاً** : ويفضح اليهود فيقرر أنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين ، وهذه العداوة ناجمة عن حسدهم لأمة محمد التى اختصها الله بخاتم الأنبياء ، بعد أن كانت النبوة ميراثا لليهود من لدن إسحاق إلى عيسى عليهما السلام . إن اليهود يقرون بأن الله ما نقل النبوة من بنى إسرائيل ، إلا بعد أن طفح كيل ذنوبهم ، وخانوا رسل ربهم ، وسلكوا طرق الشياطين . يقول الله جل وعلا : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [المائدة : ٨٢] .

**خامساً** : واليهود كما يصورهم القرآن الكريم : هم أحرص الناس على إفساد المسلمين ، وإغرائهم بترك دين الإسلام ، والتحول إلى الكفر والفساد. وقد حدث فى أعقاب غزوة أحد أن نشط اليهود فى تثبيط عزائم المسلمين ، وتشكيكهم فى دينهم ، وشكلوا مجموعةً من شياطينهم بقيادة فنحاص بن عازوراء ، ويزيد بن قيس ، وقد قابلوا فى إحدى جولاتهم التخريبية ، عمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنهما ـ وقالوا لهما : لقد رأيتما ما حلّ بكما وبقومكما من هزيمة ، وسيأتيكما غيرها فارجعا إلى ما كنتما عليه ، وإن شئتما فإلى دين اليهود؛ لكن الصحابيين الجليلين أسمعاهم ما ساءهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ .

ترى لو أن المسلمين فى مطلع هذا القرن استيقظوا على صوت قرآنهم ، وتفهموا أوصاف اليهود وأهدافهم كما كشفها القرآن ، أكان يحدث للمسلمين كلُّ هذا البلاء ؟ .

اللهم زدنا بالقرآن بصيرة ، واجعله قدوة أخلاقنا فى الدنيا ، وشافعاً لنا فى الآخرة .

# حول تحريم الخمر

الخمر أم الخبائث ، وأم الجريمة ، والخمر بعد ذلك مسقطة للمروءة، مهلكة للنخوة والكرامة والشرف ؛ لأن الإنسان إذا سكر أضاع عقله، والإنسان بلا عقل لا مروءة له ولا نخوة ، ولا كرامة له ولا شرف، والحق أن كل مرض يصيب الإنسان يهون إزاء إصابته في عقله ؛ إذ لا يكاد الإنسان يمرض في عقله حتى يصبح كلاً على المجتمع ينبذه ويخاف منه كل من رآه .

إن أقل ما يوصف به مدمن الخمر ، ومتعاطى الحبوب ، وصاحب المخدرات، أنهم كفروا بأعظم نعم الله ، وهى نعمة العقل ، وأطفؤوا المصباح الهادى الذى استأمنهم ربهم عليه ، فذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

لقد قدمت بهذه الكلمات لأمهد لقصة تحريم الخمر كما أوردها المفسرون والعالمون بأسباب النزول . كان ترتيب الآيات التى انتهت بتحريم الخمر على النحو الآتى :

قال الله تعالى فى سورة النحل : ﴿ **وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأعنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَرًا وَرِزقًا حَسَنًا** ﴾ [النحل : ٦٧] ، وقال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿**يَسأَلُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسِرِ قُل فِيهِمَا إِثمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثمُهُمَا أَكبَرُ مِن نَّفعِهِمَا**﴾ [البقرة : ٢١٩] ، وقال الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُم سُكَارَى حَتَّى تَعلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ [النساء: ٤٣]، وقال الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزلاَمُ رِجسٌ مِّن عَمَلِ الشَّيطَانِ فَاجتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغضَاءَ فِي الخَمرِ وَالمَيسِرِ وَيَصُدَّكُم عَن ذِكرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَل أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [المائدة : ٩٠ _ ٩١] .

لقد طلع الإسلام على العرب والخمر حياتهم ، وصبوحهم وغبوقهم ، بها يفتخرون وبشربها يتمدحون ، حتى إن طرفة بن العبد ليعلن فى معلقته أنه لا يبالى بهذه الحياة لولا ثلاث ملذات : الخمر والنساء والأسفار . وافتخر حسان ابن ثابت بالخمر حتى بعيد معركة بدر ، فقال رضى الله عنه :

كأن خبيئة من بيتٍ راسٍ يكون مزاجها عسل وماء
نعاقرها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

ولهذا أخذ الإسلام العرب بالتربية التدريجية فى تحريمه للخمر ، ولما نزل قول الله تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] ، لقد فهم البلغاء من الصحابة من هذه الآية ، أن بين السكر والرزق الحسن طباقاً ، أو تضاداً وأن السكر بهذا المفهوم ليس من الرزق الحسن ؛ لكن المسلمين استمروا يشربونها رغم ما كانت تجرُّه عليهم من مشكلات ، وقد كثرت الأسئلة حول الخمر والميسر ، فنزل قول الله تعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، ورأى المسلمون فى هذه الآية إشارة إلهية بأن الخمر تجر من الإثم وغضب الله على صاحبها أكثر مما تفيد الفقراء من الميسر الذى كان عند العرب قرينا للخمر ، ومع ذلك ظل بعض المسلمين يشربونها ، وكان ممن استمر يشربها عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ وحمزة بن عبد المطلب، وأبو أيوب الأنصارى ،وغيرهم ، وفى ذات يوم صنع عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ طعاماً ودعا الناس إلى بيته فأكلوا وسقاهم وشرب معهم ثم قام ليصلى بهم فقرأ سورة الكافرون ، لكنه لم يقمها وتداخلت لديه ألفاظها فقال: قل ياأيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، وعندئذ نزل القرآن ينهى المسلمين أن يصلوا وهم سكارى ، قال الله تعالى فى سورة النساء :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُم سُكَارَى حَتَى تَعلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] هنالك هجرها الكثيرون ؛ لأن أوقات الصلاة متقاربة ولم يعودوا يشربونها إلا فى الضحى ، وفى الليل ، لكن ـ عمر رضى الله عنه ـ كان دواماً يسأل ربه أن ينزل فى الخمر قولاً شافياً قاطعاً .

ثم كان أن حدثت الحادثة الآتية التى أوردها البخارى ـ رحمه الله ـ مروية عن على ـ رضى الله عنه ـ وخلاصتها : أن عليا ـ رضى الله عنه ـ حصل على شارفين والشارف هى الناقة المسنة إحداهما من غنائم بدر ، والثانية منحها له رسول الله ﷺ من الخمس ، فأعدهما لوليمة زواجه من فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وكان يهتم بهما اهتماماً عظيماً ، إذ كان لا يملك غيرهما للوليمة ، وفى يوم جلس حمزة ـ رضى الله عنه ـ مع بعض فتية من الأنصار فشربوا ، وغنتهم قينة فى مدح حمزة:

ألا ياحمز للشُّرُفِ الشّواءِ ... وهن معقّلات بالفناءِ
ضع السكين فى اللبات منها ... فضرّجهنّ حمزةُ بالدماء
فأطعم من شرائحها كباباً ... مُلَهوْجةً على رهج الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجّى ... لكشف الضر عنا والبلاء

فوثب حمزة رضى الله عنه إلى سيفه فنحرهما وبقرهما ، وقطع خواصرهما، وجب السنامين ، وأخذ من الكبد وطفق الكل يشوون ويأكلون وهم فى نشوة غارقة لا تعبأ بعلى ـ رضى الله عنه ـ وفقره واحتياجه ، فلما وقع بصر على ـ رضى الله عنه ـ على شارفيه لم يملك عينيه ؛ لأن مصيبته فى الأمر فادحة ، هنالك فزع إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه عمه حمزة ، فنهض ﷺ واصطحب عليا إلى حيث حمزة ، فلما وصل إليه طفق يلومه على فعلته ، ويبين له فداحة جريرته ، فصعّد ـ رضى الله عنه ـ بصره نحو على ثم التفت ، وقال لهما :

وهل كنتما إلا عبيداً لأبى ، هنالك أدرك رسول الله ﷺ أنه لا فائدة من مخاطبة حمزة ؛ لأنه ثمل أفقده الخمر عقله ، وقبيل هذا الأمر بقليل شرب سعد بن أبى وقاص مع رجال من الأنصار، فلما ثمل قال لهم : المهاجرون أشرف منكم، فتقاتلوا وضربوه بلحى جمل شج وجهه . هنالك وإزاء هذه المتاعب والعداوات التى جرتها الخمر ، نزل القرآن ليضع حداً نهائياً لمهزلة الخمر ومأساتها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠ ـ ٩١] فقال أصحاب رسول الله ﷺ : نعم قد انتهينا ، حتى إن أبا أيوب ـ رضى الله عنه ـ أراق بقية قدحه ، وحكم القرآن الكريم بتحريم الخمر ، وهو حكم أثبتت الأيام حكمته على مر الأيام حتى أن عقلاء الساسة فى أيامنا هذه نادوا بتحريمها حين رأوا إن أكثر الجرائم الشنيعة تقترن بأهل الخمر وأوكارها .

# حول الإيمان بأنبياء الله جميعاً والاقتداء بهم

للأنبياء فى القرآن الكريم مقامات عظيمة ومنازل عالية كريمة ، فما منهم إلا له مقام معلوم ، وما منهم إلا وله فضل مشهود ، ولاعجب ، فالله جل وعلا أعلم حيث يجعل رسالته ، ولولا أن الرسل مثل عليا للكمال الإنسانى ، ما اصطفاهم الله من بين خلقه أمناء على الدين وهداة للعالمين ، والرُسل فى القرآن الكريم معصومون من كبائر الإثم ، ومعصومون من كل ذنب يسقط المروءة ؛ لكنهم ـ كبشر ـ قد يقعون فى صغائر من النوع الذى لاينال من أصالة الفضيلة ولايرنُ عليها .

لقد ورد فى القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين نبياً ، منهم ثمانية عشر فى آيات من سورة الأنعام تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام : ٨٣] ، وجميع الأنبياء المذكورين فى هذه الآيات هم من بنى إسرائيل ما عدا إبراهيم، وإسماعيل ، ولوطاً ، ونوحاً ، عليهم السلام ، وهنالك سبعة أنبياء آخرين وردوا فى مواضع أخرى من القرآن الكريم وهم : آدم ، وإدريس ، وهود ، وصالح ، وذو الكفل، وشعيب ، وختامهم نبينا محمد ﷺ .

إنّ من يقرأ القرآن يحب هؤلاء الرُسل ؛ لأن الله جل وعلا مدح أخلاقهم وأشاد بفضائلهم ، وأمر نبينا محمداً ﷺ أن يقتدى بهم ، وأن يؤمن هو والمؤمنون بهم ، وألايفرقوا فى الإيمان بين نبى ونبى . يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**

**غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصير** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وإنى مورد هنا آيتين الأولى من سورة البقرة ، والأخرى من آل عمران ، تكاد ألفاظهما تتشابه لولا خلاف قليل جداً ، وفى الآيتين أمر من الله عزّ وجلّ للمؤمنين أن يؤمنوا بالله والكتب السماوية كلها وبأنبياء الله جميعاً .

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا باللهِ ومَا أُنزِلَ إلينا ومَا أُنزِلَ إلَى إبرَاهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعيسَى ومَا أُوتِيَ النَّبيُّونَ من ربِّهم لانُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مُسلِمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٦] ويقول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **قُل آمَنَّا باللهِ ومَا أُنزِلَ علَينا ومَا أُنزِلَ علَى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعيسَى والنَّبيُّونَ من ربِّهم لانُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مُسلِمُونَ**﴾ [آل عمران : ٨٤].

إن كلا من الآيتين تشتمل على أمر عظيم ؛ فأولاهما : أمر موجه إلى المؤمنين ، والثانية : أمر موجّه إلى النبى ﷺ ناطقاً بلسان الأنبياء والمؤمنين ، ويلاحظ فى الآية الأولى أنها أطول بكلمتين مكررتين وهما قوله تعالى : ﴿ **ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعيسَى ومَا أُوتِيَ النَّبيُّون** ﴾ فتكرار كلمة : ﴿ **وما أوتى** ﴾ ، يفيد التوكيد ، ولعل هذا التوكيد قد حصل فى الآية المبدوءة بقوله تعالى : ﴿**قولوا**﴾، لأن الخطاب لكافة المؤمنين ، وخطاب المؤمنين يتطلب توكيداً ، أما خطاب النبى ﷺ ودعوته للإيمان فلا يتطلب توكيداً ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام مصدق لما بين يديه ومؤمن بما أوتى . وقد ذكر فى الآيه ستة أنبياء ، كما ذُكر محمد ﷺ بالضمير بعد قوله تعالى: ﴿ **قُل** ﴾ أى أنت يامحمد . ومن الأنبياء الذين ذكروا : موسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ، وهم أنبياء الأديان الثلاثة : اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام ، كما ذُكر فى الآيتين أربعة أنبياء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، لكنهم كانوا حنفاء مسلمين وهم إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب ، فهؤلاء أنبياء بعثوا قبل نزول التوراة والإنجيل . يقول الله تعالى : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولانصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ [آل عمران : ٦٧] . ويقول الله تعالى : ﴿ **أم تَقُولُونَ إنَّ إبرَاهيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاط كَانُوا هُوداً أو نَصَارَى قُل أأنتُم أعلَمُ أمِ اللهُ وَمَن أظلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تعملون** ﴾ [البقرة : ١٤٠].

إن إيمان المسلم بجميع أنبياء الله ، يؤهله لقيادة العالم ؛ لأن أفقه يتسع لاستيعاب كل فضائل النبوات ؛ ولكنه يقتدى بجميع الأنبياء ؛ لأن نبيه ﷺ قد أمر أن يقتدى بهدى الأنبياء .يقول الله تعالى بعد أن عدد ثمانية عشر نبياً : ﴿ **أولَئكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقتَده قُل لاَ أسألُكُم عَلَيهِ أجراً إن هُوَ إلا ذكرَى للعَالَمينَ** ﴾ [الأنعام : ٩] . إن من يقرأ سير الأنبياء فى كتب اليهود والنصارى يشعر أنه يقرأ عن أشخاص ليست لهم عصمة ، فالأنبياء فى كتب اليهود والنصارى يتآمر بعضهم على بعض ويتحاسدون ويقترفون جرائم منكرة ، وفى حين يتحدث القرآن الكريم عن داود وسليمان ولوط عليهم السلام فيصفهم بالطهارة والتوبة، نجد كتب اليهود والنصارى تنسب إليهم جرائم لاتصدر إلا عن محترفين ، إن الله تعالى يأمر محمداً ﷺ أن يتذكر سيرة سليمان ابن داود كلما حزبه أمر من الأمور ، يقول الله تعالى فى سورة « ص » مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ **اصبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذكُر عَبدَنَا دَاودَ ذَا الأيد إنَّهُ أوَّاب** ﴾ [ص : ١٧] ثم يقول تعالى: ﴿ **وَوَهَبنَا لدَاودَ سُلَيمَانَ نعمَ العَبدُ إنَّهُ أوَّاب** ﴾ [ص : ٣٠] ثم يقول عن سليمان عليه السلام : ﴿ **وَإنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلفَى وَحُسنَ مَئَاب** ﴾ [ ص ٤٠].

إن جميع أنبياء الله فى القرآن الكريم هم رجالٌ ينتقيهم الله انتقاءً ،

ويصطنعهم ويصنعهم على عينه ؛ لأن أوعية الرسالة يجب أن تكون طاهرة مطهرة مبرأة من السوء . اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك النبى الأمى ، وصل اللهم على جميع أنبيائك ، وارزقنا إيماناً عميقاً بكل كتاب أنزلت ، وكل رسول أرسلت .

# نموذج تطبيقى

إنى مورد بعون الله نموذجاً من القرآن الكريم مكوناً من آية واحدة يمثل بحق أروع نغمات الإيقاع العذب ، وأعلى صور الكلام المؤثر البليغ . ولقد قرأنا حول هذا النموذج قصة طريفة خلاصتها : أن عبد الله بن المقفع زعيم الطبقة الأولى من كتاب العصر العباسى آنس فى نفسه قدرة بلاغية هائلة فى الكتابة الفنية ، فتطاول بعنقه أن يقلد أسلوب القرآن الكريم ، ولم يكن الرجل يخلو من زندقة ، والحق أن أسلوب ابن المقفع فى نثره يعتبر من السهل الممتنع ، وإذا قلبت مؤلفاته : (كليلة ودمنة ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير ، والدرة اليتيمة) ، وجدت فى أسلوبه جاذبية تأسرك بما فيه من أصالة لا يخامرها تكلف، وسطوع لا يشوبه غموض .

والمهم : أن الرجل جمع من روائع كتابته قدراً كافياً ، وهم أن يطلع به على الناس ، ولكنه فى أثناء ذلك مر على كُتاب يتعلم الصبية فيه قراءة القرآن الكريم، وإذا طفل لم يجاوز العاشرة إلا قليلاً يقرأ قول الله تعالى من سورة هود : ﴿ **وَقِيلَ يَاأَرضُ ابلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقلعي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمرُ وَاستَوَت عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعداً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [هود : ٤٤] فلم يكد يسمع هذه الآية حتى سارع إلى أوراقه يمزقها وهو يقول : هذا ما لا تنهض له طاقة البشر .

وقد أورد الإمام الخطيب القزوينى تلخيصاً لكلام أورده السكاكى حول ما تضمنته هذه الآية الكريمة من وجوه البلاغة وما فى ألفاظها من فصاحة لفظية وفصاحة معنوية فقال : « الفصاحة اللفظية فى هذه الآية تتجلى فى عذوبتها على الألسنة وسلاستها لدى النطق ، حتى لتشعر كأنها الماء فى السلاسة، والعسل فى الحلاوة ، والنسيم فى الرقة ، وإذا تأملت الألفاظ وجدتها عربية لا

أثر فيها لأى عجمة ، ووجدتها مستعملة لامكان فيها للحوشية ، ورأيتها سليمة من التنافر والتعقيد » [1] . والحق أنك كلما قرأت هذه الآية رأيت فيها حلاوة تقسيم ، وجمال إيقاع ، ووجدت ألفاظها متعانقة فى انسجام وتناسق لاتملك حين تحس بهما إلا أن تقول : سبحان من هذا كلامه .

إن أروع ما يطربك فى هذه الآية : أنها صورت تلك الخاتمة التى آل إليها الظالمون فى صورة بلاغية خاطفة لم تتعد بضع عشرة كلمة ، لكنّ فى كل كلمة منها إيجازاً معجزاً يأخذ بمجامع القلوب . فى كلمة : ﴿ **وقيل** ﴾ إيجاز له مغزاه فقد وردت بالبناء للمجهول ؛ لأن القائل جل وعلا غنى عن الذكر ، ثم إن إضمار الفاعل يوقع فى النفس مهابة ؛ لأن العبرة بما قيل ؛ ولأن المقصود هو الأمر الإلهى نفسه ، وهو أمر نافذ على كل مخلوق عاقلاً كان أو غير عاقل ﴿**وإن مّن شيء إلاَّ يُسبِّحُ بِحمده ولَكِن لاَّتفقهُون تسبيحَهُم إنَّه كَانَ حَلِيماً غفُوراً** ﴾ [ الإسراء : ٤٤ ] .

ومثل هذا الأسلوب فى حذف الفاعل قوله : ﴿ **وَغيضَ المَاءُ** ﴾ ، فإن من غاضه معروف لا إله إلا هو ﴿ **وَقُضيَ الأمرُ** ﴾ فسبحان من قضى أمر نوح وقومه بهذا الحكم العادل . ﴿ **وَقيلَ بُعداً للقَومِ الظَّالمينَ** ﴾ كلمات فيها إيجاز مهيب، إذ الأولى فاعلها كلُّ المخلوقات ، والثانية مصدر حذف فعله وناب هو عنه ، والثالثة تنظم الظالمين من أى نوع فى سلك الغضب والبعد ، فكل ظالم سيبعده الله إبعاداً يقوده إلى هاوية الدمار .

وتأمل الصورة فى قوله : ﴿ **يَا أرضُ** ﴾ إنها كالعقلاء بل أكثر طوعاً فى تنفيذ أمر ربّها وحقت أن تنفده ، وانظر إلى كلمة : ﴿ **ابلعى** ﴾ أى صورة رائعة ؛ إذ يختفى ماء الطوفان فى باطن الأرض كما تبتلع اللقمة ، ولم يقل : ابتلعى ؛

(١) من كتاب الإيضاح ص ٤٧٤ تحقيق الخفاجى ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ( بتصرف ) .

لأن الأولى على قصرها أكثر اتساقا بالسياق أما كلمة : ﴿ ماءك ﴾ فهى إيذان أن الماء بعد أن كان أداة للعذاب أصبح حياة للأرض ، فهو ماؤها الذى تختزنه ليتحول حياة لأهله بعد أن سيق هلاكا للظالمين ، فسبحان من أنزله ثم أسكنه . ومضى يقول : ﴿ وَيَا سَمَاءُ ﴾ يأمرها ؛ لأنها ملك يمينه ﴿ أقلعى ﴾ يعنى عن المطر ، وهى كلمة واحدة أنفذتها السماء وحقت أن تنفذها ﴿ وَاستَوَت عَلَى الجُودِىّ ﴾ حذفت التى استوت فأكسبها الحذف سطوعاً ، والمخبأ الذى لم أدركه أعظم ، فسبحان منزل أشرف الكلام على أشرف الأنام .

# العطف بالـواو

يذكر الزمخشرى ـ صاحب الكشاف ـ إشارة دقيقة وهو يستعرض قول الله جلّ وعلا فى سورة الأنعام : ﴿ **وَلَاتَقْـتُلُوا أولَادَكُم مِّنَ إمـلَاقٍ نَّحنُ نَرزُقُكُم وإياهم** ﴾ [الأنعـام : ١٥١] وقـوله فى سـورة الإسـراء : ﴿ **وَلَاتَقْتُلُوا أولَادَكُم خَشيَةَ إملَاقٍ نَّحنُ نَرزُقُهُم وَإيَّاكُم** ﴾ [الإسراء : ٣١] فقال المفسر : إن الآية الأولى خطاب للفقراء الذين يقتلون أولادهم من الإملاق ـ أى الفقر ـ الذى هم فيه واقعون .

أما الآية الثانية ، فخطاب للأغنياء الذين يقتلون أولادهم مخافة الفقر الذى لم يقعوا فيه بعد ؛ ولهذا قال فى الأولى للفقراء : ﴿ **نَّحنُ نَرزُقُكُم وَإياهُم** ﴾ فطمأنهم بذلك على رزقهم أولا وعلى رزق أولادهم ، أما فى الثانية فقال جلّ وعلا للأغنياء : ﴿ **نَّحنُ نَرزُقُهُم وَإيَّاكُم** ﴾ فطمـأنهم بذلك على رزق أولادهم قبل أن يطمئنهم على رزقهم لأنهم فى غنى .

أنّ العطف بالواو فى القرآن الكريم لا يأتى لمجرد العطف كما يعرفه النحويون، لكنه يقترن دواماً بأمر بلاغى يخدم المعنى . وإنى مورد إن شاء الله بعض أمثلة توضح هذا الأمر ، يقول الله تبارك وتعالى فى سورة عبس :

﴿ **يَومَ يَفِرُّ المَرأُ مِن أخيه * وأُمِّه وأَبِيه * وَصَاحِبَتِه وبَنِيه** ﴾ [عـبس : ٣٤ ـ ٣٥] ويقـول جلّ من قـائل فى سـورة المعـارج : ﴿ **يُبَصَّرُونَهُم يَوَدُّ المُجـرِمُ لَو يَفتَدى من عَذَابِ يومئذ ببنيه * وَصَاحِبَتِه وأخيه * وَفَصِيلَتِه الَّتِى تُؤوِيهِ * وَمَن فِى الأرضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيه** ﴾ [المعارج : ١١ ـ ١٤] .

فانظر كيف جاء الترتيب فى معرض الفرار ؟! وكيف جاء فى معرض الافتداء ؟! الإنسان يفتدى نفسه بأغلى ما يملك ؛ ولهذا رتب الأقارب حسب

الأغلى ثم الأقل غلاءً فقال : ﴿ **بنَيه** ﴾ وهم أغلى ما فى الدنيا على الإنسان ، ثم قال : ﴿ **وصاحبته وأخيه * وفَصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض** ﴾ أما حين ذكر الفرار ، فالمرء يفر من الأقل غلاءً ثم حين يتأزم الأمر يفر من أغلى الناس ؛ ولهذا جاء الترتيب ﴿ **يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أخِيهِ * وأمِّهِ وأبِيهِ * وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ** ﴾ .

وفى آية من سورة الأحزاب يقول الله تعالى : ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشرِكِينَ وَالمُشرِكَاتِ** ﴾ [الأحزاب : ٧٣].

ويقول الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ وَالمُنَافقِينَ وَاغلُظ عَلَيهِم وَمأوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصِيرُ** ﴾ [التحريم : ٩].

فانظركيف أنّ الله تعالى فى الآية الأولى قدم المنافقين على المشركين ؛ لأن الكلام فى معرض العذاب ، والمنافقون أشد عذاباً من المشركين ؛ لأنهم فى الدرك الأسفل من النار ، ولأن ضررهم على المؤمنين أشدُّ من خطر المشركين ؛ إذ هم عدو من الداخل ، وقديما قيل فى المثل : ألف عدو خارج البيت ولا عدو داخله . وحسبك أن تعلم ان مصيبة أمة محمد ﷺ وهزائمها فى هذه الأيام جاءت من منافقيها الذين تسللوا داخل صفوفها ، فأفسدوا تراثها ، وأعملوا معاولهم فى عقيدتها ، حتى إذا نخرت دوحة الأمة من داخلها ؛ سهل على العدو الخارجى من الصهاينة كسرها فى سهولة .

أما فى الآية الثانية ، وهى قول الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ وَالمُنَافقِينَ وَاغلُظ عَلَيهِم وَمأوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصِيرُ** ﴾ [التحريم : ٩] ، فقد قدم الله الكفار فى معرض الجهاد ؛ لأن الأمة إذا هزمت عدوَّها الخارجى وخوفته وأوقعت مهابتها فى قلوب الكافرين ، فإن طابور النفاق فى داخلها تنهار معنويته ، ويضعف أمره . أما إذا بدأت الأمة معركتها مع المنافقين فى داخلها ،

فإن هذا يعنى حرباً أهلية تعطى العدو الخارجى فرصة للانقضاض عليها . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا استَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم﴾[ الانفال : ٦٠] ـ يعنى المشركين ـ ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لَاتَعلَمُونَهُمُ اللهُ يَعلَمُهُم﴾ [ الانفال : ٦٠] ـ يعنى المنافقين ـ . وفى هذا إيحاء بأن الترويع إذا وقع فى قلوب الأعداء الخارجيين ؛ انتقل بطبيعته إلى قلوب الأعداء الداخليين ؛ ولهذا فقد صرف النبى ﷺ قوته الضاربة لضرب المشركين فانهارت تبعاً لذلك قوة المنافقين.

إن النظم القرآنى الكريم هو من الإعجاز بحيث لايمكن أن تنقل كلمة من موقعها دون أن يضطرب عقد الدرر اليتيمة .

أسأل الله أن يزيدنا بصيرة بكتابه الحكيم .

# لطائف التقديم والتأخير
# فى القرآن الكريم

لقد عقد الإمام الزركشى - رحمه الله - فى كتابه ( البرهان فى علوم القرآن) فصلاً حول أسلوب القرآن الكريم فى تقديم لفظ على لفظ ، وأورد من الأمثلة ما أثبت به أن كل تقديم فى القرآن ينطوى على إشارة بلاغية فى المعنى .

قد يقرأ قارئ قول الله تعالى فى سورة البقرة : **﴿ وَإن تبدوا مَا فِى أنفسكُم أو تُخفُوهُ يُحاسبكُم به الله ﴾** [البقرة : ٢٨٤] ثم يقرأ فى سورة آل عمرَان : **﴿ قُل إن تُخفُوا مَا فِى صُدُورِكُم أو تُبدُوه يَعلَمهُ الله ﴾** [آل عمران ٢٩] فيظن أن تقديم **﴿تُبدُوه ﴾** فى الأولى و**﴿تُخفُوهُ﴾** فى الثانية جاء عرضا ، مع أنه لو أمعن النظر لاتضح له أن الآية الأولى جواب شرطها **﴿ يُحاسبكُم ﴾** وحساب الله يوم القيامة يكون على الظاهر من أفعال العباد ، أما ما تحدثهم به أنفسهم فلا يحاسبون عليه ؛ ما لم يخرج إلى حيز التنفيذ ؛ ولهذا قدم كلمة **﴿ تبدوا ﴾** على كلمة **﴿ تخفوا ﴾** .

أما الآية الثانية فجواب الشرط فيها **﴿ يَعلَمهُ الله ﴾** والعلم بما يخفى أهم من العلم بظاهر الأمور ؛ ولهذا قدم كلمة **﴿ تُخفُوا ﴾** على كلمة **﴿ تبدوا ﴾** ؛ لأن ذلك أبلغ فى إثبات عظمة العلم الإلهى الذى يحيط بخائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وأعود إلى ما ذكره الإمام الزركشى من حكمة التقديم والتأخير فى القرآن ، فأورد بعض الأسباب التى ذكرها والأمثلة القرآنية التى أوردها .

قال رحمه الله :

قد يكون التقديم لعظم المقدم والاهتمام به كقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [المزمل : ٢٠] فالصلاة أعظم قدراً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [ الفاتحة : ٤] فقدم العبادة على الاستعانة ويأتى التقديم لإفادة سبق الأول كقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] فالملائكة أسبق فى الاصطفاء من حيث الزمن ، وكقوله تعالى : ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى : ١٩] ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٧]، وقوله تعالى : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] لأن السنة وهى النعاس تأتى قبل النوم، ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ [الحج : ٧٧] .

وقد يكون التقديم لأن المقدم سبب فى حصول المؤخر ، كقوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] ، لأن عظمة العلم تسبب الحكمة والإتقان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، فالإنسان إذا نصح فى توبته ، حرص على الطهارة فى الظاهر والباطن ، وقد يكون التقديم حسب الرتبة كقوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج : ٢٧] والراجل أعظم ثوابا من الراكب فى حالة ذهابهما إلى الحج .

وقد يقدم لأن الأول داعية إلى الثانى ، كقول الله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] فغض البصر يدعو إلى حفظ الفرج.

وقد يكون التقديم لشرف المقدم ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى

وَهَارُونَ ﴾ [الصافات : ١١٤] .

وقد يكون التقديم لأفضلية المقدم من حيث الحكم ، كقوله تعالى ﴿ فَحَيُّوا بأحسَنَ منهَا أو رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَبِالوَالِدَينِ إِحسَاناً وَبِذِى القُربَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِين ﴾ [النساء : ٣٦] .

وقد يكون التقديم لأن أثر الأول أكبر من أثر الثانى ، كقول الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقطَعُوا أيدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ١٨] ، فقدم السارق ؛ لأن أثره فى الضرر أكبر من أثر المرأة السارقة ، وأما فى قوله تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجلِدُوا كُلَّ واحدٍ مِّنهُمَا مِائَةَ جَلدَةٍ ﴾ [النور : ٢] فقد قدم الزانية لأن المرأة الزانية أكبر أثراً فى الإفساد من الرجل الزانى .

وقد يكون التقديم للتعجب من شأن المقدم ، كقوله تعالى ﴿ وَسَخَّرنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحنَ وَالطَّيرَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] فالجبال إذ يسبحن أعجب من الطير ؛ إذ الثانى حيوان والأولى جماد .

وقد يكون التقديم لكون المقدم أدل على القدرة ،كقوله تعالى : ﴿ فَمِنهُم مَن يَمشِى عَلَى بَطنِه وَمِنهُم مَن يَمشِى عَلَى رِجلَينِ وَمِنهُم مَن يَمشِى عَلَى أربَعٍ ﴾ [النور : ٤٥] فالمشى على البطن أصعب من المشى على رجلين ، والمشى على رجلين أصعب من المشى على أربع .

وقد يكون التقديم لرعاية الفاصلة وجمال النغمة ،كقوله تعالى : ﴿ قُم فَأنذِر*وَرَبَّكَ فَكَبِّر * وَثِيَابَكَ فَطَهِّر * وَالرُّجزَ فَاهجُر ﴾ [المدثر : ٢ ـ ٥] .

أسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن الذين يرتلونه ويعملون بما فيه .

# هذيان المتنبّئين

لقد اعترف العرب ببلاغة القرآن وعظمة بيانه منذ نزل ، وكان من مظاهر اعترافهم أنهم لم يتصدوا لمعارضته ولم يحاولوا الإتيان بمثله ، وكان ذلك بمثابة استسلام لتحديه وهزيمة أمام إعجازه . لقد كان إعجاز القرآن سبباً فى إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ وما زال إعجاز القرآن سببا فى إسلام أعداد كبيرة من مفكرى الشرق والغرب على الرغم من ضعف العرب وتخاذلهم وتألب الكفر وطواغيته على دينهم وقرآنهم .

ولعل من الطريف أن أورد هنا بعض المحاولات التى قام بها المتنبئون لتقليد أساليب القرآن الكريم ، تلك الأساليب العظيمة التى جعلته يستولي على القلوب ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحَديث كتَاباً مُتَشَابهاً مثَانىَ تَقشَعرُ منهُ جلُودُ الَّذينَ يَخشَونَ رَبَّهم ثُم تَلينُ جُلُودُهم وَقُلُوبُهُم إلَى ذِكرِ الله** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

لقد كان أبرز من عارض القرآن مسيلمة الكذاب الذى زعم أن له قرآنا نزل عليه به الوحى من السماء ، ولا شك أن مسيلمة قد أفرغ كل جهده البلاغى وهو يؤلّف قرآنه المزعوم ، ولعلى حين أسجل هذيان مسيلمة أبرز البون الشاسع بين كلام الله وكلام البشر ؛ فيزداد بذلك الذين آمنوا إيماناً .

روت كتب الأدب مقاطع افتراها مسيلمة منها :

( والباذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ) (١) !!

ومنه : ( لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ) .

(١) انظر : إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٥ ، طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت .

وهذا مقطع آخر وهو قوله : ( والشاء وألبانها ، وأعجبها السود بألوانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون ـ تشربون اللبن معجوناً بالتمر ) !!

ومنه قوله : ( الفيل ما الفيل ، ما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل ) !!

وله مقطع فى هجاء الضفدع ، ويبدو أن الضفادع أزعجته ليلة عن نومه :

( ياضفدع بنت ضفضعين ، نقى ما تنقين . نصفك فى الماء ونصفك فى الطين . لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين ) !!

وكان للأسود العنسى واسمه عبهلة أسجاع يزعم أنها تنزل عليه وهو فى غيبوبة ، وعبلة هذا جبار تنبأ فى اليمن واشترك فى حربه معاذ بن جبل والمهاجر بن عبد الله وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ وقد قتله بعض حاشيته من رجال ونساء قبل وفاة النبى ﷺ بيوم واحد .

وقد زعم طليحة الأسدى أنه يوحى إليه ، وطليحة هذا من بنى أسد تنبأ وقتل كثيراً من فضلاء الصحابة منهم عكاشة بن محصن المبشر بالجنة ، والجدير بالذكر أنه أسلم وحسن إسلامه وجاهد بإخلاص في سبيل الله ، وكان من أسباب انتصار المؤمنين فى معركة نهاوند لما أظهر من شجاعة وصدق بلاء ، ولم يحفظ من كلامه قرآنه المزعوم إلا مقطع رواه ياقوت فى معجم البلدان ( إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئاً ـ مشيراً إلى التيمم والاستنجاء ـ فاذكروا الله قياما فإن الرغوة فوق الصريح ) ! ومما حفظ من كلام سجاح الذى زعمته قرآنا قولها : ( يا أيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يبغون دفوا دفيف الحمامة وعليكم باليمامة فإنها غزوة صرامة ولا يبقى لكم بعدها ملامة ) !

وممن عارضوا القرآن ابن الراوندى ، وهو من أصل يهودى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، وقد اعتزل ثم كفر ، وصنف كتبا لليهود والنصارى يعلمهم فيها كيف يجادلون دعاة الإسلام وجمع مفترياته فى كتاب سماه ( التاج ) .

ونسب إلى أبى الطيب وأبى العلاء معارضة القرآن ، والحق أنهما أعقل من ذلك . وعلى الرغم أن عدداً كبيراً من متعصبى النصارى فى هذه الأيام قد زاولوا الأدب كتابة وشعراً وتأليفاً ونبغ منهم أدباء مفوهون يكرهون الإسلام والقرآن فإن أحداً منهم لم يدّع أن القرآن يمكن معارضته بمثله لا لنزاهة فيهم، ولكن لأنهم حين درسوا القرآن الكريم وتدبروا عباراته الربانية ، لم يسعهم إلا أن يعترفوا بأن معارضته هى فوق طاقة البشر ، فألقوا السلاح إزاء هذه المعركة غير المتكافئة .

وما زلت أذكر أستاذاً نصرانياً منصفاً كان يعلمنا ، وكان دائماً يشيد بإعجاز القرآن ، حتى لقد قال لى فى أعقاب امتحان عقده لنا فى اللغة العربية : إن مما يفيدك فى امتحاناتك أنك تحفظ القرآن الكريم ، وهذا يمدك بالشواهد فى النحو والبلاغة ، أما فى الإنشاء فإنه يظهر فى أسلوبك كما تتلألأ الجواهر اليتيمة فى القلادة .

من أجل ذلك ظل القرآن عبر الأجيال شرفاً وذكراً للعرب : نشر لغتهم فى الآفاق ، وغرس محبتهم فى القلوب ، وسوف يسأل العرب يوم القيامة عن هذا الشرف الإلهى ماذا فعلوا به ، فيا فوزهم فى الدنيا والآخرة إذا نجحوا فى إجابة هذا السؤال فقالوا بصدق : قرأناه فأحكمناه ، والتزمنا منهاجه وحفظناه ، وسرنا به فى الناس نتلوه وننشر نوره . والويل كل الويل للعرب إذا اتخذوا القرآن مهجورا، وعزفوا عن أحكامه المحكمة ، وآياته المعجزة ، ليطلبوا البلاغة من رطانة الأعاجم، ويلتمسوا الهدى من ضلالات الكفار ، ويشتروا بعهد الله وكلامه ثمنا بخساً من أدب الكفر والإلحاد إن صح أن للكفر والإلحاد أدباً ، وصدق الله

جل وعلا إذ يقول : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكرٌ لَكَ وَلِقَومِكَ وَسَوفَ تُسألُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤]وكلمة ﴿ ذِكر ﴾ هنا شرف وسمعة ومجد .

# حول الإعجاز الأخلاقى
# فى القرآن الكريم

عقد الرافعى ـ رحمه الله ـ فى كتابه ( إعجاز القرآن ) فصلاً سماه ( آداب القرآن ) تحدث فيه عن نوع من الإعجاز القرآنى سماه ( الإعجاز الأدبى ) أو ما نسميه ( الإعجاز الأخلاقى ) ، وقد فتح هذا العنوان لى مجال البحث فى الأخلاق القرآنية ، تلك التى تحلى بها رسول الله ﷺ ، فاستحق أن يمدحه الرب جل وعلا من عليا سماواته ، ويخاطبه قائلاً له : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [ن : ٤] ولا عجب فقد أراد الله عز وجل بحكمة أن ينزل من السماء قرآنه العظيم ، وأن يجعل هذا القرآن خلقاً لرسوله الكريم ، فرأى الجيل الأول من أصحاب رسول الله قرآنا يقرؤونه ، وإنسانا كامل الإنسانية يتجلى فى شخصيته القرآن الكريم قولاً وعملاً واعتقاداً وأخلاقاً ، فما أعظم محمداً ﷺ من رسول ، عرض على الناس قرآن الله فى كتابه المكنون ، كما عرض عليهم تطبيقاً عملياً للقرآن فى خلقه العظيم .

يقرر القرآن الكريم أن الإسلام هو فطرة الإنسان ، وأن الإنسان لو نشأ دون أن تعمل فى طباعه يدا والديه لما كان إلا مسلماً ، إذ الإسلام هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴿ **صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً** ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

والمجتمع الإنسانى بهذا المفهوم ليس كمجتمع الغابة ، لكنه شعوب وقبائل خلقت لتتعارف وتتعاون وتتحاب فى الله وتنطلق فى طريق العمل لخير الإنسانية، ومن يحرز قصب السبق فى عمل الصالحات فهو الذى نال قصب السبق فى مضمار الكرامة ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إن من يدرس آى القرآن دراسة عميقة يجده قد خصص أكبر مساحة من صفحاته للأخلاق حتى لقد ذهب علماء التفسير إلى أن كل آية فى القرآن تنطوى على الأخلاق ، والمثل العليا ، وهذا أمر لم يرد فى الكتب السماوية إلا بطريقة عابرة ؛ إذ معظم الكلام فيها منصرف إلى القصص حتى لكأن تلك القصص مقصودة لذاتها ، والعجيب أن كثيراً من تلك القصص يدعو إلى القتل وسفك الدماء وتدمير عناصر معينة من بنى الإنسان ، فى حين نرى القرآن الكريم شفاء ورحمة ودعوة سامية إلى الإخاء الإنسانى تحت لواء التوحيد: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكتَاب تَعَالَوا إلَى كَلمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنكُم ألاَّ نَعبُدَ إلاَّ اللهَ وَلاَ نُشرِكَ به شَيئاً وَلاَ يَتَّخذَ بَعضُنَا بَعضاً أَربَاباً من دُونِ الله فَإن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشهَدُوا بِأَنَّا مُسلمُونَ ﴾ [آل عمران ٦٤].

إن أركان الإسلام كلها يعرضها القرآن عرضاً أخلاقياً ،وكأنها جميعاً مجندة لتحقيق الفضائل والأخلاق . يقول الله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّلاَةَ تَنهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالْمنكَر ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ويصف الزكاة أنها تطهر النفوس وتنزع منها الشح والبخل والحرص الذميم ، فيقول جل من قائل : ﴿ خُذ من أموَالهِم صَدَقَةً تُطَهرهُم وَتَزَكيهِم بهَا وَصَلِ عَلَيهِم إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُم وَاللهُ سَميعٌ عَليم ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، والصوم فى القرآن يوصل النفوس إلى تقواها : ﴿ يَا أَيهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذينَ من قَبلكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة ١٨٣ ] ، والحج كما يجليه القرآن موسم أخلاق : ﴿الحَجُّ أشهُرٌ مَّعلُومَات فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جدَالَ فِي الحَج ﴾ [البقرة : ١٩٧] وعلى الجملة فما من فضيلة من فضائل الإنسانية إلا حث عليها القرآن . وما من رذيلة من رذائل الحياة إلا نهى عنها وأنكرها وحرمها القرآن . وما أجمل أن نختم هذا الحديث عن الإعجاز الأخلاقى للقرآن بهذا القبس المضيء من آى الذكر الحكيم فى وصف عباد الرحمن :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣ ـ ٧٥] .

اللهم اجعل القرآن منهاج أخلاقنا فى الدنيا وشفيعاً لنا يوم القيامة .

ومادامت الإنسانية هى الفطرة ، ومادام أصلها كلها ذكراً وأنثى فالناس كلهم إذن سواء لاتفاضل بينهم بعرق أو لون أو نسب ، بل إن درجاتهم إنما هى من ثمار أعمالهم ﴿ وَلِكُلٍّ درجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعمَلُونَ﴾ [الأنعام ١٣٢].

إن الذى يفسد الإنسانية هو أنماط التربية المنحرفة التى يغرسها المفسدون فى فطرتها ، فتحرفها عن صبغة الله إلى أصباغ مزيفة . إن أى إنسان إذا أظهر فى سلوكه غطرسة تناقض قانون المساواة ، أو تباهيا بعرق أو نسب يفسد الإخاء الإنسانى أو تمييزا عنصرياً يهين الإنسانية ، فهو حينئذ يمارس عادات ليست

من الفطرة ، وإنما هى تربية شياطين .

إن كل ما فعله القرآن الكريم فى عرب الجاهلية هو أنه رآهم فى زخم عادات وحشية ، فيها العدوان على الحقوق ، وفيها شريعة الغاب من ظلم الضعيف ، واستعلاء القوى ، وشن الغارات ، وسواد الثارات ، ووأد البنات ، وطمس العقل وتمريغه فى سبخة الوثنية المحرفة ، فلم يزد القرآن على أن أخذ بيد العرب الجاهليين إلى فطرة الإنسانية النقية ، ولم يزل يربهم على أخلاقها ويسير بهم على منهاجها حتى اقتلع جذور الفساد ، وأقام على أنقاضه صرح الإيمان والأخلاق .

لقد علّم القرآن العرب أن الإيمان قد نقلهم من عداوة كافرة ـ كادت تطيح بهم من على شفا حفرة النار ـ إلى أخوة مؤمنة جمعتهم تحت لواء الحق ﴿واذكُرُوا نعمَةَ الله عَلَيكُم إذ كُنتُم أعداءً فألَّفَ بَينَ قُلُوبكُم فأصبَحتُم بنعمَته إخوَانًا وكُنتُم علَى شفَا حُفرَةٍ مّنَ النَّارِ فأنقذَكُم منهَا كذَلكَ يُبيّنُ الله لكُم آيَاته لعَلّكُم تهتَدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٣] ومضى القرآن الكريم فى تربية العرب أخلاقيا ، حتى لقد شهد علماء الأخلاق أن الدنيا كلها منذ بدء الخليقة لم تشهد جيلاً أعظم أخلاقاً ، ولا أشرف نفوساً ، ولا أعف أيدياً وفروجاً من جيل أصحاب محمد ﷺ ؛ ذلك بأنهم اتخذوا من القرآن نهجاً لسلوكهم وإماماً هادياً لهم كلما اضطربت من حولهم وجهات النظر .

# مع لطائف سورة الفاتحة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [ سورة الفاتحة]

لما كانت سورة الفاتحة ركناً من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا بها ، ولما كان كل مسلم يكررها فى فروضه سبع عشرة مرة كل يوم وليلة ، وقد يكررها السعداء من أهل النوافل عشرات المرات ؛ لهذا فقد رأيت أن نعيش مع لطائفها بعض الوقت ، عسى أن ينفعنا ربنا ببركاتها ويجعلها لنا نوراً وشفاء وهدى ؛ إن مما يلفت النظر كثرة أسماء هذه السورة ، ولكل اسم من أسمائها سبب من الكتاب والسنة ، فقد روى أئمة التفسير أن للفاتحة اثنى عشر اسما منها : سورة الصلاة ، وسورة الحمد ، وفاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثانى ، والقرآن العظيم ، وسورة الشفاء ، وسورة الرقية ، والأساس ، والوافية ، والكافية . وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة ـ أى الفاتحة ـ بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل ، إذا قال العبد : ﴿ الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدنى عبدى . وإذا قال : ﴿ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله : أثنى علىَّ عبدى ، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى : مجدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ ﴾ قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال : ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أنعمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ

عَليهِم وَلاَ الضَّالِينَ ﴾ . قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » .

حقاً إن سورة الفاتحة هى سورة مشرقة متألقة عجيبة الإيجاز تتضمن على قصرها كل مقاصد القرآن الكريم .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى ضمن كلمة التوحيد مضافا إليها ثناء على الله كما ينبغى لعظمته وربوبيته لجميع الكائنات .

﴿ الرَّحمَنِ الرَّحِيم ﴾ آية كاملة كلها رحمة تشمل أهل السموات والأرض وتشمل أهل الطاعة وأهل المعصية ، فالله جل وعلا رحمن السموات والأرض، ورحيم وسعت رحمته كل شىء .

﴿ مَالك يَومِ الدِّينِ ﴾ إيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء عادل ﴿يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ مَا عَمِلَت مِن خَيـرٍ مُحضَرًا ﴾ [آل عمران : ٣٠ ] أمامها، وتكون الدرجات على حسب الأعمال فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل .

وحين تكتمل معانى الإيمان فى نفس المؤمن ويرى ربه فى هذه الهالة العظيمة من الأسماء الحسنى والصفات العلا ينتقل من صيغة الغائب إلى الخطاب المباشر ، وكأنه يرى الله فى أسمائه وصفاته فيخاطبه بأسلوب المخاطب: ﴿إيَّاكَ نَعبُدُ وَإيَّاكَ نَستَعِينُ ﴾ ، وهذه هى الآية التى قسمت بين الله وعبده ، وهى عهد بين الله والعبد يلتزم فيها العبد ألا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله ، وفى مقابل ذلك أن ينتظر العون والتوفيق والسداد والرشاد من الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له .

أما الآيات الأخيرة فكلها للعبد ، إذ هو يدعو ربه أن يهديه سبيل الخير وطريق السعادة ، وصراط المؤمنين السعداء ، وأن يرزقه الاستقامة على هذا السبيل ، والاستقامة فى كل قول وعمل ، وأن يجنبه طريق الأشقياء من الكفرة

الذين غضب الله عليهم ـ وهم اليهود ومن على شاكلتهم ـ والذين ضلوا وسلكوا طريق التخبط والشرك بعد أن هداهم الله إلى التوحيد ـ وهم النصارى ـ وبهذا تكون الفاتحة قد استحقت اسم « أم الكتاب » ؛ لأنها اشتلمت على جميع المقاصد العليا لكتاب الله من توحيد خالص ، وعبادة مخلصة ، وإيمان باليوم الآخر ، ودعاء إلى الله بالعون والاستقامة ، وتعريض بالأم التى أورثت الكتاب فضيعته ، فاستحقت لعنة الله وغضبه ، وكتب عليها الضلال حين سفهت نفسها ونسيت رسالتها .

أما عن الإشارات البلاغية فى هذه السورة العظيمة فلعل من بينها أن آية الرحمة وهى قوله تعالى : ﴿ **الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ قد توسطت بين آيتين من آيات الجبروت ؛ لكى يكون العبد المؤمن فى جو عاطفى بين المهابة والخوف من جهة ، وبين الأمل والرجاء من جهة أخرى .

والإشارة البلاغية الثانية : هى تقديم المفعول فى قوله تعالى : ﴿ **إيَّاكَ نَعبُدُ** ﴾ وفى قوله : ﴿ **وَإيَّاكَ نَستَعِينُ** ﴾ وهو تقديم يفيد التخصيص والقصر ، فالعبادة لله لا شريك له ، والمعونة تطلب منه وحده لا شريك له .

وبالمناسبة فإن كلمة إياك وأياى وإياه وأخواتها لا تأتى إلا متقدمة على عاملها وتعرب مفعولا به .

وفى كلمة ﴿ **العَالَمِينَ** ﴾ إيجاز عجيب ؛ لأن عالمنا المحيط بنا عالم واحد ، ونحن نؤمن أن الله هو رب عالمين كثيرة لا ندركها ولكنها موجودة ، والرب جل وعلا يدبرها ويربها ويملكها وعددها فوق الحصر .

وفى كلمة ﴿ **الصِّراطَ المُستَقِيم** ﴾ إيجاز فى غاية البلاغة ؛ لأنه يعنى طريق كل خير ، إذ الاستقامة كلمة جامعة لكل الفضائل ومكارم الأخلاق والكمال الإنسانى . واللفظ أيضاً كناية بليغة عن دين الإسلام . وما أجمل المقابلة بين

﴿الَّذِينَ أنعمْتَ عَلَيهِم﴾ وبين ﴿ المَغضُوبِ عَليهِم وَلاَ الضَّالِّين ﴾ ، فالأولون سلكوا صراط الهدى والحق والإيمان فاستحقوا النعمة والكرامة والرشاد ، والآخرون انحرفوا عن صراط الله إلى السبل المضللة، فاستحقوا اللعنة والغضب والضلال .

وبعد فإن كل ما ذكرته من أسرار الفاتحة وفضائلها وبلاغتها ما هو إلا قطرة من بحر زاخر ، وحسبك أن تعلم أن القرطبى ـ رحمه الله ـ قد خصص لها نيفا وخمسين صفحة كبيرة ، وقد فاته مع ذلك من أسرارها ماتنبه إليه غيره من أئمة التفسير .

اللهم اجعلنا ممن فقهوا كتابك وقرؤوه وأحكموه وحفظوه وعملوا بما فيه إنك نعم المولى ونعم النصير .

# لطائف فى مطلع سورة البقرة

لقد لفت نظر المفسرين فى مطلع سورة البقرة ، أن الله جلّ وعلا قسّم الناس ثلاثة أقسام : مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين ، وأنه بحكمته البالغة خصّ المؤمنين بأربع آيات ، وذكر الكافرين بآيتين ، ثم خصص للمنافقين ثلاث عشرة آية .

ومن المعروف عند علماء البلاغة أنهم يقسمون الأسلوب من حيث الطول والقصر إلى ثلاثة أقسام : أسلوب المساواة وهو الأصل ، وأسلوب الإيجاز ، وأسلوب الإطناب . ولإشارة بلاغية حكيمة يعرفها الراسخون فى العلم ، فقد ذكر الله المؤمنين بأسلوب المساواة ، وذكر الكافرين بأسلوب الإيجاز ، ثم تحدث عن المنافقين بأسلوب الإطناب .

**﴿ ذَلكَ الكتَابُ لاَرَيبَ فيه هُدًى للمُتَّقينَ * الَّذينَ يُؤمنُونَ بالغَيب وَيُقيمُونَ الصَّلاَةَ ومِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفقُونَ * وَالَّذينَ يُؤمنُونَ بمَا أُنزلَ إلَيكَ وَمَا أُنزلَ من قَبلكَ وَبالآخرة هُم يُوقنُونَ * أُولَئكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهم وأُولَئكَ هُمُ المُفلحُونَ ﴾** [البقرة : ٢ ـ ٥] .

للمؤمنين فى هذه الآيات صورة وضيئة مشرقة ، فهم يتقون الله فى كل قول وعمل ، وهم يؤمنون بما أخبرهم نبيهم من مغيبات :كعذاب القبر والجنة والنار وغيرها ،وهم يؤمنون إيمانا عميقاً باليوم الآخر ، وما فيه من جزاء ، ولاشك أن هذا الإيمان يحكم سلوكهم فيستكثرون من صالح الأعمال ، ثم هم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويؤدون سائر أركان الإسلام . وهذه الأعمال الجليلة والأخلاق النبيلة تجعلهم هداة ومهديين فى الدنيا ، وتضمن لهم الفلاح فى الدنيا والآخرة .

أما الكافرون فهم مطموسو البصائر والأبصار ، قلوبهم مقفلة فى وجه الدعوة الإسلامية فما يجدى معهم ذكر ولا إنذار ، وهم يعيشون غباءً وبلادة وعناداً يختم على قلوبهم وأسماعهم ، ويجعل على أبصارهم غشاوة ، فهم بلا فهم ولاسمع ولا بصر ، ومن ثم فمصيرهم فى الدنيا هزائم وارتكاسات ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

والملاحظ أنه جل وعلا تكلم عن أهل الإيمان بأسلوب المساواة ؛ لأنهم هم الأصل ، ولأن كل شىء فى حياتهم وسلوكهم سوى لاعوج فيه ولاغموض؛ فهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلاهالك ، أما الكافرون فأعطى الله عنهم صورة خاطفة أجزاؤها قليلة . إنهم مقفلون أغبياء فى الدنيا ، وهم فى العذاب العظيم فى الآخرة . وقد وصف عذابهم بأنه عظيم؛ ليتفق مع كفرهم وحنثهم العظيم ، ثم جاء دور المنافقين ، فاستعمل معهم الأسلوب التفصيلى ؛ ليفضح نواياهم ، ويعرى أخلاقهم ، ويزيح الستار المظلم عن مكائدهم وسلوكهم القبيح ، ثم ضرب لهم مثلين يوضحان حياتهم المضطربة بالخوف والرعب والعمى ، وانعدام الأمن فى نفوسهم الشريرة ، كل ذلك تنبيه إلهى رائع لأمتنا أن تكون متيقظة لهؤلاء من دعاة الهزيمة ؛ حتى لايجوسوا خلال كيانها الزكى بالإفساد والتآمر والخيانة العظمى والعمالة الحقيرة لكل عدوّ للأمة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] إنه خلق يدل على الجبن والحقارة . فلكل منافق ظاهر خادع وباطن مظلم ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخدَعُونَ إلاَّ أنفُسَهُم وَمَا يَشعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩] كل حرفتهم الخديعة ، فلن ترى المنافق إلا مخادعاً ، لكن خداعه ينقلب فى النهاية على نفسه، وينكسه على رأسه ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠]

وهو النفاق والخيانة وفقدان الثقة فى مجتمعهم ﴿ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكذِبُونَ ﴾ وقد وصف عذابهم بأنه أليم ؛ لأن سلوكهم أشد إيلاما للمؤمنين من سلوك الكافرين ، فكان عذابهم من جنس سلوكهم الأليم اللئيم ، وكذبهم الغادر الأثيم الذى هو مفتاح الأخلاق لكل منافق .

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وَإذا قيلَ لَهُم آمنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ألاَ إنَّهُم هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعلَمُونَ * وَإذَا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإذَا خَلَوا إلَى شَيَاطينهم قَالُوا إنَّا مَعَكُم إنَّما نَحنُ مُستَهزئُونَ * اللهُ يَستَهزِئُ بِهِم وَيَمُدُّهُم فِي طُغيَانِهِم يَعمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١١ ـ ١٥].

ثلاثة أخلاق هنا فضحت حقيقتهم : أولها : أنهم أهل الفساد والتخريب ولكنهم أهل دعاية كاذبة بأنهم من رواد الإصلاح . وثانيها : أنهم يتهمون المواطنين الشرفاء وأهل الدين والاستقامة بالسفاهة : ومعناها الجهل. وثالثها : أن لكل منهم وجهين ، فهم يتظاهرون بالتبتل والإيمان عند المؤمنين ، ويتحولون إلى شياطين عند شياطين الكفر ، ولكن الله جل وعلا أعد لهم مصيراً محتوما سيجعلهم هزءاً وسخرية للمؤمنين عاجلاً أو آجلا . أما حالاتهم النفسية وما تموج به نفوسهم من رعب وترويع ، وما تركته فى نفوسهم الخبيثة أنوار الإيمان التى تلألأت من حولهم ، فقد احتلت هذه الأمور خمس آيات ستكون موضوع حديثنا إن شاء الله فى الصفحات القادمة .

# لطائف فى تصوير المنافقين

يضرب الله الأمثال فى كتابه العزيز على هيئة تشبيهات فى غاية اللطف والطرافة والجمال ؛ ذلك لأنها صور بيانيّة تقرب المعنى إلى الأذهان ، وتجمل الأفكار ، فتحولها من حقائق علمية صارمة إلى طرائف بلاغية ممتعه مقنعة .

انظر إليه وهو يضرب مثلاً لليهود الذين استؤمنوا على التوراة ليتلوها وليعملوا بها ، ولينشروا فى الكون تعاليمها ، فكان أن اشتروا بها ثمناً قليلاً ، وحرفوا كلمها عن مواقعه ، وغفلوا عما فيها من أحكام الله فى صورة من المضحكات المبكيات ، ليظلوا سخرية للناس على ما فرطوا فى الأمانة . يقول الله تعالى : **﴿مَثَلُ الَّذينَ حُمّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحملُوهَا كَمَثَلِ الحمَارِ يَحملُ أسفَاراً** ـ أى كتباً ـ **بِئسَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَاللهُ لايَهـدى القَومَ الظَّالمينَ﴾** [الجمعة : ٥] ما نفع الحمار وإن حمل من كتب العلم ما حمل ؟! وإنك لواجد أمثالاً فى سورة البقرة لمن ينفقون أموالهم رئاء الناس ويتبعون الصدقة مناً على الفقير وإيذاءً له ، وأمثالاً لمن ينفقون أموالهم طلبا لرضاء الله ، كما تجد فى سورة إبراهيم عدة أمثال بعضها للكلمة الطيبة ، وأخرى للكلمة الخبيثة ، وثالثة .. ومثلاً لأعمال الخير التى قد تصدر عن الكفار ، وما أجمل المثل الذى ضربه الله لنوره فى سورة النور .

**﴿ اللهُ نورُ السَّموَاتِ وَالأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمشكَاةٍ فِيهَا مِصبَاحٌ ﴾** [النور : ٣٥] أى كطاقة فيها مصباح لكنه مصباح فى غاية الوضاءة والأناقة والجمال وسحر الإضاءة ، ثم ختم الآية الكريمة بقوله : **﴿ وَيَضرِبُ اللهُ الأمثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بِكُلِ شىء عَلِيم ﴾** [النور : ٣٥] .

على أن من أطرف الأمثال القرآنية ، ذينك المثلين اللذين ضربهما الله تبارك

وتعالى للمنافقين فى سورة البقرة ، وقد وعدت فى صفحة سابقة أن أجعلهما موضوع هذه الصفحات ؛ لما فيهما من تصوير بلاغى يأخذ بمجامع القلوب .

يقول الله عز وجل فى المنافقين : ﴿ **مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذى استَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَت مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بنُورِهِم وَتَرَكَهُم فِى ظُلُمَاتٍ لَايُبصِرُونَ * صُمٌّ بُكمٌ عُمىٌ فَهُم لَايَرجِعُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧ ـ ١٨]، وثنى جل وعلا بمثل آخر فيقول جل من قائل:﴿ **أو كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعدٌ وَبَرقٌ يَجعَلُونَ أَصَابعَهُم فِى آذَانهم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوتَ وَاللهُ مُحيطٌ بالكَافرين * يَكَادُ البَرقُ يَخطَفُ أبصَارَهُم كلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوا فيه وإذَا أَظلَمَ عَلَيهِم قَامُوا وَلَو شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمعِهِم وأَبصَارِهِم إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شىء قَديرٌ** ﴾ [البقرة ١٩ ـ ٢٠] .

وهنا أرى مناسباً أن أسجل الإشارات البلاغية التى تزخر بها الآيات :

**أولاً** : كلا التشبيهين من النوع التصويرى الذى ينتزع الصورة من عدة مشاهد ليصبح المعنى لوحة فنية تعرض الفكر متلألأً مصوراً جذابا .

**ثانياً** : لايوجد فى لغة الآيات إلا ثلاث كلمات تتطلب إيضاحاً ، وإلا فسائر الكلمات متألقة بينة ساطعة . الكلمة الأولى ﴿ **كَصَيِّبٍ** ﴾ ومعناها كوابل غزير من المطر ، وبين يديها إيجاز حذف ؛ إذ المقصود تشبيه المشركين بأصحاب صيّب، أى بقوم فى بر مكشوف أصابهم صيب هتان ، والكلمة الثانية كلمة ﴿**قَامُوا**﴾ من قوله تعالى : ﴿ **وَإذَا أَظلَمَ عَلَيهِم قَامُوا** ﴾ وهى بمعنى جمدوا فى مكانهم فلم يتحركوا من قول العرب : قام الماء فى النهر : إذا جمد فلم يتحرك. ثم كلمة ﴿ **لا يَرجِعُونَ**﴾ ويقصد بها والله أعلم : لايهتدون إلى طريق العودة .

**ثالثاً** : المنافقون أسوأ حالاً من المشركين والكافرين وأكثر اضطراباً وصراعاً

نفسياً؛ لأن الكافر قد عمى عن الحق وتعود العمى ، ومن العُميان من لايزال يتأقلم العمى حتى يصبح وقد سكنت إلى العمى نفسه . أما هؤلاء المنافقون فقد صورهم القرآن العظيم بركب كانوا يمشون فى ظلمة حالكة ، فاستوقدوا لهم ناراً ليروا ما حولهم ، وفى كلمة ﴿ اسْتَوْقَدَ ﴾ ما يدل على أنهم تعبوا فى إيقادها ، إذ لو كانت وسائل الوقود متوفرة لقال : ( أوقَدُوا ) وقولك للخادم : استوقد ناراً لا يشبه فى المعنى قولك : أوقد لنا ناراً ، إذ الأولى تحمل معنى الحصول على وسائل الوقود ، بينما الثانية توحى أن كل شىء مهيأ ولم يبق إلا الإيقاد . وهؤلاء الركب طابت فى أول الأمر نارهم وجزلت وأضاءت ما حولهم، ولكن فجأة ذهب الله بها فانطفأت دفعة واحدة ، وهنا أصبح الظلام مضاعفاً بعد أن تعودت عيونهم النور . لقد تحول ذلك النور مصيبة بعد أن كان متعة ، وتحول تعبهم فى الحصول على النور خسرانا وشقاءً ، وأصبح من يخبط فى الظلام أحسن حالاً منهم ؛ لأنه تأقلم مع الظلام ، أما هؤلاء فما زادهم النور إلا ظلاما ومن ثم طمست بصائرهم فلم يعرفوا كيف يرجعون .

أما أولئك الذين سافروا ليلاً فى بر مكشوف ، فقد أصابهم وابل عنيف على هيئة عاصفة ممطرة شديدة البرق والرعد والظلام فسادهم الذعر ، وكان البرق يضىء لهم فينتهزون الفرصة ويمشون فيه ، ولكن حين يظلم يتجمدون فى أماكنهم . إن النور الوارد فى الآيتين هو نور الإيمان لاح لهم وغمر ما حولهم فما زادهم إلا خسرانا ولا أفادهم إلا مقتاً وحقداً ، وبذلك كان الكفار الخابطون فى الظلام أشرف من هؤلاء الذين أظلهم النور ودخل قلوبهم فآمنوا ثم كفروا ، وبذلك طبع على قلوبهم واستحقوا الدرك الأسفل من النار .

أسأل الله أن يملأ قلوبنا وإياكم بنوره الذى لا يخبو .

# لطائف من قصة خلق آدم

إن الذى يقرأ قصة خلق آدم عليه السلام كما وردت فى سورة البقرة ، لابد أن يقف عند ملاحظات تستحق التأمل والنظر والاعتبار فيتساءل :

لماذا قال ربك للملائكة ﴿ **إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة : ٣٠] ؟ وما معنى خلافة آدم ؟ وهل نقول : إنه خليفة الله في الأرض ؟ ولماذا يعترض الملائكة الأبرار فيقولون : ﴿ **أَتجعَلُ فِيهَا مَن يُفسدُ فِيهَا وَيَسفكُ الدِّمَاءَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] ؟ وكيف أقنعهم الحق جلّ وعلا بأربع كلمات ﴿ **إِنِّى أَعلَمُ مَالاَ تَعلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] ؟ وما الأسماء التى علمها الله آدم ؟ ولم أسجد الملائكة لآدم حالما تعلم الأسماء ؟ ولماذا نسى آدم أمر ربه وتلاشى عزمه إزاء إغواء الشيطان ؟ وما الكلمات التى تلقاها آدم فتاب بها عليه ربه ؟ وهل كانت الجنة هى جنة الله التى فى السموات أم هى فى الأرض ؟ وما معنى ﴿ **اهبِطُوا مِنهَا جَمِيعاً** ﴾ [البقرة : ٣٨] ؟ فأقول وبالله التوفيق :

يبدو أن كوكب الأرض هو من أشرف وأعظم وأجل الأجرام السماوية ، فالقرآن الكريم يذكر أن الأرض قد استغرقت أربعة أيام من الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . يقول الله في سورة فصلت : ﴿ **قُل أَئنكُم لَتَكفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرضَ * فِى يَومَينِ وَتَجعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقوَاتَهَا فِى أَربعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائلِينَ * ثُمَّ استَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرضِ ائتِيَا طَوعاً أَو كَرهاً قَالَتَا أَتَينَا طَائعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبعَ سَمَوَاتٍ فِى يَومَينِ وَأَوحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفظاً ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ** ﴾ [فصلت : ٩ ـ ١٢] بل إن القرآن ليعلن أن كل ما فى

السموات مسخر لسكان الأرض ، يقول الله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ **وسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ جَمِيعاً مِّنهُ** ﴾ [الجاثية : ١٣] ويبدو أن الله جل وعلا لم يشرع فى خلق السموات إلا بعد أن أتم خلق الأرض وخلق فيها كل ما يلزم للحياة الإنسانية من قوت وماء وهواء وزروع وثمار .

وهذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى قبل آيات خلق آدم مباشرة : ﴿ **هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَا فِي الأَرضِ جَمِيعاً ثُمَّ استَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم** ﴾ [البقرة : ٢٩] . وقد اكتشف العلم الحديث أن هنالك عوالم سماها : عوالم السديم ، وهو مادة دخانية ، وأن هذه العوالم بعضها آخذ فى التجمد والبروز ، كما حدث فى السابق للشمس إذ كانت دخاناً فأمرها الله بحكمته أن تبرز جرماً سماوياً مشتعلاً مسخّراً لخدمة الأرض . وقد جاء فى بعض التفاسير أن الله جل وعلا أسكن الأرض أجيالاً من الجن فأفسدوا فيها ، ثم أنزل فيها الملائكة فلم يستفيدوا من خيراتها ، وأقواتها ، ولم يتصرفوا فى عمارتها ويستنبطوا كنوزها المخبأة ، وعندئذ اقتضت حكمة الله جل وعلا أن يخلق من نفس طين الأرض إنساناً ثم يستخلفه ويعطيه من لدنه سلطة وتصرُّفاً واختياراً ليعمر الأرض بمواهبه وعقله وإلهام ربه جلّ وعلا .

﴿ **وإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة : ٣٠] . لا إله إلاهو ، يجمع ملائكته ويخبرهم أنه قرر وقضى أن يخلق آدم ، وذلك لأنه عالم بعلمه الأزلى أن هؤلاء الملائكة سوف يسّخرون لحفظ بنى آدم وكتابة أعمالهم ورفعها إلى الله . وقال بعض المفسرين : بل هو درس من الله عز وجل للناس أن يستشيروا قبل العمل ، مع أنه جلت عظمته غنى عن المشورة . ومعنى كلمة خليفة : أن الإنسان مستخلف فى الأرض ليعمرها ويسبر أغوارها وأجواءها ؛ لأنه أعظم المخلوقات إدراكا لها وصلة بها إذ هو منها وإليها ﴿ **مِنهَا خَلَقنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنهَا نُخرِجكُم تَارَةً أُخرَى** ﴾ [طه : ٥٥].

ويبدو أن الملائكة كانت لديهم خلفية عن الإنسان وغرائزه ، حتى قبل خلقه فقالوا لربهم فى تعجب : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة : ٣٠] مع أننا نملؤها تسبيحاً وتعظيما وتنزيها لربنا ، فلم يزد على أن قال لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] إنه جلّ وعلا خلق الأرض ليقيم عليها أعظم آيات قدرته المعجزة، وذلك بخلق قوتين عليها قوة الخير الداعية إلى الإيمان والتوحيد ، وتدبر خلق الله ، وعمارة الأرض بالإنتاج والعمل الصالح ، وقوة الشر متمثلة فى الشيطان الذى أعلن العداء للإنسان وتوعّد أن يغوى الناس أجمعين .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ،وهنا أراد الله أن يرى الملائكة أعظم موهبة خوّلها الله للإنسانية ،وهى موهبة العقل المؤهل للتعليم ، وهى موهبة يبدو أن الله جلّ وعلا اختص بها الإنسان ؛ لأنه عرض الأسماء على الملائكة فلم يستطيعوا استيعابها واختزانها ، فلما أظهروا عجزهم أمر آدم أن ينبئهم بجميع الأسماء ، فاستظهرها ، وإذ ذاك قال الله لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣] ثم أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وهو شرف وكرامة للإنسان دلت على أنه إذا حفظ موهبة ربّه كان عند الله أشرف من الملائكة ومن جميع المخلوقات .

لكن القوّة الشريرة متمثلة فى إبليس عصت أمر ربّها ، ومع أن آدم رأى بعينه عداوة إبليس متمثلة فى رفضه السجود له ، فإنه انخدع فيما بعد بإغرائه وأكل من الشجرة ، وفى هذا يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] وقد تمكن الشيطان أن ينفذ إلى عقل آدم من باب الشهوات شهوة البطن : إذ أغراه بالأكل من الشجرة الممنوعة

،وشهوة الفرج : إذ سلط عليه حواء فأغراها أن تبدأ .

ومن ذلك الحين والشيطان لايسيطر على الإنسان إلا من نقطتى ضعفه ، ألا وهما شهوة البطن وشهوة الفرج ، لكن الله جل وعلا وهو التواب الرحيم علم آدم وزوجه كلمات يبدو أنها كلمات التوبة : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف : ٢٣] فلما توجه بها آدم إلى ربه نادماً باكياً مخلصاً ناصح التوبة تاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم .

أما أن الجنّة التى خرج منها آدم كانت فى السماء ، أم فى ربوة القدس ذات القرار والمعين ؟ فليعلم الأخ القارئ أن الله جلّ وعلا لايعجزه أن يخلق فى الأرض جزءاً من جنة السماء ، كما لا يعجزه أن يهبط آدم من جنة الخلد التى فى السماء ، والمهم أن آدم عصى ربه ، فهتكت المعصية ستره ، وذهبت بحلمه فهام على وجهه وهامت زوجته على وجهها حتى شاء الله أن يهديهما ، ويرحمهما ، فيتعارفا على عرفات ، كما ورد فى أقوال المفسرين ، ولعلّ ذلك كان إشارة كريمة من الله أن عرفات سيظل أجلّ مكان لتعارف المؤمنين .

# لطائف حول بعض آيات الله فى الكون

يقول الله جل جلاله فى سورة البقرة : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٣ ـ ١٦٤].

هاتان آيتان من سورة البقرة لفت نظرى أنهما وردتا متتابعتين على الرغم مما يبدو من اختلاف موضوعيهما ، وسوف نذكرهما ثم نقف عندهما وقفات نستهدى فيها نورهما ، ونتأمل إعجازهما البليغ ، وبلاغتهما المعجزة ، سائلين الله أن يكشف لنا من أسرار كتابه ما يزيد يقيننا ، ويثبت على التوحيد قلوبنا ، وينير إلى التوفيق طريقنا .

الآية الأولى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ تعتبر فى موضوعها من أشرف آيات القرآن الكريم ؛ لأنها تشتمل على كلمة التوحيد مضافاً إليها اسمان عظيمان من أسماء الله الحسنى وهما : اسمان يملآن القلب استبشاراً وأملاً فى رحمة الله ، وقد جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ ﴾ خطاب لجميع المؤمنين ، لكى يعرفوا إلههم حق معرفته ، فيعبدوه حق عبادته . إنه إله واحد ، أى متفرد بصفات العظمة والكمال وبصفات الجلال والجمال ، إنه واحد ليس له كفء ولا نظير ، لا شبيه ولا مثيل ، وهو واحد فى تفرده بالإيجاد والعدم ، والخلق والرزق ، ومن ثم جاء قوله تعالى : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى لا معبود بحق سواه ، وما يستحق أن يعبد بحق إلا هو ؛ لأن تفرده بالصفات

العلى يقتضى إفراده بالعبادة الخالصة المخلصة ، وقد ختمت الآية الكريمة بقول الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ لأن جميع ما سبقهما من كلمات الآية يبعث المهابة والإجلال والخشية ، فجاء ختام الآية ليبعث البشرى والأمل والرجاء الجميل ، وبذلك يكون المؤمن دائماً بين إجلال الله وخشيته وتعظيمه وبين الأمل والرجاء وحسن الظن بهذا الإله الواحد القهار ، وما أجمل أن يرى المؤمن ربه جباراً عظيم الجبروت ، وفى الوقت نفسه رحيماً وسعت رحمته كل شىء ولم تضق حتى بأهل الكبائر ، إذا هم انعطفوا إلى رحاب الإيمان والتوبة ، ولو فى آخر يوم من حياة طويلة .

وقد لفت نظر المفسرين أن الحق جل جلاله أتبع آية التوحيد هذه بآية كريمة عرضت إلى بدائع خلق الله ليبين أن معرفة هذا الإله الواحد تأتى عن طريق التأمل والتدبر فى بديع آياته وعظيم مخلوقاته ، وما أجمل ما قال الشاعر الزاهد مقتبساً معناه من القرآن :

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ ؟!

وفى كل شىء له آيـــة ... تدل على أنه الواحـــد

ولله فى كل تحريكـــة ... وتسكينة أبداً شاهـــد

وليس هذا هو الموضع الوحيد الذى يتبع الله فيه آية التوحيد بآيات الخلق ودلائل العظمة ، يقول الله جل وعلا فى سورة آل عمران : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران ١٨٩] ثم يتبعها بآية التدبر فى خلق السموات والأرض ، ليعرف العبد ربه عن طريق آياته ومخلوقاته فيقول بعدها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ

**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾** [آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١].

إن هذا الأمر هو من كرامات الإسلام ودلائل سموه ؛ لأن ثمة أدياناً أخرى كانت تحرم على الناس أن يفكّروا بحرية ، لكن هذا الدين القيم يجعل التفكر والتدبر والتأمل منارات تفضى إلى رحاب الإيمان ، ودروباً مضيئة تقود العبد إلى معرفة ربه . يقول الله جل وعلا : **﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾** [فاطر: ٢٨] أما آيات الله ومخلوقاته التى ذكرها الله تبارك وتعالى فهى كما يلى: خلق السموات والأرض ، تعاقب الليل والنهار ، السفن التى تمخر عباب الماء محملة بما ينفع الناس ، إنزال المطر لتحيا به النباتات والحيوانات ، تصريف الرياح فى وجهاتها المختلفة ، السحاب المسخر بين السماء والأرض منه ممطر ومنه غير ممطر .

والثلاث آيات الأولى من هذه الآيات تشاهد فى كل يوم ، أما الثلاث الأخيرة فهى موسميه يشاهدها الإنسان فى مواسم من العام وتغيب فى مواسم أخرى ، وقد ختم الآية الكريمة بقوله : **﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾** [البقرة : ١٦٤] مشيراً إلى أنه لا يستفيد من الآيات إلا أصحاب العقول المفكرة المتأملة ، ولا يدركها إلا من كان له قلب ، أما الغافلون فيمرون عليها وهم عنها معرضون. إن الكون كله شاهد وحدانيته لكن شهادته لا يسمعها إلا المؤمنون ، أما غيرهم فلا تغنى عنهم الآيات والنذر .

ويتساءل بعض من يتلون هذه الآية : لماذا ذكر الله جل وعلا الفلك أى السفن التى تحمل الناس والبضائع فى وسط هذه الآيات العظيمة مع أنها لا تبدو فى هول خلقها وعظمة مظهرها كسابقاتها ولاحقاتها ؟! والحق أن مشاهدة الحديد سائراً على الماء هو أمر يبعث الإيمان ، ولكن الجواب الشافى هو ما أورده الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله إذ يقول وهو يفسر هذه الآية :

أشهد ما أحسست عمق هذه اللفتة ـ وهو يعنى السفن الجارية على الماء ـ قدر ما أحسست ونقطة صغيرة فى خضم المحيط تحملنا وتجرى بنا ، وليس حولنا إلا الموج المتلاطم ، والزرقة المطلقة ، ولا شيء إلا قدرة الله ، وإلا رعاية الله ، وإلا الأمر الإلهى الحكيم العجيب الذى أمر بقدرته الماء أن يحمل هذا القدر الهائل من أطنان الحديد والبضاعة ، والخلائق ، وكل ما ينفع الناس ، فسبحان من سيرها بقدرته وجعلها آية وذكرى للناس ، وخصوصاً إذا تلاطمت من حولها أمواج كالظلل أو كالجبال ، ورأى الناس فيها الموت عياناً ثم امتدت إليهم يد العناية فنجتهم من الكرب العظيم .

اللهم انفعنا بالآيات ، وخذ بيدنا إلى الصالحات ، وارفعنا بالقرآن أعلى الدرجات .

# حول آية جمعت خلاصة وافية للتصور الإيمانى لدى المسلم

هذه آية من سورة البقرة جمعت خلاصة وافيةً شافية للتصوُّر الإيمانى لدى المسلم ، وخلاصة أخرى للأعمال الصالحة التى تثبت فى نفس المؤمن هذا التصور ، وقد اشتملت هذه الآية على خمسة من أركان الإيمان الستة ، وثلاثة من أركان الإسلام ، وشعبتين عظيمتين من شعب الإيمان . أما مقدمة هذه الآية فهى رد مفحم على اليهود الذين غاظهم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام .

وإنى إن شاء الله مثبت نص الآية الكريمة ثم متبعها بما اشتملت عليه من بلاغة جميلة وأحكام جليلة :

يقول الله عز وجل : ﴿ **لَيسَ البرَّ أن تُولُّوا وُجُوهكُم قبلَ المشرقِ والمَغربِ ولَكنَّ البرَ مَن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّين وآتَى المالَ علَى حُبِّه ذَوِى القُربَى واليَتَامَى والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائلِين وفِى الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والموفُونَ بعهدهِم إذَا عاهَدُوا والصَّابرِين فِى البأسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البأسِ أُولَئكَ الذينَ صدَقُوا وأُولَئكَ هُمُ المُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

هذه الآية الكريمة العظيمة الجامعة لها مناسبة يمكن إذا ذكرناها أن نلقى ضوءاً على إشاراتها المعنوية . لقد كان قدوم النبى ﷺ فرحة للمؤمنين ، فقد روى الترمذى وأحمد بإسناده عن أنس بن مالك قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ المدينة أنار منها كل شىء . لكن ذلك المقدم الكريم كان غيظاً وألما وحسرة لليهود ، فقد حسدوا العرب على ما آتاهم الله من فضله ،

ونسوا أن الله قد آتاهم النبوة من قبل فما حفظوها ولا أثبتوا أنهم وعاء صالح لها . ومع أن النبى ﷺ عقد مع اليهود معاهدة حسن جوار ، فقد ظلوا مصدر إزعاج وفتنة وشكوك للمسلمين ، وانضم إليهم المنافقون فكانوا مصدر تنغيص للنبى صلى الله عليه وسلم وصحبه . ولقد كان النبى ﷺ والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس فطفق اليهود يتبجحون ويقولون للمؤمنين : لولا أن ديننا أصدق من دينكم ما تبع نبيكم قبلتنا . وكان رسول الله ﷺ يقلب وجهه فى السماء داعيا ربه أن يوليه القبلة التى يرضاها شطر المسجد الحرام ، فاستجاب الله جل وعلا لنبيه الكريم ، ونزل القرآن الكريم بتحويل القبلة من القدس إلى المسجد الحرام . هنالك قرت عين رسول الله ﷺ ، ولكن اليهود طار صوابهم ، وتميزوا غيظاً حين استقل الإسلام بقبلته الشريفة هذه . وأوضع شياطين اليهود خلال المسلمين يبغونهم الفتنة ويسألونهم سؤالا لا يقصدون به إلا زعزعة عقيدة المسلم من جذورها ، كانوا يقولون للمسلمين : لقد صليتم إلى قبلتنا قريباً من عامين فما حكم صلاتكم التى صليتموها ؟ إن كانت صحيحة فقبلتنا هى الصحيحة وقبلتكم الحالية هى الخطأ ، وإن كانت صلاتكم الأولى باطلة فنبيكم قد هداكم إلى الباطل، ويردفون قائلين إن نبيكم ما حوّل القبلة إلا لأن مكة بلده ! يريدون بهذه الأراجيف أن يزعزعوا ثقة المسلمين فى صدق رسولهم ﷺ . ويبدو أنهم قد أطالوا الجدال فى أمر القبلة حتى شغلوا الناس بهذا الأمر ، وهنا نزلت هذه الآية الكريمة تقول لهم : ﴿ **لَيسَ البرَّ أن تُولّوا وُجُوهكُم قِبَلَ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ وَلَكِنَّ البِرَ مَن آمَنَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ** ﴾ ومعنى هذا الكلام العظيم ، أن البر والإحسان والفضائل لاتغرس فى النفوس بالتوجه شرقاً أو غرباً لكنها ثمار لغراس الإيمان والعبادة وطاعة الله ، والله جلّ وعلا فى كل الجهات، وهو واسع فى ملكه عليم بالعباد سرهم وعلانيتهم. وهذه بعض الإشارات الدقيقة التى وردت فى الآية الكريمة :

**أولاً**: فى قوله تعالى : ﴿ لَيسَ البِرَّ ... ﴾ قدم الخبر وهو البر للاهتمام به ، ولاعجب ؛ فالبر كلمة جامعة لكل الإحسان والحلال ، وفى الحديث الشريف: « جئت تسألنى عن البر والإثم » أى عن الحلال والحرام ، وقد كرر كلمة البر فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ .. ﴾ لتأكيد هذه الكلمة الجامعة ولفت الأنظار إليها . وفى كلمة البر إيجاز قصر ، كل الفضائل والطاعات تندرج تحتها .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ ﴾ إيجاز حذف تقديره : ولكن صاحب البر هو من آمن بالله .

**ثالثاً** : العبادة مظهر وحقيقة ، والعبرة فى قبول العبادة ليست بالمظاهر ولكن بالحقيقة ، فمظهر العبادة يكون بالحركات والتوجه إلى القبلة والسعى إلى المسجد، أما حقيقة العبادة فهى إخلاصها لله جل وعلا دونما اهتمام بالناس أو بالسمعة أو بالرياء ، وبهذا الإخلاص يكون القبول كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

**رابعاً** : فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى ﴾ إطناب بليغ فى كلمتى على حبه ؛ إذ أعظم ما تكون الصدقة من المال المحبب إلى النفس ، والمقصود بهذه الإشارة هو الصدقات ، أما الزكاة فقد ذكرها الله جل وعلا مع الصلاة بعد هذا .

**خامساً** : فى قوله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي البَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأسِ ﴾ جاءت كلمة والصابرين منصوبة ، مع أن ما قبلها مرفوع ، هو قوله تعالى : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إِذَا عَاهَدُوا ﴾ . وهذا الاستئناف يدل على الاهتمام بخصلة الصبر ، إذ قدر لها عاملاً خاصاً تقديره ( وأخص ) أو ( أعنى ) وفى هذا أيضا إيجاز حذف للعامل الذى نصب كلمة ﴿ وَالصَّابِرِين ﴾ .

**سادساً** : فى الآية أركان الإيمان ما عداً واحداً وهو الإيمان بالقدر خيره وشره ، وفيها الصلاة والزكاة والصدقة ، وفيها من شعب الإيمان : الوفاء بالعهد والصبر فى الشدائد .

**سابعاً** : ختام الآية : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ ، ومعنى ذلك أن من أراد مراتب الصديقين والأبرار والصالحين فعليه بهذه الخصال .

ترى لو أن أمة محمد أخذت نفسها بهذه الآية فقط أكانت أطولها تتدنى إلى دركها الحالى ؟ لو أن أمة محمد أخذت بحقيقة البر فآمنت بربها وبذلت أحب أموالها فى وجوه البر ، وأقامت الصلاة ، وآتت الزكاة ، وصبرت وضحت حين البأس . ألا يكفيها هذا أن تكون قائدة الدنيا وهادية الناس ؟

# القرآن الكريم يحذر من خطر المنافقين ويدعو للاقتداء بالمؤمنين

هذه أربع آيات من سورة البقرة ، تعرض لنمطين من أنماط الناس ، أولهما من أشد خطراً على الإسلام والمجتمع الإسلامى ، والثانى من أعظم الناس إيماناً بالله وتضحية فى سبيله ، والله تبارك وتعالى حين يعرض للنموذج الأول فهو إنما يحذر أمة محمد من شرهم المستطير ، وإذ يعرض النموذج الثانى يحث كل مسلم أن يقتدى بعطائهم الكبير .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٧]

وإنى إن شاء الله واقف بالإخوة المستمعين فى ظلال هذه الآيات الكريمات نستخلص منها دروساً وعبراً لا يضل من تزود بها .

**أولاً** : مع أن المنافق الذى نزلت فيه هذه الآيات معروف ، إلا أن عدم ذكر الأسماء دليل على مستوى رفيع فى الذوق التعبيرى ، والأسلوب التربوى، إذ التشهير يحدث رد فعل لا تؤيده التربية الحكيمة ، وقد كان رسول الله ﷺ يرى المنكر فى قوم بعينهم ، فإذا أراد أن يردعهم لم يشهر، وإنما كان يخطب فيقول: « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ؟! فيكون فى هذا الأسلوب الكريم ، ما يعطفهم إلى الحق ، ويبعد بهم عن الباطل.

**ثانياً** : ورد فى مناسبة نزول الآية : أن الأخنس بن شريق كان رجلاً قوى العارضة ذلق اللسان ، محدثاً جذاب الحديث ،وكان يبدو لمن يجالسه كأنه من الصالحين ، لما يرى من حلاوة لسانه ، ووداعة منظره ، وقد حضر إلى رسول الله ﷺ فأظهر إسلامه ، وأشهد الله على إيمانه بقلبه ، لكنه حين خرج من المدينة حرق زروع المسلمين ، وعقر حميرهم ! والحق أن الآية تتحدث عن كل منافق حلو اللسان يعطيك من حلو لسانه ما يخدعك من فظائع أعماله ، وهذا الصنف غالباً ما تنكشف فضائحه فتجد منه لدداً فى الجدال والمخاصة ، ويقنعك كل مرة ببراءته !

**ثالثاً** : هذا الصنف قد كثر فى أمة محمد فى هذه الأيام واستطار شره واستشرى بلاؤه ، فكثير ممن وكلوا فى مسؤوليه مالية أو سياسية تجده حين تلقاه متبتلاً ، وربما تسبل عينه بالبكاء ، وهو يذكرك بالحرام والحساب ، وأحوال الأمة ، ولشد ما تفاجئك الدهشة، حين يفتضح أمره فيتكشف عن لص محترف ، أو عميل حقير تاجر بحلاوة لسانه وذرف دموع التماسيح ؛ ليستر بهما خيانته ولصوصيته.

**رابعاً** : مثل هذا النموذج فى الأمة خطير على حرثها ونسلها ، أى على أموالها وأنفسها ؛ إذ هو فى سبيل مصالحه لا يبالى أن يدمر اقتصاد المسلمين ، ويجنى على أبريائهم ؛ لأنه حين يتغلغل فى حواشى الأمة ، عن طريق دعايته الزائفة ، ولسانه الذلق الجذاب ، واستعماله مظاهر الدين ، والحلف الكاذب ، أقول حين يتمكن من هذا ، فإنه يصبح فى مركز يكشف به نقاط ضعفها ، ومن ثم يضرب أمته ضربة تصيب مقتلها .

**خامساً** : ومن خصائص هذا النمط من البشر أنك حين تنبهه بلطف إلى خطئه وتذكره بربه ، فإنه يشمخ بأنفه عن الإرشاد ؛ لأنه يرى نفسه قمة فى الصلاح والعلم والفصاحة، وهو بذلك لا يقبل وعظاً ولا توجيهاً . وفى

قوله تعالى : ﴿أخذته العزة بالإثم ﴾ تعبير فى قمة البلاغة ؛ لأن العزة تكون بالإيمان ، والصلة بالله ، أما حين تكون العزة بالإثم ، فهو تناقض صلف .

ولقد شاع هذا التناقض فى أيامنا هذه ، فلرب شاب طبقت الحي فضائحه حتى استعاذت الأرض من شره ، إذا خلوت به تقول له : اتق الله احمرت عيناه، وأمطرك بوابل غضبه يقول لك : أنا أحسن منك ومن كل أمثالك ، ثم لا يزال ينفخ خرطومه حتى يشعرك أنك أجرمت فى توجيهه ؛ لأنه فى نظر نفسه كامل! ولعل أباه يلقاك فى اليوم الثاني فيهددك بالانتقام لأنك اعتديت على ولده وظلمته . إن قوله تعالى : ﴿ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإثم ﴾ تعبير عن نفس خبيثة تستمد من الإثم أنفتها وعزتها ، مع أن العزةَ هى بالإيمان وبالله جل جلاله ، ولهذا فقد دل الله عز وجل على عزته الشيطانية ، بأن أعدله فراشاً ومهداً من جهنم ليكون استقباله مناسباً لعزته ولتقول له الملائكة حين تبوئه مهاده : ﴿ذُقِ إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الكَرِيم ﴾ [الدخان : ٤٩] مثل هذا الآثم هو : الذى تعتله الملائكة عتلاً إلى سواء الجحيم ، حتى إذا صبت فوق رأسه عذاب الجحيم ذكرته بالعزة التى ارتضاها لنفسه الكافرة ، ألا وهى الشموخ بالآثام فتقول له : ﴿ ذُقِ إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الكَرِيم ﴾ .

ولقد سمعت بنفسى شاباً من النمط المفسد حين تهدده أحد الصالحين أن يخبر عنه المسؤولين يقول للرجل الصالح : أنا صديق أشخاص مهمين يستطيعون إذا أوعزت إليهم أن يدخلوك السجن حتى تموت فيه . وتبين فعلاً أن الشاب يساهر بعض صغار الهمم من شواذ الأذواق ، وهم ممن لا قيمة لهم ، لكنهم يتقنون إلصاق التهم بالأبرياء .

**سادساً** : وتشير الآية الأخيرة إلى نمط عظيم من الشباب والكهول باعوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله ، فما يبالون على أى جنب فى الله يكون

مصرعهم ما داموا قد وفوا بعهد الله ، واستبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، وقيل إنهـا نزلت فى صـهـيب ـ رضى الله عنه ـ حين تنازل عن مـاله لمشركى مكة ؛ ليسمحوا له بالهجرة فهاجر ـ رضى الله عنه ـ بلا مال ولا طعام ، هؤلاء سيكون الله جل وعلا رؤوفاً بهم لأنهم أسلموا نفوسهم إليه وتوكلوا فى كل أمورهم عليه ، فقرعوا بذلك أبواب كريم بابه أوسع الأبواب ورزقه بغير حساب . نسأل الله أن يجعلنا ممن باعوا لله أنفسهم واشترى بها جنته ورضوانه .

وبعد : ففى الآيات صور بلاغية رائعة أذكر منها قوله تعالى : ﴿ **ويشهد الله على ما فى قلبه** ﴾ فهى صورة لمدى استهانة المنافق بربه ؛ لأن القلوب بيد الله وهو على كل ما فيهـا شهيد ، والمنافق يشهد الله على كذبه ونفاقه ونواياه الإجرامية ، وفى قوله تعالى : ﴿ **سعى فى الأرض** ﴾ سعى معناها : ركض . وفى هذا التعبير كناية عن نشاطه الشديد فى الإفساد ، وفى قوله تعالى : ﴿**أخذته العزة بالإثم** ﴾ أخذته معناها : سيطرت عليه كقوله تعالى : ﴿ **أخذوا وقتلوا تقتيلا**﴾ فهو مسيطر عليه من الشيطان .

# معالم طريق النصر

هذه آيات من سورة البقرة ، تبين للمؤمنين معالم طريق النصر ، وهو نفسه أقرب طريق إلى الجنة ، فمن أراد أن يدخل الجنة ، فهذا طريق الوصول لمن شاء أن ينال منازل الأبرار ، وهو طريق مخوف وعر لا يصبر على وعثائه إلا عظماء الرجال ، وشرفاء الأبطال .

يقول الله تعالى : ﴿ **أم حَسِبْتُم أن تدخلُوا الجنَّةَ ولَمَّا يأتكُم مَّثَلُ الَّذينَ خلَوْ من قَبلكُم مَّسَّتهُمُ البَأسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلزلُوا حتَّى يقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذينَ آمَنُوا معَهُ مَتَى نَصرُ الله ألاَ إنَّ نَصرَ الله قَرِيبٌ * يَسألُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ قُلْ مَا أنفَقْتُم مِّن خيرٍ فَللوَالدَينِ وَالأقربِينَ وَاليَتَامَى وَالمسَاكِينَ وَابنَ السَّبيلِ وَمَا تُنفقُوا من خيرٍ فَإنَّ اللهَ به علَيمٌ * كُتبَ عَلَيكُمُ القتَالُ وَهُوَ كُرهٌ لكُم وعَسَى أنَ تكرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خيرٌ لكُم وعَسَى أن تُحبُّوا شَيئاً وَهُوَ شرٌّ لكُم وَالله يَعلَمُ وَأنتُم لاَ تَعلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٤ ـ ٢١٦] ، أقول وبالله التوفيق :

**أولاً** : هذه الآيات توضح سنة من سنن الله ليس لها تبديل ولا تحويل . خلاصة هذه السنة كما ذكرها الله جل وعلا : أن النصر في النهاية يكون للإيمان ، وأن الكفر وأهله مصيرهم الارتكاس ثم الهلاك ، هذا هو ما حصل لرسول الله ﷺ ، وهو ما حصل للذين خلوا من قبله من الرسل ، فما من رسول إلا عانده قومه وأخرجوه ، لكن العاقبة دواماً تكون للمؤمنين.

**ثانياً** : لكن هذا النصر لا يأتي إلا في قمة الشدائد وبعد معارك يذوق فيها المسلمون مرارة الحرب ، وضراء الحياة من بلاء وفقر وفزع ، حتى إذا تميز الخبيث من الطيب وظهر المؤمن من المنافق ، وتمخضت العناصر

في بوتقه البلاء ، استمرت الشدائد بعد ذلك حتى تبلغ القلوب الحناجر. وقيل في هذه الآية إنها نزلت في غزوة الأحزاب حين بلغت القلوب الحناجر ، ثم جاء النصر بعد أن ظن الناس بالله الظنون .

**ثالثاً** : في الآية إشارات بليغة ممتعة ، فالاستفهام الإنكاري في قوله تعالى : ﴿ **أم حَسِبتُم أن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَّثَلُ الَّذينَ خَلَو من قَبلِكُم** .... ﴾ هو إنكار يثبت ضده هو أن دخولَ الجنة، لا يتأتى إلا بأن تمروا بما مر به أتباع الأنبياء من قبلكم من امتحان وبلاء وفي قوله تعالى : ﴿ **مَّسَّتهُمُ البَأسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلزِلُوا** ﴾ صورة بليغة رائعة لعظمة البلاء ، فقد احتملوا الخوف والفزع والفقر ، وتزلزلت نفوسهم بهول المصائب كل ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . وفي قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصرُ الله** ﴾ صورة لقمة الأزمة حين يشرف الرسل أنفسهم على السأم ، ويستبطئون النصر ويهتفون من أعماقهم : متى نصرك يارب ، فقد بلغ السيل الزبى، وأشرف صبرنا على الانتهاء ؟! وهي صورة لعنفوان البلاء الذي لا يطاق .ثم يكون شاطئ السلامة قوله تعالى: ﴿ **ألاَ إنَّ نَصرَ الله قَرِيب** ﴾ وهو تذييل على شكل حكمة بالغة ومثل بليغ، ومعناه : حينما تشتد الأمور وتزيغ الأبصار، فيعلم المؤمنون أن نصر الله على الأبواب إذا اشتد الظلام ، فقد أوشك أن يلد نوراً . وإذا تأزم الكرب ، فقد آذنت طلعة الفرج بإطلالتها .

**رابعاً** : وبين آيتي الجهاد ، تقع الآية الثانية ، وهي آية الإنفاق ؛ لأن الإنفاق له التصاق بالجهاد ؛ ولأن الدرس إذا تلقنه الناس في الشدائد فلن ينسوه أبداً. إن الآية الثانية تدور حول كثرة من يسأل الناس ، ماذا ينفقون ، وفي الآية ما يسمى في علم البديع ( أسلوب الحكم ) وهي أن يسألك سائل: كم ركعة ترى أن أتهجد بالليل ؟ فتقول له : أد عملك في

إخلاص ، مشيراً بأن الأولى هو إخلاص الإنسان فى واجبه ، ثم يأتى بعدئذ تهجده ونوافله ، وهنا يسأل المؤمنون رسولهم : ماذا ننفق يا رسول الله ؟ فيجيبهم : إن المهم فى صدقة التطوع ، أن توضع فى موضعها ، وبالفعل ترى كثيراً من الناس يتبرعون بالملايين ، فلا يكتب لهم من أجرها شيء ؛ ذلك لأنهم وضعوها فى غير موضعها استجابة لهوى أو رياء . ولهذا أجاب القرآن الكريم عن السؤال بجواب غير الجواب العادى فقال : ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ ، يعنى : بذلك أن يبدأ الإنسان بأسرته ، فيعفهم ثم بوالديه وأقاربه، وإذا فضل بعد ذلك فضل فهنالك اليتامى ، والمساكين وأبناء السبيل .

ويختم هذه الإجابة بحكمة ، تبين أن الله جل وعلا يعلم بكل إنفاق تنفقونه ، كما يعلم مدى الإخلاص فى قلب المنفق ، وصدق نيته فى خلوص العمل لوجه الله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ .

**خامساً** : الآية الأخيرة حكمة قد تصادف المؤمن كل يوم ، فرب شيء يحبه الإنسان ويتمنى حدوثه ، يكون شراً ، ورب أمر يكرهه الإنسان تكون عواقبه خيراً ، هذه الحكمة تسلى المؤمن كثيراً ،كلما أخفق فى الوصول إلى أمر ، يذكرها فتكون كالبلسم الشافي وتراه بعد ذكرها يستسلم طواعية لحكمة القضاء وعدالته : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ القتال يتحول إلى فرض عين إذا نزل الأعداء بساحة المسلمين ، وهتكوا حماهم كما هو حال العرب فى هذه الأيام ، والحرب لا شك فيها دمار ، وقتل وجراحات ، وتدمير للاقتصاد ؛ لكنها أشبه ما تكون بالأمطار ، والسيول الجارفة تدمر وتجرف وتفسد المزروعات ، والطرق والجسور ؛ لكنها تكون إيذاناً ومقدمة لربيع مونق وخصب مغدق . ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ حث للمؤمنين ألا يتأثروا

بما تكرهه أنفسهم ، فرب أمر تكرهه النفس يكون خيراً فى المعاش والمعاد ، والمؤمن لا تلين الشدائد قناته ، بل يعدها دائماً مفاتيح للرحمة ، والفرج والسعادة ، وخصوصاً حين يتألق فى ظلمائها الصبر الجميل .

# حول آيات الحج
## ودروس فى الأخلاق الفاضلة

هذه آيات من سورة البقرة ، توضح أن رسالة الإسلام تقوم على تحقيق الأخلاق الفاضلة ، كما تقوم على العدل والمساواة ، ونبذ المنكر .

يقول الله تعالى : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [البقرة : ١٩٧ ـ ٢٠٢].

أقول وبالله التوفيق حول دروس الخير والبلاغة فى هذه الآيات :

١ ـ الحج له وقت معلوم ، وهذا ما يميزه عن العمرة ، فالإحرام بالحج يكون فى : شوال وذى القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، والراجح أن الإحرام بالحج لا يجوز فى غير هذه الأشهر المعلومات .

٢ ـ الحج درس عظيم فى الأخلاق ، فمن نوى الحج وفرضه على نفسه ؛ وجب عليه ألا يرفث بالكلام القبيح ، ولا يفسق بارتكاب أى معصية لله ، وألا يشتبك فى مجادلات عقيمة تفسد القلوب ، وتشيع الكراهية . ومما يذكر أن كل العبادات فى الإسلام دروس ، تعلم الأدب ومكارم الأخلاق .

٣ ـ يعقب الله جل وعلا بقوله : ﴿ وَمَا تَفعَلوا مِن خَيرٍ يَعلَمَه الله ﴾ لكى يعلم الحاج أن كل حركاته وسكناته ، وإنفاقه وعبادته ، يجب أن يكون طابعها الإخلاص ؛ لأن الله جل وعلا يعلمها ولا تخفى عليه منها خافية ، ومن ثم فعليه أن يختار فى حجه كل طيب ؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

٤ ـ كان العرب يحجون فى الجاهلية ، ويمارسون طقوساً ، أخلاطا من حج إبراهيم ، ومما أضافوه من عاداتهم التى كانت فى معظمها سيئة ، فجاء الإسلام يقر الطيب من مناسكهم ويلغى السيئ من عاداتهم . ومما ألغاه الإسلام من عادات الجاهلية فى الحج :

**أولاً:** أن بعض الحجاج كانوا يقدمون من ديارهم بغير زاد ، ويقولون : نذهب إلى بيته ولا يقرينا ؟ ! فتكون النتيجة أن يصبحوا عالة يتكففون الناس ، ويشيع فى الموسم التسول ، ويحدث شىء من هذا فى هذه الأيام ، مع أن الحج لا يجب إلا على المستطيع . وقد ألغى الإسلام هذه العادة فقال تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ ثم عقب بقوله : ﴿ فَإِنَّ خَيرَالزَّادِ التَّقوَى ﴾ ومعناه : تزودوا بما يصلح أجسامكم وبما يصلح قلوبكم ، من طعام وشراب ، ثم من مخافة الله وتقواه .

**ثانياً** : من العادات الجاهلية التى ألغاها الإسلام ، أن يطوف الحاج عارياً إذا لم يحصل على ثوب من ثياب الحمس ، وهم سكان مكة والطائف والضواحى، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة مميزة ، ومن لم يطف فى ثوب من ثيابهم فلا حج له ! وكان الحمس يقفون بمزدلفة بدلاً من عرفات [1] ، ويفيضون منها ، وفى ذلك ما فيه من طبقية كريهة ، فجاء

(١) المشعر الحرام هو : مزدلفة أو جزء منها معروف ويسن أن يقف الحاج عنده ويذكر الله ، وعلى الحاج أن يكثر فى مزدلفة من ذكر الله شاكراً ربه الذى هداه وأنقذه من عادات الجاهلية الضالة ، أما عرفات : فتعرب إعراب جمع المؤنث السالم ويقال : إنها سميت لذلك ؛ لأن آدم وحواء التقيا وتعارفا عليها ، أو لأن الحجاج يحصل بينهم عليها لقاء وتعارف .

الإسلام وألغى هاتين العادتين ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ ، ويستحب الاستغفار عند الإفاضة ، حتى لا تبقى على الحاج ذنوب ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

**ثالثاً** : وكان العرب فى أسواق الجاهلية ومواسمها يحضرون للتجارة والكسب ، كما يحضرون للتفاخر بالآباء ، وذكر أمجادهم والمنافرة بكثرة العدد، فأمر الإسلام بالبيع والشراء ، وابتغاء فضل الله بالكسب الحلال . قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى بالبيع والشراء والمكاراة ؛ وذلك لأن فى هذا فائدة للمتكسب وفائدة للحجاج بتوفير حوائجهم ، لكن الإسلام ألغى التفاخر بالآباء ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾ . وطبيعى أن من ذكر الله واستحضر عظمته ، فسوف تهون فى نظره أمجاد أبيه ، وإذ ذاك لن يفاخر به ، وإنما سيطلب له المغفرة فى تلك المشاهد العظيمة .

**رابعاً** : كان معظم أهل الجاهلية ، لا يحجون إلا من أجل مصالح الدنيا من دعايات للقبيلة ، وفخر على أعدائها وينسون الآخرة ، وقد ندد الإسلام بهؤلاء وأعلن أن مثل هؤلاء لاخلاق لهم ، أى لا نصيب له فى الآخرة، لكن الذين لهم نصيب من عملهم وكسبهم فى الحج ، هم الذين يقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . والحق أن هذا الدعاء على قصره ، يمكن أن يكون أعظم دعاء مأثور ؛ لأنه يشمل خيرى الدنيا والآخرة ، ولم يؤثر عن النبى ﷺ فى الحج دعاء مأثور على وجه التأكد إلا هذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

# لطائف حول مشروعية القتال
# ورد افتراء المفترين

أول آيات نزلت فى مشروعية القتال قول الله جل وعلا فى سورة البقرة :

﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاَ تَعتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعتَدِين * وَاقتُلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم وَأَخرِجُوهُم مِّن حَيثُ أَخرَجُوكُم وَالفِتنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتلِ * وَلاَ تُقَاتِلُوهُم عِندَ المَسجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُم فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُم فَاقتُلُوهُم كَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَإِنِ انتَهَوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انتَهَوا فَلاَ عُدوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهرُ الحَرَامُ بِالشَّهرِ الحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فَاعتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ مَا اعتَدَى عَلَيكُم وَاتَّقُوا اللهَ وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلقُوا بِأَيدِيكُم إِلَى التَّهلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٥] إن مشروعية القتال فى الإسلام قد تعرضت لأكاذيب وأراجيف من أعداء الإسلام ؛ فقد انبرى عدد كبير من المغرضين والمفسدين يزعمون فى هذا الأمر مزاعم خلاصتها : أن العقيدة الإسلامية قد فُرضت على الناس بالسيف ، وأن المسلمين حين أحسوا بقوتهم أخذوا بأطراف الأرض يقتلون الشعوب .

ولن أذهب بعيداً فى تكذيب هذه المفتريات ولكنى سأقف بالمستمع عند هذه الآيات التى ذكرتها ، وتلك وحدها كفيلة أن تثبت أن المسلمين هم أنبل الناس قتالا ، وأنبل الناس سلما ، وما أجمل مقال شوقى رحمه الله فى همزيته يمدح رسول الله ﷺ :

وإذا عفوت فقادراً ومقـــدرا لا يستهين بعفوك الجهـلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيـته فجميع عهدك ذمة ووفـــاء
والحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعـات دواء

وقد تأملت آيات القتال التى ذكرتها ، فما وجدت أعدل ولا أنبل ولا أحكم من أحكامها وإشاراتها ، ولا أبلغ من أدائها وصياغات ألفاظها ، وإلى القارىء بعض هذه التأملات :

**أولاً** : أول ما يلفت النظر فى الآيات قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ** ﴾ ؛ وهذا يعنى أن كل القتال الإسلامى يجب أن يكون لإعلاء كلمة الله ونشر دين الله وهدم كل عقيـدة مشـركـة بالله ، وكل من يقـاتل لغيـر هذا الهـدف فلا نصيب له من شـهـادة أو ثواب . المقـاتل حـمـيـة والمقـاتل ليرى مكانه والمقـاتل للغنائم ، كل هؤلاء ضيع العرض الأدنى ثوابهم ، ولا شـهـادة ولا ثواب ، إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا .

**ثانياً** : قـوله تعـالى : ﴿ **الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكَم** ﴾ دليل على أن المسلم لا يبـدأ بالقتال إلا إذا بدأ خصمه بالقتال ، كما فعلت قريش بالمسلمين ، وكما يفعل اليهود والصيلبيون فى هذه الأيام . والمسلمون الذين يلجؤون إلى الأقطار لنشر الإسلام لم يلجؤوا إلى القتال إلا بعد أن عرضوا على الناس الإسلام بدلاً من الوثنية ، فلما أبوا عرضوا عليهم دفع الجزية لكى تنكسر قوة الوثنية أمام التوحيد ، فلما رفض الكفار وأبوا إلا القتال ؛ إذ ذاك قاتل المسلمون لأنهم قوتلوا .

**ثالثاً** : فى قـوله تعـالى : ﴿ **وَلاَ تَعـتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعـتَدِين** ﴾ تحـذير من العـدوان وهو تجـاوز الحـد ؛ وذلك بأن يبـاغـتـوا الأعـداء دون أن يدعـوهـم إلى الإسلام، أو يقوموا بقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، أو يحرقوا الزروع ويقطعوا الشجر المثمر ، أو يمثلوا بالقتلى كـما يفعل الصـهاينة والصليبيون فى

هذه الأيام . قال عليه الصلاة والسلام : « إن النار لا يعذب بها الا الله » رواه البخارى ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا سير جيشا دعا لهم بالنصر ، وأوصى قائدهم بتقوى الله وبمن معه خيراً ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » ، وأضاف أبو بكر رضى الله عنه قوله : ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرما ؛ لأن كل هذا عدوان ، والله جل وعلا لا يحب أهل العدوان.

**رابعاً** : يذكر الله جل وعلا أن الكفار أخرجوا المسلمين من ديارهم ، وحاولوا فتنتهم عن دينهم ليعودوا للشرك ، وكفر المؤمن أشد من قتله . وهذا كله يوضح أن مشروعية القتال فى الإسلام كانت للرد بالمثل على عدوان المشركين وإصرارهم على إعادة المؤمنين إلى الكفر . ومن ثم فقد أعطى الله المؤمنين سلطة أن يقتلوا المشركين حيث يثقفوهم ، وكلمة ثقفت العلم أى أحكمته وجمعت شوارده وثقف المسلمون أعداءهم أى أحكموا عليهم السيطرة .

**خامساً** : المسجد الحرام مكان مقدس ورمزٌ للأمن ، فقد جعله الله مثابة للناس وأمنا يأمن فيه كل خائف ، ولكن الكفار إذا قاتلوا المسلمين عند المسجد فلا بأس أن يقاتلهم المسلمون حتى ولو اعتصموا بالمسجد .

**سادساً** : يقول الله تعالى: ﴿ **فَإِنِ انتَهَوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وفى هذا فتح لأبواب التوبة والإيمان على مصاريعها ؛ فكل كافر ينتهى عن كفره ويدخل فى الإسلام ، فإن الله يشمله بمغفرته ورحمته .

**سابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله** ﴾ معناه قاتلوا المشركين حتى لاينتشر الكفر والشرك ويطبق الدينا ، إنكم يا أيها المؤمنون مطالبون أن تقاتلوا ليكون دين الناس كلهم هو الإسلام والإيمان بالله . فإن انتهى الكفار ، فإذ ذاك لا عدوان إلا على الظالمين . وقد سمى القرآن قتال

الظالمين عدواناً من قبيل المشاكلة اللفظية ؛ لأن الظلم عدوان فهو يقابل بمثله. وهذا في القرآن كثير كقول الله تعالى : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وكقوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ [الأنفال : ٣٠]، وكقوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٤] .

**ثامناً** : قوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، يبيح للمسلمين أن يكيدوا للكافر بمثل كيده فإذا قاتل فى الشهر الحرام ردوا عليه فى الشهر الحرام، لأن من استباح دم المسلمين فى الأشهر الحرم استبيح دمه فى الأشهر الحرم، والحُرمات بهذا المفهوم تكون قصاصاً أى مثلاً بمثل .

**تاسعاً** : فى الآية الأخيرة يحث الله على الإنفاق ؛ لأن المال عصب الحياة ، وبه يجهز المقاتلون بالسلاح والعتاد والركوب وينفق على أهلهم فى غيابهم . وهنا يقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] أى لا تلجؤوا إلى البخل بأموالكم فيضعف جيشكم ، ويكون هذا سبباً فى هلكتكم على يد عدوكم . وقد فسّر أبو أيوب الأنصارى الآية فقال ما معناه : لقد فكرنا نحن الأنصار بعد انتصار الإسلام أن يترك بعضنا الجهاد ويهتموا بزراعتهم ونخيلهم فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ومعناها القعود عن الجهاد .

# حول سيدة آى القرآن
# وأعظم آية فى كتاب الله الحكيم

ورد فى الأحاديث الصحيحة تفضيل سور القرآن الكريم ، ولبعض آيات القرآن الكريم ، فسورة البقرة :كانت تؤهل حاملها أن يصبح أمير صحبة ، وهى تأتى يوم القيامة هى وسورة آل عمران تحاجان أى ـ تدافعان عن حاملهما ـ وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن ، وسورة الأنعام نزلت جملة واحدة ، وشيّعها سبعون ألف ملك ، وآية سورة الأنعام : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] وحدها نزل معها اثنا عشر ألف ملك .

وللعلماء فى تفضيل بعض السور والآيات أقوال اطمأننت منها إلى قول واحد، وهو : أن القرآن العظيم لا تفاوت فى أسلوبه ؛ إذ جميعه من الكلام المعجز . وسورة أبى لهب لا تقل فى روعة الأسلوب وبلاغته عن سورة الإخلاص، لكن الآيات والسور تتفاوت من حيث جلال موضوعاتها ، ومن هنا جاء فضل سورة الإخلاص مثلاً ؛ وذلك لأن موضوعها وصف لذات الله جل جلاله . ولقد كان النبى ﷺ يذكّر الناس بالآيات المشتملة على كلمة التوحيد كقوله تعالى فى مطلع آل عمران : ﴿ **الم * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران ١ ـ ٢] ، وكقوله تعالى فى وسط سورة البقرة : ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة : ١٦٣] وسأتناول بالشرح والتعليق آية من القرآن الكريم وصفها النبى ﷺ بأنها سيدة آى القرآن ، وأعظم آية فى كتابة الله الحكيم ، فقد جاء فى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال لأبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ : «**أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم**» فقال أبى : آية الكرسى ، فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، وهو يقول : « ليهنك

العلمُ يا أبا المنذر ، فوالذى نفسى بيده إن لهذه الآية للساناً وشفتين تقدّس الملك عند ساق العرش » ، وكان عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنهما ـ إذا دخل بيته قرأ آية الكرسى فى زوايا بيته الأربع يرجو بذلك أن تكون له حارساً، وتنفى عنه الشياطين . وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أشرف آية فى القرآن آية الكرسى . وروى أنها نزلت ليلاً فدعا النبى ﷺ زيداً بن ثابت . فى الحال فكتبها ، وسبب شرفها أنها تضمنت من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا ظاهرةً ومضمرة ما لم تتضمنه آية فى القرآن العظيم ، وعدد كلماتها خمسون كلمة ، والمسلمون يقرؤونها يلتمسون منها اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب .

وقد تأملت هذه الآية العظيمة فلفتت نظرى فيها أمور كثيرة منها :

**أولاً** : ورد فى الآية ستة من أسماء الله الحسنى وهى : الله ، ولا إله إلا هو ، والحى ، والقيوم ، والعلىُّ ، والعظيم ، وهى بعدد الأيام التى خلق فيها السموات والأرض ، ويلاحظ أن هذه الأسماء الحسنى تنطق بها السموات والأرض عند أول تدبر وتفكر فى خلقهما ، فالذى خلق هذا الخلق العظيم لابد أن يكون واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، ولابد أنه حى دائم؛ لأنه لا يهب الحياة إلا حىّ ، ولا يدبر هذا الخلق وهذا الأمر إلا إله حىٌّ باقٍ لا يعتريه العدم. وهو قيوم ؛ أى عظيم القيام والتدبير ، وهو صيغة على وزن فيعول تفيد المبالغة فى القيام على أمر الدنيا ، جلت أسماؤه قائم على كل نفس وكل خلق يراقب ويدبر ، ويقضى ويقدر ، وهو علىّ تنطق السموات بعلوه ، وعظيم تنطق عظمة خلقه بعظمته ، ومما يدل على تناسب عدد الأسماء فى هذه السورة مع أيام خلق السموات والأرض ، أن سائر الآية الكريمة كله يتعلق بحفظ السموات والأرض ، إذ من الطبيعى ألا يغفل الله ولاينام لأنه لو حصلت منه

سنة أى ـ نعاس أو نوم ـ لتحطمت السموات والأرض ، وفى بقية الآية ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرضَ وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفظُهُمَا ﴾ [البقرة : ٢٥٥] أى لا يعجزه .

**ثانياً** : أن مقاطع هذه الآية عشرة مقاطع تدور كلها حول موضوع واحد ، الوحدانية فى العبادة والخلق والتدبير .

﴿ الله لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ ﴾ : هو الإله الواحد المعبود بحق ، وكلُّ ما عداه من المعبودات لغو و رد .

﴿ الحَيّ القَيّومُ ﴾ : صفتان متلازمتان فى التدبير ، إذ لا يمكن أن يقوم على أمر السموات والأرض ويدبر أمرهما إلا حىّ دائم لا يموت .

﴿ لاَ تَأخُذُهُ سنَةٌ ولاَ نَوم ﴾ الخلق والأمر والتدبير والقيامة العظمى لايمكن أن تصحبها غفلة ، أو سهو ، أو سنة أو نوم .

﴿ مَن ذَا الَّذى يَشفَعُ عِندَهُ إلاَّ بإذنه ﴾ : له الشفاعة جميعها ؛ لأنه هو الذى خلق الخلق ويعلم دخائلهم فهو أقرب إلى الإنسان من حبل وريده فهو أولى به وأعلم ، لكنه جلّ وعلا يمنح الشفاعة بإذنه لمن يصطفيهم ، لكن وهم لايشفعون إلا لمن ارتضى .

﴿ يَعلَمُ مَا بَينَ أيديهِم وَمَا خَلفَهُم ﴾ : العلم المطلق للماضى والمستقبل من ضروريات تدبير الخلق ، وهذا العلم الإلهى مطلق لما كان ولما هو كائن ولكل صغيرة وكبيرة ، والله جل وعلا متفرد بهذا العلم غيبه وشهادته ، فهو فيه واحد وكل من عداه لا يعلم إلا ما يعلمه ربه .

﴿ وَلاَيُحِيطُونَ بِشَىء مِن عِلمِه إلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ : كل ما يكتشفه البشر من علم الله جل وعلا وما يخترعون من جديد ، يأتيهم فى أوانه بمشيئة الله لحكمة إلهية . فإذا أطلعهم على سر الكهرباء أو البخار أو الإشعاع فتلك أسرار قديمة

احتفظ الله بها فى علمه ، إلى أن صدرت مشيئته بإطلاع الإنسان عليها فى العصر الحديث .

﴿ وَسِعَ كُرسيُّه السَمَوات وَالأرضَ ﴾ : هو كرسى لاتحيط العقول بكنهه ، لائق بجلال الله وعظمته ، علينا أن نؤمن به ولا نسأل عن شكله ، بل نوحد مالكه وصاحبه .

﴿ وَلاَ يَؤودُهُ حفظُهُمَا ﴾ : هذا الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ، لايعجزه أن يستمر فى حفظ السموات والأرض ، وفى تدبير أمرهما إلى ما شاء الله .

﴿ وهُوَ العَلِيُّ العَظِيم ﴾ : لأن من خلق السموات والأرض لابد أن يكون عاليا تتطامن له السموات ، عظيما يعنو له من فى السموات ومن فى الأرض .

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه .

# لطائف بلاغية فى آية الكرسى

سنمضى قُدُما مع آية الكرسى ، وهى أعظم آية فى كتاب الله مخصصين هذه السطور لإشاراتها البلاغية :

أول ما يطالعك من بلاغة الآية الكريمة : روعة استهلالها ، فقد بدأت بداية هى خير ما قاله النبيون ( كلمة التوحيد ) بعد اسمه ذى الجلال والإكرام ، ثم إذا ختمت الآية وجدت عظمة الخاتمة ؛ إذ العلو والعظمة : هما الصفتان المناسبتان لخالق السموات والأرض ومالكهما .

والأمر الثانى الذى يشنف السمع من القراءة الأولى ، هو هذا الانسجام المطرب المعجب بين الحروف ، فأكثر الحروف فيها هو اللام ثم الميم ثم حروف المد وحروف الحلق ، وهذه المذكورة هى أعذب الحروف مخارج وأكثرها شيوعا فى الكلام الفصيح البليغ . أما الحروف ذات المخارج المضخمة كحروف الاستعلاء وهى : الخاء ، والصاد ، والضاد ، والظاء ، والغين ، والطاء ، والقاف، فإن أى حرفٍ منها إذا كررته مرتين بدون فاصل شعرت برهق كبير ، كما ترى فى كلمة : نقاخ ، بمعنى عذب ، وفى كلمة : يقق بمعنى أبيض شديد البياض ، وعقنقل بمعنى كثيب ، وقد وردت بعض هذه الحروف فى الآية ولكن نلاحظ أنها وردت فى كلمات قليلة ، وقد انسجمت مع حروفها انسجاما عجيبا ، فترى الحرف منها واقعا بين حرفين كلاهما بعيد المخرج عن مخارج حروف الاستعلاء ، مثل كلمة : القيوم التى وقعت فيها القاف بين اللام والياء ، وكلاهما بعيد المخرج عن مخرج القاف ، ومثلها: الأرض ، وكلمة خلفهم ، ويحيطون ، وحفظهما ، والعظيم ، فإن حرف الاستعلاء فى هذه الكلمات سهل النطق جدا ؛ لأن الحروف المحيطة به بعيدة المخارج عن مخرجه .

أما الأمر الثالث فهو بلاغة الإيجاز المعجز فى كل مقطع من مقاطعها ، بل إن بعض الكلمات لها ظلال ممتدة ، حتى إن الكلمة الواحدة تحتاج إلى عدة صفحات لشرح مدلولها وظلالها ، مثل كلمة : القيوم ، ومعناها القائم على حفظ كل مخلوق فى السموات والأرض وما بينهما والذى لا يقوم أى مخلوق إلا بقدرته ، ومثل كلمة : الحى ، إذ الحياة التى يتصف بها الله جلّ وعلا ، لا يحدها زمان ولا مكان ، فلا بداية لها ولا نهاية ولا يعتريها زوال ولا عدم ، أما العبارات الموجزة أو المقاطع ، فجميع مقاطع الآية غاية فى الإيجاز البليغ .

﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ : كلمات قلائل قررت مبدأ التوحيد الخالص المصفى من جميع لوثات الشرك ، لقد أغنت هذه الكلمات عن نفى كل أنواع الشرك فى الديانات القديمة ، وجميع أنواع الآلهة من نجوم وحيوانات وشمس وملائكة ونار وحجارة وآلهة وهميين يتصارعون فى خرافات !

﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوم ﴾ : إيجاز عن كناية عظيمة مترامية أطراف المعنى ؛ فيهما إذ النعاس والنوم يتعارضان مع تدبير السموات والأرض ، وكل ما فيهما من خلائق ، وقد روى أن موسى عليه السلام سأل : هل ينام ربنا ؟ فأراد الله أن يعلمه الجواب عملياً فأمره أن يحمل قارورتين ، فى كل يد قارورة ثم سلط عليه النوم فصحا وقد اصطدمت القارورتان إحداهما بالأخرى ، ففهم أن الله جل وعلا لا ينعس ولاينام ، وإلا لاصطدمت السموات بالأرض .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرض ﴾ : إيجاز شمل كل مخلوقات الله . ثم فى تكرار كلمة : ما ، تأكيد لشمولية الملك .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَعلَمُ مَا بَينَ أيديهِم وَمَا خَلفَهُم ﴾ أى علم ما كان من القضاء والقدر والحوادث ، كما يعلم ما هو كائن للخلائق إلى الأبد، وشرح هذا العلم المطلق يطول ويتطلب مجلدات ، وفى تكرار كلمة : ما ،

توكيد للعلم عظمته وشموليته .

ومن أبلغ الإشارات البيانية فى الآية الكريمة هذا الاستفهام البديع فى قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذنِه ﴾ ؟؟ وهو استفهام يحمل معنى النفى والإنكار والاستحالة ، والعبارة كناية عن عدة صفات من صفات الله العلا، منها : المهابة التى لا يتحرك معها لسان إزاء عظمتها ، ومنها انفراد الله جل وعلا بالشفاعة ، أو العقوبة ، ومنها : العلم المحيط الدقيق بأعمال العباد ، وهو علم يجعل الشفاعة لا تمنح إلا لمن ارتضى رب العباد ، ومنها القهر الإلهى من فوق كل الشركاء الذين عبدهم الكفار ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرسِيُّه السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ ﴾ تعبير عن الكنايات المدهشه التى تعجز العقل أن يحيط بمراميها كاستواء الله على العرش ونزوله فى الثلث الأخير من الليل ووضع قدمه فى النار يوم القيامة حتى تقول : قط قط... إلى أخر ذلك ، وإذ ذاك لايملك العقل إلا أن يقول ما قال السلف : الاستواء حق والكيف مجهول والسؤال عنه بدعه ، ومثل هذه الكناية قوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدرِه وَالأَرضُ جَمِيعـاً قَبضَتُهُ يَومَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطوِيَّاتٌ بِيَمِينِه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ [الزمر : ٦٧].

ومن المواضع البلاغية أن كلمتى العلى والعظيم جاءتا معرفتين ، والتعريف فى مثل هذه العبارة يفيد القصر أو الحصر ، كما تقول : أخوك الناجح فتعنى أنه الوحيد ، وأن النجاح مقصور عليه ، ولو قلت : أخوك ناجح بالتنكير لما أفاد حصراً ولا قصرا ؛ ولهذا جاء الاسمان الكريمان معرفين ليكون المعنى : ﴿ وَهُوَ العَلِىُّ العَظِيم ﴾ أى المتفرد بالعلو والعظمة ، فالعلو والعظمة قصر عليه سبحانه ، لا عظيم ينهض لعظمته ، ولا عالى يرقى لعلوه .

أسأل الله إيمانا لا يشوبه شك ، وتسليما لا يخالطه تساؤل ، وعبادة متقبلة يزكيها الإخلاص والتقوى .

# لطائف فى قوله تعالى
# ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾

سأقف بالأخ القارئ وقفة فيها تأمل عميق عند آيتين كريمتين من سورة البقرة ، وهما قوله جل وعلا : **﴿ لاَ إكرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَىِّ فَمَن يَكفُر بِالطَّاغُوتِ وَيُؤمِن بِاللهِ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ ﴾** [البقرة : ٢٥٦ ـ ٢٥٧] . هاتان الآيتان تقرران حقيقة كبيرة **﴿لاَ إِكرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾** وبقية الآيتين شرح لهذه الحقيقة وتعليق عليها ، وهذه بعض إشارات بلاغية وتوحيدية حول الآيتين :

**أولاً** : احترام العقل طابع مميز لدين الإسلام ، وإذا كانت معجزات الأنبياء عليهم السلام ، قادت الناس بخوارق العقل ، فإن معجزة القرآن قادت مواكب الإنسانية إلى الإيمان بشعاع العقول وأنوار فكرها ، ومن هنا كان قول الله تعالى: **﴿لاَ إِكرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾** تكريما للإنسان واحتراما لفكره وشعوره ، وتقريرا لمبدأ حرية الفكر والعقيدة ؛ لأن حرمّة الفكر إذا سلمت من تأثيرات الرغب والرهب ، فلن تقود إلا إلى الدين الخالص دين الله وهو الإسلام .

**ثانياً** : لا إكراه فى الدين ، لانافية للجنس ، أى لجنس الإكراه هنا ، فجميع أنواع الإكراه هنا منفية ، وما على الدعاة المسلمين إلا أن يبينوا للناس رشدهم من غيهم مكملين بذلك رسالة العقل الذى يمكن أن ترين عليه رواسب التقاليد ، فما على المسلمين إلا أن يزيلوا تلك الرواسب بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمحاجة بالحسنى ، وبعدئذ **﴿ فلاَ إِكرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾** .

**ثالثاً** : يروى أن الآية ﴿ **لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ نزلت فى رجل من الأنصار كان له ولدان تنصرا وسكنا الشام مدة ، ثم جاءا إلى المدينة فأرادهما أبوهما أن يسلما فأبيا ، فاحتكموا إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبوهما : كيف أطيق أن أرى ولدى ـ وهما بضعة منى ـ يتحرقان بالنار ؟ فكان حكم النبى ﷺ : ﴿ **لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾.

**رابعاً** : ﴿ **لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ تبين البون الشاسع بين ممارسات رجال الدين المسيحى ، وبين فقه الدعاة المسلمين . أولئك سفكوا دماء إخوانهم ودماء المسلمين ، فلم يستطع مسيحى أن يعيش فى ظل الكنيسة إلا منقاداً لآرائها حقا كانت أم باطلة ، وبذلك الاستبداد ذبح مئات الآلاف من النصارى عبر التاريخ بسكاكين النصارى ، وذُبح آلاف المسلمين فى الأندلس حين أصروا على الاستمساك بدينهم ، بينما عاش المسيحيون فى أسبانيا ثمانية قرون ينعمون بحرية العقيدة فى ظلال الإسلام :

**خامساً** : قد يتساءل البعض كيف نوفق بين قول الله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِي جَاهِد الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظ عَلَيهِم وَمَأوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئسَ الْمَصِيرِ** ﴾ [التحريم : ٩] ؟ والجواب : أن الآية الكريمة نزلت بعد خمس عشرة سنة من تحمل الأذى والبلاء ، وبعد إخراج المسلمين من ديارهم، وبعد غطرسة كافرة وفتنة للمسلمين كانت أشد من القتل ، وبعد إصرار من الكافرين على أن يردوا المسلمين كفاراً ، ومن هنا فقد كان الجهاد الإسلامى رداً للعدوان ، وقصاصاً للظالمين ، وكان القتال فى الإسلام لشق طريق العقيدة المنيرة فى وسط الظلم والظلام ، وأخيراً كان الجهاد فى الإسلام لنشر مبدأ الحق والعدل والخير فى غير تسلط ، بل لقد كان الجهاد فى الإسلام لتدمير الطغيان والقهر والتسلط ؛ لكى يحل محلها المبدأ الإلهى ﴿ **لاَ إِكرَاهَ فِي**

الدِّينِ ﴾ .

**سادساً** : هاتان الآيتان وردتا بعد آية التوحيد العظمى : آية الكرسى ، وهى التى أوضحت طريق الرشد ، وسبيل المنهج الإسلامى ، وصراطه المستقيم ، فالرشد هو الإيمان والغىُّ هو الكفر ، والإيمان بالله هو معاهدة بين العبد وربه يقوم العبد بموجبها بالولاء لله وحده ، ومن ثم يكون الله جل وعلا وليا للذين آمنوا؛ أى ناصرا ومؤيداً وهادياً يهديهم إلى نور الإيمان والعمل الصالح ، ويجنبهم ظلام الكفر والجريمة .

وكذلك فإن من آمن بالطاغوت، فقد عقد أيضا محالفة مع الطاغوت ، والطاغوت كل من عبد من دون الله وهو راض بالعبادة ، أو رفض حكم الله وحكم بالهوى . والولاء للطاغوت مسخ للعقل ، وطمس للقلب ، ومن ثم فإن الطواغيت بضعفهم وعجزهم عن أى نفع ، أو ضرر لن يجروا على أتباعهم إلا الجهل والعمى عن الحق ، ولاشك أن ولاء العبد للإله الواحد القوى القاهر سيجعله فى مأمن من كل شر ، ومثل المؤمن إذ يستمسك بالإيمان على كل أحواله ، ويسلم ولاء قلبه للإله العظيم الجبار ، كمثل من يمسك بعروة وثقى لا تنفصم ولا تبت من حبلها الثابت ، فهو دواماً فى أمن مهما تهاوى من حوله أهل الضلالة .

**سابعاً** : ختم الله جل وعلا آية الإيمان والكفر بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن الإيمان أقوال وأعمال ومعتقدات والقول يتطلب السمع ، أما الأعمال والمعتقدات فتتطلب العلم بظاهر الأمور وباطنها ، والله جل وعلا يسمع ما يقوله المؤمن وما يقوله غيره ، كما يعلم ما يعلمه ويعتقده خلقه جميعا مؤمنين وكافرين .

**ثامناً** : فى الآيتين إشارات بلاغية فى غاية الجمال وظيفتها : إيضاح المعنى،

وإضاءة طريق التأمل ، فالرشد كناية عن الإيمان ، والغى كناية عن الكفر ، والعروة الوثقى هى كلمة التوحيد المنجية من كل شرّ . أما الآية الثانية فتشتمل على مقابلة فى قمة البلاغة والجمال .

﴿ **اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ ويقابلها كلمات تضادها تماماً ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ ، وفى النور والظلمات استعارتان بديعتان .

أسأل الله أن ينور بصائرنا بنور الإيمان ، ويهدينا سبل الصلاح والإحسان ، ويهدينا فى صحراء الحياة إلى واحة الأمان .

# حول إثبات قدرة الله عز وجل

هذه ثلاث آيات من آى الذكر الحكيم ، فى كل منها قصة طريفة ، تتعلق كلها بقضية كبرى من أهم مظاهر القهر الإلهى ، إنها قدرة الله جل وعلا على الإحياء والإماتة ، ثم قدرته على بعث الحياة فى الموتى بعد أن يصبحوا ترابا وعظماً ورفاتا . أولى هذه القصص كانت بين إبراهيم عليه السلام وطاغية جبار، لم يذكر القرآن اسمه ، وقال المفسرون إن اسمه : نمروذ . وثانية هذا القصص عن رجل أراد الله أن يجعله آية فأماته ثم أحياه ، ويروى المفسرون أن اسمه العزير . وثالثتها بين خليل الرحمن عليه السلام وبين ربه جل وعلا ، والقاسم المشترك بين القصص الثلاث هى : قدرة الله القاهرة التى يقف الشركاء إزاءها عجزة خاضعين .

وإنى مورد هذه الآيات الثلاث ثم متبعها ـ إن شاء الله ـ مما تشتمل عليه من إشارات معنوية وبلاغية دقيقة . يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِى رَبِّه أن آتَاهُ اللهُ المُلكَ إذ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحيِى وأُمِيتُ قَالَ إبرَاهِيم فَإِنَّ اللهَ يَأتِى بِالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ فَأتِ بِهَا مِنَ المَغرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَايَهدِى القَومَ الظَّالِمِينَ * أَو كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَريَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحيِى هَذِهِ اللهُ بَعدَ مَوتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَم لَبِثتَ قَالَ لَبِثتُ يَوماً أو بَعضَ يَومٍ قَالَ بَل لَبِثتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُر إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَم يَتَسَنَّه وَانظُر إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُر إِلَى العِظَامِ كَيفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكسُوهَا لَحمَاً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِير * وَإذ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيفَ تُحيِى المَوتَى قَالَ أَوَ لَم تُؤمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطمَئِنَّ قَلبِى**

قَالَ فَخُذ أربَعَةً مّن الطَّيرِ فَصرهُنَّ إلَيكَ ثُمَّ اجعل عَلَى كُلِّ جبَلٍ مّنهُنَّ جزءاً ثُمَّ ادعُهُنَّ يَأتينكَ سَعياً وَاعلَم أنَّ الله عَزِيزٌ حكيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٨ ـ ٢٦٠].

هذه الآيات الثلاث اشتملت على ثلاث قصص كلها حول إثبات قدرة الله على الإحياء بعدالإماتة .

**خلاصة :**

أولاها : أن طاغيةً عاش أيام إبراهيم عليه السلام ، وقد بلغ من طغيانه أنه حمل الناس على عبادته ، ولما دعا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلى توحيد الله وعبادته وحده ونبذ ما سواه من معبودات لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعا ، دعاه الطاغية ليجادله فى أمر هذا الرب الذى يدعو إبراهيم إلى توحيده ، ولما سأله الطاغية من ربك الذى تدعو إلى توحيده أجابه خليل الله ﴿ **رَبِّيَ الَّذِى يُحيِي وَيُمِيتُ** ﴾ وهو يقصد أن ربه المعبود هو الذى يهب الحياة والروح فى الأحياء ، وبعد ذلك يسلب الروح منهم ويميتهم ، لكن الطاغية فهم الأمر فهماً غبياً ، فأحضر رجلين وأمر بقتل أحدهما وحقن دم الآخر ! وقال لإبراهيم هأنذا أحيى وأميت . ألا ترانى أمت ، أحدهما وأحييت الآخر ! وهو جواب يدل على بلادته وانغلاق عقله ؛ لأن أى مجرم يستطيع أن يقتل ضحيته أو يستبقيها، وهذا لا يسمى إحياء ولا إماتة ولا يدل على ربوبية المجرم ولا ألوهيته وإلا لأصبح كثير من المخلوقات أرباباً بهذا المنطق ، عندئذ رأى الخليل عليه السلام أن الاستمرار فى نقاش هذا الأمر سيطول ؛ ولهذا لجأ إلى أسلوب المفاجأة بدون مقدمات فارتفع بالسؤال عن شؤون الأرض وكلمه فى شأن من شؤون السماء فسأله : ﴿ **إنَّ اللهَ يَأتِي بِالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ فَأتِ بِهَا مِنَ المَغرِبِ** ﴾ ولم يكن الطاغية متوقعا المفاجاة فانعقد لسانه ولم يحر جواباً ، لأن ملكوت السموات محفوظ من كل طاغوت ، ومهما تجبر طاغوت فى الأرض ،

فهو إذا نظر إلى السماء انقلب إليه نظره خاسئاً وهو حسير . ويبدو أن انبهات الطاغية قد طال فانتصر فى المحاجة خليل الله وثبت للطاغية وحاشيته أن الله ولى الذين آمنوا وناصرهم ومنور سبيلهم ، وأن الكفار من أمثال الطاغية أنصارهم الشياطين ، وهؤلاء لا يفعلون إلى أوليائهم أكثر من أن يهدوهم طرق العمى والظلام .

**أما القصة الثانية** : فهى عن رجل من بنى إسرائيل مر ـ وهو على حماره ـ على القدس بعد أن خربها بختنصر ، فلما رأى بيوتها مهدمة ، وأهلها مشتتين، ومعالمها بالية تساءل فى حسرة وحيرة لا فى كفر وإنكار : ﴿ **أنى يحيى هذه الله بعد موتها** ﴾ ، فأراد الله أن يجعل هذا العبد آية للناس ـ كما جعل عيسى عليه السلام آية من معجزات الخلق ـ فأماته الله مائة عام ثم قضى بحكمته أن يبعثه ويعيد إليه الحياة ، فبعثه وأحياه قبل أن أحيا الحمار ، ولما التفت إلى ما حوله رأى حماره وهو يحيا من جديد ، وتنشز عظامه ، وتكتسى لحما بعد أن كانت رميما، ونظر إلى طعامه وإذا هو لم يتسنه أى لم تنل منه السنون ولم يتعفن ـ فلما رأى الأمر العظيم بأم عينيه قال : آمَنتُ يقينا ومعاينه ﴿ **أنّ الله علَى كُلِّ شيءٍ قَدير** ﴾ . وقد رأى الناس عزيراً وظهر لهم بعد التحقيق معه أنه مات مائة عام، وأنشره الله ليخبر الناس بخبره عيانا ، وقد عرفه أحد أبنائه كما جاء فى الروايات ، وهذا شبيه بما حصل لأهل الكهف حين تعرف عليهم مواطنوهم ، فكانوا سببا فى إيمان الكثيرين .

**وأما القصة الثالثة** : فهى أيضا مع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه أبو الأنبياء وقدوتهم ، كان الله جل وعلا يقربه تقريبا خاصا ؛ لقد اتخذه خليلاً ، وكشف له من أسرار ملكوت السموات ما يكشف للمصطفين الأخيار، ويبدو أن إبراهيم عليه السلام استعمل إدلال الخليل فأراد أن يصل إلى درجة من الإيمان ترقى من التفكير والاستنتاج إلى مرتبة المشاهدة والمعاينة ،

وبذلك يصبح أعظم البشر إيماناً بربه ، وهنا قال عليه السلام لربه بأسلوب الرجاء والدعاء : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ فسأله الله جل وعلا ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ؟ والله عز وجل يعلم أن إبراهيم أعظم أهل زمانه إيمانا ، ولكنه سأله لكى يجيب بما أجاب به، وهو جواب مفيد للمؤمنين ، يفيدهم أن من عباد الله من لو طلب منه أى طلب لأعطاه . قال إبراهيم مجيباً لسؤال ربه : ﴿ بَلَى ﴾ يعنى لقد آمنت ولكن ليطمئن قلبى ، أى ليبلغ إيمانى مبلغاً من الطمأنينة وهو درجة المشاهدة ، وعندئذ فلن يمارينى ممار ولن يثنينى عن عقيدتى قاهر ؛ لأن الإنسان لايجادل فى أمر قد رآه عياناً . وهنا لبى الله جل وعلا طلب خليله ، فأمره أن يأتى بأربعة من أصناف الطير فيضمها أولا إليه ويتأكد من خلقتها لونا وشكلاً وحجما ونوعاً ، وذلك ليعرفها نفسها بعد حياتها ، ثم أمره الله عز وجل أن يذبحها ويقطعها أجزاءً ويجعل تلك الأجزاء على جبال متفرقة ولما فعل أمره ربه أن يقول لها : أقبلى بإذن الله ، وإذا هى تقبل عليه ركضاً أو طيراناً ، وتفقدها فإذا هى هى تلك التى أرسلها ، هنا لك أدرك أن لله جل وعلا العزة التى لا تنال ، والحكمة التى لاتسامى .. وبعد فما أجمل الاستفهام التعجبى فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ وهو تعجب من جهالة نمرود وبلادة عقله، إذ بدلاً من أن يرد فضل ربه الذى آتاه الملك بالشكر والعبادة ، ردّه بالمجادلة الحمقاء ودعوة الناس إلى عبادته ، وفى الآية الثانية والثالثة إيجاز حذف يجمل الكلام وينشط الفكر ليكتشف المحذوف ، فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ فيه حذف تقديره : فلما تبين له ما حصل له من عجائب ، ورأى ما رآه من إنشاز حماره وحفظ طعامه . وكذلك تكرر الحذف بعد قوله تعالى : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ إذ حذفت عدة جمل، وهى ففعل : إبراهيم ما أمره ربه ودعاهن كما علمه ربه فأقبلن عليه سعيا بأمر الله .

# لطائف حول آيات الإنفاق فى سورة البقرة

هذه ست آيات من سورة البقرة جاءت بعد آية الكرسى ، وآيات الإحياء والإماتة ، جاءت بعد توحيد الربوبية الذى يتجلى فيما ورد فى الآيات السابقة من أفعال الله العظمى ،كالخلق والإحياء والإماتة وحفظ السموات والأرض .

وتوحيد الربوبية وحده ، كما هو معروف لايدخل صاحبه فى الإسلام ؛ لأن الكفار يعتقدون بقدرة الله وأعماله الباهرة ، ومن ثم فقد أتبع القرآن تلك الآيات السابقة بهذ الآيات التى تدور حول إنفاق المال فى سبيل الله ، وتتضمن هذه الآيات شرطين عظيمين لقبول الإنفاق عند الله وبهما يصبح الإنفاق عبادة عظيمة تحقق جانبا مهما من توحيد الألوهية ، والشرطان الرئيسيان لقبول الإنفاق هما :

**أولا** : أن يكون الإنفاق خالصاً مخلصاً لوجه الله تعالى ، لا يخالطه رياء الناس ولا طلب السمعة والمفاخرة .

**والثانى** : ألا يتبعه المن والتعيير والأذى . فإذا دخل الإنفاق رياءُ ، وإذا تبع الإنفاق منٌّ أو أذى فقد ذهب ثوابه ووكل المنفق إلى ما حققه من شفاء غريزة السيطرة والفخر ، أو حققه من مشاهدة الناس لأعماله وثنائهم عليه . إن من ينفق رياءً ، فقد أشرك الناس مع الله ، واهتم بهم اهتمامه بالله ، والله جل وعلا أغنى الشركاء ؛ ولهذا يتخلى عنه يوم القيامة ويقول له : « اطلب ثوابك من الذين أشركتهم معى » . وهناك لا يجزى والد عن ولده ، فكيف ينفعك إنسان كنت تربط عبادتك بإرضائه . من المناظر المألوفة يوم توضع الموازين القسط ، أن يرى الإنسان فى ميزانه عملاً عظيماً يتفاءل بمنظره ثم ما هى إلا أن يراه وقد هبت عليه عاصفة فيتآكل من جوانبه حتى لا يبقى منه شىء ، فيتحسر

ويتساءل فيقال له هذا عمل صالح فعلته ثم أفسدته بالرياء والسمعة والمن والأذى ليس لك اليوم جزاء إلا ما هدفت إليه من إرضاء الناس وشفاء الغرائز .

إن أهمّ ما لفت نظرى فى آيات الإنفاق ، كثرة الصور البلاغية الرائعة على شكل أمثال أى تشبيهات يضربها الله للناس ليقرّب إلى عقولهم ، وإنى مورد هنا هذه الآيات العظيمة الممتعة المقنعة التى تبهج القلوب بلاغتها وصياغتها ، يقول الله جل وعلا :

**﴿ مَثَلُ الّذين يُنفقُونَ أموالهم فى سَبيلِ الله كَمَثَلِ حبّةٍ أنبتَت سبعَ سَنَابلَ فى كُلِّ سُنبلَةٍ مائةُ حبّةٍ وَالله يُضاعفُ لمن يشاءُ وَالله واسعٌ عليمٌ * الّذين يُنفقُونَ أموالَهم فى سبيلِ الله ثُمّ لايتبعُونَ ما أنفقُوا منّاً ولاَ أذىً لَهُم أجرهُم عندَ ربّهم ولاخوفٌ عليهم ولاهُم يحزنُونَ * قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صَدقَةٍ يتبعُهَا أذى وَالله غنىٌّ حليمٌ * ياأيُّها الّذين آمنُوا لاَ تُبطلُوا صدقَاتكُم بالمَنِّ وَالأذى كالّذى يُنفقُ مالَهُ رئاءَ النّاسِ ولاَ يُؤمنُ بالله وَاليومِ الآخرِ فمثلُهُ كَمثَلِ صفوانٍ عليهِ تُرابٌ فأصابَهُ وابلٌ فتركَهُ صلداً لايَقدرُونَ علَى شىءٍ مِمّا كَسَبُوا والله لايَهدى القومَ الكافرينَ * ومَثَلُ الّذين يُنفقُونَ أموالَهُمُ ابتغاءَ مرضَاتِ الله وتَثبيتاً مّن أنفسهم كمثلِ جنّةٍ بربوةٍ أصابَهَا وابلٌ فآتت أُكُلَهَا ضعفَينِ فإن لّم يُصبها وابلٌ فطَلٌّ وَالله بمَا تعملُونَ بصيرٌ * أيَوَدُّ أحدُكُم أن تكُونَ لَهُ جنّةٌ مّن نّخيلٍ وأعنابٍ تجرى من تحتِهَا الأنهارُ لَهُ فيهَا من كُلِّ الثمرَاتِ وأصَابَهُ الكبرُ ولَهُ ذُرّيّةٌ ضُعفَاءُ فأصابَهَا إعصارٌ فيهِ نارٌ فاحترقَت كَذلكَ يُبيّنُ الله لكُمُ الآيَاتِ لعلّكُم تتفكّرُونَ ﴾** [البقرة : ٢٦١ ـ ٢٦٦] سبحان من هذا كلامه .

ونقف بالقارىء الكريم وقفات متأملة لنتدبر هذا البيان الربانى الذى يأخذ بالألباب ، فنقول وبالله التوفيق :

**أولاً** : الله جلّ وعلا عليم بمدى حرص الإنسان على المال ؛ لأنه أودعه غريزة

الحرص وحبّ الاقتناء حتى جاء فى الأثر : « لو أعطى ابن آدم واديين من ذهب لتمنى الثالث » ، وكثير من بنى آدم عبر التاريخ بذلوا أرواحهم فداءً لأموالهم ؛ ولهذا جاءت آيات البذل فى غاية من التصوير الفنى والإغراء العجيب. ومن هنا جاء التشبيه فى الآية الأولى بديعاً مدهشاً مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل مزارع زرع حبة قمح فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ثم إن هذه الأضعاف السبعمائة ليست هى الحدّ الأعلى فعند الله أضعاف كثيرة ، وهو جل وعلا يعطى بغير حساب ؛ لأنه واسع عظيم الملك لا يتعاظم كرمه شىء ؛ ولأنه عليم بمدى الإخلاص الذى يصاحب الأعمال .

**ثانياً** : فى الآية الثانية : يضع المحسنين المخلصين فى مصاف أولياء الله ؛ لأن الذين لاخوف عليهم فى الآخرة ولاهم يحزنون هم أولياء الله ، كما جاء فى غير آية : ﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس : ٦٢] وهنا يقول الحق جل وعلا : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَيُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ وما أجمل أن يكون أجر الإنسان مدّخراً عند ربه .

**ثالثاً** : التشبيه فى الآية الثالثة يقرب المعنى ويوضحه ويجليه ، فالمن والأذى يبطلان الصدقة وثوابها ، ترى لو أن حجراً أملس كان عليه تراب ثم نزل عليه مطر غزير لا شك أنه سيجرف التراب من على الحجر الأملس فيظل أجرد لا ينبت ، وكذلك الذى ينفق أمواله رئاء الناس ويتبعها منا وأذى ، إنه لن يجد منها فى ميزانه إلا بمقدار ما يتبقى على الحجر الأملس من تراب بعد الوابل الغزير . سيرى ذلك الإنسان أنه كسب أعمالا صالحة لكنه لايقدر على شىء من كسبه ؛ لأن ذلك الكسب قد أزاله المن

والأذى والرياء .

**رابعاً** : أما الذى ينفق ماله طالباً لرضوان الله ، ولكى يثبت نفسه ويوطنها ويعودها على أداء الحقوق والكرم ونبذ الجشع والشح المطاع ، فمثلهم كمثل صاحب بستان على ربوة مشرفة يرويها الهواء الطلق ، وترضعها الشمس لبان النور ، ولايبرح الوابل الرحيم يغاديها ، فإن غاب الوابل لم يفتأ الندى يرطب جوها وثمارها فتؤتى ثمرها مضاعفا بسبب الظروف المناخية المسعفة ، والتربة الأرضية الصافية النقية ، والله جلّ علا بما يعمل عباده بصير ، ومن ثم فبركته وجزاؤه ومثوبته ، كل هذه تمنح منه بعدالة وحكمة وبصيرة نافذة .

**خامساً** : التشبيه فى الآية الخامسة من أروع ما مر بى من تشبيهات ، فهو يشبه صاحب الحسنات فى احتياجه إليها ، وفى غلائها عليه وعظمة موقعها فى القيامة يشبهه بمزارع لم يحصل من دنياه إلا بستاناً خصب التربة جميل الشجر عظيم البركة فيه من كل الثمرات تجرى من تحته الأنهار ، ولم يزل المزارع يعتنى ببستانه حتى أصابه الكبر وكثرت ذريته من الأطفال والضعفاء ، وأصبحت العائلة كلها لامصدر رزق لها بعد الله إلا هذا البستان ، ترى ماذا يكون شعور صاحبه الشيخ ؟ وماذا سيكون شعور الذرارى الضعاف إذا أصبحوا ذات يوم فوجدوا أن بستانهم قد أصابته صاعقة نارية فأحرقته عن آخره ؟ لاشك أنها قاصمة ظهر ، وهى نفسها حال من اقتنى بعض العمل الصالح والإنفاق ، لكنه أفسده بالرياء والمن والأذى فخسره وهو أحوج ما يكون إليه . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون .

أسأل الله أن يخلص أعمالنا لوجهه الكريم وأن يعيذنا من عمل يحبطه الرياء وصدقة يبطلها الأذى .

# أنفقْ من طَيِّب رزقك

هذه ثلاث آيات كريمات تتعلق بالإنفاق فى سبيل الله ، وأبرز ما فيها معالجة النفس الإنسانية من أخطر داء من أدوائها ، إنه داء ينبع من غريزة الحرص ، ولا يزال الشيطان يسممها بوسوسته حتى يعيش الإنسان فى دوامة من الشقاء يطارده شبح الفقر المفزع أينما توجه ، وإذا هو من مخافة الفقر فى فقر مدقع وبؤس مفزع . وإنى مورد هذه الآيات الكريمة ثم معلق عليها إن شاء الله بما أستشفه من سناها وسنائها ، ومن حلاها وبهائها ، يقول الله جل جلاله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُم وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[البقرة : ٢٦٧ ـ ٢٦٩].

جاء فى مناسبة نزول الآية أن بعض أصحاب البساتين كان إذا وجد على نخله قنواً مكسوراً ردىء التمر كثير البسر ، ذهب به فعلقه بين عمودين من أعمدة المسجد ليأكل منه الفقراء ، فلما رأى النبى ﷺ ذلك ، قال لهم : « لو أن أحدكم أُهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء » ، ونزل قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُم وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١) .

(١) فكان الأنصار بعد نزول هذه الآية لا يعلقون لأهل الصفة فى المسجد إلا أجود أنواع التمر .

وإلى المستمع الكريم هذه الإشارات البلاغية اللفظية والمعنوية فى هذه الآيات:

تبدأ الآيات بقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهو نداء للمؤمنين بأشرف صفة من صفاتهم وهى صفة الإيمان ، وهذا النداء لا شك يملأ صدورهم حماسة للخير لكى يستحقوا أن يكونوا فى عداد الذين آمنوا .

**ثانياً** : صيغة الأمر فى قوله تعالى ﴿ **أنفقُوا من طَيِّبَات مَا كَسَبْتُم** ﴾ تفيد فى أصح الأقوال وجوب الإنفاق من الجيد ، سواء أكان الإنفاق صدقة أو زكاة.

**ثالثاً** : قدم الإنفاق من كسب اليدين على الإنفاق من الزروع والثمار ؛ لأن ما يكسبه المرء من نقود بالتجارة وعرق الجبين ، يكون غالياً على النفس ، لأنه لم يأت إلا بمشقة ، أما الخارج من الأرض ، فالإنفاق منه أهون ؛ لأنه أحيانا يخصب ويكثر بغير حساب ، ثم هو يأتى بتعب ومشقة أقل من الرزق الذى يأتى عن طريق العمل اليدوى أو التجارة .

**رابعاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ منه تُنفِقُونَ** ﴾ قدم كلمة ﴿**منه**﴾ على كلمة ﴿ **تُنفقُون** ﴾ لتفيد الحصر فيكون المعنى : ولا تقصدوا دواما إلى النوع الردىء لا تنفقون إلا منه .

**خامساً** : فى قوله تعالى ﴿ **وَلستُم بآخذيه إلاَّ أن تُغمضُوا فيه** ﴾ أى أنكم لا تنقلون الخبيث والردىء ولا تأخذونه إلا عن تغاض وتساهل ، وإذا أهدى إليكم الردىء إهداء لم تأخذوه إلا حياء ، وإغماضا عن رداءته .

**سادساً**: ختام الآية ﴿ **وَاعلَمُوا أنَّ الله غَنِىٌّ حَمِيدٌ** ﴾ فى غاية المناسبة للسياق، لأن من يتصدق بالردىء ، يجب أن يذكر أن الله تبارك وتعالى غنى عن جيده ورديئه ، وهو الذى أعطى الناس خيرات الأرض ، ومع أن الخير كله منه وبيده فهو جل وعلا يحمد لعباده صدقاتهم ، وكأنها من جيوبهم ومن

صنع أيديهم مع أنها كلها من عند الله ومن فضل الله .

**سابعاً** : المقابلة الطباقية فى قمة من البلاغة والعذوبة والفصاحة ، وهى التى فى قوله تعالى : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً** ﴾ ، وقد قدم وسوسة الشيطان على إيحاء الرحمن ؛ لأن المرء إذا أراد الإنفاق هاجمته أولاً وساوس الشيطان تصور له الفقر وتخوفه من تقلب الزمن ، وتأمره بالبخل ومنع الزكاة والصدقة ، وهذا الشح يعتبر معصية لله ويعد فى الفواحش .

**ثامناً** : وقوله فى ختام الآية : ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ خاتمة متناسقة مع سياق الآية ؛ لأن مما يخلص الإنسان من البخل علمه أن الله جل وعلا واسع العطاء عظيم الخزائن ، وهو أيضاً عالم بما يجول فى صدور المنفقين من هواجس الشيطان ووسوسته ، وما يعمر قلوب المؤمنين من ثقة بالله واطمئنان لعطائه وواسع فضله .

**تاسعاً** : ومجىء آية الحكمة بعد آيات الإنفاق فى سبيل الله ، تدل على أن العقل والحكمة وعلم الدين كل هذه تحث الإنسان على الإنفاق وتجعل قلبه مطمئناً لوعد الله ، كما يستشف من الآية أن البخلاء لاحكمة لديهم ولا عقول؛ لأنهم فقدوا ثقتهم بالله وأخلدوا إلى الشيطان يوسوس لهم ، ويستولى على عقولهم ، وظنوا أن لا رزق لله إلا الذى بين أيديهم .

عاشراً : **﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾** معناها أن العقل المستنير بالعلم هو أعظم منة من الله على عباده ، لكن هذه النعمة قد يعمى عنها الغافلون الذين يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، والذين يغترون بالمال وبهرج الحياة بيد أن هذه النعمة المذكورة فى الآية يتذكرها دائماً عقلاء الناس ؛ لأنهم يعرفون أن قصة الحياة معظمها تمثيل هازل

وأن الحياة نفسها ظل زائل وأنه لا يبقى من كل هذه الدنيا إلا الله والعمل الصالح .

**حادى عشر** : يكرر الله جل وعلا لفظ الحكمة ، وكان فى الإمكان أن يسد ضميرها عن الظاهر فيقول: ﴿ **يُؤتى الحكمةَ من يَشَاءُ وَمَن يُؤتها فقد أوتىَ خيراً كَثِيراً** ﴾ لكنه كررها وقال: ﴿ **وَمَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتىَ خيراً كَثيراً** ﴾ وذلك لاهتمامه بالحكمة ولإعلاء قدرها ،فهو يكررها ليدرك الناس جلالة قدرها ، ثم ليشنف بها الأسماع ؛ لأن لفظ الحكمة عذب تنسجم حروفه بعضها مع بعض كالسلسل العذب متدافعاً على حصباء كالجمان .

# تصوير آكل الربا

إذا كان يوم القيامة رأى الناس فئة من الناس يمشون كالمجانين تارة يترنحون وتارة يصرعون ، فيقعون على الأرض ، فإذا سألوا عن أولئك المتخبطين فى الخبال علموا أنهم آكلو الربا ، عاشوا حياتهم الدنيا فى قلق واضطراب وخوف، عاشوا بلا ضمير واعٍ متعقل رحيم ، فبعثهم الله على هذه الهيئة المفزعة كأنما أصابهم مسٌ من الجنون ، أو نوبات من الصرع المروع المخيف . إن آكلى الربا يعرفون بصورتهم المفزعة هذه من دون أهل الموقف ، وهى صورة صورها الحق جل وعلا فى كتابه الكريم ؛ لتكون وعظاً مرهباً لكل من تزين له نفسه أكل الربا .

وإنى موردٌ إن شاء الله تلك الآيات الحكيمة الكريمة التى تذكر الربا وفظاعته، وتوازن بين المرابين مصاصى الدماء ، وبين المتصدقين المحسنين الذين يمسحون بيد الرحمة دموع البؤساء :

﴿ الَّذين يأكُلُونَ الرِّبَا لايَقُومُونَ إلاَّ كمَا يَقُومُ الَّذى يَتَخبَّطُهُ الشَّيطَانُ منَ المَس ذَلكَ بأنَّهم قَالُوا إنَّمَا البيعُ مثلُ الرِّبَا وأَحلَّ اللهُ البيعَ وحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ موعظَةٌ مَن رَّبه فَانتَهَى فَلَهُ مَاسَلَفَ وأَمرُهُ إلَى الله ومَن عَادَ فأُولَئكَ أَصحَابُ النَّارِ هُم فيهَا خَالدُونَ * يَمحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُربى الصَّدَقَات واللهُ لايُحبُّ كلَّ كفَّارٍ أثيمٍ * إنَّ الَّذين آمنُوا وعَملُوا الصَّالحَات وأَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوا الزَّكَاةَ لَهم أجرُهم عندَ ربِّهم ولاَخَوفٌ عَلَيهم ولاَهُم يَحزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا مَا بَقىَ من الرِّبَا إن كُنتُم مُؤمنينَ * فإن لَم تفعلُوا فَأذَنُوا بحَربٍ مّنَ الله ورَسُوله وإن تُبتُم فَلكُم رُؤُوسُ أموَالكُم لاتَظلمُونَ ولاتُظلَمُونَ * وإن كَانَ ذُو عُسرَةٍ فَنَظرَةٌ إلَى ميسَرَةٍ وأَن تَصدَّقُوا خيرٌ لكُم

إن كُنتُم تعلَمُون * وَاتَّقُوا يَومـاً تُرجعُونَ فِيـه إلَى الله ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفسٍ مَّا كَسَبَت وَهُم لاَيُظلَمُونَ ﴾ [ البقرة : ٢٧٥ ـ ٢٨١ ] هذه هى الآيات العظيمة الحكيمة ، وهذه بعض نظرات فى أسرار معانيها وأنوار مبانيها :

**أولاً** : صورة المجانين الذين تتخبطهم الشياطين فيترنحون ويصرعون ، هى أقصى ما تحتمله ألفاظ اللغة ومعانيها للتنفير من هذا الداء الاجتماعى الوبيل ، وهذه الصورة المروعة فيها إشارة بارعة لصورة المرابى فى حياته الدنيا وما يؤز نفسه من حسابات معلقة تروعة وتجعله شارد اللب منقلب العينين تمور فى ضبباته الهموم الممرضة ، لقد كان فى دنياه مصاباً بصرع المال فأصابه الله فى محشره بصرع الذهول والأهوال .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ **يأكُلُون** ﴾ استعارة ، فالربا يغلب أن يكون فى مال لا يؤكل ؛ لكن المال مصيره أو معظمه للأكل ، وفى التعبير أيضاً ما يصورهم وهم يحشون بطونهم بالحرام ، فتترهل بطونهم أمامهم فلا يطيقون حمل تخمتها من السحت فيترنحون وقد ناؤوا بثقل ما أكلوه فى بطونهم ، ومن ثم يصرعون كالمجانين .

**ثالثاً** : آكلو الربا فى كل زمان يؤتون جدلاً ، فقد جادلوا أيام النبى ﷺ مدعين أن البيع مثل الربا ؛ لأن البائع يكسب من المشترى زيادة غير محدودة، وفى هذه الأيام تجلس عند مدير بنك أو مع تاجر يتعامل بالربا أو مع صاحب مال يستثمر ماله فى المصارف الربوية ، فتجد أنهم يصكون سمعك ببراهين شيطانية يبررون بها رباهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وَإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أولِيَائِهِم لِيُجَادِلُوكُم** ﴾ .

**رابعاً** : آكل الربا ليس فقط الذى يعطى ماله بزياده معلومه ، وإنما يشترك معه فى العقوبة والجنون مؤكل الربا وشاهداه وكاتبه ، إذ جميع هؤلاء

ملعونون كما حدث بذلك رسول الله ﷺ .

**خامساً** : قول الله تعالى : ﴿ **فمن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ ، تذكر كلمة الرب ـ والرب هو المربى ـ لتبين أن الله الذى هو رب الناس ومربيهم يسوق لهم الوعظ لمصلحتهم ، لكى يغفر لهم ويعفو عنهم .

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ **يَمحَقَ الله الرِّبَا ويُربِى الصَّدقَات** ﴾ له مصداق مما تعانيه الدول الرأسمالية الربوية التى دخل الربا كل استثمارتها حتى لقد تحقق فيها قول رسول الله ﷺ : « يأتى على الناس زمان لايبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه من غباره » . وعلى الرغم من الحضارة الزائفة فى البلاد الربوية ، فإن أمنها مروّع ، وقد شاع فى أهلها الانتحار والشذوذ والهروب من الحياة وأحيانا بالجنون .

**سابعاً** : ذكر الله جل وعلا الآية التى فيها ﴿ **الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ** ﴾ ليوازن بين أمن هؤلاء وسعادتهم وبين شقاء أولئك واضطرابهم ، ثم ليبين أن الأصل فى المعاملات الإنسانية يجب أن يقوم على الزكاة والإحسان لا على الربا والاستغلال والابتزاز ،. وأن الأصل فى الإنسانية أن يكون طابعها الرحمة والتعاطف .

**ثامناً** : آذن الله المرابين بحرب منه ومن رسوله ، وهو تهديد يحمل غضبة إلهية جارفة تدل على فداحة ظلم المرابى وشراسة ضميره .

**تاسعاً** : المعسر من أهل الديون لا يجوز أن يساق إلى السجون أو يهتك ستره بل يصبر عليه ، والصبر فى هذه الحال صدقة فإن من أنظر معسراً وصبر عليه كتبه الله متصدقاً ، وضاعف الله له الأجر كل يوم بصبره .

**عاشراً** : ختم الله آيات الربا بخاتمة عظيمة التأثير كما بدأها بداية عظيمة التأثير؛ وذلك لأن الربا على ما يبدو كان في المجتمع الجاهلى من دعائم التعامل والاقتصاد ، وكان ولوع الجاهليين بالربا قريبا من ولوعهم بالخمر ، ولهذا فقد وعظهم الله عز وجل وعظاً تربوياً مؤثراً ، وذكرهم أن هذا الوعظ هو من ربهم أى مربيهم : ﴿ **فَمَن جَاءَهُ مَوعِظَةٌ مِن رَبِّه فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمرُهُ إلَى الله** ﴾ . ولاشك أن التربية تتراوح بين أساليب مختلفة فيها التنفير وفيها التهديد وفيها الترهيب وفيها الترغيب ، وجميع هذه الأساليب موجودة فى آيات الربا. أى تنفير أشد من صورة مجنون مصروع يتخبطه الشيطان ، وأى تهديد أعظم من حرب يشنها الله ورسوله على آكل الربا ؟! وأى ترغيب أعظم من أن يوعد المتصدق العفيف عن الربا بألا يخاف ولايحزن ، وأن يكون له عند ربه أجره كاملاً من يد الجواد الكريم ، وأى خاتمة أعظم من أن يذكر الله عباده بيوم الحساب الذى توفى فيه كل نفس ما عملت ؟! ﴿ **واتقوا** ـ يأيها المسلمون عامة ويا أيها المرابون خاصة ـ **يوماً تُرجعُونَ فيه إلى الله ثُم تَوفى كُلُّ نَفسٍ ماكَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾. هكذا فلتكن التربية ، وهكذا فلتكن أساليبها الحكيمة.

**حادى عشر** : من الإشارات البلاغية التى وردت فى الآيات تكرار كلمة الربا ثلاث مرات فى الآية الأولى ؛ وذلك تعميقاً للصورة خصوصاً وأن الأسلوب تربوى تعليمى . ثم إن بين كلمتى ﴿ **يمحق** ﴾ ﴿ **ويُربى** ﴾ طباقاً قصد به الترهيب والترغيب معا، ومن الصور المؤثرة أنه جل وعلا عبر بكلمة : الصدقات عن الصبر على المعسر وإقراضه قرضاً حسناً بلا فائدة ، وقد جاء فى الأثر : « **إن الصدقة بعشر والقرض الحسن بثمانى عشرة** » ؛ وذلك لأن الصدقة قد توضع فى يد غنى عنها، أما القرض

الحسن فلا يكون إلا لمحتاج . وقد لاحظت فى ألفاظ الآيات تنوعاً فى الأساليب، فمنها الجزل المفخم الذى تقشعر له القلوب ، ومنه الرحيم العذب الذين تلين معه القلوب وتنعطف ، وصدق الله تبارك وتعالى إذ يصف القرآن بقوله : ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحَديث كتَاباً مُتَشَابهاً مثَانىَ تَقَشَعِرُ منهُ جُلُودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلين جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُم إِلَى ذكرِ الله ذَلكَ هُدَى الله يَهدى به مَن يَشَاءُ وَمَن يُضلل الله فمَا لَهُ من هَادٍ** ﴾ [الزمر : ٢٣].

# لطائف حول آيات المداينة
# فى سورة البقرة

فى الصفحة قبل الأخيرة من سورة البقرة ثلاث آيات تتعلق ببعض المعاملات من دين وتجارة ورهن وغيرها . الآية الأولى من هذه الآيات هى أطول آية فى القرآن ، فقد احتلت اثنى عشر سطراً من المصحف الشريف ، ولعل السبب فى طولها ، أنها آية قانونية تشريعية ، وأن الموضوع الذى تطرقه دقيق التفصيلات ، وأن أسلوب القانون يتطلب ألفاظا فى غاية من الدقة بحيث لايمكن أن تستبدل بلفظة لفظة أخرى . والعجب المدهش فى هذه الآيات أنها تمكنت أن تعلم الناس قانون المعاملات بأسلوب عذب حلو جميل لاكذلك الأسلوب الصارم الذى تراه فى مواد القوانين ، وأنها مزجت مزجاً بلاغياً رائعاً بين القانون والعاطفة والضمير ، وأنها أبرزت الجانب القانونى بكافة تفصيلاته فى دقة مدهشة تعجز عنها أحدث القوانين المعاصرة . وعلى الجملة فأنت تقرأ الآيات فتفهم أحكام المعاملات ويخشع قلبك وضميرك لوصايا الله جل وعلا ، وتتعجب من هذا العرض القانونى الذى يعلم الإنسانية وهى فى طفولتها كيف يتعامل أفرادها على أعلى المستويات ، وإنى مورد الآيات الكريمة الثلاث ثم متبعها إن شاء الله بما اشتملت عليه من إشارات قانونية ، وبلاغية ، تخاطب العقل والعاطفة معا فلا يسع من يرددها إلا أن يقول فى خشوع : سبحان من هذا كلامه .

يقول الله جل وعلا : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً**

فَإن كَانَ الَّذى عَلَيه الحَقُّ سَفيهاً أو ضَعيفاً أو لاَيَستَطيعُ أن يُملَّ هُوَ فَليُملل وَليُّهُ بالعَدلِ وَاستَشهدُوا شَهيدَين من رِّجَالكُم فَإن لَم يكُونَا رجُلَين فَرجُلٌ وامرأتَان ممَّن تَرضَونَ من الشُّهَدَاء أن تَضلَّ إحدَاهُمَا فتُذكِّر إحدَاهُمَا الأُخرَى وَلاَ يَأبَ الشُّهَدَاءُ إذَا مَا دُعُوا وَلاَتَسأمُوا أن تَكتُبُوهُ صَغيراً أو كَبيراً إلَى أجَله ذَلكُم أقسَطُ عندَ الله وَأقوَمُ للشَّهَادَة وَأدنَى ألاَّ تَرتَابُوا إلاَّ أن تَكُونَ تجَارَةً حَاضرَةً تُديرُونَهَا بَينَكُم فَلَيسَ عَلَيكُم جُنَاحٌ ألاَّ تَكتُبُوهَا وَأشهدُوا إذَا تَبَايَعتُم وَلاَ يُضَارَّ كَاتبٌ وَلاَشَهيدٌ وَإن تَفعَلُوا فَإنَّهُ فُسُوقٌ بكُم وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ * وَإن كُنتُم عَلَى سَفَرٍ وَلَم تَجدُوا كَاتباً فَرهَانٌ مَّقبُوضَةٌ فَإن أمنَ بَعضُكُم بَعضاً فَليُؤَدِّ الَّذى اؤتُمنَ أمَانَتَهُ وَليَتَّق اللهَ رَبَّهُ وَلاَتَكتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكتُمهَا فَإنَّهُ آثمٌ قَلبُهُ وَاللهُ بمَا تَعمَلُونَ عَليمٌ * لله مَا في السَّمَوَات وَمَا في الأرض وَإن تُبدُوا مَا في أنفُسكُم أو تُخفُوهُ يُحَاسبكُم به اللهُ فَيَغفرُ لمَن يَشَاءُ وَيُعَذّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَديرٌ ﴾ . [البقرة : ٢٨٢ ـ ٢٨٤] هذه هى الآيات العظيمة الكريمة وهذه بعض نظرات متأملة فيها :

**أولاً** : بدأت الآيات بقول الله تعالى : ﴿ يَاأيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ﴾ وهذا نداءٌ إلهى فيه تذكير بنعمة الله ، وفيه رفعٌ لمعنوية المؤمنين ، وفى إغراء بالإقبال على كلام الله والإصغاء لأمره ، وهذه البداية فيها استقطاب للانتباه ، وشد للعزيمة والهمة .

**ثانياً** : صيغة الأمر فى قوله تعالى : ﴿ إذَا تَدَايَنتُم بدَينٍ إلَى أجَلٍ مُسَمًّى فَاكتُبُوهُ ﴾ تدل على وجوب كتابة الدين ، وهذا يعنى أن على الدائن والمدين أن يكتبا وثيقة تبين قيمة الدين ونوعه وأجله وشروط دفعه .

**ثالثاً** : على الكاتب أن يلبى الطلب إذا دعى للكتابة بين الدائن والمدين ، وهذه

زكاة علمه فإذا لم يجب فهو آثم ؛ لأن المضارع المقترن بلام الأمر يدل على الأمر ، وقد استعملت الآية أسلوبين من أسلوب الطلب : أحدهما : ينهى الكاتب أن يرفض ويأبى ، والثانى : يأمره أن يكتب ، والآية بأسلوبها العالى تذكر الكاتب بنعمة الله لتحرك قلبه إلى شكرها ، وعليه إذن أن يكتب متطوعاً بدون أجر.

**رابعاً** : الذى يملى هو المدين ، لأنه هو الذى سيدفع ما تضمنته الوثيقة المكتوبة، ومع ذلك تخاطب الآية وجدانه وتقواه ، بألا يبخس شيئا من الحق وأن يتقى الله فى إملائه .

**خامساً** : إذا كان المدين معذوراً ، كأن يكون أخرس مثلاً أو عاجزاً عن الإملاء أو سفيها يجهل مصلحته وإذ ذاك فعلى وليه أن يملى . وهنا يذكره الله جل وعلا : ﴿ **بِالعَدلِ** ﴾ ، ﴿ **فَلْيُملِلِ وَلِيُّهُ بِالعَدلِ** ﴾ .

**سادساً** : بعد تحرير الصك يشرع أن يشهد عليه شاهدان عدلان مرضيان من الطرفين . وقد نبه الشارع أن يكونا رجلين صونا للمرأة أن تجرجر إلى المحافل . ولكن إذا تعذر إحضار رجلين جاز أن تشهد امرأتان بدل أحد الشهيدين ؛ لأن المرأة قد تنسى فى غمرة متاعب الأولاد والأسرة وإذ ذاك تتعاون هى وزميلتها على التذكر والتذكير ، ويلاحظ أنه كرر كلمة إحداهما فى قوله تعالى : ﴿ **أن تَضِلَّ إحدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إحدَاهُمَا الأُخرَى**﴾ ولم يقل : ( أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى ) ؛ لأن المقصود أن تتعاونا على ضبط الشهادة لا أن تكون إحداهما للشهادة والأخرى للتذكير .

**سابعاً** : وكما فرض القرآن على الكاتب أن يكتب ، فرض على من يطلب للشهادة أن يشهد ، فقال تعالى : ﴿ **وَلاَ يَأبَ الشُّهَدَاءِ إذَا مَا دُعُوا** ﴾ ،

وذلك كمظهر للتعاون على الخير فى المجتمع الإسلامى .

**ثامناً** : يعلم الحق جل وعلا أن الناس قد يتساهلون بسبب السآمة أو الكسل، فحث على أن يكتب الدين مهما كان صغيراً ، وعلل الحكمة من ذلك بأن الكتابة ترضى الله ، لأنها تضمن الحق والإنصاف ، ولأنها تسجل فيها الشهادة تسجيلاً والتسجيل أحفظ من المشافهة ؛ ولأنها تدفع الشك والريبة ، وكم من صديق داين صديقه دون كتابة ، فلما طال الأمد لم يتذكرا المبلغ ، فكان ذلك سبباً فى فساد الصحبة .

**تاسعاً** : إذا كان المتعاقدان شريكين فى تجارة فلا داعى لكتابة ما فى ذمة كل منهما ؛ لأن المشاركة تجعل التعامل مستمراً ويكون الأخذ والعطاء فى كل حين ، ولكن يلزم عند كل عملية بيع ذات ثمن كبير أن يشهد على البيع وشروطه شهود : ﴿ **وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** ﴾ .

**عاشراً** : يحرم أن يتسبب المتعاقد فى ضرر الكاتب أو الشهود بسبب خلافات يجرها طمع دنيوى ؛ لأن الكاتب أو الشهود محتسبون الكتابة والأجر لوجه الله ، وإذا لحق بهم ضرر فإن ذلك سوف يزهدهم فى صنائع المعروف .

**حادى عشر** : ختام الآية فى غاية الروعة والبلاغة ، ومناسبة السياق : ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ على المتعاقدين أن يتقيا ربهما الذى علمهما خيرى الدنيا والآخرة ، فيلتزما بأوامره الحكيمة الخيرة العادلة.

**ثانى عشر** : إذاكان المتعاقدان على سفر ولم يتوفر الكاتب ، يسلم المدين للدائن رهناً مقبوضاً يضمن الحق ، وفى هذه الحال يكون الدائن قد ائتمن المدين على الدين ، والمدين قد ائتمن الدائن على الرهن ، وعلى كل

منهما أن يؤدى الأمانة ويتقى الله .

**ثالث عشر** : إذا كتم الشاهد الشهادة فإنه يأثم إثما شديداً ؛ لأنه كتم الشهادة عن قصد من قلبه ، والله جل وعلا يعلم ما فى القلوب .

**رابع عشر** : والآية الأخيرة أحسن خاتمة تصلح لموضوع التعامل ؛ لأنها تذكر المتعاملين أن لله ملك السموات والأرض ، وأنه يعلم السر والجهر ، ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، وهو جل وعلا قادر على كل شيء؛ يغفر ويعذب بحكمة بالغة . أسأل الله أن يجعل القرآن نوراً لأبصارنا وبصائرنا وأن يرزقنا تلاوته وحفظه والعمل به .

# لطائف حول افتتاحية سورة آل عمران

الآيات التى سنعيش فى رحابها اليوم هى مطلع سورة من أعظم سور القرآن، سورة ورد فى فضلها آثار جليلة سنبسط فيها وفى غيرها القول إن شاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ آلم * الله لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيكَ الكتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لمَا بينَ يَدَيه وأنزلَ التَّوراةَ والإنجيلَ من قَبلُ هُدًى للنَّاسِ وأنزلَ الفُرقَانَ * إنَّ الَّذين كفَرُوا بآيَات الله لَهُم عذَابٌ شَديدٌ وَاللهُ عَزيزٌ ذُو انتقامٍ * إنَّ الله لاَ يَخفَى عَلَيه شَىءٌ فى الأرضِ ولاَ فِى السَّماء* هُوَ الَّذى يُصوِّرُكُم فِى الأرحَامِ كَيفَ يَشَاءُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحكيم ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٦].

أقول وأسأل الله التثبيت بالقول الثابت :

**أولاً** : هذه الآيات هى مطلع سورة آل عمران وهى سورة جاء فى فضلها آثار ثابته ، وسبب فضلها والله أعلم : إن الموضوع الرئيسى فيها هو التوحيد، وفى أثنائها تتكرر كلمة التوحيد كثيراً كقوله تعالى : ﴿ الله لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّوم ﴾، وكقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذى يُصوِّرُكُم فِى الأرحَامِ كَيفَ يَشاءُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ العزيزُ الحكيم ﴾ ، وكقوله : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ وَالمَلاَئكَةُ وأُولُوا العِلمِ قَائماً بالقسط لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ العَزيزُ الحكيمِ * إنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلاَمُ ﴾ [آل عمران : ١٨ ـ ١٩] وهكذا .

وقد جاء فى فضلها أن الجن لا يقربون قارئها ، وفى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة ، وآل عمران تحاجان عن صاحبهما » ، وخرج مسلم أيضاً من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله

عنه: « اقرؤوا الزهراوين : البقرة ، وآل عمران ، فإنهما تحاجان عن أصحابهما» ، ومن أسمائها طيبة ؛ لما يعبق فيها من شذا التوحيد ، وتسمى هى والبقرة الزهراوين ، لما يتلألأ فى ثناياهما من ألق أنوار التوحيد ، وقد ورد فى كلتيهما قوله تعالى : ﴿ **اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم** ﴾ .

**ثانياً** : ﴿ **الم** ﴾ من متشابه القرآن ، وبقية الآيات من محكمه ، والمؤمنون يؤمنون بمحكمه ولا يتعمقون فى متشابهه ، وهم الراسخون فى العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، ويدعون ربهم ألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وذلك بأن يبعدهم عن طريق المتنطعين الذين فى قلوبهم مرض والذين يتتبعون المتشابه بالمجادلات والمراء طلباً للفتنة وتنطعاً فى تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله .

**ثالثاً** : ﴿ **اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم** ﴾ ورد فى فضلها : **أنها** تشتمل على اسم الله الأعظم ؛ ولهذا نجد السلف كانوا فى مقدمة دعائهم يقدمون بقولهم: اللهم إنا نسألك بأنك أنت الله لا إله أنت يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، ملتمسين اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، فى هذه الأسماء الكريمة الحسنى.

**رابعاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ** ﴾ بيان أن مصدر الكتب السماوية واحد ، ومنزلها واحد ، والدين فيها واحد وهو الإسلام ، ولكن القرآن نزل آخر الكتب السماوية ، مصدقاً لكل ما سبقه من الكتب السماوية ، ومهيمناً عليها أى : شاملاً لكل ما فيها من أحكام ؛ ولهذا فهو فرقان يفرق بين الحق والباطل إلى يوم القيامة . والقرآن الكريم لا ينقص من قدر الكتب السماوية التى بين يديه لكنه يشيد بها ، فالتوارة والإنجيل هما هدى للناس وفيهما حكم الله ؛ ولهذا فإن الذين كفروا بآيات الله المنزلة على محمد ﷺ ،

سينالهم عذاب شديد من الله العزيز المنتقم ؛ لأنهم يرون أن القرآن مصداق لسائر الكتب من قبله ، وأن محمداً ﷺ مصدق مؤمن بسائر الأنبياء من قبله .

وقد لاحظ المفسرون أن الآية استعملت كلمة ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ فى ذكر القرآن ، وكلمة ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ﴾ لأن كلمة ﴿ نَزَّلَ ﴾ تدل على أنه نزل منجما متفرقاً على حسب الحوادث ، بينما : ﴿أنزلت التوارة والإنجيل﴾ جملة واحدة .

**خامساً** : ذكر الله جل وعلا فى قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُم فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ دليلين على وحدانيته هما : علمه بكل صغيرة وكبيرة فى السموات والأرض ، وعظمة إعجازه المتجلية فى تصوير الإنسان فى الرحم ، فلكل إنسان فى هذا العالم صورة مستقلة يعرف بها ، ولا يشابهه فيها أى إنسان آخر ، وهذه الصورة هى من مشيئته جل جلاله ، وفى مشيئته حكمة بالغة هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، الله أكبر جل جلال الله كم صوّر من صورة منذ خلق آدم إلى الآن ، وكم يصور ، وكم سيصور إلى قيام الساعة ، أى مصور عظيم هذا الذى يصور على غير سابق نموذج ، كم فى خزائن علمه وإعجازه ، وخلقه من صور ﴿هو الله الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءَ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ الحمد لله الذى صورنا فجمل خلقنا وعسى الذى جمل خلقنا أن يجمل أخلاقنا .

**سادساً** : يلاحظ أن هذه الآيات بدأت بقوله تعالى : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم ﴾ ، وانتهت بقوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم ﴾ ابتدأت بالتوحيد ، وانتهت بالتوحيد ، وتوسطها بعدئذ ذكر الكتب السماوية

الدالة على التوحيد ، وذكر دليلين من دلائل قدرة الله وهما : دليلان على وحدانيته ، أنهما علمه بكل ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم تصويره المعجز لوجود البشر وأجسادهم ، ولعل هذا هو السر فى الشرف العظيم ، الذى تحظى به سورة آل عمران ، أسأل الله لى ولجميع المسلمين ، أن يجعلنا من أهل القرآن المرتلين له ، والعاملين بما فيه ليكون شفيعنا بين يديه يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

# النهى عن طاعة أهل الكتاب

وددت لو أن المسلمين فى هذه الأيام نقشوا هذه الآيات من سورة آل عمران فى شغاف قلوبهم ، وطووا عليها ضمائرهم ، ورددوها آناء الليل والنهار ، لعلها تكون شفاء لواقعهم المرير ، ودائهم الخطير ، والله جل جلاله على كل شىء قدير.

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.[ آل عمران : ١٠٠ ـ ١٠٣] أقول وبالله التوفيق والسداد والفتوح:

**أولاً** : هذه الآيات الكريمات لها مناسبة جديرة أن يتدبرها المسلمون جيداً ؛ لأنها مستمرة إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة . جاء فى كتب السيرة: أن يهودياً اسمه شاس بن قيس ، مر على فتيان من الأنصار يسمرون ، ويبتسمون ، وقد رفرف عليهم علم الإخاء ، وانتظمتهم أخوة الإيمان ، ولشدّ ما كانت دهشته حين رأى بعضهم من الأوس ،والبعض الآخر من الخزرج ، هنالك تميز ذلك الكافر غيظاً ، وتذكر ما كانت عليه الأوس والخزرج من عداوة ، وما كانوا فيه من عادات سوداء . لقد كان نعرتهم فرصة لليهود جعلتهم فى المدينة سادة اقتصادها ، ومالكى تجارتها ، حتى

لقد كان معظم أهل المدينة يتداينون من اليهود ، ويخضعون لرباهم الفاحش ، وتساءل اليهودى الأثيم : كيف يجمعهم الإسلام فى هذه الوحدة المتماسكة ؟! إن هذا الاتحاد القوى سوف يعصف بنفوذنا ، وما نحن فيه من الغنى والربا والسيادة هنالك دنا من السامر وحياهم ،وجلس إليهم كأنما يريد أن يسليهم ، وفجأة طفق ينشد لهم شعراً ، مما قاله شعراء الأوس فى معركة بعاث ، وهى يوم من أيام القتال انتصر فيه الأوس على الخرج ، وأثخنوا فيهم قتلا وجراحاً . فاحمرت لسماع الشعر عيون الخزرج ، وقالوا : سنعيد الحرب جذعة ، وفى لمح البصر وقف الفتيان يتحدى بعضهم بعضاً ، ثم أقبل رجال من الطرفين ، وقهقه بينهم الشيطان ، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ ، فأقبل غاضباً متألماً يقول للطرفين : « لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض» ونزل القرآن الكريم يجلجل بصوته المبارك ، وتنزيله الحكيم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ والمقصود بالذين أوتوا الكتاب : أمثال اليهودى شاس ابن قيس ، وجميع دعاة التفرقة من اليهود والنصارى .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ **يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ إشارة بلاغية بارعة تقرن الانقسام بالكفر ، والاتحاد بالإيمان ، فالمؤمنون لا يكونون إلا متحدين ، والكفار تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ويكون معنى الآية : إن تطيعوا دعاة التفرقة من اليهود والنصارى ، يحولوكم من إخوة تحت لواء الإيمان ، إلى شيع متناحرة تحت ألوية الكفر والمبادئ الفاجرة . وفى هذا الكلام درس مخيف للعرب فى هذه الأيام ، تنذرهم بأن التفرق والكفر حليفان ، وأن الانقسام الذى فرق الشمل وأذهب الريح ، وجلب الهزيمة قد يكون مقدمة لذهاب دين الأمة، وتحولها إلى مذاهب الهدم والفساد .

**ثالثاً** : في قوله تعالى : ﴿ **وَكَيفَ تكفُرُونَ وَأَنتُم تُتلَى عَلَيكُم آيَاتُ اللهِ وَفِيكُم رَسُولُه** ﴾ استفهام يحمل معنى التعجب ، إذ من العجيب حقاً أن يكون بيننا كتاب الله وسنة رسول الله ، ثم ننحرف عنهما إلى إلحاد نستورده من الشرق ، أو فساد وكفر نستوردهما من الغرب . إنما بفضل الله لا يزال بيننا كتاب الله ، ولا تزال بيننا سنة رسوله ، ﷺ فكأن فينا محمداً نفسه ، ﷺ ومن ثم فمن أعجب العجب أن نتبدل بكتاب الله الحكيم ، وسنة رسوله المطهرة ، مبادئ جربناها فما جرت علينا إلا الهزائم والويلات .

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعتَصِم بِاللهِ** ﴾ معناه : ومن يتمسك بدين الله . وقوله : ﴿ **فَقَد هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُستَقِيم** ﴾ عبارة موجزة قصيرة تحمل كل معانى الخير ؛ لأن من يهديه الله إلى طريق الاستقامة فقد هداه إلى كل خير ، وجنبه كل شر .

**خامساً** : حين نزل قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه** ﴾ ركب المسلمين هم شديد ، ورأوا فى ذلك تكليفاً لهم بما لا يطيقون ، فنزل بعدها قوله تعالى : ﴿ **فَاتَّقُوا اللهَ مَا استَطَعتُم** ﴾ فطابت نفوسهم برحمة الله وإعذاره ، وفى قوله: ﴿ **وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُسلِمُونَ** ﴾ معناها: واحرصوا بكل جهدكم وعملكم ، ألا تنفصلوا عن دينكم فى أية لحظة ؛ لكى يوافيكم أجلكم على الإيمان ، وحسن الختام .

**سادساً** : وفى قوله تعالى : ﴿ **وَاعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾ صورة بلاغية من أجمل الاستعارات إذ شبه المتمسك بدينه كالآخذ بحبل قوى لا يمكن أن يسقط مهما كثرت من حوله المهاوى ، وأخيراً يذكرهم بما كانوا فيه فى الجاهلية من شرك ، وعداوة كانوا بهما على شفا هاوية تهوى بهم فى نار جهنم ، فامتدت إليهم يد الرحمة ، وأكرمتهم

بالإسلام الذى حولهم إخوة بعد العداوات ، ومؤمنين بعد الكفر والضلالات ، ونجاهم من هاوية النار بهذا الدين ، وهو إنما يعرض علينا هذه الآيات لنظل دائماً على هدى ونور . اللهم ارزقنا الاعتصام بحبلك المبين ، والثبات على دينك القويم ، واهدنا اللهم صراطك المستقيم ، وتوفنا اللهم مسلمين مؤمنين موحدين .

## شهادة الله لنفسه بالوحدانية

ما قرأت هذه الآيات من سورة آل عمران إلا أحسست أن الكون كله من حولى قد تحول ألسنة ناطقة تشهد بوحدانية الله ، وجوارح خاشعة تقنت لعظمة الله ، والحق أن كل آية فى القرآن الكريم تشتمل على نص واضح بالوحدانية ، أقول : كل آية من هذا النوع تملأ جوانب النفس بنور هادٍ حبيب ، يقود الذاكر إلى رحاب السعادة والطمأنينة . هذه الآيات هى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئكَةُ وأُولُو العلمِ قَائماً بالقسط لاإِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزِ الحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلاَمُ وَمَا اختَلَفَ الَّذين أُوتُوا الكتَابَ إِلاَّ من بَعدِ مَا جَاءَهُمُ العَلمُ بَغياً بَينَهُم وَمَن يكفُر بآيَات الله فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحسَابَ* فإِن حَاجُّوكَ فَقُلَ أَسلَمتُ وَجــهِىَ لله وَمَنِ اتَّبَعَن وَقُل للَّذين أُوتُوا الكتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسلَمــتُم فَإِن أَسلَمُوا فَقَدَ اهتَدَوا وَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيكَ البَلاَغُ وَالله بَصِيرٌ بالعبَاد ﴾ [آل عمران : ١٨ ـ ٢٠] . هذه هى الآيات الثلاث التى أحس أن لها تياراً ينطلق بى نحو الملأ الأعلى ، ولعلى إن شاء الله أتلمس بعض مواطن التأثير فيها فأقول وبالله التوفيق والفتوح :

**أولاً** : قد يقول قائل : ما معنى أن يشهد الله جل جلاله بوحدانية نفسه ؟ إن مثل هذه الشهادة قد لا تترك أثرها إلا فى قلوب المؤمنين ، أما الملحدون والمشركون فلا يتأثرون بما يرويه القرآن الكريم عن الله تبارك وتعالى . والجواب. أن شهادة الله جل وعلا لنفسه بالوحدانية ليست كشهادة غيره، إنما هى شهادة تنطق بها شواهد أقامها الله جل جلاله ، كلها تشهد أنه الواحد ، شهادة الله بوحدانيته ليست كشهادة غيره ، وإنما هى شهادة تنطق بها شواهد الدلائل الماثلة التى أقامها وخلقها تنطق عظمتها

بعظمته، وروعتها بقدرته ، وانتظامها وانسجامها بوحدانيته ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ معناها : أن الله جل جلاله ـ وهو أكبر شهادة من أى شهيد ـ قد نصب من هذا الكون شاهداً بوحدانيته ، وأقام من آياته ومخلوقاته شواهد بألوهيته ، فكل شيء فى الدنيا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، وفى كل مخلوق من مخلوقاته دليل على وحدانيته ، وفى كل تدبير من تدبيره ، من حركة أو سكون أو قضاء دليل على أنه الواحد ﴿ قُل أىُّ شيءٍ أكبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَينِي وَبَينكُم ﴾.

**ثانياً** : الملائكة خلائق كريمة من خلق الله تقوم بإنفاذ أمره. منهم ملائكة رحمة ينزلون بواسع رحمته ، ومنهم ملائكة عذاب يتنزلون بنكاله ونقمته، وجميعهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، هؤلاء الخلائق الكرام يشهدون بوحدانية الله بما يتنزلون به من آيات القدرة وبشائر الرحمة ، وإرهاصات العذاب .

**ثالثاً** : العلماء المؤمنون بالله هم أشرف خلق الله ، فقد ذكرهم بعد ملائكته وشرفهم بأن قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، هؤلاء العلماء ـ بعد أن أطلعهم الله من ملكوته وجبروته وآيات عظمتة على ما لم يطلع عليه غيرهم ـ نطقوا كلهم بلسان واحد ، وشهدوا كلهم بقلب واحد أنه لا إله هو . وفى الأثر : « العلماء ورثة الأنبياء وهم أمناء الله على خلقه».

**رابعاً** : إذا قرأت قول الله تعالى :﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئكَةُ وَأُولُوا العِلمِ قَائماً بالقسط لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزِ الحَكِيمُ ﴾ فقل : « وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وأشهد أن الدين عند الله الإسلام » فقد روى الأعمش بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يجاء بصاحبها يوم القيامة ـ أى صاحب الآية ـ

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ فيقول الله تعالى : عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى .. أدخلوا عبدى الجنة».

**خامساً** : بعد أن أثبت الله جل وعلا شهادته العظمى مدّعمة بالشواهد الماثلة ، وأتبعها بشهادة الملائكة والعلماء ، ذكر أن الوحدانية تستلزم ثلاث صفات أخرى وهى : القيام على أمر هذا الكون بالعدالة ، والعزة التى لايرقى إلى عظمتها عزيز ، والحكمة البالغة التى تدير هذا الكون العجيب العظيم .

**سادساً** : إنّ إلها واحداً متوحداً متفرداً بصفات العزة والجلال والعدل والحكمة لايمكن أن يقبل من عباده إلا التوحيد الخالص ، ولن يرضى بأى شرك مهما كان نوعه ، فما عند الله جل وعلا من دين مقبول إلا الإسلام : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ والإسلام هو : أن يسلّم العبد وجهه لله مستسلما له بالتوحيد ، منقاداً له بامتثال الأوامر ، مخلصاً عقيدته من كل شرك .

**سابعاً** : أصحاب الكتب السماوية التى أنزلت قبل محمد كانوا جيمعاً متفقين مجمعين على نبوة محمد ، وعلى الإيمان بدين محمد وهو الإسلام ، ولكن عندما بعث عليه الصلاة والسلام وسطعت أمامهم آيات صدقه البينات ، وجاءتهم البينات فى كتاب الله الكريم ، هنالك تفرّقوا واختلفوا وكذبوا حسداً من عند أنفسهم واشتراء للعرض الأدنى .

**ثامناً** : كثير من أهل الكتاب تفحمهم الآيات البينات ، وتتحداهم المعجزات القاهرات ، وتغلبهم الحجج والبراهين الدامغات ؛ لكن عوامل من الحسد والمصالح الزائلة تسيطر عليهم فتعميهم عن الهدى . مثل هؤلاء ينذرون ،

فإذا سلطان الهوى مسيطر عليهم ، فما على الرسول إلا البلاغ ،والله بصير بهؤلاء الجاحدين لا تخفى عليه منهم خافية وسوف ينالون يوم القيامة جزاءهم على ما أنكروا من آيات الله الباهرة التى تترامى من حولهم ناطقة بالوحدانية ، لكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون .

# عيسى ابن مريم
# كما يصوره القرآن الكريم

كان النجاشى ملك الحبشة ـ رحمه الله ـ رجلاً حكيماً ، وكان ـ رحمه الله ـ متفتح الذهن لا يجرفه الغضب ولا يعميه التعصب ، ولقد وصفه رسول الله ﷺ لأصحابه فقال : « إن فى الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد » . وبسبب تفتحه واستعداده للتفهم والتفكير آمن ـ رحمه الله ـ ونال خير الدارين إن شاء الله . لقد حاول وفد قريش أن يوغر صدر النجاشى على مهاجرى الحبشة من المسلمين : جعفر وأصحابه ، فقالوا له : اسألهم ماذا يقولون فى عيسى ابن مريم. فسأله ـ رحمه الله ـ وأصغى إصغاء المفكر المتعقل ؛ كان السؤال : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟ فأجاب جعفر ـ رضى الله عنه ـ : نقول ما علمنا ربنا أن نقول : هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم الطاهرة البتول وروح منه . هنالك انفرجت أساريره ، ولم يبال بنص الإنجيل فقال : إن هذا والذى جاء به عيسى من مشكاة واحدة . كان يظن أول الأمر أن محمداً ﷺ يسب عيسى وأمه ، كما يفعل اليهود لعنهم الله ، لكنه وجد أن دين محمد دين العقل السليم ، والتوحيد الخالص ، والكلام الطيب العفيف ، والمنطق العقلى السليم ، هنالك لم يسعه إلا أن يتبع محمداً وإن لم يره ، فبحسبه أنه سمع الكلام العظيم الذى أنزل عليه . ولو أنصف النصارى فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأحبوا محمداً ؛ لأنه كان شديد الحب لنبيهم ، وكان كثيراً ما يذكرهم بخير ويتحدث عن لين قلوبهم وقرب بكائهم وأدمعهم لما عرفوا من الحق ، لكن النصارى جروا فى ركاب السياسة الغاشمة .

وإنه من العجب العجاب أن يؤيد النصارى حثالات اليهود الذين يقولون على

مريم بهتاناً عظيماً، ويصفون عيسى عليه السلام بما لا يقال ، وقد تبجحوا فى كتبهم عشرين قرناً أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصلبوه ، حتى جاء منذ بضع سنوات من برأهم مما يدعون ، لا لسبب إلا ليعطف عليهم قلوب النصارى ، والأعجب أن النصارى الآن يمدون سفاحى اليهود بالسلاح الفتاك ليقتلوا به المسلمين الذين يشهدون بنبوة عيسى وطهارة والدته ، وصدق ما أنزل إليه !

وسأثبت هنا آيات من كتاب الله الكريم نزلت حين قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ،وهى توضح أن الإسلام والعقل صنوان نبتا من دوحة واحدة، هى دوحة الإيمان .

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُم ثُمَّ نَبْتَهِل فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران ٥٩ ـ ٦٤] .

لقد كان وفد نصارى نجران من أهم الوفود التى وفدت على رسول الله ﷺ، وبلغ من أهمية هذا الوفد أن الخمس والثمانين آية الأولى من آل عمران نزلت بمناسبة قدوم هذا الوفد ، وكان من نبئهم أنهم قدموا على رسول الله وكانوا ستين راكبا يرأسهم عاقبهم أى أميرهم ، واسمه : عبد المسيح ، ونائبه واسمه : الأيهم، وأسقفهم واسمه : أبو حارثة . وكان أبو حارثة هذا من أكبر علماء

النصارى ، وقد شاع له ذكر فى ملوك الروم ، فأغرقوه وقومه بالمال والهدايا ، وبنوا له الكنائس لبراعته فى الوعظ والاجتهاد والعلم . وقد استقبلهم رسول الله ﷺ أحسن استقبال ، وكان يقوم على طعامهم وشرابهم وإكرامهم بنفسه ، ولربما حمل طعامهم على عاتقه ، وقد حضرت صلاة لهم فسمح لهم ﷺ أن يصلوا فى مسجده الشريف وقال : « إلهنا وإلهكم واحد » فصلوا إلى جهة المشرق ، ولما بدأت المباحثة بين الأسقف وبين رسول ﷺ ، ركز الأسقف على بنوة عيسى لله جل وعلا ، فسأل رسول الله ﷺ : ما دام عيسى نفخة من روح الله فلماذا لا نقول : إنه ابنه ، فقال رسول ﷺ مضمون هذه الآية الكريمة :﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ ، وإذا كان عيسى عليه السلام ولد من غير أب فإن آدم عليه السلام ولد من غير أب ولا أم . ثم إن الله تعالى نفخ فيه من روحه كما نفخ فى عيسى . وبهت أسقف نجران وخلا بجماعته فاعترف لهم أن محمداً هو النبى الذى يعرفونه فى كتبهم ، لكنه قال لهم : إن آمنا بمحمد غضب علينا ملوك الروم وحرمونا مما نحن فيه من أموالهم وهداياهم ، فلما مضوا فى جدلهم عاد إليهم رسول الله ﷺ ووراءه على وفاطمة والحسن والحسين ـ رضى الله عنهم ـ وقال للأسقف : « هؤلاء أهل بيتى فما رأيكم أن ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نتوجه إلى الله مبتهلين إليه أن ينزل لعنته على الكاذب منا » ؟! هنالك اقشعرت أبدانهم ، وقال له الأسقف : لا والله لانباهلك ، والتفت إلى قومه فقال : إن اللعنة إذا حلت بقوم اضطرم عليهم الوادى فما يبقى لهم كبير ولا ينبت لهم صغير . ولكى يقيم عليهم الحجة قال له رسول الله ﷺ : « ما رأيكم أن نرجع وإياكم إلى كلمة سواء منصفة عادلة نعمل بها جميعاً ، وهى أن نعبد الله وحده ولا نتخذ معه أى شريك من خلقه» ؟! هنالك انقطعوا وقالوا لرسول الله ﷺ : بل نظل على ديننا ونوادعك ؛ ندفع الجزية، فابعث معنا رجلاً أمينا يقضى بيننا

فيما يشجر بيننا . فقال لهم رسول الله ﷺ : « سأبعث معكم رجلا أمينا جد أمين » . قال عمر: فطفقت أتطاول ليرانى رسول الله ﷺ لكنه عليه الصلاة والسلام أجال بصره ثم أشار إلى أبى عبيدة رضى الله عنه وقال لهم : « هذا هو القوى الأمين» . أما الإشارات البلاغية الواردة فى الآيات فلعلها إن شاء الله تكون موضوع الصفحات القادمة .

# إشارات بلاغية فى خطاب وفد نجران

الآيات الكريمة وإشاراتها التى خاطب بها رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى ستكون هى موضوع هذه الصفحات ، من حيث أسرارها وإشاراتها البلاغية، إن شاء الله . وبالمناسبة فسورة آل عمران من مطلعها العظيم إلى نهاية خمس وثمانين آية . كل هذه الآيات تدور حول ما دار بين وفد نجران وبين رسول الله ﷺ من مباحثة حول خلق عيسى عليه السلام ، وما يزعمه النصارى من ألوهيته ، لقد بدأت السورة العظيمة بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيكَ الكتَابَ بالحَقِّ مُصدِّقًا لمَا بَينَ يَديه وأَنزلَ التَّوراةَ وَالإنجيلَ * مِن قَبلُ هُدًى للنَّاسِ ......** ﴾ واستمرت الآيات فى سورة آل عمران تتحدث عن التوحيد الخالص ، وشهادة الله بالوحدانية ، ثم ولادة مريم ابنة عمران ، وولادتها لولدها المسيح عليه السلام ، إلى أن تصل إلى الآيات التى نحن بصدد الوقوف عندها ، وهى قوله تعالى : ﴿ **إنَّ مَثَلَ عيسَى عنـدَ الله كَمَثَلِ آدمَ خلَقَهُ من تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فيَكُون * الحَقُّ من رَّبِّكَ فَلاَ تكـن منَ المُمترينَ * فَمَن حَاجَّكَ فيه من بَعد مَا جاءَكَ منَ العلمِ فقُل تعَالَوا ندعُ أَبنَاءَنَا وأَبنَاءكُم ونسَاءَنَا ونسَاءكُم وأنفسَنا وأنفسَكُم ثُمَّ نَبتَهِل فَنجعَل لَعنةَ الله علَى الكَاذبينَ * إنَّ هذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ومَا من إلَه إلاَّ اللهُ وإنَّ اللهَ لهُوَ العَزيزُ الحكيمُ * فإن توَلَّوا فإنَّ اللهَ عليمٌ بالمُفسدينَ * قُل يَا أهلَ الكتَاب تعَالَوا إلَى كَلمَة سَوَاءٍ بيننَا وبينكُم ألاَّ نعبُدَ إلاَّ اللهَ ولاَ نُشرِكَ به شيئاً ولاَ يتَّخذَ بَعضُنَا بعضاً أرباباً من دُونِ الله فإن توَلَّوا فقُولُوا اشهَدُوا بأنَّا مُسلمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٥٩ ـ ٦٤].

**أولاً** : قوله تعالى : ﴿ **إن مَثلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَل آدمَ** ﴾ يسمى جواباً

مسكتاً، والجواب المسكت : هو الذى يقطع قول كل مجادل فيبهت له الخصم ولا يستطيع أن يحير جواباً .

كان سؤال النصارى : لماذا لا يكون عيسى ابن الله ، مادام أن الله نفخ فيه من روحه وخلقه من تلك النفخة ؟ فكان الجواب الإلهى شافياً ، حقاً ، وخلاصته : إذا كان عيسى خلق من نفخة وله أم فإن آدم خلق من تراب ثم سواه الله ونفخ فيه من روحه وقال له : ﴿كن﴾ ، فكان بلا أب ولا أم ، فمثل عيسى عند الله إذن وشبهه هو آدم كلاهما خلقه الله قال له : ﴿كن﴾ .

والجواب المسكت ضرب من ضروب البلاغة لا يتأتى إلا فى ومضات الفكر المشرق المتألق .

**ثانياً** : فى قوله تعالى :﴿ **إنَّ مَثَلَ عيسَى عندَ الله كَمَثَلِ آدَم** ﴾ تلفت نظرنا عبارة ﴿ **عند الله** ﴾ ، ومعاذ الله أن تكون حشوا . إنها إشارة بلاغية بأن خلق آدم وخلق عيسى كانا آيتين معجزتين من عند الله جل وعلا .

**ثالثاً** : فى سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿ **الحَقُّ من رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ منَ المُمترِين** ﴾ بتوكيد الفعل ﴿ **تكونن** ﴾ وفى الآيات التى نحن بصددها يقول الله تعالى: ﴿ **الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تكَنْ مِنَ المُمترِين** ﴾ وسبب توكيد الأول والله أعلم: أن آية سورة البقرة جاءت بعد ذكر العاصفة المغرضة من الجدل العنيف ، تلك التى أثارها اليهود على أثر تحويل القبلة وكان حدثاً مفاجئا ، ولهذا جاء أسلوب التوكيد ؛ ليثبت الله محمداً ﷺ فى إعصار تلك العاصفة ، أما آية آل عمران فقد جاءت فى معرض نفى البنوة عن عيسى ، فعيسى ليس ابنا لله ، كما أن آدم ليس ابنا لله ، وهذه حقيقة كانت مغروسة فى قلب رسول الله ﷺ من أول لحظة من نبوته ؛ ولهذا لم يوردها الحق جل وعلا بأسلوب التوكيد .

**رابعاً** : فى آية المباهلة تتجلى الثقة العظمى التى تعمر قلب محمد ﷺ بنبوته، كما يتجلى الشك والاضطراب والقلق فى وفد النصارى .كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين أنه هو الصادق فى تعريف حقيقة عيسى، وأنه عبد الله ورسول الله ، أما النصارى فكانوا هم أنفسهم غير فاهمين لتفسير التثليث ، ولقد طلب منهم النبى ﷺ المباهلة وهو على ثقة أن اللعنة لن تنزل إلا عليهم ، ولا عجب فمحمد ﷺ كان أعظم الناس إيماناً بنبوته ، كان إيمانه وحده برسالته يعدل إيمان أهل الأرض .

**خامساً** : قدم فى آية المباهلة الأبناء وثنى بالنساء ثم ذكر الرّجال ؛ لأن الموضوع يتعلق بالمباهلة والتوجه إلى الله جل وعلا بالدعاء الخالص ، وفى معرض الدعاء فإن الله يستجيب للناس ببركة ضعفائهم ؛ ولهذا قدم الأطفال الضعفاء ثم النساء ثم الرجال .

**سادساً** : يلفت النظر فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ يلفت النظر تتابع التوكيد ؛ لأنه بهذه الآية يخاطب منكرين وهم نصارى نجران ؛ ولهذا أكد بإنَّ مرتين ، وبلام التوكيد مرتين ، كما أكد بمن فى قوله : ﴿ **وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ وأكد بالضمير المنفصل فى قوله : ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

**سابعاً** : ذكر فى معرض خلق عيسى اسمين من أسماء الله الحسنى وهما : العزيز ، والحكيم ؛ وذلك لأن خلق عيسى بكلمة **﴿كن﴾** ، وخلق آدم بكلمة **﴿كن﴾** ، دليلان على عزة الله فى عظيم الملك، وحكمة الله فى تدبير الأمر ؛ ليجعل عيسى آية للناس ورحمة من ربه وكان أمراً مقضياً ، أى نافذاً بقضاء الله الحكيم ، وقدرة الله العزيزة القاهرة .

**ثامناً** : فى الآية الأخيرة دعا النبى ﷺ نصارى نجران إلى كلمة عادلة منصفة تكون قاسماً مشتركاً بين المسلمين والنصارى ألا وهى الإيمان بالله ونبذ الشركاء ، وهذه الدعوة دليل على أن دين الإسلام يهدف ـ أعظم ما يهدف ـ إلى تحقيق التوحيد ، وصون حماه عن كل شرك ، وأنه حين يتحقق هذا الركن الأعظم ، فإن التفصيلات تأتى فى الدرجة الثانية .

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه .

# القرآن الكريم يصور حقيقة اليهود

هذه أربع آيات من كتاب الله نزلت في اليهود أذكرها هنا وأعلق عليها ليضيف الإخوة القراء إلى معلوماتهم جديداً عن هذا الشعب المارد على الجريمة، وكراهية المؤمنين . يقول الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَاهُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ٧٥ ـ ٧٨].

هذه الآيات الكريمة تأملتها فخرجت منها بما يلي :

**أولاً** : استأمن رجل يهودياً اسمه فنحاص بن عازوراء على دينار ، فأنكره فنحاص، ومن قبل ذلك كان رجل قد استأمن عبد الله بن سلام على مائه وعشرين أوقية من الذهب فأداها وردها كاملة . لكن عبد الله بن سلام قادته أمانته إلى الإسلام، أما فنحاص فقد بقي على كفره ، وهذا يعني أن اليهود والنصارى معظمهم خونة ، وبما أن المسلم لا يستطيع أن يكشف خائنهم من أمينهم ، فالحزم يقتضي ألا يستأمنهم أحد من المسلمين على ماله ؛ ما دام الله جل وعلا قد حذر من خيانتهم .

**ثانياً** : يشيع الكثيرون من المسلمين أنهم تعاملوا مع النصارى واليهود في أوروبا،

فوجدوهم أمناء ، والحق أن التجار الأجانب يظهرون الأمانة ليجروا الزبائن، ولكى يستمروا في أرباحهم الهائلة التى يجبونها من أموال المسلمين . ولولا ذلك لكشفوا عن خيانتهم ؛ لأن من لا دين له لا أمانة له ، والغرب فى هذه الأيام تجتاحه موجة إلحاد تبعده عن كل دين . ولقد قرأت فى الصحف أن رجلاً إنجليزيا عثر فى بيته على جثث لأطفال كبار وصغار ، فاتضح أنه قتل ولديه الكبيرين ، وقتل مولودين له صغيرين؛ لأنه حسب دخله فوجد أنه لا يكفى لأولاده ، كأن ليس فى خزائن الله رزق ! وهذا يدل على أن أهل الغرب قد رجعوا إلى ظلام الجاهلية الأولى .

**ثالثاً** : ستكشف الأيام أن أموال المسلمين المستثمرة عند النصارى ، واليهود، هى فى خطر شديد ؛ لأن المجتمع الغربى الآن منهار أخلاقياً ، يشيع فيه اليأس والشذوذ والجريمة ، وحسبك أن تقرأ عن السرقات العجيبة التى تقترفها عصابات لها نفوذ فظيع ؛ حتى إن بعضها قد كشف أنه مدعوم من جهات كبيرة جداً . ولهذا فلو عقل المسلمون كلام الله ما استثمروا أموالهم إلا فى بلادهم ، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع . وما دام الغرب الآن يتحدى المسلمين عياناً جهاراً ، ويؤيد عليهم أعداءهم ، ويجاهر بنصر الظالم المغتصب لديارهم ، أفليس من الجائز أن تثور الكرامة فى المسلمين فيعلنوها على الصليبية الحاقدة ، وعندئذ سيكون أول رد للدول الصليبية ، أن تجمد الأرصدة ، وعندئذ يقلّب كل مستثمر كفيه، ويقول : يا ليتنى لم آمن لعدو دينى .

**رابعاً** : يصف الله جل وعلا اليهود ، أنهم يأكلون أموال غيرهم ؛ لأنهم قسموا البشر قسمين : يهوداً وأميين ، فاليهود أبناء الله ، وغيرهم أميون أى :

همج وبلغتهم يسمون غيرهم (جوى) ومعناها ليس يهوديا ، أو حيواناً . وقد قرأنا فى كتبهم ومواثيقهم أنه يجوز لليهودى أن يقتل غير اليهودى ويأكل ماله ، ويظلمه ويهتك عرضه ، وليس عليه فى هذا إثم بل إن ذلك يرضى إلههم !! وهذا ما كان يحدث منهم أيام رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يأكلون أمانات المسلمين وأموالهم، ويقولون : ﴿ **لَيسَ عَلَينَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ﴾ أى : ليس علينا فى أكل أموال المسلمين وغير اليهود أى حرج أو إثم .

**خامساً** : يجيبهم الله جل وعلا بقوله : ﴿ **بلى** ﴾ يعنى عليكم سبيل وإثم فى أكل الأمانات ، وكل من يخاف ربه ويوفى بعهده وذمته وأمانته ، فهذا هو الذى يحبه ربه ؛ لأن التقوى والأمانة ينبعان من أصل واحد ، والتقى لا يمكن إلا أن يكون أميناً .

**سادساً** : التهديد الذى وجهه الله تعالى للخونة فى غاية من الهول ، والتخويف، والتنفير: ﴿ **إن الذين يَشْتَرُون بعَهد الله وأيمانهم ثَمناً قَليلاً** ﴾ أى : يخونون الله ويحلفون الأيمان الكاذبة ليأكلوا أموال الناس ، هؤلاء لا نصيب لهم فى الآخرة ؛ لأنهم خانوا الله فى الدنيا ؛ فحرمهم الله من خير الآخرة ، ﴿ **وَلاَ يُكلّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إليهم يوم القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكّيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أليم** ﴾ تهديدات متتالية تقشعر لها القلوب ؛ لأن الخيانة جريمة تخرب المجتمعات، وتمحو الثقة ، وتزيل من الحياة الإنسانية صنائع الخير والمعروف ؛ لتحل محلها البغضاء والحقد والضغينة والكراهية المريرة، ومن هنا كان جزاء الخائن فى الآخرة ، إهمالاً تاماً من الله جل وعلا ، بحيث لا يقيم له وزنا ، بل يعتبره من سقط المتاع .

سابعاً : قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيهِم يَومَ القِيَامَةِ ﴾ لا يحمل على حقيقة المعنى لكنه كناية وكذلك قوله : ﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيهِم ﴾ هو أيضاً كناية، فالله جل وعلا يسأل كل عبد عن عمله ، والسؤال لا يكون إلا كلاماً ، وكذلك فالله جل وعلا ينظر إلى كل خلقه ، لكن المقصود بقوله تعالى : ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيهِم يَومَ القِيَامَةِ ﴾ ما يكون فيه الخونة من إهمال مطبق ، وتحقير يتناسب مع خيانتهم فى الدنيا ؛ خصوصاً أنهم كانوا يخونون معتمدين على قوتهم أحياناً ، فكان من قبيل عملهم أن يجازوا بالتحقير حين سلب منهم الحول والقوة ، وحشروا إلى الله أذلاء لا يحظون بلحظة اهتمام من الله عز وجل .

## المسلمون قدوات الإنسانية وقادتها

فى سورة آل عمران يضع الله المؤمنين أمام مسؤوليتهم العظيمة كهداة لقافلة البشرية وحداة لها فى صحراء الحيرة والتيه ، فيذكرهم أنهم أفضل أمة على وجه الأرض ، ومعنى هذا أنهم قدوات الإنسانية وقادتها نحو الفلاح ، والهدى والحق والخير .

وإنى مورد آيات هذا الفصل ، ثم معقب عليه بما يفتح الله من إلهامه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلَو آمَنَ أَهلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيراً لَّهُم مِّنهُمُ المُؤمِنُونَ وَأَكثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُم إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُم يُوَلُّوكُمُ الأَدبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ * ضُرِبَت عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَت عَلَيهِمُ المَسكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُوا يَكفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعتَدُونَ** ﴾ [آل عمران :١١٠ ـ ١١٢] هذه هى الآيات الكريمات ، وهذه بعض إشاراتها :

**أولاً** : أمة محمد ﷺ هى خير أمة أخرجت للناس ، ويقف أستاذنا الشهيد فى تفسيره الملهم عند كلمة ﴿ **أخرجت** ﴾ فيقول : إن فى هذا التعبير إشارة لطيفة إلى القدرة المبدعة فى الإخراج ، إنه إخراج فى غاية الروعة ، فسبحان المخرج الذى أخرجها على مسرح الإنسانية ، لتمثل أشرف أدوار الجهاد والفضيلة ، والمثل العليا ، والقدوة الصالحة .

**ثانياً** : سبب الأفضلية التى أكرم الله بها أمة محمد ، يعود إلى ثلاثة أمور : أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن إيماناً عميقاً بالله جل وعلا، ومعنى هذا: أن الأمة الإسلامية إذا تخلت عن إيمانها ، وتقسمتها

مذاهب الكفر من علمانية وإلحاد وفسوق ، فإنها تُسلب أفضيلتها ويعود غيرها أفضل منها .

**ثالثاً** : مما يلفت النظر أن الله تبارك وتعالى ، وهو يتحدث عن أمة محمد كخير أمة أخرجت للناس ، أتبع ذلك مباشرة بذكر اليهود وكفرهم ، وإيذائهم للمسلمين ، وكأن ذلك إيعاز بأن اليهود هم أحقد الناس على خيرية أمة محمد، وأن على المسلمين أن يحذروا أول ما يحذرون من اليهود .

**رابعاً** : يقرر القرآن الكريم أن الغالبية العظمى من شعب اليهود فاسقون ، وهذا ما أثبتته تعاقب الأحقاب ، فهم كانوا ومازالوا صانعى الربا ، وتجار الأعراض ومفسدى الأرض ، وبهذه الأعمال استحقوا غضب الله ، وإذلاله لهم .

**خامساً** : يرفع الله معنويات المؤمنين ، فيعدهم أن اليهود لن يستطيعوا الإضرار بالمؤمنين فى كيانهم أو عقيدتهم ، ولن يستطيعوا أن يهزموهم فى معركة مكشوفة ؛ لكنهم قد يؤذونهم بالأكاذيب والدعايات ، وأنواع الأذى ، الذى لا يحقق لهم نصراً ، وأن اليهود إذا قاتلوا المسلمين فإنهم سيولون الأدبار ، ويهزمون هزيمة منكرة .

وهنا قد يسأل سائل : كيف وقد هزم اليهود أمتنا فى هذه الأيام ، ونالوا من وحدتها وكيانها وهزموها ؟ والجواب : أن القرآن الكريم هو أصدق الحديث وهو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن المعارك التى تنشب فى هذه الأيام بين العرب واليهود ، والتى هزم فيها العرب عام ستة وخمسين ، وعام سبعة وستين ، وفى لبنان هى معارك يرفع فيها اليهود علم دِينهم، ولا يرفع فيها العرب علم الجهاد فى سبيل الله ، وهذا أمر مخيف حقاً ، يُخشى معه أن الله جل وعلا قد تخلى عنا ؛ لأن الكثيرين من أمتنا قد تخلوا عن ديننا الذى هو عزنا وشرفنا وسبب نصر أمتنا عبر الأجيال والأحقاب .

**سادساً** : ﴿ **ضُرِبَت عَلَيـــهِمُ الذِّلَّةُ أينمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبلٍ مِّنَ النَّاس.....** ﴾ فى هذه الآية الكريمة : حقيقة لم تتغير عبر التاريخ ، وهى أنهم شعب ذليل حقير لا يشعر بالأمن إلا بحماية من الناس . وهذا هو الحاصل فى هذه الأيام ، فاليهود ما كانوا ليعيشوا ، وتبقى دولتهم لولا حماية من جهات معلومة، تشحذهم كل ميزانيتهم وترسل جيوشها ، وأساطيلها لحمايتهم ، وهذا هو تفسير قوله تعالى : ﴿ **إلاَّ بِحَبلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبلٍ مِّنَ النَّاس** ﴾ أى بذمة من الله وذمة من الخلائق . ويعلل الله جل وعلا سبب ذل اليهود أنهم قتلة الأنبياء وأنهم يكفرون بآيات الله ، بعد أن عرفوها ، وعرفوا مراميها قبل بعثة محمد وبعدها . ولكنهم على مدى تاريخهم أهل عصيان وطغيان وكفر .

**سابعاً** : هنالك إشارات بلاغية فى الآيات منها قوله تعالى : ﴿ **أُخرِجَت** ﴾ أى اختيرت من وراء الغيب لتؤدى أنبل رسالة حملها الله للبشر . ومنها قوله: ﴿ **ضُرِبَت عَلَيهِمُ الذِّلَّة** ﴾ وكأن الذلة خيمة كتب على اليهود أن يقبعوا فى ظلامها . وفى قوله تعالى : ﴿ **لَن يَضُرُّوكُم إلاَّ أذَى** ﴾ إشارة بلاغية تفرق بين الضرر وبين الأذى ، فالضرر هو النكاية الفادحة ، والأذى هو أعمال منكرة ، ولكنها لا تصيب مقتلاً . ولعمر الحق ما أصاب اليهود مقاتل العرب ، إلا بعد أن تقسمتهم سبل أبعدتهم عن صراط الله ، وإن يوماً يجمع صفوف العرب تحت لواء العقيدة ؛ لهو يوم سيعيد اليهود إلى حجمهم وهو حجم أبعاده الذلة والمسكنة وغضب الله .

اللهم اجمعنا تحت علم الجهاد ، وامحق أهل الزيغ والفساد ، وأرنا فى اليهود يوماً تقر به أعين المؤمنين ، وتسخن به أعين المنافقين .

# عزاء إلهى رقيق رفيق

فكرت قبل أيام فى أحوال أمتنا وما آل إليه أمرها الآن من شتات وضياع وهزائم وتحديات ، فكرت فى أحفاد الصحابة وورثة الرسالة ، ومن وصفهم الله جل وعلا بأنهم خير أمة أخرجت للناس يقفون مكتوفى الأيدى ، وهم يرون بأعينهم كيف تداس أقداسهم تحت سنابك الكفر ، وكيف يعيث كلاب اليهود فى عرين الإسلام فيدنسون مسرى محمد ﷺ بكفرهم ورجسهم ، وميراث ذلهم ومسكنتهم وفظاعة معتقداتهم وأطماعهم .

تذكرت هذا ثم ذكرت أن اليهود فى فلسطين ، وبعد ست وثلاثين سنة لايزالون يعيشون فى حمأة آسنة من الأفكار السوداء وفى دوامة جارفة من الخوف والقلق والاضطراب ، تذكرت أن اليهود يعيشون منذ ست وثلاثين سنة بلا عمل ولا اقتصاد ولا استقرار ، يعيشون شحاذين تأتيهم كل ميزانيتهم على هيئة صدقات ، تذكرت أنهم يعيشون فى فلسطين بلا عمل مشرف ولا تخطيط كريم ، كل رسالتهم وأهدافهم مذابح وتعذيب وإحراق وترويع ، تذكرت أنهم يعيشون فى بيوت مسروقة ومزارع مغتصبة وأرض منهوبة ، فهم يتوقعون فى كل ساعة من ليلهم الدامس ، أو نهارهم المروع ، أن يروا صاحب البيت قد مثل أماهم ليطلق النار على من اغتصبوا بيته ، وسرقوا مزرعته ونهبوا مقدساته ، فكرت فى أن اليهود الآن مهما عربدوا فى أراضينا وأراضى لبنان غرباء فى شرقنا الإسلامى ، يرون من حولهم ومن وراء حدودهم شعوباً من العرب المسلمين تمقتهم وتكره جيرتهم ، وتخطط ليل نهار للتخلص من سرطانهم الخبيث .

هنالك رأيتنى أقرأ آيات من كتاب الله نزلت على المسلمين وهم فى أعقاب مصيبة فادحة نزلت عليهم كما ينزل النور وسط الظلام ليبدد سواده المخيف ، كانت جراح المسلمين ناغرة فاغرة يضمدونها وهى تنزف ، وإذ هذه الآيات

تشنف مسامعهم فتفعل ما تفعله يد الطبيب الماهر الرحيم ، إذا تمتد إلى مريض مصاب فتمسح دمعه وتطهر جرحه ، وتملأ قلبه رجاء وأملاً وثقة بنصر الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٢]. هذه هى الآيات ، تدبرتها من قرارة روحى وتمنيت أن يتدبرها العرب المسلمون فى هذه الأيام ، ليعرفوا موقع أقدامهم من النصر .

وقد خرجت من هذه الآيات الكريمة بما يأتى :

**أولاً** : يلاحظ فى الآيات أنها عزاء إلهى رقيق رفيق ؛ لأنها سيقت إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهم مصابون ، فقد قتل منهم فى معركة أحد أكثر من سبعين من بينهم حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ـ رضى الله عنهما ـ ومنهم من الأنصار أكثر من خمسة وستين منهم عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله ، وعمرو بن الجموح ، وغيرهم ـ رضى الله عنهم ـ أجمعين، وإنها لبلاغة عظيمة أن يكون لوم القرآن الكريم لأهل بدر صريحاً شديداً : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[الأنفال ٦٧ ـ ٦٨] أهل بدر كانوا منتصرين ، والمنتصر يلذ له أن يستمع أى توجيه أو انتقاد، أما أهل أحد فمصيبتهم شديدة؛ ولهذا فقد عزاهم الله عزاء جميلاً مؤثراً ليجبر كسرهم ويرفع معنوياتهم .

**ثانياً** : ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنِين** ﴾ تسع كلمات تضمنت أعظم تعزية ، فالمؤمنون حتى وهم مصابون هم الأعلون بإيمانهم، والكافرون حتى وهم منتصرون هم الأذلون الأدنون ؛ لأن العزة بالإيمان ؛ ولأن الكفر حليف الخسران . وإذن فلا وهن ولا حزن مهما حدث من البلاء ؛ لأن العاقبة بإذن الله مضمونة وهى انتصار المؤمنين وهلاك الكافرين .

**ثالثاً** : فى الآيات تكرار لحروف الحلق ، وهى من أروع الحروف نغمةً فى معرض العزاء والنغم الهادئ وخصوصاً حروف الحاء والعين والهاء ، وعلى قصر الآيات فقد تكررت فيها حروف الحلق أكثر من ثلاثين مرة ، أى بمعدل ثمانية فى كل سطر مما أكسب الآيات جرساً فى غاية العذوبة ، ولعلك لو سمعت هذه الآيات من قارئ مجود ندى الصوت تدرك مطابقة نغمتها لحال مصاب يتعزى بهذا الأسلوب العذب المؤثر .

**رابعاً** : فى قوله : ﴿ **وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنِين** ﴾ قرن العلو بالإيمان ، وفى هذه إشارة إلهية أن المظهر الخارجى لا يدل على الحقيقة ، فرب ضاحك مصيره مظلم ، ومنزلته عند الله تعسة ، وربَّ حزين تتهادى السعادة على أبوابه، ونزوله عند الله فى أعلى مقامات الهناء .

**خامساً** : ﴿ **إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِّثلُه** ﴾ أى : إذا كنتم قد أُصبتم فى أحد ، فقد أصيب الكافرون فى بدر إصابة أشد فداحة ؛ لأنه قتل منهم سبعون وأسر سبعون . إن هذه الآية تصلح عزاء للعرب الآن ؛ لأنهم وإن كانوا يعانون من مصائب وهزائم فمصيبة اليهود لا تقل عن ذلك ، وحسبهم أنهم يعيشون فى مستنقع من الرعب فى وسط موت ينتظرهم عاجلاً أو آجلاً . ولقد أخبرنى من لا يكذبنى أن كثيرين جداً

من اليهود يتوقعون أن يكون تجمعهم فى فلسطين مقدمة لإبادتهم ؛ لأن المسلمين لابد بإذن الله أن يستجيبوا لنداء الله لما يحييهم ، وهنا تأتى الحكمة الإلهية مقنعة مؤثرة تبعث الرجاء وهى قوله تعالى : ﴿**وَتلكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ**﴾ ، الأيام دول يوم لك ويوم عليك ، والحال سميت كذلك ؛ لأنها تتحول والحرب سجال ، والكذب حباله قصيرة ، وقريباً سيكتشف مؤيدو الظلم أن اليهود يخططون أن يحكموا العالم كله حكماً ظالماً يقوم على الوحشية والتميز العنصرى وخرافتهم التى يتوارثونها بأنهم أبناء الله ، وأن كل من عداهم نطفة حيوان !

**سادساً** : إن مصيبة المسلمين فى أحد كانت درساً للمسلمين عبر التاريخ بأنه لا جنة ولا نصر بدون تضحيات وشهداء ، وبأن نتائج المصيبة تكون صقالا لعناصرها وتمحيصاً ، أى تصفية لمعدنها تمهيداً لجولة أخرى يسد فيها المؤمنون ثغرات صفوفهم ، فيمحق الله بهم الكافرين ، وما أجمل وما أروع الاستفهام الإنكارى الذى يحمل معانى فيها الإنكار والتعجب والنفى والملامة فى قوله تعالى : ﴿**أم حَسبتُم أن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا منكُم وَيَعلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ .

وبالمناسبة فإن كلمة ﴿ **يعلم** ﴾ التى تكررت مرتين هنا لا تعنى معناها المتداول ، فالله جل وعلا يعلم المؤمنين والصابرين من قبل ومن بعد ، ولكنها ضمنت معنى الظهور والتبيين الذى يقيم الحجة فيكون معناها المجازى هو : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن تصابوا فيظهر فى الشدة ظهوراً واضحا ويتميز تميزا ساطعا المؤمنون الصابرون من المنافقين ومرضى القلوب .

# الطريق إلى الجنة يلزمه المسارعة والمسابقة والتنافس فى الخيرات

هذه أربع آيات من سورة آل عمران ترسم للمؤمنين طريق الجنة واضحاً ملحوباً ، وما على من يطلب جنة الله ورضوانه إلا أن يعمل بما فيها من عبادات وآداب ، وإذ ذاك لن يكون بإذن الله بينه وبين الجنة حجاب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ [آل عمران ١٣٣ ـ ١٣٦] أقول وبالله التوفيق والسداد والفتوح :

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ** ﴾ أمر من الله جل وعلا بالمسارعة والمسابقة والتنافس،وكأن هنالك ميدان سباق ، ومنافسة لإحراز قصب السبق ، يريدنا ربنا أن نسابق فيه ونتنافس ، ولم يأمر الله جل وعلا بالمسارعة والمسابقة والتنافس إلا فى ميادين الخير ومرضاة الله وطاعة الله ، أما فى أمور الكسب الدنيوى فيقول الله تعالى :

﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك : ١٥] لكنه حين ذكر الجنة، والعمل الصالح والمغفرة فهو يأمر بالسباق والمسارعة والمنافسة ، يقول الله تبارك وتعالى فى وصف الصالحين : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ**

في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ [ الأنبياء : ٩٠]، ويقول وهو يذكر الجنة والمغفرة : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾[الحديد : ٢١] ويقول وهو يذكر الجنة وشرابها :﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : ٢٦] وفى هذه الآية التى نحن بصددها يقول الحق جل جلاله : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ .

**ثانياً** : إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فما طولها ؟ لابد أن طولها أكثر طولا من عرضها ، وإذن فإن من ظن أن السموات والأرض هما كل ما خلق الله، فقد جهل عظمة الخالق . إن السموات السبع وعامرهن إذا قيست إلى كرسى الرحمن كانت كدرهم فى فلاة ، والكرسى إذا قيس إلى عرش الرحمن ليس إلا كحلقة ألقيت فى فلاة ، إن جنة الرحمن والله أعلم هى سقف السماء السابعة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، لا إله إلا الله جلت عظمته واسعاً عليماً ، ومدبراً حكيما ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام ١٠٣] .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ يعنى هيئت وجملت واتخذت ترتيباتها ، وأخذت زينتها لتستقبل عباد الله الذين كانوا يخافونه ويتقونه ، وفى سورة الرحمن يقول الله تعالى : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[الرحمن : ٤٦] وإن أقل أهل الجنة منزلة رجل مؤمن قال له الله تعالى : تمن ، فما زال يتمنى حتى انتهت أمنياته، وجمد خياله ، فقال له الله تعالى : لك ما تمنيت وعشرة أمثاله ، وإذا ذكر الله فى الجنة عنباً ونخلاً ورماناً وفاكهة وماءً ولبناً وتمراً فهى أسماء لهذه المسميات فقط ،

أما حقيقتها فما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ،ولا خطر على قلب بشر ﴿ فَلا تَعلَمُ نَفسٌ مَّا أُخفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أعين جَزَاءً بِمَا كَانُوا يعملون ﴾ [السجدة : ١٧] وفى مسألة إعداد الجنة وتهيئتها وهل هى قد تمت وخلقت ؟ أم أنها ستخلق فيما بعد ؟ قولان للعلماء ، أصحهما والله أعلم : أن الجنة قد تم تجهيزها وإعدادها للمتقين ، يؤيد ذلك حديث الإسراء والمعراج ، وما يروى عن مصير أرواح الشهداء ، وأنها فى حواصل طير من طيور الجنة ، تبيت ليلها فتأوى إلى قناديل تحت عرش الرحمن .

**رابعاً** : إذا أردت يا أخى أن تكون من المتقين ، فالتزم بصفاتهم التى أثبتها الله لهم : أنفق وابذل صنائع المعروف فى عسرك ويسرك ، وفى رخائك وشدتك، وإذا أغضبك إنسان فى أمر لا يغضب الله ، فاكظم غيظك ، ثم اتبع كظم الغيظ بالعفو عمن غاظك ، وقمة هذه الفضائل أن تحسن إلى من عفوت عنه، والإحسان هو أعلى منزلة من منازل الدين وهو درجة من درجات السلوك تجعلك على صلة دائمة بربك ، تعبده كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وما أجمل التشويق فى قوله تعالى : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ إذ من منا لا يتمنى ويطمح أن يحبه ربه . إن ملكا من ملوك الدنيا إذا أحبك حب قلب جعلك تشعر أنك من حبه فى أعظم نعمة ، وأمن وغنى ؛ لأنه يذكرك فإذا ذكرك ، وصلتك هداياه، نسأل الله جل جلاله ، أن يتحفنا ووالدينا ، وأحباءنا هدايا رحمته ومغفرته ورضوانه، وحلاوة الإيمان والنظر إلى وجهه الكريم فى مقعد الصدق .

**خامساً** : ومن صفات المتقين : أنهم قد يقعون فى الذنوب ، أو يظلمون أنفسهم ببعض المعاصى لكن أنفسهم اللوامة وضمائرهم الحية تردهم حالا إلى التوبة النصوح ، فيذكرون الله ، ويستغفرون ربهم ، ويندمون

على الذنب ويقلعون عنه ، ويتبعون السيئة الحسنة فتحموها ، فتغسل التوبة الحوبة وتجب التوبة ما قبلها ، ويبدل الله سيئاتهم حسنات ؛ لأنهم لجؤوا إلى رحاب الله الكريم ، واثقين أنه جلّ جلاله يقبل التوبة عن عبادة ويعفو عن السيئات ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى : ٢٦].

**سادساً** : ما أجمل الاستفهام البليغ الجميل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ؟ إنه استفهام يفيد النفي ، فما للذنوب من يغفرها ، ولو كانت كالجبال إلا الله ؟! ومن كرم الله تعالى ، أنه لايكتفي بمغفرة ذنب التائب المستغفر المخلص في توبته ، بل إنه يبدل سيئاته حسنات ، ويفرح بتوبة عبده فرحة من أضل راحلته في صحراء وعليها زاده ، ثم لما أعياه البحث ، إذا هي واقفة عند رأسه وعليها كامل زاده . يقول الله جل وعلا فيما يرويه عنه رسوله الكريم : « لو لم تذنبوا لذهبت بكم وأتيت بقوم يذنبون ويستغفرون » ولا غرو ، فلم سمى ربك نفسه الغفور والرحيم ، والعفو والغفار ، وغافر الذنب، وقابل التوب، إلا ليغفر الذنوب، ولو لم تكن للعباد ذنوب لما كان لهذه الأسماء الحسنى معنى تفهمه العقول .

**سابعاً** : بعد أن وعد الله هؤلاء التائبين الجنة ، ختم الآيات ختاماً في غاية البلاغة بقوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ ليظل التائبون مواصلين للعمل الصالح بعد توبتهم ، مستمرين في سلوك سبيل الهدى ، إذ لا يكفي من التائب أن يتوب ، ثم يعيش على الأماني ، بل لابد من المضي قدماً في طاعة ربه، وشكره على ما أكرمه به من قبول توبته يقول الله جل وعلا : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] .

# إلى الأغنياء والتجار

قرأت هذه الآيات الكريمات من سورة آل عمران ، فوجدتها شرحاً لأحوال بعض أغنيائنا وتجارنا فى هذه الأيام ، وإنى إذ أوردها ، وأشرح مراميها أسأل الله أن يجعل أغنياءنا سمحاءنا ، ويجعل أموالنا عوناً لنا على طاعته :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [آل عمران : ١١٦ ـ ١١٨] . هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض أسرارها ، وإشاراتها المعنوية والبلاغية :

**أولاً** : من الناس من يخرج من حياته ويلقى ربه وهو لم يستفد أى شىء من ماله ولا ولده ، فيكون ماله عليه فى القيامة حسرة ، حين يرى كثيرين من عباد الله قد أفادوا من أموالهم حسنات صالحة متقبلة، وخلفوا من أولادهم من دعا لهم وتصدق عنهم . والذين لا يستفيدون من أموالهم وأولادهم ، هم الكفار؛ لأن كل أعمال الكفار مردودة عليهم ، والمراؤون الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس والبخلاء الذين يزين الشيطان لهم البخل، فيعيش أحدهم مغلولة يده إلى عنقه . وممن لا يستفيدون من أموالهم ، أكلة السحت والحرام ؛ لأن الله جل وعلا طيب لا يقبل إلا الطيب الحلال ؛ ولهذا فإن من يتصدق من رشوة ، أو اختلاس ، أو مال

جمع من طرق الحرام فصدقته مردودة عليه .

**ثانياً** : ذكرت الآية الأموال قبل الأولاد ؛ لأن غالبية حسنات المؤمن تكون من كسب يده ، وأكثر ما فى ميزان المرء يوم القيامة يكون من سعيه ، ثم يأتى صلاح الولد مكملاً لحسنات والده ، حين يدعو له ويتصدق عنه ، وفى القيامة مواقف لا يجزى فيها والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . ومع ذلك فالذرية الصالحة كما ورد فى القرآن الكريم يدخلهم الله، ويلحقهم بآبائهم الصالحين ، وحتى أطفال المسلمين ، كما ورد فى صحيح الحديث : «يدخلهم الله الجنة ، فإذا كانت القيامة خرجوا وأخذ كل منهم بيد أبيه حتى يشفعه الله فيه فيدخلهم الله الجنة فى شفاعة أطفالهم » .

**ثالثاً** : إذا أنفق الكافر أو المرائى ولو قناطير مقنطرة من الأموال فإنها لا تغنى عنه شيئاً ؛ لأنها قد عصف بها الكفر والرياء والمن والأذى ، ومن ثم يراها يوم القيامة من حسناته ، لكنه لا يلبث أن يراها وقد طارت ، وظل ميزان حسناته فارغاً ، فإذا تساءل عن ذلك قيل له : إن الله جل وعلا هو أغنى الشركاء عن الشرك ، وقد أشركت فى عملك مع الله غيره ، فاذهب إلى من أشركتهم مع الله ، وخذ أجرك منهم ، وأنى يعطونه أجره ، وهم أحوج ما يكونون وأفقر ما يكونون بين يدى رب العزة والجبروت ، ورب الملك والملكوت !!

**رابعاً** : فى الآية الثانية : صورة جمالية فى غاية البلاغة ، فلقد شبه نفقات الكفار والمرائين والمنافقين ، بزراعة هبت عليها ريح شديدة البرودة ، فأحرقتها ببرودتها وأهلكتها ، والحق أنه ما ظلمهم الله حين أحبط أعمالهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم حين أبطلوا أعمالهم وصدقاتهم بالشرك والرياء ، والمن والأذى ، ولو أدوها مخلصة لوجه الله ؛ لرسخت وثبتت فى موازين أعمالهم وآتت ثوابها أضعافاً مضاعفة .

**خامساً** : كثير من أصحاب الأموال تحملهم تجاراتهم أن يتخذوا لهم أصدقاء، وجلساء ، وخلطاء ، وشركاء ، وبطانة من الكفار ، كما نرى فى كثير من تجار هذه الأيام ، فقد وثقوا بالأجانب من الكفار والنصارى واليهود ثقة مطلقة ، وخالطوهم ، وصادقوهم ، فكان أن علمهم الكفار عادات الكفر ، حتى لقد رأينا عشرات الآلاف من التجار المسلمين فى هذه الأيام ، يقضون معظم أوقاتهم فى بلاد الكفر ، وهناك يستقبلهم خلطاؤهم وبطانتهم من أهل الكفر ، فلا تسأل أين يذهبون ؟ ولا أين يسهرون ؟ إنهم هناك يستمرئون معصية الله جل وعلا ، فى هذه الدنيا ومن أجل استثمار الأموال ، لكنها لن تغنى عنهم من الله شيئاً ، وسيتحولون إلى أصحاب نار ونكال ، بعد أن كانوا أصحاب رياسة وأموال!

**سادساً** : في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُم لاَ يَأْلُونَكُم خَبَالاً** ﴾ نهى لكل مؤمن بالله أن يخالط الكفار ، مصادقاً لهم واثقاً بهم ؛ لأنهم وإن أظهروا المودة فهم لا يوفرون أى جهد فى إفساد أمور المسلمين؛ ولأن فى صدورهم غلاً تظهره الشدائد ، وإن بدت ألسنتهم أحياناً رقيقة الكلام. وإذا احتج بعض الأغنياء أنهم لم يجدوا الفنيين من محاسبين وإداريين وصناع، إلا من النصارى ، فإنه زعم كاذب ؛ لأنهم لو بحثوا مخلصين فى أوساط المسلمين لوجدوا من هم أعظم خبرة وإدارة من الكفار ، لكن اتباع الهوى ونزوات الشياطين هى التى تزين لأغنياء المسلمين ، أن يتشبثوا ببطانة الكفار ، مع أنهم لا يلبثون أن يأخذوا من معاصيهم وكفرهم ، وفى الحديث الشريف : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ، وقديماً قال الشاعر الحكيم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه      فكل قرين بالمقارن يقتدى

# ربانيون تحملوا ما لا تطيقه الجبال

هذه خمس آيات من سورة آل عمران ، ما قرأتها إلا استصغرت نفسي حين أوازنها بأولئك الربانيين من أصحاب رسول الله ﷺ ، أولئك الذين تحملوا في ذات الله ما لا تطيقه الجبال الراسيات .

كلحت من حولهم النوائب ، وأقبل عليهم شبح الموت ، تجره الشراذم الشيطانية ، وحشد لهم الكفر كل طاقاته ، فما زادتهم المصائب إلا إيماناً وتسليماً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [ آل عمران : ١٤٤ ـ ١٤٨ ] . هذه هي الآيات العظيمات التي داوت جراح المؤمنين في حياة رسول الله ويوم وفاته . وإني مشير ـ إن شاء الله ـ إلى بعض أسرارها ، فأقول وبالله التوفيق :

**أولاً** : لما اضطربت صفوف المسلمين في أحد ، تمكن المشركون أن يطوقوا المسلمين ، وينفذوا إلى المقدمة حيث رسول الله ﷺ ، وحامل الراية : مصعب ابن عمير ، فانقض فارس من المشركين اسمه : ابن قمئة الليثي على مصعب

رضى الله عنه فقله ، وسقط اللواء فحمله على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وظن ابن قمئة أنه قتل رسول الله ﷺ ، فصاح بأعلى صوته : قتلت محمداً قتلت محمداً ، فنزلت هذه الصيحة على المسلمين نزول الصاعقة ، وتفرقوا من المقدمة وتمكن المشركون أن ينفذوا إلى رسول الله ﷺ ، فوقع رسول الله ﷺ فى حفرة ، حفرها منافق اسمه : أبو عامر الراهب ، وأمطره عتبة بن أبى وقاص، وكان مشركاً ، بوابل من الحجارة فشج وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى فى الفك الأسفل وجرحت شفته السفلى وشج وجهه ، فطفق ﷺ يمسح الدم ويدعو على المشركين ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **لَيسَ لَكَ منَ الأمرِ شيء أو يتُوبَ علَيهِم أو يُعَذِبهُم فإنَّهُم ظَالمُونَ** ﴾ وضربه ابن قمئة فى خده ، فدخلت حلقتان من زرد المغفر ( الخوذة ) فى وجنته ، فأقبل علىٌّ وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما وأخذا بيد رسول الله ﷺ فأخذ بأيديهما ، وأخرجاه من الحفرة، وقد مص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجه رسول الله ﷺ ، ونزع أبو عبيدة أول حلقة من وجنته فكسرت ثنيته ، ونزع الحلقة الأخرى ، فكسرت ثنيته الثانية ، وظل أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ أدرد الثنيتين، ولما لم ينقطع الدم من النزيف الخطير ، أحضرت فاطمة رضى الله عنها قطعة حصير فحرقتها وسدت جراح والدها عليه الصلاة والسلام بالرماد فانقطع الدم . وفى غمار المصيبة صعق المسلمون عن أنفسهم ، فقال لهم أنس بن النضر وهو جريح يعانى الموت : إذا كان نبيكم قد مات فإن الله حى لا يموت ، قوموا فموتوا على ما مات عليه نبيكم . ومر بعض المهاجرين على أنصارىٍّ يتشحط فى دمه فقالوا له : أما بلغك مقتل رسول الله ﷺ فقال لهم : وهو يجود بنفسه : إن كان محمد قد مات فقد بلغ ، قاتلوا على دينكم ،

فنزلت هذه الآيات .

**ثانياً** : في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ تذكير للمسلمين أن جميع الأنبياء مضوا وماتوا ؛ ولكن عاشت مبادئهم الكريمة، ودينهم القويم ، وفي قوله تعالى : ﴿ **أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ استفهام يحمل معنى الإنكار والتعجب . إذ كيف تغيب عن المؤمنين حقيقة الموت ، والله تعالى يقول : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ ، ثم كيف تنهار معنوياتهم لنبأ موته ، وهم قد علموا أن كل شيء هالك إلا وجه الله.

**ثالثاً** : في قوله تعالى : ﴿ **انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ صورة تمثل المرتد تمثيلاً عجيباً في غاية الطرافة ، إنها تمثل صورة إنسان يمشي معتدلاً مستقيماً، ثم ما هي إلا أن يزلق عقباه على ظهره ، في منظر يضحك ويبكي ، والمنقلب على عقبيه لا يضر إلا نفسه ؛ لأن الله جل جلاله في غنى عن أعمال العباد وقد أعد جزاء عظيماً لمن يشكر نعم الله ، ولا سيما نعمة الإسلام .

**رابعاً** : يسوق الله جل وعلا هذه الحكمة البالغة البليغة : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً** ﴾ إنها حقيقة تبعث العزم والثبات واليقين . وقد مر القرآن على ذكر الموت مر الكرام ؛ لأنه حقيقة مشاهدة في كل ساعة ، وإذن فليس المهم هو الموت ، ولكن المهم هو ما بعد الموت ، ولهذا ذكر ما بعد الموت من ثواب المؤمنين الشاكرين ، وحرمان الكفرة الغافلين .

**خامساً** : واستعرض القرآن الكريم في الآية التالية جهاد الأنبياء ، وأصحابهم وحوارييهم وكيف ثبتوا على الحق ، حتى استشهد من استشهد وجاء

نصر الله، بعد أن بلغت القلوب الحناجر ، فما حصل لمحمد ﷺ فى أحد هو نموذج لما حصل لكل الأنبياء من قبله ، وللمؤمنين من قبل أصحابه، فقد قاتل أولئك الربانيون مع أنبيائهم ، ولما انصب عليهم البلاء، والقتل والإيذاء ثبتوا ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا أمام قوة أعدائهم ، ولا استكانوا أو استسلموا حين حاقت بهم هزيمة ، أو خسارة فى الأرواح والأموال . فكان أن نصرهم الله وكتبهم فى أحبابه ، والله جل وعلا يحب الصابرين ويوفيهم أجرهم بغير حساب.

**سادساً** : لقد أبلى الربانيون من أصحاب رسول الله بلاءً عظيماً ، فكان رسولهم أعظم الرسل عزماً ، وكان أصحابه أعظم أصحاب الأنبياء صبراً وبطولة، وشجاعة ، وتضحيات ، فقد شاهدت الدنيا فى يوم أحد مواقف من البطولات والصبر والاحتمال لا تطيقها الجبال الراسيات. حتى إن بعض أصحاب رسول الله ﷺ وقفوا كالتروس بين النبى وبين الكافرين ، فسقط بعضهم وقد جرح ثمانين جرحاً بالغًا ، وحتى إن بعضهم لم يعرف إلا بعلامة فى أصابعه . ولقد كان طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يقاتل دون رسول الله ﷺ ، حتى يغمى عليه من الإرهاق والنزيف، فإذا أفاق عاد للقتال ، يفعلها ـ رضى الله عنه ـ عدة مرات .

وقد قرأنا فى السيرة أن زيد بن ثابت ذهب يبحث عن سعد بن الربيع ـ رضى الله عن زيد وسعد ، فوجده يجود بأنفاسه فقال لزيد : أبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام وقل له : جزاك الله عن هدايتنا خير ما يجزى نبى عن أمته ثم سلم على قومى ، وقل لهم : لاعذر لكم عند الله إذا نفذ المشركون إلى رسول الله، إذ ما نفع عيشهم إذا أسلموا رسولهم إلى المشركين .

اللهم ارض عن أصحاب رسول الله ، وأمدنا بروح من إيمانهم وجذوة من عزائمهم ، نعيد بهما مجد الإسلام ، ونقيم بهما صرح الإيمان .

# منهج القرآن فى تأليف القلوب

هاتان آيتان من سورة آل عمران ، ترسمان منهج الحكمة والسّداد والتوفيق لكل حاكم مسلم ، ولكل داعية مسلم ؛ وذلك لأنهما تنضحان على القلوب نوراً وهدى ، ومكارم أخلاق ، وبهما يستطيع الحاكم والداعية أن يتألف القلوب ، ويستجلب الحب والاحترام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [ آل عمران : ١٥٩ ـ ١٦٠] . أقول وبالله التوفيق ، وعليه التوكل وإليه الإنابة :

**أولاً** : حينما رجع الصحابة من معركة أحد ، كادوا يبخعون أنفسهم أسفاً ، لأنهم تفرّقوا من حول رسولهم ﷺ ، فمكنوا بذلك للأعداء أن ينفذوا إلى رسول الله ﷺ وينالوا منه نيلاً شديداً . وكانوا يظنون أن الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سوف يعاقبهم ويعاتبهم . فلما اجتمعوا به ﷺ لم يسمعوا منه تأنيباً ولاعتاباً ، ولكنهم سمعوا منه قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٥٥] ثم أقبل عليهم يسليهم ويخفف مصابهم ، ويعلمهم دروس الصبر ، وأن المصائب كثيراً ما تكون بشائر نصر وفتح وظهور وتمكين ، هنالك تمنى كل منهم لو يصون رسول الله ﷺ فى

قلبه ، ويدافع عنه بماله وما ملكت يده ، وخاطبه الحق جلّ وعلا يزين له خلق اللين والرفق ، ورقة الحاشية ، فأنزل عليه هذه الآية الكريمة : **﴿فبمَا رَحمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم ولَو كُنتَ فَظًا غَلِيظَ القَلبِ لانفَضُّوا مِن حَولِك ﴾** .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : **﴿ فَبِمَا رَحمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم ﴾** زادكلمة « ما » وهى عند أهل اللغة نكرة تامة ، كقولك : حدث لهم أمر ما ، أى : أمر عظيم، وكقوله تعالى : **﴿ جندٌ مـا هنالك مَهْزوم من الأحَزاب ﴾** أى جند كثير كثيف . وإذن فقول الله تعالى : **﴿ فَبِمَا رَحـمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم ﴾** أعظم توكيداً من قولنا : فبرحمة من الله ، وهنا إشارة معنوية تذكر أولى الألباب، وهى : أن اللين والرفق ومكارم الأخلاق ، هى هبة من الله ورحمة ، وفى الأثر : اللهم اهدنا لمكارم الأخلاق ، لايهدى إليها إلا أنت . فإذا رزقت الأخلاق الكريمة ، فاعلم أنها رحمة من ربك تستحق منك شكر المنعم الرحيم، كما تستحق منك الحفاظ على هذه النعمة ، وذلك بإخلاصها لوجهه الكريم .

**ثالثاً** : كثير ممن يتصدرون للوعظ والهداية يلجؤون إلى أساليب التشدد والعنف والغلظة ، فيكونون بذلك فتانين ، أكثر منهم هداة ، وبالغلظة ينفض الناس من حولهم ، ويكرههم الناس فى العبادة لما تتفجر به ألسنتهم من قارص القول ، وجارح الألفاظ ؛ لهذا دعا القرآن الكريم أن يتحلى الداعية ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والإقناع بالحسنى . ولقد شهد أصحاب رسول الله أنه كان ﷺ أكرم المعلمين أخلاقاً ، لايكهر ولاينهر ولايغلظ القول . كان ينهى عن السباب حتى ولو كان سباب المشركين، ويقول للصحابة رضوان الله عليهم : « ليس المؤمن بطعان، ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء » .

**رابعاً** : يُعلّم الله جل جلاله نبينا محمداً ﷺ كيف يمضى فى طريق الصفح الجميل ، والعفو غير الممنون إلى نهايته ، فيقول : ﴿ **فَاعفُ عَنهُم** ﴾ أى: اصفح عن ذنبهم فى التفرق من حولك أثناء المعركة ، وانشغال بعضهم بالغنائم ، وبعضهم بطلب النجاة . ثم يقول له : ﴿**وَاستَغفِر لَهُم**﴾ أى اطلب لهم من الله المغفرة ؛ لأن صلاتك سكن لهم ، واستغفارك لهم متقبل ، ومقبول ـ إن شاء الله ـ وبعد ذلك يقول له : ﴿ **وَشَاوِرهُم فِى الأمر** ﴾ وفى هذا رفع لمعنوياتهم ؛ لأن المشورة مظهر الثقة ، وأنت لاتستشير إلا حين تثق ، فإذا استشرتهم علموا أن ثقتك بهم لم تزل فى محلها . والحق أن خير الحكام هو الذى يبنى حكمه على الشورى ، فيجمع حوله أهل الرأى والحكمة والعلم والدين ، والمشهود لهم بالصدق والأمانة ، وبالإخلاص والثقة ، فيستشيرهم فيما يهم المسلمين من أمور المعاش والمعاد ، أما حين يلجأ الحاكم إلى طبائع الاستبداد ، ويجمع حوله أهل النفاق والفساد، فتلك مقدمة تؤذن بشر كبير ، ومن صفات المؤمنين التى امتدحها ربنا جل وعلا أن أمرهم شورى بينهم . وقد أمر الله رسوله أن يشاورهم فى الأمر ، مع أن الله عز وجل قادر أن يؤتيه رشده ، ويهديه سبيل الهداية والتوفيق ، دون أن يشاور ، ولكن فى هذا الأمر تعليماً لكل حاكم أن يبتعد عن الاستبداد ، والطغيان والاستقلال المطلق بالرأى، لأنه لو كان خيراً لما أمر المعصوم عليه الصلاة والسلام أن يستشير. على أن الحاكم المسلم المخلص إذا وجد أن الشورى سوف تضيع الفرصة ، وأن الآراء قد تشعبت مع الأهواء ؛ فعليه حينئذ أن يعزم ويحزم ويتخذ العدة ، وينفذ الأمر الأقرب إلى منطق الفكر المستنير متوكلاً على ربه بعد أخذ الأُهبة .

**خامساً** : وفى وسط الهزيمة يفتح الله أمام نبيه والمؤمنين باب الأمل المشرق والرجاء الجميل فيقول لهم : ﴿ **إن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُم** ﴾ ومعناه : إن أخذتم بأسباب النصر وأطعتم الله ورسوله ؛ فسوف ينصركم الله ، ولن يغلبكم أى غالب من البشر ، لكن إذا تخلى عنكم بما كسبت أيديكم من المعصية ، فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟! وهذا استفهام بلاغى يفيد النفى القاطع ، ومعناه : لا أحد يستطيع أن ينصر من خذله الله ، وإذن فما عليكم إلا أن تتوكلوا على الله توكلا مصحوباً بالطاعة والقوة والأخذ بالأسباب ،وإذ ذاك يحبكم الله لأنه يحب المتوكلين عليه ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى الله فَهُوَ حَسبُهُ إنَّ الله بَالِغُ أمره** ﴾ . فتوكلوا إذن عليه لتكونوا أولياءه ، ومن حزبه وأحبابه ، وحزب الله هم المفلحون وهم الغالبون .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أحبائه ، وأن يهدينا لمكارم الأخلاق لايهدى إليها إلا هو .

# الصحابة الكرام يجتازون اختباراً شاقاً بعد أحد مباشرة

هذه أربع آيات من سورة آل عمران ، وقف عندها أهل السيرة وقفة طويلة ؛ لأن فيها من الدروس ما لو عقلناها لتحول كل فرد منا أمة بنفسه ، ولتحول أولياء الشيطان أمام أنظارنا ، أوزاعاً شتى ، يغزوها الرُّعب كلما سمعت اسمنا . هذه الآيات الكريمات تصف امتحاناً بالغ الصعوبة ، عقده رسول الله ﷺ لأصحابه ، واختار له ظرفاً من أدق الظروف ، ووقتاً من أحرج الأوقات ؛ فنجحوا فيه رضوان الله عليه ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الَّذينَ استَجَابُوا لله وَالرَّسُولِ من بَعد مَا أصَابَهُمُ القَرحُ للَّذينَ أحسَنُوا منهُم وَاتَّقَوا أجرٌ عَظِيم * الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم فَاخشَوهُم فَزَادَهُم إيمَاناً وَقَالُوا حَسبُنَا الله وَنعمَ الوَكيلُ * فَانقَلَبُوا بنعمَةٍ مِّنَ الله وَفَضلٍ لَّم يَمسَسهُم سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رضوَانَ الله وَالله ذُو فَضلٍ عَظِيم * إنَّمَا ذَلكُمُ الشَّيطَانُ يُخَوِّفُ أولِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُم وَخَافُونِ إن كُنتُم مُّؤمنين** ﴾ [آل عمران ١٧٢ ـ ١٧٥] . أقول وأسأل الله السداد في القول والتوفيق في العزيمة والإخلاص في النيات والأعمال :

**أولاً** : كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يختبر أصحابه اختباراً شاقاً ، كما فعل حين دعاهم إلى غزوة تبوك ، في حمارة القيظ وعند نضوج الرّطب ، وتبرج الظلال. وكانت استجابتهم ـ رضى الله عنهم ـ عجيبة مدهشة ، إذ كانوا ينفرون خفافاً وثقالاً ، ولو كانت أرواحهم ثمناً لتلك الاستجابة .

والآيات التى نحن بصددها ، تصف امتحاناً أعلنه رسول الله ﷺ ، فى اليوم التالى مباشرة لمصيبة المسلمين فى أحد . كان ذلك فى يوم الإثنين السادس عشر من شهر شوال ، وكان يوم أحد فى يوم الأحد الخامس عشر من شهر شوال . كان المسلمون فى قرح وألم وجراحات ، فنادى رسول الله ﷺ فى أصحابه الأجلاء : « إنا خارجون غداً فى أثر المشركين حتى نرهبهم ، فلا تحدثهم أنفسهم بالعودة إلى المدينة ، وانتهاز قرْحنا لاستئصال شأفتنا » . فيا لعظمة الرجال ، ويا لجلال الاستجابة حين رأى رسول الله ﷺ أولئك الغرّ الميامين ، وقد لبوا نداءه رغم الآلام والجراحات،كان المنظر مؤثراً حقاً ، حتى لقد حضر بعضهم وقد أسنده بعض إخوانه حتى لا يقع من الإعياء، وجاء بعضهم محمولين على الأعناق ؛ لكى يكتب لهم ثواب الاستجابة لنداء رسول الله ﷺ . وقد اشترط رسول الله ﷺ ألا يخرج إلا من شهد القتال فى أحد ؛ ليكون لأولئك الأبرار نورٌ على نور ، وليظلوا على تعاقب الأحقاب ، قدوات للمجاهدين يعلمون طلاب العلا أن كل ألم يهون فى جنب الله ، وأن الحياة كلها أرخص شىء إذا كان مستهديها هو الله .

**ثانياً** : ولكى يتعرف شبابنا سيرة أسلافهم ، أروى لهم قصة شاب من الأنصار وكيف كانت استجابته مثلاً أعلى يضىء لشبابنا معالِم البطولات ، وسبيل الصبر واحتمال الألم فى ذات الله . لم يحضر جابر ـ رضى الله عنه ـ قتال أحد ، لأن أباه ـ رضى الله عنه ـ أقسم أن يقاتل مع رسول الله ﷺ ولم يبق فى البيت إلا أخوات جابر وعماته ، فأشار عليه رسول الله ﷺ أن يظل فى البيت ليقوم على خدمة الحرمات . وفى اليوم التالى استشهد والده ـ رضى الله عنه ـ فذهب جابرٌ والألم يعصر نفسه ، إلى ميدان القتال ، وحمل جثمان أبيه على جمل ، ومشى وراء الجمل

مفكراً فى عائلة كبيرة لم يترك لها أبوه الشهيد إلا ديوناً وفقراً يهددها بالضياع . ولم يكد يصل إلى المدينة ، حتى لقيته أخواته باكيات يقلن له: لقد أمر رسول الله ﷺ أن يدفن الشهداء فى نفس مصارعهم فى أحد، فرجع حالاً ـ رضى الله عنه ـ بالجمل والجثمان ماشياً على أقدامه فى الذهاب والإياب معتبراً أن الاستجابة لرسول الله ، واجب تهون معه كل الآلام . وفى أحد ووری جثمان والده الطاهر ، فى لحد واحد هو وصديقه عمرو بن الجموح ـ رضوان الله عليهما ـ وعاد جابر إلى المدينة فوصل إليها وقدماه لاتحملانه ، ولم يكد يجلس حتى سمع نداء رسول الله ﷺ بالخروج فى أثر قريش ، فخف حالاً إلى الرسول الكريم يقول يا رسول الله: أنت تعلم أنى تخلفت عن القتال فى أحد كى أقوم على خدمة أخواتى وعماتى ، فلا تحرمنى من الخروج معكم للجهاد فى سبيل الله ، فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرة كلها عطف وحب وإكبار ، وأذن له بالخروج مع المجاهدين الذين استجابوا لله والرسول .

**ثالثاً** : سار رسول الله ﷺ فى سبعين من أصحابه إلى مكان يقال له : حمراء الأسد على طريق مكة المكرمة ، يبعد عن المدينة اثنى عشر كيلو متراً تقريباً ، ونزلوا هناك يستطلعون أخبار قريش ، وكانت قريش إذ ذاك فى مكان يقال له : الروحاء ، وقد أشار عليهم أبو سفيان أن يعودوا إلى المدينة فيجهزوا على بقية الرجال ، ويستأصلوا شأفتهم ، فما هى إلا أن مرّ عنهم ركب منهم فقال لهم : إن محمداً وصحبه فى حمراء الأسد فى جمع عظيم ، فقذف الله فى قلوب قريشٍ الرعب ومضوا إلى مكة لايلوون على شيء ، وانطلق المسلمون وراءهم حتى وصلوا بدراً ، وكانت سوقاً عظيمة فباعوا واشتروا ، وعادوا بكسب وفضل وسلامة .

**رابعاً**: ومرّ على أبى سفيان ركبٌ من ربيعة ، أعطاهم مكافأة وقال لهم : إذا مررتم على محمد وصحبه فقولوا لهم : إن قريشاً قادمة لكم بجموع كبيرة لاستئصال شأفتكم ، وكان ذلك لوناً من حرب الأعصاب.فلما وصل الركب، وبلغوا رسالة أبى سفيان ، قال أصحاب رسول الله بصوت واحد ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ ، وكانت من أفواههم كأنها البركان المتفجر بالقوة ، ولاعجب فقد جاء فى الأثر أن هذه الكلمات كانت دعاء إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حين ألقى فى النار ، فنجاة الله ببركتها وتحول بها حر النار برداً وسلاماً .

**خامساً** : ينبه الله المؤمنين أن الشيطان له وسيلة شيطانية يجب أن يحذرها المؤمنون وهى : أن يبث فى صفوف المسلمين دعاية بأن الأعداء أقوياء ، وأن أسلحتهم فتاكة ، وأنه لا طاقة للمسلمين بذلك العَدَد ، وتلك العُدَد، كما يفعل فى هذه الأيام وهو يهول فى أعين المسلمين قوة اليهود وأعوانهم ، فأين من أمة محمد من يجيبون وسوسة الشيطان ، بقولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل؟! هذا وقد أشرت مراراً إلى أن أسلوب القرآن فى خطاب أهل أحد ، أسلوب رقيق يتدفق حباً ورأفة ورفع معنوية ، ولعل المستمع لو أعاد ترتيل الآيات؛ لرأى حلاوة وعذوبة فى كل حرف منها ؛ لأنها لون المديح التربوى الصادق ، الذى يثنى على مواقف الأبرار ، ويعدهم أجراً عظيماً ، ونعمة جلى وفضلاً منه فى الدارين، ورضوانٌ من الله أكبر ، ثم يشد على أيديهم مهوناً فى أعينهم كل أعوان الشيطان فيختم بخير ختام : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيطَانُ يُخَوِّفُ أَولِيَاءَهُ** ﴾ أى يخوفكم من قوة أوليائه : ﴿ **فَلاَ تَخَافُوهُم وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُؤمِنِين** ﴾ .

# القرآن الكريم يطيب خاطر المؤمنين ويحلل أسباب الهزيمة فى أحد

لقد مر رسول الله ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم بمواقف كان النصر فيها حليفهم ،كما حدث يوم بدر ، والأحزاب ، وفتح مكة . وشاء الله جل وعلا ، أن يمر رسوله وأصحاب رسوله بموقف من مواقف الهزيمة ؛ وذلك لكى يكون النبى ﷺ أسوة للمؤمنين فى مواقف نصرهم ، يقتدون به شاكراً لربه على ما هداه وثبته ، ثم لكى يكون قدوة للمسلمين فى مواقف الهزيمة ، يقتدون به صابراً على البلاء لا يلين ولا يستكين ولا يضعف بل يتفحص سبب الهزيمة ، فيتخذ الحيطة ويعد العدة لجولة أخرى .

وإنى مورد هنا آيتين مما نزل من قوله تعالى فى موقف الهزيمة ، ثم شارح ـ إن شاء الله ـ ما فيهما من لطائف وإشارات . يقول الله تعالى فى سورة آل عمران:

**﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** [ آل عمران : ١٥٢ ـ ١٥٣] هاتان هما الآيتان الكريمتان، وقد نزلتا والمسلمون يمسحون جراحاتهم فى أعقاب أحد . وقد لاحظ المفسرون أن أسلوب القرآن الكريم فى خطاب أهل أحد فيه رقة ورفق ، كما تمتد يد الطبيب الرحيم الماهر لتمسح جراح مكلوم متألم ، بينما كان

خطابه لأهل بدر ، وهم منتصرون خطاباً فيه محاسبة لهم على ما حدث منهم من هنات كموقفهم من الأسرى ؛ وذلك لأن منهج الإسلام فى التربية يراعى الحالة النفسية للمخاطب ؛ ومن المعروف أن المهزوم المتألم يكون مكسور الخاطر يحتاج إلى جبر كسره بالكلام الرفيق الرقيق . أما المنتصر فهو فى معنوية رافعة ، ومن ثم فإذا ذكرته بأخطائه كان استقباله للنقد بروح معنوية عالية مستعدة للتفهم والتفاعل والتمحيص . وهذه بعض إشارات حول هاتين الآيتين الكريمتين :

**أولاً** : قيل فى سبب نزول الآيتين : إن بعض المسلمين قالوا حين أصيبوا فى أحد : أليس الله قد وعدنا النصر ، فما هذا المصاب الذى حاق بنا ؟! فنزل قول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ** ﴾ ومعناها : أن الله تعالى لم يتخل عن وعده بل صدقكم الوعد حين أقبلتم على المشركين فى أول المعركة تحصدونهم وتقتلونهم حتى سقط لواؤهم مرات بقتل حملته ، وفر المشركون وراء الجبل تاركين وراءهم أسلابهم وغنائمهم .

**ثانياً** : عند هذا الحد كان المسلمون يستحقون النصر ؛ لأنهم تحلوا بالعزيمة والسمع والطاعة لكن تحولاً غريباً طرأ على سلوك المسلمين ، استحقوا فيه ذلك الدرس القاسى الذى لقنهم أن المسلمين إذا لم يأخذوا بأسباب النصر ، وإذا لم يتحلوا بطاعة الله ورسوله ، فإن الله يسلط عليهم أعداء شراً منهم ، ولا ينفعهم ـ إذ ذاك ـ أن يكون عدوهم مشركاً ، وأن يكون قائدهم رسول الله ﷺ .

**ثالثاً** : كانت أوامر رسول الله ﷺ ألا يتحركوا من أماكنهم فى سفح أحد، حتى ولو رأوا المسلمين يتراجعون ، وقد كان على رأس الرماة عبد الله بن جبير

ـ رضى الله عنه ـ وكان رضى الله عنه ثابتاً عظيم الصبر ، فنفذ أمر رسول الله ﷺ هو وقرابة عشرة من الرماة ، أما الآخرون ، فلما رأوا هزيمة المشركين قال بعضهم : ما وقوفنا والغنائم قد ملأت الساحة، وأقبلوا على الغنائم يجمعونها ؛ وهم فى شغل وغفلة عما يدبره لهم فرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ فما هى إلا ساعة حتى انقض عليهم خالد فى كوكبة من الفرسان ففوجئوا وفر كثير منهم وثبت الذين يريدون الآخرة ، فاستشهدوا رضوان الله عليهم ـ وهم عبد الله بن جبير ، والذين وقفوا معه ـ غير مكترثين بالغنائم .

وإلى هذا أشارت الآية الكريمة :﴿ **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُم** ﴾ أى جبنتم ﴿**وَتَنَازَعْتُم فِي الأمر** ﴾ أمر رسول الله ﷺ : ﴿ **وعصيتم** ﴾ أى : ذلك الأمر الحكيم ﴿ **من بعد ما أراكم ما تحبون** ﴾ أى : من هزيمة المشركين وسقوط رايتهم ﴿ **منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنيَا** ﴾ وهم الذين سارعوا إلى الغنائم ﴿ **وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ أى أولئك الذين ثبتوا على أمر رسول الله ﷺ ، وهم عبد الله بن جبير وصحبه ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُم عَنهُم لِيَبتَلِيَكُم** ﴾ أى: أبعدكم عنهم بالهزيمة لكى يختبر إيمانكم وصبركم فى الشدائد ﴿ **وَلَقَد عَفَا عَنكُم** ﴾ أى غفر لكم تلك الأخطاء ، لما علم من ندمكم وتوبتكم ﴿ **وَاللهُ ذُو فَضلٍ عَلَى المُؤمِنِينَ** ﴾ أى : يقبل توبتهم ويعينهم ويهديهم، ويثبتهم فى الشدة والرخاء .

**رابعاً** : ويمضى الحق جل وعلا فيذكرهم بما حصل منهم فسبب لهم الهزيمة؛ ﴿ **إذ تُصعِدُونَ** ﴾ أى تفرون صعداً فى الجبل ﴿ **وَلاَتَلوُونَ عَلَى أحَدٍ** ﴾ أى : لا تعرجون يميناً ولاشمالاً ، بل همكم النجاة ﴿ **وَالرَّسُولُ يَدعُوكُم فِي أُخرَاكُم**﴾ أى : ورسولكم محمد ﷺ يناديكم من ورائكم يقول لكم : « اثبتوا يا عباد الله فإنى حى بفضل الله » كلكم تمضون

هاربين عاصين الأمر مسببين لرسولكم غماً شديداً ، فأثابكم الله ﴿ **غَمًّا بِغَمٍّ** ﴾ أي غماً لأنفسكم في مقابل ما اقترفتموه من هم نبيكم ﴿ **لِّكَيْلاَ تَحْـزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ** ﴾ أي من الغنائم ﴿**وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ أي من خسائر الأرواح والأموال ﴿ **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من تصرفاتكم بل هو يبصرها ، ويخذلكم ولو كان خصومكم مشركين .

**خامساً** : كلمة ﴿ **تَحُسُّونَهُم** ﴾ بمعنى : تستأصلونهم لها وقع يدل على معناها وكلمة ﴿ **فَشِلْتُمْ** ﴾ يستعملها الكتاب بمعنى الإخفاق مع أن معناها : الجبن وفي قوله تعالى : ﴿ **أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ** ﴾ كناية عن النصر ، وفي قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ** ﴾ تعبير ملطف جداً عن الهزيمة ، وفي قوله تعالى : ﴿**لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾ إشارة إلى النصر والهزيمة وأن ، كليهما امتحان من الله للمؤمنين ، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ** ﴾ تعزية ومسح جراح.

وفي الآية التالية صورة لمدى الاضطراب الذي وقع فيه المسلمون ، مصعدين في الجبل لا يلوون على أحد والرسول ﷺ يناديهم ، هذا التنازع والاضطراب هو سبب الهزيمة ، نسأل الله أن يزيدنا بصيرة بكتابه .

# حول تكريم الشهداء ومكانتهم عند ربهم

هذه آيات من سورة آل عمران تختص بالشهداء ، وددت لو أن قومنا فى هذه الأيام يجعلونها ورداً لهم ؛ لأنها تثير العزم فى قلب الجبان ، وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى ما يثير عزائمنا ، بعد أن أخمدها حب الدنيا وكراهية الموت .

يقول الله جل جلاله ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [ آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١] ، ولنقف بالقارئ عند هذه الآيات العظيمات لنعيش فى ظلال بركتها ، فأقول وبالله التوفيق :

**أولاً** : هذه الآيات الكريمات تمسح بيد الرحمة جراحات الشهداء ، وذويهم فقد جاء فى سبب نزولها : أن رسول الله ﷺ لقى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ بعد أن استشهد والده فى أُحُد ، فرأى على وجهه سحابة من الهم فقال له: «يا جابر مالى أراك منكساً مهتماً » فقال جابر: يا رسول الله استشهد والدى وترك عيالاً وعليه دين . فقال له رسول الله ﷺ: « ألا أبشرك ياجابر بما لقى الله به أباك ؟ » قال جابر ـ رضى الله عنه ـ : بلى يارسول الله ، فقال ، رسول الله ﷺ : «إن الله أحيا أباك فكلمه كفاحا ـ أى مواجهة دون حجاب ـ وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب فقال له : عبدى تمن أعطك فقال : يارب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال : الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال يارب فأبلغ مَن ورائى أى بما لقيت من إنعامك ، فأنزل الله جل وعلا : ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَل**

أحيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرزَقُون .... ﴾ إلى آخر الآيات » .

**ثانياً** : اختلف المفسرون فى كلمة : ﴿ أحيَاء ﴾ ، والتفسير الذى اطمأننت إليه : أن الشهيد فى سبيل الله ساعة خروج روحه من جسده ، تذهب إلى الجنة وتعرف مقعدها فيها ، ولا تمر بالمرحلة البرزخية التى هى مرحلة القبر . ويؤيد هذا ما رواه أبو داود ، من أن رسول الله ﷺ قال : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ، ترد بها أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » ، وهذا التفسير هو أليق بكرم الله ؛ لأن الشهيد جاد لله بنفسه والجود بالنفس أقصى غاية الجود ؛ ولذلك فإن الله جل وعلا كافأ الشهيد بروحه الفانية ، حياة لا تفنى أبداً ، إنها الجنة وساكن الجنة لا يسمى ميتاً .

**ثالثاً** : رب رجل كان فى حياته قليل الطاعات لكن حين سمع نفير الجهاد فى سبيل الله انطلق بسلاحه فأبلى فى الله بلاء حسناً ، وقاتل محتسباً حتى استشهد ، وقد ذكر أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ أسلم فى يوم المعركة، ولم يصل ركعة واحدة ، فقاتل فى سبيل الله مؤمناً مصابراً محتسباً حتى استشهد ، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الله أدخله الجنة، فكيف لحق بمنازل الصديقين والشهداء ، وهو لم يعمل شيئاً من الصالحات إلا موقفه فى الجهاد؟.

**الجواب** : أن الله عز وجل وهو على كل شيء قدير لا يطوى كتاب الشهيد عند موته ، بل هو جل وعلا يلهمه أعمالاً صالحة يعلى بها الله منزلته ؛ لأنه عند الله حى يرزق وقيل : إنه يلهمه أن يسجد تحت عرش الرحمن سجوداً طويلا ، يسبح فيه ربه ويقدسه فيكتب له تسبيحه وتقديسه ، وهذا هو ما يفهم من الآيات الكريمة فى سورة محمد ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن

يُضِلَّ أعمالَهُم * سَيَهديهِم ويُصلِحُ بالَهُم * ويُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُم ﴾ .

ومن الواضح أن سياق الآية يقتضى أن تفسير قوله تعالى : ﴿ سَيَهديهِم ويُصلِحُ بَالَهُم ﴾ أنه تبارك وتعالى : سيهديهم طرق العمل الصالح بعد موتهم ، ويصلح أنفسهم بأن يلهمها الإخلاص ، وهذا بفضل الله تعالى يكفل لهم منازل الصديقين والشهداء .

**رابعاً** : جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ونُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأرضِ إلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ﴾ أن من شاء الله لهم أن يظلوا أحياء، ولا يصعقوا هم الشهداء شاكى أسلحتهم ، أى : لابسيها حول عرش الرحمن ، وبما أن الله جل وعلا عرفهم مكانهم فى الجنة .

كما ورد فى بشرى رسول الله ﷺ لوالدة أحد الشهداء واسمها ام حذيفة فقد جاءته تقول له : يارسول الله أخبرنى عن ابنى حذيفة ، فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان غير ذلك بكيت . فقال لها رسول الله ﷺ : إنها جنان ولست جنة واحدة ، وأنك فى الفردوس الأعلى منها .

وهذه المنزلة للشهيد تبوأها والله أعلم ؛ لأنه قدم لله جل وعلا أجل قربان وهو روحه ، ولأنه ثانياً قد رسم للمؤمنين من بعده طريق البذل والتضحية، والفداء فكأنما سقى بدمه الزكى ساحة الشرف والتضحية والكرم والجهاد الأسمى ، فما يستشهد من خلفه شهيد ، إلا وينال السابق ثواب القدوة الصالحة والسنة الشريفة التى سنها ، ومن ثم فالشهداء يرون بعد موتهم دواماً فرحين مستبشرين سعداء ، بما أعد الله لزملائهم الذين لم يلحقوا بهم من أجر عظيم مستبشرين بما شاهدوه عياناً من نعم الله الجزيلة ، وفضله العظيم حين رأوا عياناً أن الله جل وعلا يكرم وفادة عباده المؤمنين ، ولا يضيع من أجرهم شيئا . اللهم احينا بطاعتك ، وارزقنا الشهادة فى سبيلك ، واجعل جهادنا لإعلاء كلمتك.

# سورة النساء وتصفية المجتمع الإسلامى
# من رواسب الجاهلية

سورة النساء هى أطول سورة فى القرآن بعد سورة البقرة ، وهى من أعظم سور القرآن فى جلال موضوعاتها ، إذ أن أهداف هذه السورة الجليلة ترمى إلى تصفية المجتمع الإسلامى من رواسب الجاهلية ، وتنظم علاقات المجتمع الإسلامى على أسس من العدل والحقّ ، والأحكام الحضارية المنظمة . كان للجاهليين عادات ظالمة ، فجاء الإسلام يلغيها ويستبدل بها تشريعاً حكيماً يحدِّد الحقوق ويزيل كلّ إجحاف .

كان أهل الجاهلية يرثون اليتيمات فيزوجونهن لأبنائهم كرهاً ، ويأكلون أموالهن ، وكانوا يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، وكانوا يحرمون البنات من الميراث ، وكانوا يتزوجون زوجات آبائهم ، وكانوا يشربون الخمر ، ويمارسون القمار ، وكانوا يقتلون ولا يدفعون دية ، ولا يقرون قصاصاً ، وخصوصاً إذا كان القاتل من قبيلة قوية ، وكانوا يشهدون الزور ، إذا كان المشهود له من أقربائهم ، وكانوا يحرمون ما أحل الله فيشقون آذان أنواع من الأنعام ويحرِّمونها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

فجاءت سورة النساء تشرع للمسلمين طريق الهدى والحق ، والعدل والإحسان . وسورة النساء من بدايتها توجّه المسلمين إلى أهمية الرحم وصلات القربى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ منهَا زَوجَهَا وَبَثَّ منهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً** ﴾ . [النساء : ١] وتسير السورة الكريمة فتوصى بأموال اليتامى ، وتشرع الفرائض والميراث حتى تكون الآية الأخيرة منها

**﴿ يَستَفتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُم فِي الكَلالَةِ ﴾** إلى آخر الآية .

وإنى موردٌ آية واحدة ، من هذه السورة المباركة العظيمة ، ثم مستخرجٌ منها ما تضمنته من أحكام وإشارات بليغة معجزة ، إنها الآية التى تعالج موضوع شهادة الزور . بسم الله الرّحمن الرّحيم : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُّوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لله وَلَو عَلَى أَنفُسِكُم أَوِ الوَالِدَينِ وَالأَقرَبِينَ إن يَكُن غَنِيّاً أَو فَقِيراً فَاللهُ أَولَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعدِلُوا وَإن تَلوُوا أَو تُعرِضُوا فَإنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً ﴾** [النساء : ١٣٥] .

وإلى الأخ القارىء بعضاً من أسرار هذه الآية العظيمة:

**أولاً** : فى قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُّوا ﴾** افتتاح يوقظ الانتباه ، ويغرى بالإنصات الواعى والاستجابة السريعة السامعة المطيعة ، وهى من طرق التشويق التى يستعملها القرآن كثيراً . وكل آية تبدأ بقول الله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا ﴾** تكون مدنيّةً ؛ لأن مجتمع المدينة كان فى مجموعه مكوناً من المؤمنين. وكلمة « أى » وصلة استعملها العرب لنداء المعرفة ، وهى مبنية على الضم ، و«ها» المتصلة بها : للتنبيه ، و**﴿ الذين ﴾** بدل من أى ، وهى فى محل نصب، لأن المنادى على كافة أحواله ، فى محلّ نصب بفعل محذوف تقديره (أنادى) .

**ثانياً** : قوله تعالى : **﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لله وَلَو عَلَى أَنفُسِكُم أَوِ الوَالِدَينِ وَالأَقرَبِين ﴾** عبارة تمحو شهادة الزور بأسلوب فى غاية القوة ، فاستعمال صيغة المبالغة فى كلمة **﴿ قَوَّامِينَ بِالقِسطِ ﴾** حث على القيام بالعدالة وتطبيقها ، حتى تبلغ العدالة قمتها وأعلى مداها ، ولو كانت العبارة يأيها الذين آمنوا أقسطوا ؛ لما كان لها من الأثر المعنوى مثل قوله تعالى : **﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ ﴾** إذ الفعل يدلُّ على إحداث عمل فى

وقت ، أما صيغة المبالغة ، فتدل على رسوخ العمل وتكراره ، والمبالغة فيه، ونعمت المبالغة حين تكون فى تطبيق العدالة . إن هنالك فروقاً معنوية بين قولك لإنسان : اعدل ، وقولك له : كن عادلاً ، ثم قولك له: كن قواما بالعدل ، فتلك ثلاث منازل فى الحثّ على العدل أبلغها هو آخرها .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ شُهَدَاءَ للهِ ﴾ معناه : أخلصوا شهادتكم لوجه الله بغض النظر عن القرابة والبعد ، وعن الحب والكره ، وعن الرغب والرهب ، فالشهادة يجب أن تسمو عن كل هذا ، وألا تخشى فيها لومة لائم ، وألا يقصد بها إلا وجه الله تبارك وتعالى .

وقد قرأنا أن عبد الله بن رواحة أرسله رسول الله ﷺ ليحسب نصف محصول أهل خيبر فيأخذه منهم ، فلما وصل إليهم - رضى الله عنه - أكرموا وفادته ، ثم حاولوا أن يقدموا له مبلغاً من المال رشوة له ؛ لكى لايبالغ فى تقدير المحصول، فقال لهم وهو كما نعلم شهيد مؤته ، وخرّيج مدرسة محمد ﷺ : إن الذى أرسلنى إليكم هو أحب خلق الله إلى نفسى ، ولكن حبى لرسول الله ﷺ لن يحملنى على ظلمكم ، ولن يحيذ بى عن شهادة الحق ، فقال وأحد منهم: هذا هو الذى استقام عليه أمر السموات .

رابعاً : فى قوله :﴿ شُهَدَاءَ للهِ وَلَو عَلَى أنفُسكُم أوِ الوَالدَينِ وَالأقرَبِينَ إن يَكُن غَنِياً أو فَقِيراً فَاللهُ أولَى بِهِمَا ﴾ أمر من الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن يؤدوا الشهادة بالحق ، خالصة مخلصة لوجه الله ، ولو كان فى قول الصدق ضرر يقع على الشاهد نفسه ، أو على والديه أو أقاربه ، وحتى حين يكون المتخاصمان مسلماً ويهودياً ، مسالماً ذمياً ورأيت المسلم يحاول ظلم اليهودى ، فعليك أن تشهد بالصدق ، ولو كان لصالح اليهودى ،

وأحياناً تكون المخاصمة بين فقير وغنى ، وتطلب أنت للشهادة ، فترى نفسك تعطف على الفقير ، وتخاف من الغنى ، هنالك لايجوز بأى حال من الأحوال أن تتأثر فى شهادتك، بعطفك على الفقير ، أو بخوفك من الغنى بل لابد من أداء الشهادة بالحق ، والصدق ولتنفع أو تضره ، فالله جل جلاله هو رب الغنى ، ورب الفقير ، وهو أولى منك بهما فاجعل شهادتك مخلصة لخالقهما ولايهمك فقر المخلوق أو غناه .

**خامساً** : فى قوله تعالى : ﴿ **فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تَعدلُوا** ﴾ معناها : لاتميلوا مع هوى النفس ، خشية أن تميلوا عن طريق الحق ، وكلمة ﴿ **تعدلوا** ﴾ هنا معناها: تنحرفوا أو تميلوا ، والمصدر المؤول ﴿ **أن تعدلوا** ﴾ مفعول لأجله أو مضاف إلى المفعول لأجله المحذوف خشية . والإسلام يكره اتباع الهوى فى الحكم أو السياسة ؛ لأن اتباع الهوى هو ما يسمى بالغوغائية، وهى داء يخرب المجتمعات ، ولعمر الحق ما ضيع أمتنا فى هذه الأيام ، إلا اتباع الهوى فى الحكم والسياسة ، والانحراف بهما عن منهج الإسلام .

**سادساً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَإن تَلوُوا** ﴾ أى : تتلاعبوا بالشهادة ، ﴿ **أو تُعرضُوا**﴾ أى تعصوا أمر الله وتصروا على الزور ﴿ **فَإنَّ اللهَ كَانَ بمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ تذكير لهم بأن الله لايخفى عليه لىُّ الشهادة ، ولا يخفى عليه زورها وزيفها، لأنه العليم الذى لاتخفى عليه خافية ، وهو الخبير بما فى نفوسهم وسرائرهم(١) .

---

(١) ولعل مما يزيد إعجابك بدينك وقرآنك ، أن هذه الآية نزلت لتبرىء يهوديا مما اتهم به وتثبت التهمة على أحد المسلمين الذى أراد أن يلصق التهمة زورا باليهودى ، لأن عدالة الإسلام مطلقة شاملة تسع فى شمولها كل المخلوقات .

# حول العفاف عن أموال اليتامى
# وعن مهور النساء والنهى عن أكل أموال اليتامى

هذه آيات من سورة النساء تتعلق بالعفاف عن أموال اليتامى ، وعن مهور البنات والنساء عموماً ، وأموال أخرى كان عرب الجاهلية يأكلونها زوراً وبهتاناً. يقول الله تعالى : ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً** ﴾ [النساء : ٢ ـ ٤].

هذه هى الآيات الكريمة وهذه وقفة متأملة لأسرارها :

**أولاً** : فى قوله تعالى: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ** ﴾ استعمل كلمة اليتامى استعمالاً مجازياً ؛ لأن اليتيم إذا بلغ لايقال له : يتيم ، وولى أمر اليتيم لا يسلم اليتيم ماله إلا بعد بلوغه ، فاليتامى : مجاز عقلى علاقته اعتبار ما كان ، أى الذين كانوا يتامى .

**ثانياً** : هذه الآيات أبطلت عدة عادات قبيحة جاهلية ، وهى : أكل أموال اليتامى وزواج اليتيمات مع غمطهنَّ مهرهنَّ وحقوقهن ، وخلط الولى مال اليتيم بماله دون تمييز ، وأكل مهر النساء من بنات وأخوات ، وحرمان النساء من الميراث . فهى فى مجموعها إنصاف للضعاف ، ورفع لمنزلة المرأة المسلمة ، بعد أن كانت المرأة فى الجاهلية مهيضة الجناح .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ** ﴾ الخبيث : كناية عن

الحرام ، كمال اليتيم وصداق المرأة ونصيب النساء من الميراث إذا أكله الولى ، والطيب : كناية عن الرزق الحلال ، عن طريق الكسب المشروع، وفى الآية بشرى بأن من سعى إلى الحلال ، فإن الله جل وعلا يغنيه بالطيب عن الخبيث. وهنالك خطأ شائع فى استعمال الفعل : بدَّلَ ، وتبدّل ، فربما تسمع متحدثاً يقول : كيف نبدل ديننا بالمذاهب الهدامة؟! إن الباء تدخل على الذى تفقده فى عملية البدل ، لاعلى الذى تأخذه، فيكون الصواب فى الجملة السابقة : كيف نبدل بديننا مذاهب هدامة ؟!

**رابعاً :** فى قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَأكُلُوا أموَالَهُم إِلَى أموَالِكُم** ﴾ أى : لاتخلطوها دون حساب ، فتأكلوها مع أموالكم دون تمييز ، إن ذلك عند الله حوبٌ أى : إثمٌ كبير ، والحوبة : الذنب ، وفى الدعاء المأثور : اللهم اقبل توبتى واغسل حوبتى . ولعلّ استعمال الحُوب بدل الإثم لأن الحوب كلمة يفهم منها : الإثم والزجر والوحشة ، فهى أكثر من مجرد الإثم .

**خامساً :** قوله تعالى : ﴿ **وَإِن خِفتُم ألاَّ تُقسِطُوا فِي اليَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ** ﴾ ، له مناسبة : وهو أن الرجل كان يرث ابنة أخيه مثلاً فيزوجها ولده بمهر بخس ، ويأكل مالها ، وهنا يقول الله تعالى ، للمسلمين : إذا كان زواجكم من اليتيمات يجرُّ عليهنَّ ظلماً ، فابتعدوا عنهن، ولكم فى غيرهنَّ مندوحة ؛ لأن الله أحل لكم أن تتزوجوا من غير اليتيمات ما تشاؤون من واحدة إلى أربع، بشرط ألا تفروا من ظلم اليتيمات إلى ظلم الزوجات الضرائر . وقد ذهب فريق من الرافضة ، وبعض الظاهرية ، إلى أن مثنى وثلاث ورباع مجموعها تسع زوجات ، وبالغ بعضهم ففسرها ثمانية عشر وهذا من

جهلهم باللغة ؛ لأنّ الواو هنا : لاتفيد جمع ما بعدها على ما قبلها ، فالعرب يقولون : خذ من أموالى ما تحتاجه ألفا وألفين وثلاثة آلاف ، وهم يعنون أو ، وفى الشواهد للنابغة يذكر زرقاء اليمامة .

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقـــد

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **فَإِن خِفتُم ألاَّ تَعدلُوا فوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَت أيمَانكُم ذَلكَ أدنَى ألاَّ تَعُولُوا** ﴾ ، تقييد للتعدد بالعدل ، فإن لم يحدث العدل فلا تعدد؛ لأن عدم التعدد أقرب إلى عدم الظلم ، وعال عليه ظلمه وهى أبلغ من تظلموا؛ لأنها تعنى الجور والميل معاً . إن تعدد الزوجات فى الإسلام ينطوى على حكمة بالغة ، وكثير من المرجفين حول التعدد يرون تعدد الخليلات ، فلا ينكرون ذلك مع أن تعدد الخليلات ضرب من تجارة الرقيق ، تعتبر معه المرأة سلعة لاعلاقة لها بالرجل ، إلا من خلال الاتصال الحيوانى .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحلَةَ** ﴾ تحريم لمهر المرأة على وليها إلا ما كان منه عن طيب نفس ، والنحلة : أبلغ من كلمة العطاء والعطية؛ لأنه تحمل معنى العطية الصادرة عن وازع دينى ، إذ النحل معناها : الملل والمعتقدات . وقد علمنا أن بعض الناس فى هذه الأيام يكون له بنت جميلة، فيخطط أن يغنى من مهرها ، وقد يحجبها عن شاب صالح ليزوجها شيخاً جشعاً ؛ لأن الثانى أمهرها مبلغاً ضخماً من المال، فيكون من هذا الطمع فتنة فى الأرض وفساد كبير.

إن مهر المرأة لها إلا أن يكون وليها فقيراً ، فتعطف عليه وتعطيه عن طيب نفس ، إذ ذاك عليه أن يقبله منها حتى لا يكسر شعورها ، وحتى يظل إدلالها عليه بالرحم ومن ثم يتحول مهرها هنيئاً مريئاً ، لما يحققه

من إبقاء المحبة بين الأرحام .

**ثامناً :** في قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَموَالَكُم** ﴾ إشارة معنوية فى غاية البلاغة ؛ لأنه جل وعلا لم يقل : أموالهم بل قال : أموالكم ، مشيراً إلى أن مال السفيه هو جزء من اقتصاد المسلمين ، فإذا بدده اختل الاقتصاد ووقع الضرر على المجتمع الإسلامى بضياع ذلك المال الذى هو عماد المجتمع وقوامه ، لكن على الولى أن يعامل السفيه ـ وهو الذى لا يعرف مصلحة نفسه ـ معاملة تربوية، فيعطيه مصروفه كأمثاله، ويسمعه الكلام الكريم لعله بالإحسان يعود إلى رشده.

إن المال فى نظر الإسلام صلاح للأمة الإسلامية ينفعها فى شدائدها ويقويها على أعدائها ، ومن مجموعه تتكون ثروتها ؛ ولهذا يفرض الإسلام بعض القيود على التصرف فى المال وخصوصاً عند من لا يقدر قيمته ، إذ المال فى بعض الأيدى يتحول إلى إيمان وحسنات وجهاد وقوة ، بينما يتحول فى أيد أخرى إلى كفران ومعصية وانهيار للأمة .

## العدالة الإلهية تحمى المستضعفين من طغيان الجاهلية

جاء الإسلام الحنيف محارباً لكل أنواع الظلم ، آمراً بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ومن ثمّ فقد كان أول من تفيأ ظلاله المستضعفون ؛ ليجدوا فى حماه الحماية الإلهية التى حرست المستضعفين من كل ظالم ، وأعلنت ميثاق حقوقهم كاملة غير منقوصة . وهذه أربع آيات من سورة النساء ، تحوط بسياج العدالة الإلهية ، حقوق النساء واليتامى بعد أن كانت مهدرة فى الجاهلية .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نصيب مما ترك الوالدان وَالأقربون مما قل منه أو كثر نَصِيباً مَفْرُوضاً * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء : ٧ ـ ١٠].

أقول وبالله التوفيق والسداد والفتوح :

أولاً : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له : توفى زوجى أوس بن ثابت الأنصارى وتركنى وثلاث بنات لى ، فجاء ابنا عم زوجى ، وهما سويد، وعرفجة فاستوليا على المال ، ولم يعطيانى وبناتى شيئاً ، فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا : يا رسول الله ، هذه عادة كل الناس ، ألا يورّثوا إلا من يحمل السلاح وينكأ الأعداء ، وهى وبناتها لايفعلن شيئاً من هذا، ولم يكن قد نزل شىء حول المواريث ، فاستمهلهما رسول الله ﷺ إلى اليوم

التالى ، فنزلت هذه الآيات تلتهما آيتا المواريث أو الفرائض ، وبذلك محا الإسلام بخطة قلم عادات ظالمة ، أطعمت الأقوياء حق الضعفاء ، وطلع على الناس بأعدل شرائع العدل والإنصاف .

**ثانياً** : أعلن القرآن الكريم ، أنه مهما قلّ الميراث ومهما عظمت التركة فحق النساء والصغار من الذكور والإناث ثابت مفروض ، فما يجوز بأى حال من الأحوال إغفال حق امرأة ، ولايتيم ولا يتيمة بحجة أنهم لايحملون السلاح ، ويلاحظ أن أسلوب الآية فى غاية الوضوح ، حتى لا يبقى بعده تساؤل واستعمل الإطناب البليغ حين كرر الكلمات ، وكان فى الإمكان أن يقول : «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء كذلك » ، لكنه قال : ﴿**وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ**﴾ وزاد إطنابين آخرين ، هما قوله : ﴿ **مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ** ﴾ وقوله : ﴿**نَصِيباً مَفْرُوضاً**﴾ وكلها لزيادة التأكيد ، ولبيان الفرضية . وفى أسلوب مواد التشريع ، يستحسن أسلوب الإطناب ، حتى يحيط بكل جوانب الحكم ، وليتبين أن نصيب النساء فرضٌ لا خيار فى إنفاذه .

**ثالثاً** : الأقربون هم حمولة الرجل ، ولعلهم يمتدون إلى من يلتقى فى الجد السادس والسابع ، وذلك إذا أراد إنسان أن يخص أقاربه بشىء من البّر . وحين تصدق أبو طلحة ببستانه « بيْرَحاء » أمره النبى ﷺ أن يجعلها وقفاً على أقاربه كحسان الذى يلتقى معه فى الجد الرابع ، وأبى بن كعب ، وهو يلتقى معه فى الجد السادس ، ويجوز فى إعراب ﴿ **نصيباً** ﴾ أن تعربها : مفعولاً مطلقاً ، أو حالاً . ولما نزلت هذه الآية الكريمة والآيات التى تليها ، قال رسول الله ﷺ لابنى عم أوس : « أعطوا المرأة ثُمنَها ، وأعطوا بناتها الثلثين ، وخذوا من تركته ما يبقى بعد ذلك » . وبذلك فتح عهد جديد من كرامة النساء واليتامى ، ولا غرو ؛ فما كان هذا

الدين إلا لتحقيق كرامة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، والكرامة فى الدنيا تكون بطاعة أمر الله ، وفى الآخرة بمثوبته وجنته .

**رابعاً** : إذا اجتمع الورثة لاقتسام التركة ، وحضر القسمة بعض الأقارب ممن لا يرثون ، كإخوة الفقيد وأخواته ، وأرحامه ، أو حضر بعض اليتامى والمساكين والمستحقين فيسن للورثة وأوليائهم أن يتصدقوا عن الميت ، وعن الأحياء بعطاء ما تيسر لهؤلاء المحتاجين ، وإذا كانت التركة عقاراً لا يقسم أو شجراً لمّا يثمر فليعتذروا لهم بالقول الطيب .

وبالمناسبة فكل ما تركه الميت يجب أن يقسم حسب فريضة الله فى المواريث، إلا ما كان يفسد بالقسمة كالجوهرة أو البيت فيقدر ثمنه أو يباع ، ويقسم حسب ما شرع الله فى فرائض الورثة .

**خامساً** : وفى قوله تعالى : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ إشارة إلهية كريمة أن كل من يتقى الله ، ولا يتكلم إلا بالكلمة الطيبة فى كافة أحواله ، وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بحق يتيم أو أرملة ، أو إنصاف لضعيف ، فإن ثمة وعداً من الله جل جلاله ، أن ينجى أهله وعياله بعد موته من الظلم ، وأن يهيئ لهم من ينصفهم ويتكلم كلمة العدل والإحسان فى حقهم ، والعكس أيضاً مفهوم ضمناً من الآية ، فكل من يساعد على ظلم أرملة أو يتيم ، فإن هناك خوفاً على أزواجه وذريته أن يسلط عليهم فسقة يستعملون الباطل بسلب حقوقهم وظلمهم ، ومن هذا يفهم أن صلاح المرء يدرك بإذن الله ذريته ، فليتدبر الأمر : من ﴿ **كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ .

**سادساً** : وانظر إلى الصورة الفنية الرائعة المخيفة فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ**

**يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾** أسلوب فى منتهى الشدة ، لأن الذى يأكل مال اليتيم ظالماً له مستهيناً بحقه مستهتراً بضعفه ؛ يجمع الجشع واللؤم والقسوة وانعدام الرحمة ، فاستحق أن يملأ بطنه ناراً كما امتلأ سحتاً من مال اليتيم ، ثم يصلى بدنه كله السعير وبخاصة بطنه . وفى قوله : ﴿ **يأكلون** ﴾ استعارة، إذ المقصود يغتصبون ، فما كل المال يؤكل ، ولكن استعمال ﴿**يأكلون**﴾: يدل على احتقارٍ ظالمى اليتيم ؛ إذ فيها إشارة دقيقة أن هؤلاء اللؤماء همهم بطونهم كالحيوانات ، وأن بطونهم هذه سوف تملأ ناراً ، ثم تصلى كل أجسادهم سعيراً . إنها غيرة الله جل وعلا على الأيتام الذين حرموا نعمة الأبوة ، فبارك الله كافلهم بإحسان . قال ﷺ : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» .

# القرآن الكريم يرد للمرأة اعتبارها
# ويرد عليها حقوقها المهدرة

حقوق المرأة فى القرآن الكريم تحتل حيزاً كبيراً ، وإنى لأعجب من أدعياء ودعيات يرفعون عقائرهم بين الآونة والأخرى مطالبين بحقوق للمرأة ، وهى وإن سموها حقوقا لا تزيد المرأة إلا خساراً وارتكاساً وسقوطاً فى المروءة وانحداراً من المنزلة المقدسة التى أرادها لها الإسلام كسيدة فى أسرتها ، حافظة لمسؤوليتها، مربية فاضلة لأبنائها وبناتها ، مساعدة للرجال فى الذود عن الإسلام فى السلم والحرب .

ولعمر الحق لو أدركت المرأة ما قدمه لها القرآن والإسلام من كرامة ؛ لحرصن على القرآن الكريم حرصهن على الذخيرة النفيسة التى يخبئنها ذخراً لعوادى الأيام . وإنى مورد هنا هذه الآيات الثلاث من سورة النساء ، ثم ذاكر ظروف نزولها ، وما اشتملت عليه من إنصاف للمرأة ، وإنقاذ لها من مخالب الظلم الكافر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُم أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرهاً وَلاَ تَعضُلُوهُنَّ لِتَذهَبُوا بِبَعضِ مَا آتَيتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعرُوفِ فَإِن كَرِهتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكرَهُوا شَيئاً وَيَجعَلَ اللهُ فِيهِ خَيراً كَثِيراً * وَإِن أَرَدتُّمُ استِبدَالَ زَوجٍ مَكَانَ زَوجٍ وَآتَيتُم إِحدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأخُذُوا مِنهُ شَيئاً أَتَأخُذُونَهُ بُهتَاناً وَإِثماً مُبِيناً * وَكَيفَ تَأخُذُونَهُ وَقَد أَفضَى بَعضُكُم إِلَى بَعضٍ وَأَخَذنَ مِنكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً** ﴾ [النساء : ١٩ ـ ٢١] .

أقول وبالله التوفيق وعليه التوكل ومنه النعمة :

**أولاً** : كانت المرأة فى الجاهلية أشبه ما تكون بالسلعة ، وكان الرجل ربما مات له زوجة صغيرة ، فيأتى أحد أبنائه الكبار من غيرها ، فيلقى عليها ثوبه ويقول هذه لى ، وبهذه الطريقة يصبح كل مصيرها بيده ، إن شاء تزوجها ولا مهر لها، لأن أباه كان قد أمهرها ، وإن شاء عضلها ، أى حبسها عن الزواج ، وإن شاء زوجها غيره وقبض مهرها وتصرف فيها. فنزل القرآن الكريم يكرم المرأة ويضمن لها حرية التصرف بعد وفاة زوجها، وحماها من العضل ، وهو منعها من الزواج ، إما ليزوجوها من إنسان بعينه ، أو ليحرموها من ميراثها ،كل هذا حرمه القرآن فى قوله جل جلاله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُم أن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرهاً وَلاَ تَعضُلُوهُنَّ لِتَذهَبُوا بِبَعضِ مَا آتَيتُمُوهُنَّ** ﴾ .

**ثانياً** : لا يجوز للرجل أن يضيق على زوجته ، ويأخذ منها المهر الذى دفعه ، إلا إذا أتت بفاحشة مبينة ؛ كأن يثبت له بالدليل القاطع أنها تفرط فى عرضها ، أو تتعرض لشبهات تسىء إلى كرامتها وسمعتها ، أو تعصيه فتنشز وتخرج من طاعته ، أو تكون طويلة اللسان عليه بذيئة لعانة ، ولا تستجيب لوعظ ولا إرشاد، هنالك يجوز له أن يعضلها بحيث لا تنال حقها منه كزوج ، ولا يسمح لها بالزواج من غيره ، وواضح أن المرأة فى كل هذا لم تظلم ، ولكنها عوقبت بما كسبت يداها من الفاحشة ، أو المعصية ، أو التفحش والبذاء .

**ثالثاً** : إذا تزوج رجل امرأة ، فوجدها دميمة ، أو بها عيب خلقى فكرهها من أجل ذلك ، فلا يجوز له أن يضارها ، أو يضيق عليها ليسترد منها بعض ما دفعه ، وإنما عليه : إما أن يرضى بنصيبه ويمسكها لعل الله جل وعلا يعطيه منها الذرية الصالحة ، وهذا أمر حصل مراراً . فقد تزوج رجال من نساءٍ على كره منهم فبارك الله فيهن ، وتحقق لهم معاينة قول

الله تعالى : ﴿ فَإِن كَرِهتُمُوهُنَّ فَعَسَى أن تكرَهُوا شيئاً وَيَجعَلَ الله فيه خَيراً كَثيراً ﴾ ، والخيار الثانى أن يعاشرها بالمعروف ويتزوج أخرى ، وإما أن يطلقها دون أن يأخذ منها شيئاً . والحق أن الله جل وعلا قد أبغض الطلاق مع أنه أحله ؛ لأن الطلاق كثيراً ما يؤذى المرأة أذى شديداً ؛ ولهذا يقول الله جل وعلا فى سورة الطلاق : ﴿ وَاتَّقُوا الله رَبَّكُم لاَ تُخرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخرُجنَ إلاَّ أن يَأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ .

**رابعاً** : إذا أراد إنسان أن يستبدل بزوجته زوجة أخرى فيطلقها لأى سبب وتكون رغبة الطلاق منه وحده ، فعندئذ لا يجوز أن يسترد من المهر أى شىء حتى ولو كان قد دفع لها قنطاراً من الذهب أو الفضة ، والقنطار عند العرب أكثر من ألف أوقية . وفى الآية إشارة إلى أن مهر المرأة غير محدود.

وقد روى أن عمر – رضى الله عنه – صعد المنبر ؛ وخطب الناس يزجرهم عن المغالاة فى المهر ، لأن رسول الله ﷺ لم يزد فى مهر أى من زوجاته، ولا بناته على اثنتى عشرة أوقية ، فنهضت امرأة وقالت له : أيعطينا الله وأنت تحرمنا ، أما سمعت قوله تعالى : ﴿ وآتيتُم إحدَاهُنَّ قنطَاراً ﴾ فأمسك – رضى الله عنه – وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وفى رواية: كل الناس أفقه من عمر .

**خامساً** : هنالك استفهامان بليغان يفيدان التعجب والإنكار ، وهما قوله تعالى : ﴿ أتاخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بَعْضُكُم إلى بَعْضٍ ﴾ (١).

(١) وانظر كيف وصف الله جل وعلا عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ ، مشيرا بذلك إلى عظمه وقدسته وكيف لا وهو بشرى بين يدى تكوين أسرة مسلمة ؟! فمن استهان بميثاق الزواج واتخذ استبدال الزوجات ملعبة فقد استهان بأمر عظمه الله .

وما أجمل الكناية المهذبة العفيفة فى قوله تعالى : ﴿ وَقَد أفضَى بَعضُكُم إلَى بَعضٍ ﴾ ومعناها : خلا أحدكم بالآخر وهى لا تعنى اللقاء الجنسى فقط ، ولكنها ذات معنى واسع ، فالزوجان يفضى كل منهما إلى الآخر بهمومه وانفعالاته ومودته . وقد سبق أن قلت : إن الله تبارك وتعالى لم يذكر لفظ الجماع فى القرآن (١) ، وهذا المستوى من الأدب الرفيع درس للأدباء أن يجعلوا أدبهم فناً رفيعاً يربؤون به عن النداء والتعبير المكشوف ، نسأل الله أن يؤدبنا بأدب القرآن ويرقى بنا فى معارج الإيمان والإحسان .

---

(١) وكأنَّ القرآن الكريم يريد أن يذكر الزوج بأيامه ولياليه ومواقفه الغالية التى قضاها مع زوجته لكى لا يفكر فى ظلمها بعد تلك العشرة المقدسة .

# حول نظام الإسلام
# فى المحرمات من النساء

وضع الإسلام نظاماً حكيماً فصل فيه المحرمات من النساء على المسلم ، والمحرمين من الرجال على المسلمة ، وهو نظام كلما تدبره العاقل ، وجده نعمة كبيرة تسلم بها الأسرة من التناقضات ، ويصفو بها المجتمع من الرجس .

ولقد ذكرت أن العرب فى الجاهلية كانوا يتزوجون زوجات آبائهم ، وأدهى من هذا أن أصواتاً فى هذه الأيام تتعالى فى بلاد الغرب منبعثة من الشذاذ ، حتى ومن بعض المفكرين الشيطانيين تنادى برفع قيود التحريم ، وبأن يتزوج الإنسان أمه وأخته وابنته ! وهى صرخات وحشية مدمرة لكنها تنتشر يوماً بعد يوم ، حتى أصبح لها فى بلاد الكفر أنصار ، ودعاة جادون .

لقد جاء الإسلام منظماً لكل أمور الحياة ، ومن أبرزها وأهمها الزواج ، وإنى مورد هنا ثلاث آيات من سورة النساء ، تعرض لهذه المسألة الخطيرة وتنظمها ، ثم متبعها إن شاء الله بنظرات فى إشاراتها ومعانيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٢ ـ ٢٤] أقول وبالله

العون والتوفيق والسداد :

**أولاً** : التحليل والتحريم أمران يختص بهما الله جل جلاله ، فما يكون لأى عبد حتى ولو كان ملكا أن يحل شيئاً حرمه الله ، أو يحرم شيئاً أحله الله سواء ظهرت حكمته للعقول أو خفيت عليها ، وإذا كنا سنذكر بعض الحكم من تحريم بعض الأصناف ، فإن ما خفيت علينا حكمته من المحرمات هو أيضاً محرم ، كالذى اتضحت لنا حكمة تحريمه ؛ لأن شعار المؤمن أن يقول إزاء أى أمر من أوامر الله : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ وهذا هو الاستسلام لله بالتوحيد والطاعة المطلقة .

**ثانياً** : السبب الرئيسى فى تحريم هذه الأصناف والله أعلم : أن الإسلام دين الإخاء والصلة والتراحم واحترام الأرحام ، وتوثيق روابط القرابة ، والابن يقيم فى الغالب قريباً من أبيه ، ولا يحجبه عن زيارة أبيه أى حاجب ، وكلما زاد من زيارة أبيه وصلته ، زاد الله مثوبته ، وزوجة الأب هى عند الابن العاقل كالوالدة، فهى تلد له إخواناً ، وهى حافظة غيب أبيه ، وهى ترث مع ورثة والده، فإذا نظر إليها هذه النظرة ، وأحلها من مشاعره هذه المنزلة ، تقاربت الأرحام ، وانتظمت علاقات الابن بوالده ، واندحرت من ساحة البر شهوات النفس ، أما حين يكون الابن فى حل من زواج امرأة أبيه ، فإن قيوداً شديدة ستعوق صلة الرحم ، وسوف تثور الحساسيات وتزول الثقة من نفس الوالد ، كما أن الابن إذا تزوج ضرة والدته ، فإن العلائق بينه وبين أمه ربما تدمر ، ومثل ذلك يقال فى الأم؛ لأن الابن البار يقوم على خدمة أمه ، حتى وهى تحتضر . وبحكمه أقرب الناس إليها فهو مكلف أن يقوم بنظافة جسمها ، ويسرى هذا فى علاقة البنت بأبيها. والبنت وإن تزوجت ظل بيت أخيها ، وبيت أختها ، وبيت

أمها كأنها بيوتها ؛ فهى تزورهم دونما حرج ، ويكون فى تحريم أخيها لأبيها ، وأخيها لأمها وفى تحريم زوج أختها ، تشجيع للتواصل بينها وبين أرحامها دونما حرج ، أما حين تعرف أختها أو زوجة أخيها ، أنها ربما تزاحمهما على زوجيهما فتكون القطيعة .

إن الإسلام يهذب العواطف حقاً ، ويسمو بها إلى آفاق العفاف لتظل الأرحام متواصلة . فإذا حرم على الإنسان ، ربيبته أى ابنة زوجته ، فذلك مما يغرس فيه إحساس الأبوة، ويربأ بعلاقة البنت وأمها أن تكون علاقة غيرة، وإذا نظر الرجل إلى زوجة ابنه كأنها ابنته ، سمت نفسه واتسع نطاق أبوته وظل الابن يعتبر بيته بيت أبيه .

وقال الأطباء فى سبب التحريم : إن السلالة الواحدة إذا اقتصرت على الزواج من بين أفرادها تركزت فيها العقد ، وبعض الأمراض الوراثية ، والعصبية واستعدادات الضعف ، وهذا معنى قول رسول الله ﷺ : «استغربوا لا تضووا ؛ أى خشية أن تهزل أجسادكم وأجساد ذريتكم » ، وبالتجربة لوحظ أن اختلاط السلالات يجدد النسل صحة وفكراً ومشاعر.

**ثالثاً** : المحرمات فى الآيات خمس عشرة ، سبع بالنسب ، وسبع بالصهر والرضاع ، وواحدة بحرمة الزواج من الغير ، أما المحرمات بالنسب ، فهن: الأم، والابنة ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنت الأخ ، وبنت الأخت ، والمحرمات بالصهر والرضاع : الأم من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، وأم الزوجة ، وبنت الزوجة المدخول بها ، وزوجة الابن ، والجمع بين الأختين . كما حرم الإسلام كل ذات زوج سواء أكانت مسلمة أو غير مسلمة ، إذ لا يجوز أن يجتمع للمرأة زوجان . ثم فصلت السنة المشرفة سائر المحرمات ، فحرمت من الرضاع ما يحرم من النسب ، وأضافت أن الأم ، والبنت ، والأخت ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت،

يحرمن وإن علون ، وكذلك وإن نزلن ، وكل هذا مثبت بالتفصيل فى كتب الفقه مقتبساً من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ . وبالمناسبة فجميع تلك المحرمات كانت محرمة عند عرب الجاهلية وذلك من بقايا شريعة إبراهيم عليه السلام .

**رابعاً** : استعمل القرآن فى ختام الآية التى تحرم نكاح زوجة الأب أسلوباً شديد الردع والتخويف فى قوله : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ فهو فى فظاعته فاحشة كالزنا ، وهو مقت أى يجر مقت الله وغضبه ، والمقت أشد الكره ، فإذا قلت : أمقت فلانا ، فذلك أشد من قولك: أكرهه ، وفى قوله تعالى: ﴿**وَسَاءَ سَبِيلا**﴾ يعنى : أن بئس السبيل الموصل إلى تقطيع رحم الأسرة ، وتمزيق أواصر البر ، وتحقير صلات الأبوة والبنوة .

والمتدبر لآيات التحريم يدرك سمو الحضارة الإسلامية ، فهو يقدس صلة القربى ، ويسمو بها عن الشهوات الدنيئة ليسودها الحب الأطهر والأكبر ، وهو يحترم الرضاع ، لأن المرضعة كالأم ، وبناتها كالأخوات ، ومن نشأ رضيعاً فى بيت رجل ، فقد اغتذى من دماء الأسرة ، ومن حباء والده من الرضاع ، ومن تزوج امرأة أصبح أهلها أهلاً له .

أما الحضارة الغربية فهى الآن تلعن نفسها وتعلن عن عودها إلى همجية القرون الأولى ، وفى حين يعتبر الإسلام كل زوجة محرمة على غير زوجها تطلع الحضارة الغربية مطالبة فى أشخاص أدعيائها أن يذل الإنسان شرف والدته وأخته ، وأخت أبيه وأخت والدته .

# سعادة المرأة تكمن فى شخصية زوجها

من سعادة المرأة أن ترى لها زوجاً قوى الشخصية مهيب السمت ، تشعر إزاءه أنها فى حمى مؤنس محترم ، وقديما قال الحكماء : إن الله تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم الشمالية ؛ لتكون دائماً إلى جنبه ، وقريبة من قلبه وتحت ظلال جناحيه .

أما تلك التى تبتلى بزوج ضعيف ، منطفئ الشخصية هزيل الكيان ، فهى وإن تظاهرت بالسعادة وقوة المركز والسيطرة ، إلا أنها تكون فى قرارة نفسها خجلة من واقعها ، مرتكسة فى مشاعرها ، مصطدمة بمغالطاتها . وإن أشد النساء حماقة هى التى تحاول أن تتقدم على زوجها ، أو تنقص من قدره ، أو تغمطه حقه ، إنها عندئذ تحفر بمعول الهدم قبر الأسرة . ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة أن كل بيت تحكمه المرأة دون الرجل ، يكون بيتاً ضائعاً ينطلق فيه الأبناء والبنات وراء النزوات والأهواء ، دونما زاجر حازم ، أو رادع قوى . إن المقاييس فى مثل ذلك البيت تكون معكوسة حين يستنوق الجمل ، وتستجمل الناقة .

وإنى مورد هنا آيتين من كتاب الله تعدهما بعض جاهلات النساء إهانة للمرأة ، مع أنهما فى الحقيقة إكرام لها وإسعاد لحياتها ، وأخذ بيدها إلى صفاء الفطرة ونقاء الطبيعة والصبغة الإلهية ، ومن أحسن من الله صبغة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي**

المَضَاجِعِ وَاضرِبُوهُنَّ فَإِن أطَعنكُم فَلاَ تَبغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلاً إنَّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً * وَإن خِفتُم شِقَاقَ بَينِهِمَا فَابعَثُوا حَكَماً مِّن أهلِه وَحَكَماً مِّن أهلِهَا أن يُرِيدَا إصلاَحاً يُوفِّقِ الله بَينَهُمَا إنَّ الله كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ [النساء : ٣٤ ـ ٣٥] .

أقول وعلى الله قصد السبيل وبه التوفيق وعليه التوكل :

**أولاً** : الرجال قوامون على النساء ، قاعدة كبيرة تقررها الفطرة الإلهية ، ما يجادل فيها إلا مغفل لعقله ، متجاهل لمنطق الحقائق الماثلة ، والأمر أسمى من أن نوازن بين الديك والدجاجة ، وبين الكبش والنعجة ، وبين الأسد واللبوءة . فالإنسان له كرامة إلهية هى فوق هذا كله ، إنها كرامة العقل الذى ترتبت عليه تكاليف الشرع الشريف . ولقد تفحصت ملامح الأدعياء الذين ينادون ، بما يسمونه مساواة المرأة بالرجل ، فتكشفت لى حقيقتهم عن إجرام مقصود مغرض مخطط يريدون به أن يستمتعوا بالمرأة على حساب بيتها وأسرتها ، وعلى حساب شرفها وعفافها ، وعلى حساب فطرتها التى فطرها الله عليها . إن قوامة الذكر على الأنثى أمر مشاهد فى حياة الطيور ، والمخلوقات الراقية، وهى ليست قوامة قهر وتسلط واستبداد بمقدار ما هى قوامة تعاون ومشاركة ومودة ، الرجال قوامون على النساء ، على الرغم من جميع الأدعياء الذين يريدون أن يغطوا الشمس بأيديهم الضئيلة الهزيلة ، الرجال قوامون على النساء بما أمدهم به ربهم من طبيعة قوية التحمل جلدة على المشاق ، وبما هيأ لهم من طاقات جسمية وعقلية تمكنهم ، بأمر الله ، من كسب العيش سواء بعرق الجبين وكدح الأجساد ، كما فى الأعمال اليدوية والزراعة ، أو فى الأعمال الإدارية العقلية كما فى حقل التجارة والاختراع .

وإذا كانت بعض المجتمعات قد بدلت الفطرة فسخرت نساءها فى أشغال الرجال ، فهى قد أهدرت بهذا العمل الوحشى جمال المرأة ورقتها وأنوثتها ،

كما أهدرت أمومتها وحنانها وطاقاتها التربوية .

وكم تملكنى الاشمئزاز حين رأيت مصارعات تمسك إحداهن الأخرى فترضخ بها الأرض وتحول شعرها على الحلبة مكنسة غبار . ما خلق الله جل وعلا المرأة لهذا ، لكنه فطرها أرق فطرة ، وأجملها ، لتكون الصدر الحنون الرءوم لكل أسرتها زوجاً وبنين وبنات ، لقد جهزها منذ أوجدها بأشرف الأجهزة وأسماها ، وأجرى فى صدرها الحنون لبنا هو أحلى وأجمل وأصح غذاء للأطفال ، فيا للخسارة الفادحة عليها حين استجابت للناعقين فتحولت إلى بائعة هوى ، وناعقة مجتمعات ، ولعبة شذاذ وأضحوكة متفرجين ، ولو أنها رضيت ما ارتضاه لها ربها من قيام زوجها على شؤونها ، لحققت لنفسها كرامة إنسانية لايعادلها أى مركز وظيفى حتى ولو كان رئيسة دولة .

**ثانياً** : النساء إزاء هذه القسمة الإلهية ، والأمر الربانى ينقسمن قسمين :

فالصالحات يمتثلن أمر الله ويطعن أزواجهن فى كل معروف ، ويحفظن أمانة البيت والذرية ، بالإخلاص والمسؤولية ، وأما الناشزات : فيخرجن على طاعة الأزواج بلا مبرر سوى الركض وراء هوى النفس والاستجابة للمتطفلين بالإفساد ، والاشتغال بغير مسؤوليتها كراعية للأسرة ومسؤولة عن رعيتها . وقد شاع النشوز فى أيامنا هذه على أثر الترف ، ورقة الأمزجة والتعليم المنحرف ، وتقليد الأجانب ، واتخاذ نماذج فى السلوك من نساء المجلات المستهترة ، فأصبح الكثير من الزوجات يغضبن لأى توجيه من الزوج ، مع أنه مطالب أمام الله جل وعلا أن يراقب تمسكها بدينها وأداءها لصلواتها وقيامها بواجباتها ورعايتها لولدها وبخاصة بناتها. يقول الله جل وعلا : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ [طه : ١٣٢]، ويقول الله جل جلاله للمسلمات عموماً : ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**

**وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾** [الأحزاب : ٣٣].

**ثالثاً** : إذا تكرر النشوز وطال الشقاق ، جرى إرسال محكمين أحدهما من أهل الزوج ، والآخر من أهل الزوجة ، يوكلان من الزوج والزوجة باتخاذ الحكم المناسب للحال ، فيجتمعان ويحاولان الإصلاح بالوعظ والكلم الطيب ، ويدرسان سبب المشكلات ، فإن وجدا أن الشقاق مستفحل لا يرجى معه وفاق ؛ فرقا بين الزوجين عند بعض الأئمة ، وإن استجاب الزوجان للإصلاح فذلك هو المقصود الأول ، والله جل وعلا هو العليم بأحوال عباده ومصالحهم الخبير بنفوسهم وقلوبهم .

**رابعاً** : لا تعتبر المرأة المطالبة بحقوقها ناشزاً ، فإذا نقصها زوجها حقاً من حقوقها فوقفت دونه وطالبت به فهى غير ناشز ، وإذا زوّجها أبوها رغم أنفها أو من غير كفء لها طلباً للمال فرفضت ذلك فهى غير ناشز ، أما الناشز : فهى المرأة التى تتزوج كفئاً لها برضائها ثم تجد فى بيته كل ما تحتاجه من عيش وحسن معاشرة ثم يغويها الشيطان فتسلك سبيل الهوى. وهذه هى التى تؤدب بالموعظة الحسنة أولاً ، ثم بالهجر فى المضجع ثانياً، وأخير بضرب غير مبرح .

ومهما اعترض بعض المنحرفات وضعيفات الإيمان على هذه العقوبة ، فإنها ولا شك عادلة متدرجة فى سلم التربية المستقيمة ، خصوصاً وأن الإسلام يضمن للمرأة كل حقوقها قبل أن يتحدث عن نشوزها . فلنحذر من يتمارى فى أى حكم من أحكام الله أن تصيبه فتنة ، أو يصيبه عذاب أليم أو ينطبق عليه قول الله جل جلاله : ﴿ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [غافر: ٤].

# حول معالجة مشكلة البخل

هذه آيات كريمة تعالج مشكلة ضاربة بجذورها فى أغوار النفس الإنسانية إنها مشكلة البخل ، الذى يقف شيطانه على مداخل البر فيسدها ، ولا يزال يعد صاحبه الفقر ويوئسه من رزق الله ويضيق فى مفهومه خزائن ملك الله الواسعة ، وقد لاحظت فى أسلوب الآيات تنويعاً مشوقاً بين الخبر والاستفهام ، مما يجعلها تنفذ إلى شغاف النفوس بالهداية والإقناع .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الَّذينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ الله من فَضْله وَأَعْتَدنَا للكَافرِينَ عَذَابًا مُّهينًا * وَالَّذين يُنفقُونَ أَمْوَالَهُم رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمنُونَ بالله وَلاَ باليَوْمِ الآخر وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِم لَوْ آمَنُوا بالله وَاليَوْمِ الآخر وَأَنفَقُوا ممَّا رَزَقَهُمُ الله وَكَانَ الله بهم عَليمًا * إنَّ الله لاَ يَظْلمُ مثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعفْهَا وَيُؤْت من لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظيمًا * فَكَيْفَ إذَا جئْنَا من كُلِّ أُمَّة بشَهِيد وَجئْنَا بكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا * يَوْمَئذ يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَديثًا** ﴾ [النساء : ٣٧ ـ ٤٢].

أقول وأسأل الله جلت عظمته أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة :

أولاً : فى الآية الأولى يقرن الله البخل بالكفر ؛ لأن البخيل لو كان يؤمن بفضل الله ومغفرته وواسع رزقه ما بخل ، لكن سلوك البخيل يدل على أنه يائس من رزق الله ، معتمد على ما فى يديه من المال فقط ، كأن ليس فى نظره عند الله رزق ولا له خزائن السموات والأرض .

وأسفل البخلاء هم الذين لا يكتفون أن يبخلوا لكنهم يتخذون من البخل

مبدءاً يعتنقونه ، وينشرونه ويأمرون به الناس ، وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَأَعتَدنَا للكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ مشيراً إلى أن البخل ضرب من الكفر ؛ لأنه كتمان لنعمة الله وفضله ، وفي قوله ﴿ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ إشارة إلى الجزاء من جنس العمل فقد أهان البخيل نفسه فى الدنيا ، وأسقط مروءته وعاش حقيراً ؛ ولهذا فقد اعتد الله له عذابا مهيناً فى الآخرة ، عذاباً مسقطاً للمروءة ؛ ليكون مهانا فى الآخرة كما عاش مهيناً في الدنيا . وقد روى عن على - رضى الله عنه أنه قال : عجيب شأن البخيل يعيش فى دنياه عيش الفقراء ، ويحاسب فى القيامة حساب الأغنياء . ومن غبن البخيل أنه يتحسر فى الدنيا لما يعانيه من حرمان ، ويتحسر فى الآخرة حين يرى أن العذاب جاءه من تلقاء ماله .

**ثانياً** : ومثل البخيل وأردأ منه من لا ينفق إلا على مرأى ومسمع من العبيد، فإذا لم ير من يقوم بالدعاية له لم ينفق ، وكم من بخلاء على أنفسهم وعلى الفقراء ينفق الملايين إذا علم أن هذا الإنفاق يرضى إنساناً ذا نفوذ دنيوى، ويلاحظ أن الآية القرآنية قرنت بين هذا الصنف وبين الشيطان ؛ لأن الشيطان هو الذى يزين الرياء والسمعة للمنفق ، وهو الذى يخوفه الفقر فيمنعه من الإنفاق لوجه الله ، وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموَالَهُم رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليَومِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ ، نعم إن من يصطفى الشيطان صديقاً فقد اختار صديقاً سيئاً لا يمكن أن يجر عليه إلا الشر والوبال والعذاب ، وإعراب ﴿قرينا﴾ الثانية : تمييز ، وفاعل ساء ضمير تقديره هو وساء بمعنى بئس والمخصوص بالذم محذوف وتقديره بئس قرينا الشيطان .

**ثالثاً** : ما أحلى وأعذب وأبلغ الاستفهام البليغ في قوله تعالى : ﴿ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ** ﴾ وهو استفهام يفيد النفى ، وتقديره : ما كان عليهم من ضرر أو بأس لو أنهم آمنوا بالله والجزاء ، وأنفقوا فى سبيل الله لينالوا جزاء الإحسان إحساناً ، ماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا ما دام الله جل وعلا يعلم كل ظاهر وخفى وكل صغير وكبير من أفعال العباد ،كما يعلم النية المصاحبة للعمل ومدى خلوصها لوجهه الكريم .

**رابعاً** : قيل فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ إن هذه الآية : هى من أعظم الآيات بشرى للمحسنين ؛ إذ هى تشير إلى أن الله جل جلاله لا يضيع عنده أى عمل صالح ، ولا يحقر شيئاً من المعروف ولو كان حبة خردل، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن يكن هذا المثقال حبة خردل فإن الله لا يكتفى بمضاعفتها، ولكنه يضيف إليها من عنده ومن خزائنه فضلاً عظيماً .

قال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يضاعف العمل الصالح ألفى ألف ضعف » . وهذا التعبير هو للتكثير ، والحقيقة أن عطاء الله لايحده حد معلوم ، وإنما يؤتى رزقه وفضله بغير حساب .

**خامساً** : قول الله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً** ﴾ معناه : كيف يكون حال الكفار والبخلاء الجاحدين لفضل الله ، إذا كانت القيامة وجئنا بالأمم كلها ، ومع كل أمة شهيد يشهد عليها هو نبيها أو رسولها ، ثم جئنا بك يا محمد لتكون شاهداً على أمتك صلحائها وعصاتها .

هذه الآية كانت تخيف رسول الله ﷺ ، وتبكيه ، فقد روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فيما رواه البخارى ، أن رسول الله ﷺ قال له ذات يوم: « اقرأ علىّ القرآن » فقال عبد الله بن مسعود : يا رسول الله أأقرأه عليك وعليك أنزل ؟! قال رسول الله ﷺ : « بل أريد أن أسمعه منك » قال عبد الله : فأخذت أقرأ من سورة النساء حتى بلغت قوله عز وجل : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ قال رسول الله ﷺ : «أَمسكْ» ونظرت وإذا عيناه مخضلتان بالدموع ؛ وذلك لأنه تذكر مقام الشهادة وبين يدى الله ، وكيف سيشهد على العصاة من أمته ، والنبى ﷺ يقول لأمته : «إنما أنا منكم بمنزلة الوالد » والوالد لايطيق أن يرى أبناءه يعذبون حتى ولو كانوا عصاة .

وقديماً شفع نوح عليه السلام فى ولده مع أنه كان كافراً عاقاً ، وكانت تلك الشفاعة من منطلق عاطفة الأبوة فى ذلك الموقف الذى يتمنى فيه الكافرون لو تحولوا حيوانات وصاروا تراباً ، أو شقت من تحت أقدامهم الأرض فسقطوا فى أعماقها ودفنوا فيها ، وسويت عليهم ؛ لأنهم فى ذلك الموقف لا يستطيعون أن يكتموا الله أى خبر من أخبارهم ؛ لأنهم إن فعلوا ذلك شهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون .

# القرآن الكريم يفضح نفسيات اليهود

هذه أربع آيات من سورة النساء ، تكشف جوانب أخرى من نفسيات أعدائنا، وقد دأب القرآن الكريم على فضح نفسيات اليهود ونواياهم ؛ لأن الله جل جلاله علم بعلمه الأزلى ، أن اليهود سيظلون على المدى أكبر خطر على أمة محمد ، وهذا هو ما كشفته الأيام ، وهو أخطر ما تعانيه أمتنا فى هذه الأيام.

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ أَلَم تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللهُ أَعلَمُ بِأَعدَائِكُم وَكَفَى بِاللهِ وَلِياً وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعنَا وَعَصَينَا وَاسمَع غَيرَ مُسمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلسِنَتِهِم وَطَعناً فِى الدِّينِ وَلَو أَنَّهُم قَالُوا سَمِعنَا وَأَطَعنَا وَاسمَع وَانظُرنَا لَكَانَ خَيراً لَّهُم وَأَقوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفرِهِم فَلاَ يُؤمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبلِ أَن نَّطمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدبَارِهَا أَو نَلعَنَهُم كَمَا لَعَنَّا أَصحَابَ السَّبتِ وَكَانَ أَمرُ اللهِ مَفعُولاً * إِنَّ اللهَ لاَ يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشرِك بِاللهِ فَقَدِ افتَرَى إِثماً عَظِيماً ﴾** [النساء : ٤٤ ـ ٤٨] هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض إشاراتها البلاغية وأسرارها المعجزة :

**أولاً** : قوله تعالى لنبيه ﷺ : **﴿ أَلَم تَرَ ﴾** عبارة تشويق ، كما تقول ـ لمن تريد لفت نظره إلى خبر مهم : ألم تسمع ، فيتحول عندئذ إليك بكل إصغائه، وفى الأسلوب البليغ تستعمل البداية الاستفهامية كتعبير تجميلى كقول الله تعالى :

﴿ أرأيـــتَ مَن اتَّخذَ إلههُ هواهُ ﴾ [الجـاثيـة : ٢٣] ، ﴿ أرأيتَ الَّذى يَنهى*عبداً إذاً صلَّى * أرأيتَ إن كانَ علَى الهُدَى * أو أمرَ بالتَّقوى﴾، ﴿ أرأيتَ إن كَذَّبَ وتولَّى ألم يَعلَم بأنَّ الله يَرَى ﴾ [العلق : ٩ ـ ١٣]، ﴿ قُل أرءيتم إن أخذَ الله سَمــعكُم وأبصارَكُم وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَن إلهٌ غيــرُ الله يأتيكُم به قُل أرأيتكمَ إن أتاكُم عذَابُ الله بَغـتةً أو جَهــرةً هَل يُهلَكُ إلاَّ القَومُ الظَّالمُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٦ ـ ٤٧] .

**ثانياً** : الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم أحبار اليهود ، أطلعهم الله جل وعلا على التوراة فعرفوا أوصاف محمد ﷺ حتى كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما بعثه الله بالحق كتموا ما علمهم الله من التوراة ، واشتروا بكلام الله وهديه ضلالات اليهودية ، ولم يكتفوا بذلك بل طفقوا يخططون لتضليل المسلمين وردهم إلى الجاهلية والكفر . ثم يقول الله جل شأنه : ﴿ والله أعلمُ بأعدائكم وكَفَى بالله وَلِياً وَكفَى بالله نَصيراً ﴾ [النســاء : ٤٥] ومــعناها : أن الله جل وعــلا هو العليم بأعــدائكم الحقيقيين، وهو نعم الولى الحميد ، ونعم النصير القوى لعباده المؤمنين ، ومعنى هذا أنكم إذا وثقتكم صلتكم بالله كشف الله ما تخفيه أعداؤكم من نواياهم ، وكـان لكم ناصراً ومؤيداً على كل من عاداكم . ولفظ الجلاله فى قوله : ﴿وكَفَى بالله وَلِياً وَكفَى بالله نَصيـراً ﴾ فاعل مرفوع تقديرا مجرور لفظاً بالباء الزائدة ، ووليا ونصيراً تمييز أو حال .

**ثالثاً** : قوله تعالى ﴿ منَ الَّذينَ هَادُوا يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضعه ﴾ [ النساء : ٤٦] أى يلوون ألسنتهم ويغيرون فى الكلام ويبدلون ، ويؤولون التوراة تأويلاً مغرضاً ، ثم إن لهم رموزاً سرية فى الكلام يستعملونها ليخفوا نواياهم الخبيثة .

ومن المعلوم فى هذه الأيام أن اليهود هم أمهر الناس فى استغلال الجمعيات السرية ، واستعمال لغة الرموز فيها ، حتى إن للماسونية مئات الرموز ، وهم يلجؤون إلى هذا التحريف ليستروا به سوءة أطماعهم ، وبشاعة مقاصدهم ، ولولا أن مقاصد الماسونية خبيثة لما أحاطت نفسها بسياج شائك من الأسرار والطلاسم الخبيثة .

على عكس دين الإسلام الذى وصفه رسول الله ﷺ بأنه المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاهالك .كان اليهود إذا دخلوا على رسول الله ﷺ خاطبوه بكلام ظاهره غير باطنه ، فيقولون : يا محمد راعنا سمعك ، وكلمة راعنا فى العبرية كلمة قبيحة ، والمألوف أن يقول المخاطب لرسول الله : انظرنا يارسول الله .

وكان الصحابة إذا أرادوا خطاب رسول الله ﷺ قالوا له : اسمع يارسول الله غير مسمع مكروهاً ، لكن اليهود كانوا يقولون له : اسمع غير مسمع ويتظاهرون أنهم قالوا كلمة مكروها فى سرهم مع أنهم يقصدون بخطابهم : اسمع لا سمعت ، وإذا خاطبهم رسول الله ﷺ قالوا : سمعنا بصوت مرتفع ، لكنهم يتهامسون بكلمة وعصينا ، بدلاً من كلمة : وأطعنا ، فنزل القرآن يكشف سخريتهم وخداعهم ، ويحثهم أن يقولوا الكلام المستقيم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فقليل منهم من كان يؤمن بالله ورسوله .

**ثالثاً** : سأل رسول الله ﷺ رؤساء اليهود وناشدهم الله : أليس القرآن مصدقاً لما فى التوراة ؟ أوليس محمد ونبوته والقرآن كل ذلك مذكور فى التوراة ؟ فقالوا : لا نعرف شيئاً من هذا ، فنزل قول الله تعالى يتهددهم أن يؤمنوا بما أنزل إلى محمد ، وإلا فإن الله يطمس وجوههم فيجعلها كأدبارهم ،

أو يمسخهم قردة وخنازير ، كما فعل بأصحاب السبت حين عصوا أمر الله ورسوله .

ويتساءل البعض : لماذا لم يفعل الله بهم ما تهددهم به ؟ والجواب : أن المخاطبين من بنى قريظة فعل به ما يعادل المسخ حين مضوا فى تحديهم وخيانتهم حتى بلغ سيل طغيانهم الزُّبى ، وهنالك قضى الله بقتل رجالهم فقطعت رؤوسهم وردت وجوههم نحو أدبارها بالقتل ،كما تهددهم الله جل جلاله .

نسأل الله أن يجعل تجمعهم حول المسجد الأقصى مقدمة لإبادتهم حتى يقول الحجر للمؤمن : إن خلفى يهودياً فاقتله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾.

# الحكم فى نظر الإسلام أمانة ومسئولية يتحملها الحاكم والمحكوم

الحكم فى نظر الإسلام أمانة يتحملها الحاكم والمحكوم ، والحكم فى نظر الإسلام مسؤولية يتحملها الحاكم والمحكوم ، إذا لم يقم بها كلاهما اعتبر كل منهما غاشاً للأمة .

ليس الحكم فى الإسلام وسيلة كسب دنيوى ، ولا طريقة للسيطرة والنفوذ المستبد ، لكنه أمانة عظيمة من لم يؤدها فقد خان الله ورسوله والمؤمنين . وهاتان آيتان من سورة النساء تضعان الحكم فى نصابه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [النساء ٥٨ ـ ٥٩] .

هاتان الآيتان العظيمتان هما من الأسلوب القرآنى الذى يتطلب ذكاء فى تفهم الترابط البلاغى بين فواصله ؛ ذلك لأن كل فاصلة منه تشير إلى الفقرة التالية فى ترابط معجز عجيب ، وإذا بدا لك أن فقرة معينة لا تمت إلى ما وراءها فذلك ناجم عن ضحولة فى التدبر ، ولو تدبرت الفقرات لوجدتها وحدة ذات موضوع واحد هو أمانة الحكم فى الإسلام ، وإلى الإخوة القراء بياناً ببعض الإشارات المعنوية الدقيقة فى الآيتين :

**أولاً** : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا** ﴾ قاعدة شرعية جمعت كل أحكام الشرع وأوامر الدين ؛ لأن هذه كلها أمانات

الله فى رقاب العباد ، وقد استعمل الله جل وعلا فيها أسلوب التوكيد ، فمن وسائل التوكيد فيها الحرف إن وهو حرف توكيد : وكلمة ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ كلمة مؤكدة تبين أن أداء الأمانة أمر سماوى إلهى ، وفى كلمتى : ﴿ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ إطناب احتراسى ، بأنه لا يكفى مجرد رد الأمانة، إنما يجب التحرى والتأكد من أنها ردت إلى أهلها . وقد استعمل القرآن الأسلوب المطنب لزيادة التوكيد فقد كان يكفى أن يقال: أدوا الأمانات، لكن القرآن عبر عن الحكم بثمانى كلمات كوسيلة من وسائل الإيضاح التوكيدى فقال :﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُم أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾.

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ﴾ هو إطناب من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، فالحكم داخل فى عموم الأمانة ، ولكنه ذكره بشكل خاص ، لشدة الاهتمام بأمانة الحكم من بين جميع الأمانات ؛ ذلك لأن إقامة العدل بين الناس هو من أعظم الأمانات الإلهية التى يحملها الحكام ، والعدل هو الذى به يستقيم أمر السموات والأرض ، وإلى هذا يشير قول الله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ ﴾ فكأن هنالك توازناً بين رفع السماء ، ووضع ميزان العدالة ، وكأن السماء التى تنزل منها الرحمات لا يستقيم أمرها مع الأرض ، إلا إذا استقام على الأرض الميزان وهو العدل . إن ذكر العدل بعد أداء الأمانة توكيد لأمر العدل ، وتعظيم لشأنه ، كما تقول لإنسان : أطع الله وأقم الصلاة ، فإقام الصلاة داخل ضمن طاعة الله، لكنها تذكر هذا الخاص بعد العام ، للإشادة بأهميته ، وهكذا ذكرت أمانة الحكم بعد الأمانات لشدة الاهتمام بها ، وفى ذلك إشعار للحكام بعظم المسؤولية التى طوقوها حين امتحنهم الله بحكم الخلائق .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **إنَّ اللهَ نعمَّا يَعظُكُم به إنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ تنبيه بليغ للحكام بأن الله لا يأمرهم ولا يعظهم إلا بما فيه خيرهم ، وكلمة ﴿**نعما**﴾ هي كلمتان مدغمتان ( نعم ما ) يعظكم به الله ، كما ينبههم أنه إذا كانت السلطة والمركز العالى والنفوذ تمكنهم أن يخفوا أعمالهم ويتستروا على الظلم بوسائلهم ، فإن الله جل جلاله سميع لا تخفى عليه همسة ولا تغيب عن بصره غائبة ، ومهما أمعن ظالم فى إخفاء ظلمه فإن وراءه سمع الله وبصره ، ومن تتبع الله عورته ، فضحه على رؤوس الأشهاد .

**رابعاً** : بعد أن نبه الله الحاكمين إلى عظمة أمانة الحكم وحذرهم من ظلم الرعية سراً أو جهرة ، التفت إلى المحكومين ليبين لهم أن الحكم أمانة مشتركة يتحمل مسؤوليتها ، الراعى والرعية ، وكما أمر الله الحاكم أن يؤدى أمانة الحكم بالعدالة كذلك يأمر المحكوم أن يؤدى أمانة الحكم بطاعة ولى الأمر المسلم فى كل أمر ، إلا إذا أمر بمعصية فإذ ذاك لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمرِ مِنكُم**﴾ . إن تعظيم السلطان المسلم فيه تعظيم للدولة الإسلامية ، وفى حفظ مهابة أولى الأمر وتوقيرهم قربة إلى الله ،كان كثير من السلف الصالح يتقربون بها إلى الله . وإن شق عصا الطاعة عقوبته الإعدام ؛ وذلك لأن الحاكم المسلم المطبق لشرع الله هو رمز للشرع نفسه ، ففى توقيره توقير لشريعة الله وحفاظ على أمن المجتمع فى ظلال الحاكم الإسلامى العادل ، ولا يكون الحاكم أميناً على أمانة الحكم مؤدياً لها ، إلا إذا حكم بما أنزل الله ورسوله . وأى نزاع يحدث بين اثنين أو طائفتين يجب أن يرد إلى حكم الله ورسوله ؛ أى إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

**خامساً** : الاجتهاد المستنير ليس خروجاً على كتاب الله وسنة رسوله ، بل هو من مشكاة الكتاب والسنة لأن يقيس الأشباه والنظائر على ما قرره الكتاب والسنة ، وقد حكم علي ـ رضى الله عنه ـ باجتهاده حين جيء إلى عمر رضى الله عنه بامرأة ولدت بعد زواجها بستة أشهر فحكم عمر ـ رضى الله عنه ـ برجمها ، ولكن عليا ـ رضى الله عنه ـ حكم ببراءتها استنتاجاً من قوله تعالى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً** ﴾ فقال : الفصال في عامين ، والحمل يبقى به ستة أشهر ، فكان الرأى رأى على ـ رضى الله عنه ـ .

وفى إحدى السرايا عصى الجنود المسلمون أمر قائدهم عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان عبد الله فيه دعابة ، فأمر الجنود أن يوقدوا ناراً عظيمة ، فلما استعرت قال لهم : ألقوا أنفسكم فيها . ألم تقرؤوا قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُّوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ وأنا من أولى الأمر رسول الله ﷺ ، فرفضوا وقالوا : نحن ما اتبعنا رسول الله ﷺ إلا لننجو من النار ، ولما رجعوا إلى المدينة اشتكوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : « أصبتم .. لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » : ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ .

# حول الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان ، ولا يكون العبد مؤمناً حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شيءٍ خَلَقناهُ بِقَدَر** ﴾ [القمر : ٤٩] ، والمؤمن يعتقد أن الشر والخير فتنة واختبار ، أو ابتلاء وامتحان ، فقد يختبر الله عبداً بالغنى ، وقد يمتحنه بالفقر ، وقد يبتلى الله عبداً بالرخاء،كما يبتلى عبداً آخر بالشدة ، ولله فى الحالين حكمة بالغة يدركها أهل العقول ، ولرب شعب ابتلاه الله بالفقر فتكون منه مجتمع قوى عامل دؤوب كثير الشكر على كفافه، كثير الصبر على حرمانه ، ولرب شعب ابتلاه الله بالغنى فبطر النعمة فأخذهم الله بالعذاب ، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

وإذن فالمؤمن يؤمن بالقدر خيره وشره ، معتقداً أن الله لا يسوق خيراً إلا لحكمة بالغة ، ولا يبتلى بشر إلا لحكمة بالغة . قال الله تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، هذا الكلام أورده مقدمة لآيتين كريمتين من سورة النساء ، ساذكرهما أن شاء الله، ثم أقف بالقارىء عندهما ليعيش فى جو من الإيمان بقضاء الله وقدره . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **أينَمَا تكُونوا يُدرِكُكم المَوتُ وَلَو كُنتُم فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وإن تُصبهُم حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذه من عند الله وَإن تُصبهُم سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذه من عندكَ قُل كُلٌّ مِّن عند الله فَمَا لِهَؤُلاَءِ القَومِ لاَ يَكَادُونَ يَفقَهُونَ حَدِيثاً * مَّا أَصَابَكَ من حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفسِكَ وَأَرسَلنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً** ﴾ [النساء ٨٧ ـ ٩٧].

وإلى الأخ القارىء هذه الإشارات المتعلقة بهاتين الآيتين :

**أولاً** : عندما أمر الله جل وعلا بقتال الكفرة الظالمين ، وكتب على المسلمين القتال ، أظهر بعض المسلمين خوفاً شديداً ، وخشوا أن يموتوا في الحرب، فأنزل الله جل وعلا : ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ مذكراً إياهم أن الموت قضاء محتوم ، يأتى فى ساعة معينة ، والحذر من الموت لا يغنى ؛ لأن الموت إذا جاء لم تحجبه أسوار ، ولا حصون ولا أبراج، وما فهم القدر حق قدره من هرب من الموت ، ولقد كان على رضى الله عنه ينشد :

فى أى يومَّى من الموت أفرّْ ... أيوم لم يُقْدَر أم يوم قُدِرْ

ومعنى البيت : إذا فررت من الموت فى اليوم الذى قدر لى فيه أن أموت ، فأنا مخطئ ؛ لأنه عندئذ مصيبنى رغم الفرار لا محالة ، وإذا فررت من الموت فى اليوم الذى لم يقدر لى ، فأنا أيضاً مخطئ ؛ لأننى لن أموت مهما اقتحمت، وما أجمل الإطناب البلاغى، فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ وهو إطناب غرضه غرس الحقيقة فى قلوب المخاطبين ، والحق أن هذا المقطع من الآية يبعث الجرأة فى قلب الجبان .

**ثانياً** : المشركون والمنافقون أساؤوا فهم القضاء والقدر ، فقد كانوا يتطيرون ويتشاءمون ، ويعزون ما كان يحصل لهم من الشر إلى البشر . وروى أن اليهود لعنهم الله قالوا حين قدم النبى ﷺ : ( منذ دخل هذا الرجل المدينة نقصت ثمارها ، وغلت أسعارها ) . ومن قبل ذلك كان فرعون وقومه يطيرون بموسى ومن آمن معه ، وتطير أصحاب القرية برسلهم ، ورد الله جل وعلا بأن الشؤم لا يأتى من المؤمنين وإنما يأتى من الكافرين وجرائمهم .

**ثالثاً** : كان اليهود والمنافقون إذا أصاب المدينة خير من خصب أو رزق ، قالوا :

هذا من عند الله وإذا أصاب الديار شر من قحط أو كساد ، قالوا : هذا من محمد ، ونسوا أن محمداً ما هو إلا بشر رسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف يملك للناس نفعا أو ضرا ؟! إن محمداً ﷺ ما هو إلا رسول للناس كافة، أما المهيمن على أفعال البلاد وخزائن الخير والشر والشاهد عليها فهو الله ، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى : ﴿ **وَأَرسَلنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً** ﴾ .

**رابعاً : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفسِكَ﴾**

على المؤمن إذا ساق الله إليه حسنة ، أن يعزوها إلى الله ، وإن أصابته سيئة أى مصيبة ، أن يحاسب نفسه ويعزو المصيبة إلى ذنوبه ، فقد جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها : « ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها، وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر » .

وهنا نقطة دقيقة لابد أن نجليها ، وخلاصتها : أن الحسنات التى يفعلها العبد لم يفعلها بحوله ولا قوته ، فالحول والقوة بالله ، وعلى العبد أن يبرأ من حوله وقوته ، ويكثر من قول : لا حول ولاقوة إلا بالله ، فهى كما وصفها رسول الله ﷺ من كنوز الجنة .

إذا عملت حسنة فهى هدى من الله ؛ لأنه أرسل إليك رسولاً شرع لك الحسنات ، ودعاك إليها ، وأنزل إليك كتاباً نادى إلى الحسنات ، وحث عليها وأعطاك عقلاً يطمئن إلى الحسنات ، وتحيك فيه السيئات فيضطرب لها ؛ ولهذا إذا عملت الحسنة فإياك أن تظن أنها بقوتك ، وعلى علم عندك ، وإنما هى من الله ؛ لأنه دعاك إليها ورسم لك طريقها ، وأرسل رسوله ليعلمك إياها، ونور عقلك بنور البصيرة والمحبة للخير ، أما إذا أصابتك سيئة نتيجة لذنوبك فاعلم أنك أنت الملوم وحدك ؛ لأن الله جل وعلا نهاك عن السيئات وردعك

عنها ، وأنزل قرآنه زاجراً عن كل سيئة ، وأرسل رسوله يحذرك من السيئات ومنحك عقلا يمقت السيئات ، فإذا اقترفتها بعد كل هذا فلا تلومن إلا نفسك.

إذا أنجزت حسنة ، كأن صليت أو تصدقت ، أو ساعدت أخاك ، أو وقفت فى إصلاح فاعلم أن هذا من الله الذى فتح لك الطريق وسهله ، والذى ألهمك الخير وزينه ، قل حينئذ : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وحين يدعوك المؤذن إلى الصلاة والفلاح ، فاعلم أن ذهابك إلى المسجد وأداءك للصلاة ما تم بحولك ولا قوتك ، وإنما بهداية الله وبفضل الله ؛ ولهذا قل إذا سمعت المؤذن يدعو إلى الصلاة أو الفلاح : لا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن المهم أن تعلم أن الخير والشر قد أوجدهما الله ، ولكنه يسوق الخير إلى عباده بما هداهم إليه من الحسنات ، ويساق الشر إليهم بما كسبت أيديهم من السيئات .

اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها .

• • • • • •

# الحرب المعنوية وأثرها السيئ على الأمة

قضى الله جل وعلا أن يظل الإسلام فى حرب مستمرة مع الكفر ؛ ذلك لأن الإسلام هو الخير ، والكفر هو الشر ، والخير والشر فى صراع منذ كان آدم وإبليس ؛ ولهذا فمعركة الإسلام والكفر بدأت منذ الأبد ، وتستمر بحكمة من الله إلى الأبد .

وأعداء الإسلام لهم فى حرب الإسلام وسائل وأساليب قد لا تقتصر على الأسلحة والمواجهة بالقوة ، وإنما تتعدى ذلك إلى حرب معنوية ، وهدمها بالإشاعات ، وحرب الأخلاق وهدمها بالموبقات .

وإنى مورد هنا آية واحدة تكشف سلاحاً لئيماً من أسلحة الأعداء ، هذا السلاح هو : حرب الإشاعات ، وهى حرب فظيعة الأثر فى هدم معنويات الشعوب ، حتى لقد حدث أن شنت حكومة فى الأربعينات حرباً على أعدائها ، فأرسلت عدة طوابير للقتال فى الميادين ، وخصصت طابوراً كاملاً هو الطابور الخامس ، لبث الإشاعات الكاذبة المغرضة ، ومن ذلك الحين والناس يسمون الجواسيس بالطابور الخامس .

وإنى موردٌ هنا آية كريمة من سورة النساء ، تحذر المسلمين من الإشاعات، وتدعوهم أن يستقوا الأخبار ، لا من أعدائهم وإنما من مصادر دولتهم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء : ٨٣] .

هذه الآية الكريمة تتحدث عن طائفة من الناس ، لاهمّ لهم فى السلم

والحرب، إلا نشر الإشاعات ، فإذا حدث أمر من أمور الأمن ، أو من أمور الخوف ، نصبوا من أنفسهم إذاعات لنشر الأخبار . وتكون الأخبار التى يذيعونها غير موثوقة ، فيكون لها أثر عكسى ، وخصوصاً حين تتكشف المبالغة، ويتضح عدم الدقة .

حين أصيب المسلمون فى أُحد ، ملأت المدينة إشاعة أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وفى هذا ما فيه من هدم للمعنويات ؛ ولهذا فالقرآن الكريم يأمر كل فرد فى الأمة الإسلامية ألا يسارع إلى نشر أى خبر يسمعه ، إلا بعد تثبت منه ، بإرجاعه إلى الجهة المسؤولة عنه : فإذا كان خبراً يتعلق بجريمة بشعة سأل عنه من له صلة بالأمن ، وإذا كان خبراً يتعلق بحادث مرورى مروع ، ردّه إلى مختص بالمرور ، وإن كان خبراً يتعلق بنتيجة معركة تثبت من الحقيقة من مصدر مسؤول فى الجيش . هنالك إشاعات تشيع عادة أثناء الحرب يروجها بعض الغافلين من الشعب ، ولو بحثوا عن مصدرها لوجدوا أن عملاء الأعداء فى الداخل هم الذين بثوها ، وبهذا يكون الذين يروجونها يخدمون الأعداء ، ويشيعون فى أمتهم روح الهزيمة ، وهم لايعلمون .

وإلى الأخ القارىء هذه الإشارات الجميلة فى الآية الكريمة :

**أولاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُم أَمْرٌ مِّنَ الأَمنِ أَوِ الخَوفِ أَذَاعُوا بِهِ** ﴾

جناس عذب بين : الأمر والأمن وطباق بليغ بين : الأمن والخوف ، وفى التعبير بالإذاعة : إشارة إلى نشر الإشاعة على نطاق واسع ، فالذيوع هو الانتشار على نطاق واسع ، والإذاعة فى هذه الأيام هى وسيلة النشر على نطاق واسع .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَو رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمرِ مِنهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَستَنبِطُونَهُ مِنهُم** ﴾ ، حث على اعتماد المسلمين فى الأخبار ،

على أولى الأمر ، يعنى الدولة والجهات المسؤولة فيها عن الأحداث ، والاستنباط في الأصل : استخراج الماء من الأرض ، واستنباط الحقائق معناه : استخراجها مصفاة خالية من الكذب والتضليل ، والمواطن المسلم مطالبٌ أن يردّ الأخبار إلى أولى الأمر ، لأنهم أقدر على استنباط الحقائق ونشرها مصفّاة ممحصة .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه لاتبعتُم الشَّيْطَانَ إلا قليلا** ﴾ إشارة إلى أن المجتمع المؤمن ، يشمله الله تبارك وتعالى بفضله ورحمته، وهذا الأمر يحوط المجتمع الإسلامى ، ويجنبه كثيراً من الشرور التى تتهدده ، أو تكتنفه . ومن هنا كان من أعظم ما يجنب المجتمع الشرور ، توثيق الصلة بالله ، والتزام أوامر الله ليشمل الله هذا المجتمع بفضله وبرحمته ، ويبعدهم عن دروب الشيطان .

**رابعاً** : فى قوله تعالى ﴿ **وَلَوْلَا فَضلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحمَتُهُ لاتَّبَعتُمُ الشَّيطَانَ إلاَّ قَلِيلا** ﴾ إشارة إلى أن مروجى الإشاعات المغرضة ، يدعون شعبهم لاتباع الشيطان ، والجرى وراء جنود الشيطان ، ولكن الله جل وعلا يسوق فضله ورحمته، فيحمى بذلك أمة محمد من اتباع الشيطان ؛ ليظلوا بإذن الله متعاونين على الخير مناوئين للشر .

**خامساً** : إن وكالات الأنباء الإسلامية مطالبةٌ طبقا لأوامر هذه الآية ، أن تستنبط الحقائق استنباطاً مستنيراً ، وأن تصفيها من شوائب الدعاية الأجنبية ، كما يلزمها أيضا أن تقف لوكالات الأنباء الأجنبية بالمرصاد ، حتى لا تبث فى المجتمع الإسلامى سمومها من خلال أخبار تروجها ، ناقلة إياها على شكل إذاعات هدامة ، وبذلك يصون الله أمة محمد من اتباع الشيطان؛ لتظل ـ كما شاء الله لها أن تكون ـ خير أمة أخرجت للناس .

**سادساً** : قدّم الله جل وعلا الأمن على الخوف فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُم أَمرٌ مِّنَ الأَمنِ أَوِ الخَوفِ أَذَاعُوا** ﴾ لأن إذاعات الأمن وإشاعاته قد تبعث روح الاتكالية والكسل ، بينما إشاعات الخوف فى الأمم الحازمة الراسخة، قد تبعث الاستعداد والحذر ، واتخاذ الحيطة .

فلو أن إشاعة روجها المروجون ، بأن مائة طائرة للعدو قد أسقطت ، وكانت كاذبة أو مغالى فيها ، فإن هذا مما يبعث الأمن ، وقد يبعث الاتكال ، والخروج من المخابئ والملاجئ ، وقد يطمئن الجيش فينقصون من حالة التأهب ، أما إذا أشيع أن العدو قد اقترب فتلك إشاعة من إشاعات الخوف ، وهي قد تهدم بعض المعنويات فى فئة من الناس ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الخَوفُ رَأَيتَهُم يَنظُرُونَ إِلَيكَ تَدُورُ أَعيُنُهُم كَالَّذِى يُغشَى عَلَيهِ مِنَ المَوتِ** ﴾ [الأحزاب : ١٩] لكنها فى المقابل قد تكون حافزاً لذوى المعنويات العالية ، أن يستعدوا للقاء العدو وأن يسدوا ثغرات الضعف ، ومن ثم فإن إشاعات الأمن لاتقل خطورة عن إشاعات الخوف، والله جلّ وعلا بصير بالعباد وهو الحكيم العليم .

# حكم عمر فى من
# رفض حكم رسول الله ﷺ

المنهج الإسلامى يقضى أول ما يقضى أن تطبق أحكام الشريعة الإسلامية فى كل ما يشجر بين الناس فى الحدود ، والفرائض ، والمعاملات ، والأحوال الشخصية ، وكل ما يمكن أن يختلف عليه الناس . وإذا عدل الناس عن الحكم بما أنزل الله ، وحكموا بينهم أى قانون آخر من وضع البشر فهم بنص القرآن الكريم كافرون ظالمون فاسقون ، كثيرون فى هذه الأيام من اختطوا لأنفسهم قوانين وضعية، وارتضوا أحكاماً غير ما أنزل الله مع أنهم عند أنفسهم مسلمون.

وإن أخشى ما يخشى على أمة محمد ﷺ أن يرى كثير منهم يطرودن من حظيرة التوحيد المنيرة والوضاءة بما أحدثوا من التحاكم إلى الطاغوت . يقول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً * فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء ٦٠ : ٦٥].

أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء وللمسلمين مدداً متصلاً من التوفيق وعزيمة الرشد :

**أولاً** : روى فى مناسبة هذه الآيات أن منافقاً اسمه بشر تخاصم هو ويهودى فى مال بينهما ، فقال اليهودى : نحتكم إلى محمد ، وقال المنافق : بل نحتكم إلى يهودى من قومك ، هو كعب بن الأشرف ، فأبى اليهودى إلا حكم محمد ؛ لأن محمداً ﷺ لم يكن يقبل الرشوة ، وكان لا يحكم إلا بالعدل ، فلما رأى المنافق إصرار اليهودى ، ذهب معه إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودى على المنافق ، فغضب المنافق ، وقال لليهودى عندما خرجا : والله لا أرضى بحكم محمد ، فاتفقا أن يذهبا إلى عمر وهناك قال اليهودى لعمر رضى الله عنه : حكم بيننا محمد فرفض هذا حكمه، فسأل عمر المنافق : أحق ما يقول : قال : نعم ولكن جئناك لعل عندك قولا آخر ، فقال لهما عمر : انتظرا حتى أرجع إليكما وغاب مليا ثم خرج عليهما وهو بكامل سلاحه فضرب عنق المنافق ، وقال لليهودى : هذا هو حكمى فى كل من لا يرضى بحكم رسول الله ﷺ ، فهرب اليهودى من هول المنظر ، ثم جاء أهل المنافق وكانوا منافقين يحلفون لرسول الله ﷺ فقالوا : إن ولدنا لم يذهب إلى عمر إلا بقصد الإصلاح والتوفيق بينه وبين اليهودى ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يعرض عنهم ، ويكل أمر قلوبهم إلى الله ، وأن يعظهم بكلام بليغ ينفذ إلى قلوبهم .

**ثانياً** : فى الآيات إشارات دقيقة بلاغية ومعنوية ، ففى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ كناية عن المنافق ، ﴿ **وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ كناية عن اليهودى ، و ﴿ **الطَّاغُوتِ** ﴾ كناية عن كعب بن الأشرف ، وكل ما عبد أو حكم من دون الله وهو راض بالعبادة والحكم،

ويقرر القرآن الكريم فى الآية أن المؤمن مطالب بالكفر بالطاغوت ، وأن تحكيم الطاغوت هو من إضلال الشيطان .

**ثالثاً** : من صفات المنافق نفوره من حكم الله ورسوله ، فإذا قيل له : تعال إلى الحكم بما أنزل الله على رسوله ، أعرض إعراضاً مقيتاً ، ومن صفات المنافقين أنهم حين يقعون فى شر أعمالهم يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة ، ويتظاهرون بأنهم ما يقصدون إلا الإصلاح والتوفيق ، مع أن الذى فى قلوبهم من الكفر المضمر والغش والخداع لا يعلمه إلا الله .

وكلمة « تعال » تكون مفتوحة اللام ، فتقول للواحد : تعال ، وللجماعة: تعالوا ، وللواحدة : تعالى ، وأما قول أبى فراس : تعالى أقاسمك الهموم تعالى ، فهو لضرورة الشعر .

**رابعاً** : يأمر الله رسوله بمنهج الحكمة والموعظة الحسنة فيقول له : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِم فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ** ﴾ أى : أمسك عن معاقبتهم استبقاء لهم وابتعاداً عن حساسيات قرابتهم ، ﴿ **وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً** ﴾ أى مؤثراً يبلغ شغاف قلوبهم ، وما أجمل الواعظ حين يكون كلامه مما يبلغ شغاف القلوب .

**خامساً** : يقرر الله جل جلاله أن الرسل يجب أن يطاعوا ، وأن تطبق تعاليمهم وشرائعهم لأنها بإذن الله ومن الله . ثم يدعو كل من ظلم نفسه وحكم الطاغوت أن يعود إلى حكم الله ورسوله ، ويستغفر ربه وإذ ذاك سيعلم أن الله تواب رحيم، لا يتعاظم رحمته ذنب ولا يضيق عفوه بأية سيئة .

**سادساً** : وأخيراً يقرر الحق جل وعلا حقيقة يوردها بأساليب من التوكيد المشدد البليغ فيقول : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ أكد

الحق جل جلاله بالقسم فقال : ﴿ وَرَبِّكَ ﴾ وأكد بتكرار النفى مرتين فقال ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ ولو قال فوربِّكَ لاَ يُؤمنون لظل المعنى مستقيماً ، وقال أيضاً : ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ فجاء بالمصدر تسليماً لزيادة التوكيد . والحقيقة التى يقررها الإله العليم الحكيم القاهر هى أن الإنسان لا يؤمن حتى يعود فى جميع الأحكام إلى حكم الله ورسوله ، ثم يرضى بالحكم مهما كان ولا يضيق به صدره ويسلم لله ورسوله تسليماً كاملاً خالياً من المماراة والنقاش والشك . فأسأل الله إيماناً لا يخامره شك ، وطاعة لا يخالطها رياء ، وأعمالا صالحة لم تلبس بظلم .

# الإسلام يفرض على أتباعه
# التحلى بالمثل العليا

هذه ثلاث آيات من سورة النساء ، تشتمل على بعض الآداب الاجتماعية التى يأخذ بها الإسلام أتباعه ليكونوا قادة الدنيا فى كل المثل العليا .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا * وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا** ﴾ [النساء : ٨٥ ـ ٨٧] . أقول وأسأل الله لى ولجميع المسلمين عوناً وتوفيقا وسدادا وتثبيتا :

**أولاً** : من أعظم النعم التى تساق للعبد ، أن يصبح ذا جاه فى الناس بحيث إذا شفع يشفع ، وإذا تكلم الكلمة عند المسؤولين احترم المسؤولون رأيه وكلامه . وإنها لفرصة سانحة لا تعوض أن يتكلم كل شفيع بالكلمة الطيبة المصلحة؛ لأن الكلمة الطيبة لا تكاد تنطلق من فم قائلها ، حتى تصعد إلى مسامع الله جل جلاله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر : ١٠] ، وفى الحديث الشريف : « والكلمة الطيبة صدقة » .

**ثانياً** : معنى الشفاعة فى الآية يبدو أوسع مع معناها الاصطلاحى عند علماء التوحيد ، فالشفاعة فى الآية تعنى : كل تدخل بين متخاصمين سواء بالإصلاح أو بالإفساد ، وكل كلمة يقولها مسلم فى قضية أو حاجة معروضة لأخية المسلم ، فإذا وقفت عند حادث سيارات ورأيت شجاراً أو

لغطا أو خصاماً فتكلمت بين المتخاصمين فأنت تشفع ، وإذا عرضت أمامك حاجة لمسلم فتكلمت فى شأنها فأنت تشفع ، وإذا حضرت قسمة ميراث أو خلافاً بين زوجين أو صفقة مختلفاً عليها بين متبايعين، فتكلمت فى هذه المواقف فأنت تشفع ، وتكون شفاعتك حسنة ، إذا أنت راقبت الله فتكلمت بالحق وتحريت الصدق وأردت الإصلاح ، ولكن الشفاعة تكون سيئة إذا أضرت بمصلحة مسلم أو قصد بها إحقاق باطل وإبطال حق ، وفى كل حال يكون الكرام الكاتبون حافظين لكل ما يقال : ﴿ **مَا يَلفظُ من قَولٍ إلاَّ لَدَيه رَقيبٌ عتيد** ﴾ [ق : ١٨] يقول الله تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ **هذَا كتَابُنَا ينطقُ عَلَيكُم بالحقِّ إنَّا كُنَّا نَستَنسِخُ مَا كُنتُم تعملُون**﴾ [الجاثية : ٢٩]، ويقول جل وعلا فى سورة يونس : ﴿ **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ [يونس : ٢١]، ويقول جل جلاله في سورة الزخرف: ﴿**أم يَحسَبُونَ أنَّا لاَ نَسمَعُ سِرَّهُم وَنَجواهُم بلَى وَرُسُلُنَا لَدَيهِم يكتُبُون** ﴾ [الأحزاب : ٨٠]، وكلمة لديهم فى آية الزخرف مخيفة حقاً ؛ لأنها تفيد أن الكرام الكاتبين من رسل الله الملائكة هم لدى الإنسان أى عنده ومعه فهم لا يغفلون عنه طرفة عين ، وفى سورة الرعد : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَينَ يَدَيه وَمَن خَلفَه يَحفَظُونَهُ من أمرِ الله** ﴾ أى : أن لكل إنسان ملائكة يعقبون كل تصرفاته ، فهو غير متروك ولكنه محفوظ بأمر الله .

**ثالثاً** : فى هذه الآية إيجاز وإطناب معاً وفيها إطناب تذييل فى ختامها ففى كلمتى شفاعة حسنة ، وشفاعة سيئة إيجاز قصر ؛ لأنهما اشتملتا على جميع ما يتفوه به الإنسان من قول طيب ، أو خبيث ، لكنّ فى العباره ذاتها إطناباً بتكرار كلمة شفاعة ، وكلمتى يكن له نصيب منها ، ويكن له كفل منها ، وفى قوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شيء مُقِيتاً** ﴾

إطناب تذييل ؛ لأنه تعليق على ما يقوله العبد من خير أو سوء ، وقد فسرت كلمة ﴿ مُقِيتًا ﴾ بمعنى : قديراً ، والحق أن معناها : رزاقاً ومكافئاً؛ لأنها مشتقة من القوت . وقد يقول قائل لو قيل : من يشفع شفاعة يكن له نصيب منها ، لكان فى العبارة نفس معنى الآية وبالفاظ أكثر إيجازاً . والجواب أن هذا الإيجاز مخل بالمقصود من المعنى؛ لأن كلمة شفاعة إذا لم تقيد وتوصف لا يفهم منها إلا الشفاعة الحسنة ، والمقصود بالآية:كل شفاعة وكل لفظ سواء أكان حسناً أم سيئا . ومن أجل هذا وصفت الشفاعة فى الحالين .

**رابعاً** : حين خلق الله آدم أمره أن يحيى الملائكة ، فذهب إليهم وقال لهم : السلام عليكم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، فزادوا ورحمة الله ، فقال له الله جل وعلا : تحيتك وتحية ذريتك ، فالسلام هى تحية من عند الله مباركة طيبة ، وقد علمت أنهم تساءلوا فى الأمم المتحدة عن التحية التى يلقيها بعض المندوبين المسلمين ، فلما ترجمت لهم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته دهشوا من مضمونها ؛ لأن السلام هو حلم سكان العالم فى هذا العصر ، وعلى الرغم مما ينعق به أدعياء السلام ، وما تتلوكه الألسنة من تحقيق السلام العالمى فإن نظرة واحدة إلى أحوال العالم توضح بجلاء أن العالم غارق فى الدماء لما يعانيه من بعد عن الدين ، واستسلام للملحدين . ولو عقل العالم معنى تحية الله المباركة الطيبة لجعلها تحية عالمية ، فأى شىء أعظم وأجل من أن يعيش الإنسان فى سلام وأمن وفوق هذا تظلله رحمة الله وبركات عطائه ؟! وإفشاء السلام سنة وَرَدُّه فريضة ، ولكن سنة السلام أكثر ثواباً من فريضته ، لأن الابتداء بالسلام هو سبب لتأليف القلوب ونشر التحاب فى الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنهَا أَو رُدُّوهَا ﴾ ، تعبير أعم من تحية السلام ؛ لأن أخاك ربما حياك بهدية ، أو ضيافة ، أو قرى، أو زيارة أو دعاء ، أو معروف ، فعليك فى جميع هذه الأحوال أن ترد التحية بمثلها وإن استطعت بأحسن منها ، فذلك إذ ذاك دليل على طيب معدنك وكرم نفسك وشرف طموحك . وما أجمل ختام الآية : ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شيء حَسِيبًا ﴾ إنها حافز ألا يحقر الإنسان أى عمل لأن الله حسيب على كل عمل صغيراً كان أم كبيراً . يقول الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسرَعُ الحَاسِبِين ﴾ [الأنعام : ٦٢] ، وما أعظم قوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القسطَ لِيَوم القِيَامَةِ فَلاَ تُظلَم نَفسٌ شَيئًا وَإن كَانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَردَلٍ أَتَينَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين ﴾ [ الأنبياء : ٤٢ ]وكلمة حسيب صيغة مبالغة تفيد عظمة القدرة فى الحساب .

**خامساً** : أما الآية الأخيرة فهى أعظم هذه الآيات ، وهى مسك ختامها ؛ لأنها تاج لجميع ما سبقها من آداب الشفاعة والتحية ؛ إذ هى تذكر كل شافع وكل متأدب ، وكل عامل لدنياه وآخرته بأن هنالك اجتماعاً بين يدى الله الواحد القهار ، المتوحد بالجلال والجمال والألوهية والعبادة ، هذا الاجتماع لا يرتاب فيه إلا كافر ، وفى هذا الاجتماع الخطير يوفى كل محسن أجره ، وكذلك كل مسيء ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجمَعَنكُم إِلَى يَومِ القِيَامَةِ لاَرَيبَ فِيهِ وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ .

لا أحد أصدق حديثا من الله ، آمنا بالله وبكلامه وبيوم القيامة لا ريب فيه . اللهم يسر حسابنا وأعظم لديك ثوابنا وأحسن بين يديك مآبنا .

# حول أفدح جريمة بعد الشرك بالله

للإنسان عند الله كرامة أعلنها فى محكم كتابه ، فسجل بذلك أعظم ميثاق لحقوق الإنسان أيام كانت الكرامة الإنسانية نهباً للطغاة تنوء تحت نير العبودية، وترزح فى أغلال الاستبداد والطغيان ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ﴾ . ومن إكرام الله جل جلاله للإنسان ، أن جعل قتل النفس أكبر الكبائر بعد الشرك وبخاصة حين يكون القتيل مؤمنا ، يقول النبى ﷺ : « لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن » . وهذه آيات من سورة النساء ينبه فيها الحق عز وجل عباده إلى فداحة هذه الجريمة عند الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مؤمناً خطأً فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمنةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أهله إلاَّ أن يَصَّدَّقُوا فَإن كَانَ من قَومٍ عَدُوٍّ لَّكُم وَهُوَ مؤمنٌ فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَإن كَانَ من قَومٍ بَيْنَكُم وبينهم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أهله وَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مؤمنة فَمَن لَّم يَجِد فَصِيَامُ شَهرَينِ مُتَتَابِعِين تَوبَةً مِّنَ الله وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً * وَمَن يَقتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [النساء : ٩٢ ـ ٩٣] .

أقول وأسأل الله العون والفتوح والقبول لإخوانى المسلمين :

أولاً : جريمة القتل من بين الجرائم هى أخطرها على الإطلاق ؛ لأنها الجريمة التى تحرم الإنسان نعمة الحياة ، ولأنها إذا وقعت فلا يمكن تلافيها إذا سبق السيف العزل ، ثم إن القتل عمل مفجع حقا إذ إن القتل يترك فى القلوب حسرات لا تنسيها الأيام . وقد يترتب عليها ترمل الزوجة ويتم الأبناء وتقطع أفلاذ أكبادهم ، ومن ثم فقد جعل الله جل جلاله لها

عقوبة فى الخطأ وعقوبة أخرى كبيرة فى العمد ، مع أن الخطأ مرفوع عن أمة محمد ﷺ ، فى سائر الذنوب . ولعل عقوبة القتل الخطأ هى تحذير من الله جل وعلا وإيذان بفظاعة هذه الجريمة حتى ولو كانت خطأ لكى يحرص الناس جهدهم ، ألا يقربوها إلا بعد روية وتمهل وتدبر خصوصاً، وأن العقوبة فيها فادحة أيضا .

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أن يَقْتُلَ مُؤْمِناً ﴾ معناها : أن المفروض فى المؤمن ألا يقتل المؤمن مهما كانت الأسباب ؛ لأن كل من دخل حظيرة الإيمان السعيدة فقد ارتبط بميثاق أخوة مع كل مؤمن فى مشارق الأرض ومغاربها تلك الأخوة التى أعلنها الحق جل جلاله فى قوله: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات : ١٠] وإذن فالمؤمن لا يمكن أن يقتل أخاه متعمداً على الإطلاق ، أما الخطأ فكل ابن آدم خطاء ، ومن الجائز أن يقع القتل الخطأ كما لو أطلق سهما على قنص فأصاب مسلما ، وكما لو كان السائق يسير فى بطء وحذر ، فمر من بين العجلات طفل ، وكما لو كان فى معركة فأطلق النار على العدو، فأصابت الرصاصة فى طريقها مسلما . هنا يضع الإسلام للقتل الخطأ ثلاثة أحكام :

أ ـ إذا كان القتيل مؤمنا ومن قوم مؤمنين فالعقوبة عتق رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، أما عتق الرقبة فلأن الأمة الإسلامية قد ثكلت ابناً من أبنائها، فإذا أُعتق مؤمن وانضم إلى رحاب الأحرار كان ذلك تعويضاً للأمة الإسلامية عن ثكلها ، وأما الدية المسلمة إلى أهله فجبر لكسرهم وتطييب لخاطرهم ، وقد يكون القتيل هو عائل الأسرة فتكون سداً لحاجة الأسرة وعوزها . فإذا لم يجد عتق رقبة ، صام شهرين متتابعين ليمحو بإخلاصه وقهر نفسه آخر آثار ذلك الخطأ ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ب ـ إذا كان القتيل مؤمنا ولكن قومه كفار محاربون للأمة الإسلامية ، فالعقوبة عتق رقبة مسلمة ولا تدفع الدية فى هذه الحال لأنها تقوى شوكة الأعداء المحاربين ، وصوم الشهرين المتتابعين فى جميع الأحوال يجزئ من لم يجد عتق رقبة .

ج ـ إذا كان القتيل مؤمنا أو غير مؤمن وقومه غير مسلمين ، ولكنهم ذميون فهنا يتجلى احترام الإسلام للعهود والذم ؛ لأن العقوبة فى هذه الحال تقضى بدفع الدية إلى قوم القتيل حتى ولو لم يكونوا مسلمين ، احتراماً للعهد والميثاق ، وهذا بالإضافة إلى عتق الرقبة المؤمنة أو صيام الشهرين المتتابعين .

**ثالثاً** : أما القتل العمد فليس له فدية ولادية ولكن عقوبته القود أو القصاص ؛ إذ لو كان له عقوبة غير القصاص لهان على أى مجرم أن يقتل خصمه ثم يفتدى ببعض المال لكن القصاص هو الذى يؤدب المجرم وهو الذى ببركته تشيع فى المجتمع الحياة السعيدة الآمنة بحكم الشريعة ، وما أجمل قوله عز وجل : ﴿**وَلَكُم فِي الـقِصَاصِ حَيَاة يَاأُولِي الألـبَابِ لَعَلَّكُم تَتَّقُون**﴾[البقرة : ١٧٩] وفي الحديث الشريف : « إقامة حد واحد من حدود الله خير لكم من أن تُمطَروا أربعين يوما » وتفسير الحديث : أن إقامة شرع الله فى قصاص المجرمين يشيع فى المجتمع الإسلامى الأمن والرخاء، أما الخصب ، والمال ، والغنى فى المجتمع فلن تغنى شيئا إذا ظل المجتمع مهدداً بالجريمة والنهب والسلب . فمانفع المال إذا عاث المجرمون فى المجتمع فساداً ؟!

ويلاحظ فى آية القتل العمد أن الأسلوب القرآنى الكريم ، قد ثار كالبركان الهائج الجارف واستعمل ألفاظاً توقع الرعب فى القلوب ، وتزلزل أركان النفس الميالة إلى الإجرام وأى أسلوب أعنف وأعظم ، وأشد تخويفا من قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَقتُل مُؤمناً مُتَعَمّداً فَجزَاؤهُ جهَنّمُ خَالداً فِيهَا وغَضِبَ الله عَلَيه وَلَعنَهُ وأعَدّ لَهُ عذَاباً عَظِيماً ﴾ .

**رابعاً** : فى آية القتل الخطأ ذكَر الله جل وعلا أهل القتيل بالعفو والتجاوز عن الدية أو بعضها ؛ لأن القتل الخطأ لم يصحبه عداوة أو إصرار أو نية للإيذاء؛ ولهذا يقول جل شأنه فى الآية : ﴿ **وَمَن قَتَلَ مؤمناً خطأً فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمنَةٍ وَدِيَّة مُسَلَّمَةَ إلَى أهله إلاَّ أن يَصَّدَّقُوا** ﴾ أى يتنازلوا عن الدية أو بعضها فتكتب لهم صدقة مقبولة عند الله تبارك وتعالى ، أما فى القتل العمد فلم يذكر الله جل وعلا موضوع الصفح والعفو ؛ لأنه لايريد أن يشجع الناس على العفو عن القاتل المتعمد ، إذ فى شيوع الصفح عنه شيوع للجريمة .

**خامساً** : يلاحظ تقديم وتأخير فى بعض الفقرات إذا تدبرناه وجدنا له غرضاً بلاغياً جميلاً ، يقول الله تعالى وهو يذكر قتل المؤمن الذى أهله مؤمنون: ﴿**فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله**﴾ أما فى قتل المؤمن الذى أهله كفار ذميون فيقول : ﴿ **وَإن كَانَ من قَومٍ بينكُم وبَينَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَّة مُسَلَّمَةٌ إلَى أهله وَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ** ﴾ فى الأول : قدم تحرير الرقبة المؤمنة على الدية؛ لأنها من اهتمامات المؤمنين وفى الثانى : قدم الدية على تحرير الرقبة المؤمنة ؛ لأن أهم شيء عند الكفار أهل القتيل هو الدية أما تحرير الرقبة المؤمنة فلا يهمهم .

# لطائف حول صلاة الخوف

هذه ثلاث آيات من سورة النساء تتحدث عن صلاة الخوف ويتكرر فيها أمر المسلمين بالحذر الشديد من غدر الأعداء ، ومن مفاجآتهم فى الحرب ، كما تتحدث عن أن الصلاة عمود الدين فما يجوز أن تترك فى سفر ولا حضر ، ولا فى أمن ولا خوف ، وحتى عند احتدام المعركة لابد من الصلاة ، إذا خشى فوات وقتها ، ولكن يكفى فى المعركة أن تذكر الله فيحسب لك هذا الذكر صلاة ، وكأن القرآن يوعز للجيش الإسلامى أن النصر يأتيهم بإذن الله ، إذا هم أولا تمسكوا بطاعة الله وبالصلاة حتى فى أدق أحوال الخوف ، ثم إذا هم استعدوا غاية الاستعداد وحذروا غاية الحذر :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا * وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠١ ـ ١٠٣] .

أقول وبالله الهداية والسداد والتوفيق :

أولاً : قرأت فى عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين الميلادى مقالاً لكاتب نصرانى

مهجرى يوضح السبب الحقيقى فى زعمه لهزيمة العرب فى الحرب الخاطفة ، التى فاجأهم فيها أعداؤهم على غرة فدمروا قوتهم واستولوا على أراضيهم ، قال ذلك الكاتب المغرض الظالم : إن السبب الحقيقى فى هزيمة العرب هو أن عدوهم اشتغل بالعلم والتكنولوجيا ، واشتغلوا هم بالدين وبأحلام الماضى ، وبذلك حمل هذا الكاتب المفترى مسؤولية الهزيمة على كاهل الدين ، متناسياً أن الذين تصدروا لخوض المعركة كانوا فى واد ، وكان الدين فى واد آخر ، حتى لقد كان هتافهم فى الخطوط الأمامية بأسماء الفنانين والمغنين ، وحتى لقد اشتعلت الحرب وكثيرون من دعاة الإسلام فى غيابات السجون وقد اعترف نفس القياديين بأخطائهم وغفلاتهم ، وبأنهم كانوا ليلة الغدر يسهرون فى إحدى المنتجعات المترفة غافلين عن الخطط اللئيمة الغادرة للأعداء ، وضحكت الدنيا من أحدهم وهو يقول : كان المتوقع أن يأتينا العدو من الشرق ، لكنه فاجأنا من الغرب ، كأن العدو مطالب أن ينبههم قبل الهجوم ، ويقول لهم : احذروا فإنى مقبل عليكم من مكان كذا . ولنعد إلى الآيات الكريمة لنعيش فى ظلها .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُم فِى الأَرضِ فَلَيسَ عَلَيكُم جُنَاحٌ أن تَقصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إن خِفتُم أن يَفتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُم عَدُوًّا مُبِينًا** ﴾ مشروعية قصر الصلاة فى السفر للقتال ، لكن السنة النبوية عممت هذا الخصوص وورد عن النبى ﷺ أنه قصر فى السفر عموماً .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُم فِى الأَرضِ** ﴾ أى : إذا سافرتم ، ويرى بعض الأئمة أفضلية القصر، ويرى أخرون أفضلية الإتمام ، ويرى فريق ثالث : أن الأمر تخيير كما توحى عبارة ﴿ **فلا جناح عليكم** ﴾ ، كما شرط بعض الأئمة كأبى حنيفة والشافعى ، مسافة معينة للقصر ، ورأى

أخرون أن القصر يجوز أن يكون فى أى سفر وقد قرئ : ﴿تَقصُرُوا من الصَّلاَة ﴾ ، تُقْصروا ، وتُقَصِّروا . وختام الآية يحذر المؤمنين من العداوة السافرة التى يحملها الكفار لهم ولدينهم ، وذلك لكى يحذروا ولكى يتمسكوا بدينهم ويعتصموا بحبل ربهم .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِم فَأَقَمتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلتَقُم طَائِفَةٌ مِّنهُم مَّعَكَ .... الآية** ﴾ مشروعية صلاة الخوف . وخلاصتها ـ على تفصيل بين الأئمة وخصوصاً فى صلاة المغرب :

فى الصلاة الثنائية وهى معظم صلاة السفر ، تقوم طائفة بكامل أسلحتها وراء المصلين للمراقبة والحراسة ، ويقف المصلون بأسلحتهم أيضاً خلف الإمام فيصلون ركعة معه بقراءته ، ثم يظل الإمام واقفا حتى يكملوا الركعة الثانية ، منفردين ، فإذا تشهدوا وسلموا انصرفوا وتسلموا الحراسة، وجاءت الطائفة التى لم تصل فصلت ركعة مع الإمام بقراءته ، ثم يظل الإمام جالساً جلسة التشهد ويتموا هم الركعة الثانية ، منفردين ثم يتشهدون ويسلمون بسلام الإمام .

**رابعاً** : فى الآية الكريمة تكرار لعبارات الحذر كقوله تعالى : ﴿ **وَليَأخُذُوا أَسلِحَتَهُم** ﴾ ، ﴿ **وَليَأخُذُوا حِذرَهُم وَأَسلِحَتَهُم** ﴾ ، ﴿ **وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَو تَغفُلُونَ عَن أَسلِحَتِكُم وَأَمتِعَتِكُم فَيَمِيلُونَ عَلَيكُم مَّيلَةً وَاحِدَةً** ﴾ ، ﴿**وَخُذُوا حِذرَكُم** ﴾ ولاَ يجوز للمقاتل المسلم أن يلقى سلاحه عن عاتقه، إلا إذا أصابه أذى من مطر شديد أو مرض ، ويختم القرآن الآية بوعد للمؤمنين أن يهين الكافرين على أيديهم﴿ **إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً** ﴾ .

**خامساً** : قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَضَيتُمُ الصَّلاَةَ فَاذكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى**

جُنُوبِكُم فَإِذَا اطمَأْننتُم فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَت عَلَى المُؤمِنِينَ كِتَاباً مَّوقُوتاً ﴾ إشادة عظيمة بالصلاة وأنها يجب أن تؤدى ، وتقام فى الأمن والطمأنينة إقامة تامة كاملة وفى وقتها ؛ لأنها فرض من الله وركن من أركان الدين ، موقوت بوقت محدد .

إن جيوش المسلمين إذا أرادت النصر مطالبة بهذين الأمرين اللذين فصلهما ربنا فى هذه الآيات ، وهما : إقام الصلاة ، وبعدها ذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وثانياً : الاستعداد بالسلاح الكامل والحذر الذكى المستعد من كل غدر، يمكن أن يغدره الأعداء ، ترى كم كان توفر هذين الشرطين عندما هزم العرب ؟ إن الله تعالى هو الذى ينصر حزبه وهو الذى يخذل أعداءه وهو فى كل قضاء يقضيه حكيم عليم .

# حول عظمة الإسلام وعدالته المطلقة

هاتان آيتان من سورة النساء ، وهما من ضمن آيات كريمات كانت لها مناسبة تدل على عظمة الإسلام ، وعدالته المطلقة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَمَن يكسب خَطيئةً أو إثماً ثُمَّ يرمِ به بريئاً فقد احتمَلَ بُهتاناً وإثماً مُبيناً * ولَولا فضلُ الله عليكَ ورحمتُه لهمَّت طائفةٌ منهم أن يُضلُّوكَ وما يُضلُّونَ إلاّ أنفسَهم وما يَضرُّونَكَ من شيءٍ وأنزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلَّمكَ ما لم تكُن تعلَم وكانَ فضلُ الله عليكَ عظيماً ﴾ [النساء : ١١٢ ـ ١١٣] .

هاتان هما الآيتان وهذه بعض الأنوار التى تكتنف جلالهما وبركتهما :

**أولاً** : جاء فى مناسبة هاتين الآيتين والآيات الست التى سبقتهما حادثة طريفة نسردها بحذافيرها ، وتفاصيلها للعبرة .

كان فى المدينة رجل مسلم من بنى ظفر يقال له طعمة بن أبيرق ، ويبدو أنه كان فى الجاهلية لصاً ، فظلت فيه تلك العادة القبيحة ، وفى إحدى الليالى سرق درعا من بيت أنصارى يقال له : قتادة بن النعمان ، ووضعها فى جراب لكى يسترها وهو سائر بها ، وكان فى الجراب بقايا من الدقيق فطفق الدقيق يتسرب من الجراب ، وظل طعمة سائراً حتى وصل إلى بيت يهودى اسمه : زيد بن السمين ، فوضع الدرع عنده أمانة ، وفى الصباح تفقد الدرع صاحبها فلم يجدها ، فاتهم طعمة لما كان يعرفه من سيرته الماضية فأنكر وحلف بالله جهد يمينه أنه ما سرقها . ثم تتبع صاحب الدرع أثر الدقيق حتى قاده إلى بيت اليهودى ، فسأله عن الدرع فأحضرها ، وقال : لقد أودعنى إياها : طعمة بن أبيرق ، وشهد له جماعة من اليهود ، ولما سأل رسول الله ﷺ طعمة ، أنكر

وحلف. ويبدو أن أقارب طعمة خافوا أن تقطع يده ، فقدم عدد كبير منهم يدافع عن طعمة ويشهد له ، ويقولون لرسول الله ﷺ : كيف تصدق يهودياً وتكذبنا فى أمر خطير . إنك إذا قطعت يد ابننا وبرأت اليهودى كان فى هذا احترام لليهودى ، وإهانة وإجحاف بالمسلم ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك العدد الكبير من المزكين لطعمة تأثر بقول المسلمين والرسول ﷺ بشر يحكم بالبينة الظاهرة ويترك البواطن إلى الله الذى يعلم ما تخفى الصدور ، وحكم على اليهودى بالقطع وبرأ طعمة . فاستسلم اليهودى للأمر وحدد الموعد لإقامة الحد عليه ، وفى تلك الأثناء نزلت الآيات من سورة النساء من قوله تعالى : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء : ١٠٥ ـ ١٠٦] إلى قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ ، وفى الحال أوقف النبى ﷺ تنفيذ الحد فى اليهودى وحكم على طعمة ، وروى أن طعمة هذا قد ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة حيث قتل هناك حين نقب جدار قوم ليسرقهم فانقض عليه الجدار فهلك تحت الأنقاض ، أما اليهودى فلما بشر بأن الله برأه ، وأدان طعمة بن أبيرق فقد تملكه احترام شديد للإسلام وروى أنه قال : إن ديناً يبرىء يهوديا لا بينه له ويدين مسلماً زوّر بينته الكبيرة لهو حقاً من عند الله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ معناه : أن الذى يقترف خطأً صغيراً ، أو جرماً كبيراً ثم يلصق جريمته ببرىء فقد أثم إثمين ، أحدهما : الكذب والبهتان والافتراء الظالم على البرىء ، والثانى : الإثم الغظيم الذى اقترفه وظل

مصراً عليه ، بمحاولة الخروج منه وجر غيره إلى الشر زوراً وبهتاناً .

وفى الآية صورتان فنيتان ، إحداهما : تشبيه الجريمة بالسهم يرمى به البرىء فيؤذيه ، والثانية : تشبيه البهتان والإثم بالحمل الثقيل يحمله المجرم الكاذب على عاتقه يوم القيامة .

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُم أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ** ﴾ تذكير وتحذير ، فالله جل وعلا يذكر محمداً ﷺ بنعمة الوحى الذى كان ينزل عليه بالحق ، وتحذير لمحمد ﷺ من اتباع الضُّلال الذين يفضلون اعتبارات القربى على الحق حتى إن رسول الله ﷺ ، قد تأثر بإجماعهم على الباطل ، وحكم لصاحبهم ، وفى هذا درس له ﷺ ولكافة القضاة والحكام أن يستقصوا الحقيقة ، ويتأنوا خشية أن يصيبوا قوماً بجهالة ، ويأخذوا البرىء بذنب المسىء .

رابعاً: فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ إطناب تفصيلى لكلمة ﴿ **فَضْلُ** ﴾ التى ذكرت ضمن قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُم أَن يُضِلُّوكَ** ﴾ وهم جماعة طعمة ، وفى الآية ما يفيد أن محمداً ﷺ لم يكن قبل النبوة يدرى ما الكتاب ولا تفصيل الإيمان والإسلام والدين ، ومن ثم فإن الذين وصفوا محمداً ﷺ بالعبقرية هم قوم أرادوا أن ينفذوا من وراء هذا الثناء إلى تهمة مغرضة خلاصتها : أن بلاغة القرآن ، وإعجازه ، وما فيه من أحكام وفرائض ، وقصص وأخبار ، قد تكون من عند محمد ذلك العبقرى فى زعمهم ، لكن هذه الآية وغيرها تعلن أن أنباء الأمم السابقة الواردة فى القرآن ماكان

لمحمد ولقومه علم بها وهى وحى من الله ، ومن عند الله . يقول الله تعالى فى ختام قصة نوح فى سورة هود : ﴿ تلكَ من أنباء الغيب نُوحيهَا إليكَ مَا كُنتَ تَعلَمَهَا أنتَ ولاَ قومُكَ من قَبلِ هذَا فَاصبر إن العَاقبَةَ للمتَّقينَ ﴾ [هود : ٤٩] ، وفى ختام قصة يوسف يقول له الله تعالى: ﴿ ذَلكَ من أنبَاء الغيب نُوحيه إليكَ ومَا كُنتَ لَدَيهم ﴾ أى لدى إخوة يوسف : ﴿ إذ أجمعُوا أمرهُم وهُم يمكُرُونَ ﴾ [ يوسف : ١٠٢] وفى ختام قصة مريم يقول الله لرسوله : ﴿ذَلكَ من أنبَاء الغيب نُوحيه إليكَ ومَا كُنتَ لَدَيهم ﴾ ، أى : لدى أقارب مريم ﴿ إذ يُلقُونَ أَقلامَهُم أيُّهُم يكفُلُ مَريَمَ ومَا كُنتَ لَدَيهِم إذ يَختَصمُون ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

# الإسلام دين العمل ، ولا خير فيمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانىّ

الإسلام دين العمل ، والحساب يوم القيامة مرتبط بالأعمال فقط ، أما الأمانى الحالمة ، والأحلام النائمة ، فتلك لا وزن فى ميزان الأعمال يوم القيامة، وقديماً سأل أحد الخلفاء عالماً : هل تجد لى ذكراً فى القرآن ؟ فقال العالم : نعم ، وجدت ذكراً فى سورة الانفطار فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [ الانفطار : ١٣ ـ ١٤] قال : ففى أى الفريقين ترانى ؟ فقال العالم : تفقد عملك . وهذه ثلاث آيات من سورة النساء تدمغ كل من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ [النساء : ١٢٣ ـ ١٢٥] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء ولإخواننا المسلمين صلاح النوايا وقبول الأعمال :

**أولاً** : تدمغُ الآية الأولى كل من طلب القربة إلى الله بغير عمله ، كأن يعتمد على عنصره كاليهود ، أو على نبيه كالنصارى ، أو على طبيعة عمله كبعض سدنة الكعبة ، أو كبعض قريش من كان لهم السقاية والعمارة والرفادة، كل هذه الأمور إذا لم تقترن بالعمل الخالص لا تساوى عند الله شيئا .

ثانياً : يقول اليهود ﴿ نَحنُ أبنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤه ﴾[ المائدة : ١٨] ويعتمدون على تلك البنوة المزعومة أن تنجيهم من الحساب والعذاب ، ويقول النصارى : إن نبينا عيسى المسيح قد تحمل أوزار أتباعه بما تحمله فى زعمهم الكاذب من القتل والصلب، ويعتقدون أنهم بهذا الزعم سيعفون من العذاب .

ثالثاً : وكان بعض قريش من أمثال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه وشيبة ربما فاخرا بأن مفاتيح الكعبة ، وشرف سقاية الحجيج قد تجعلهما أشرف من الناس ، وقد قرأنا أنهما فاخرا علياً رضى الله فقال شيبة : إن مفاتيح الكعبة تشرفنى ، وأخرجها من جيبه مشيراً أن له سدانة البيت وقال العباس : إن سقاية الحاج تشرفنى ، مشيراً إلى أنه ورث هذا الشرف تراثاً تعده العرب تشريفا عظيما. ويروى أن علياً رضى الله عنه قال لهما : أما أنا فقد قطعت خرطوم الكفر بسيفى ، فلما أصبح الكفر أمثولة أسلمتما، مشيراً إلى أنه من السابقين إلى الإسلام والجهاد ، أما هما فلم يسلما إلا بعد الفتح ويقال : إنهما رضى الله عنهما غضبا من على ؛ لأن كلامه يعنى أنهما أسلما بسيف على ، فشكواه رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فاستمهلهما حتى ينزل فى الأمر قرآن فنزل القرآن الكريم مؤيداً للأعمال، مشيداً بها ، مديناً للأمانى والمآثر الجاهلية ، بقوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ أجَعَلتُم سقَايَةَ الحَاجّ وَعمَارَةَ المَسْجد الحَرَام كَمَن آمَنَ باللهِ وَاليَوم الآخرِ وَجَاهَدَ فِي سَبيلِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهدى القَومَ الظَّالمينَ * الَّذين آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبيلِ اللهِ بأموَالِهم وَأنفُسِهِم أَعظَمُ دَرَجَةً عندَ اللهِ وأُولَئكَ هُمُ الفَائِزُونَ * يُبَشّرُهُم رَبُّهم برحمَةٍ مّنهُ ورضوَانٍ وَجنَّاتٍ لَّهُم فيهَا نَعيمٌ مُّقيمٌ * خَالدينَ فِيهَا أبدًا إنَّ اللهَ عندَهُ أجرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٩ ـ ٢٢].

**رابعاً** : كثرة الدعاء إن لم تقترن بالعمل لا تعنى شيئاً ، وقد أنكر النبى ﷺ على الرجل تلقاه أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء ويقول : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له. وقد قرآنا فى سورة آل عمران دعاء فى غاية التأثير والجلال يجمع خير لى الدنيا والآخرة من قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ـ إلى قوله تعالى ـ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ [ آل عمران : ١٩١ ـ ١٩٤] ، لكن جاء بعد هذا الدعاء ما يفيد أن الدعاء وحده يكون غير مقبول إذا لم يقترن بالعمل الصالح ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ [ آل عمران : ١٩٥] ، وآية الدعاء العظيمة فى سورة البقرة يفهم منها ضرورة الإيمان والعمل لكى يستجاب الدعاء، يقول الله جل جلاله : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

**خامساً** : فى قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ رد على كفار قريش الذين كانوا يعيشون على حلم كاذب بأنهم لن يبعثوا إلى ربهم للحساب ؛ ولهذا فسوف ينجون من أى عذاب ، ورد على اليهود الذين زعموا أنهم أبناء الله فلن يعذبهم ، وعلى النصارى الذين يحلمون أن يفتديهم المسيح من العذاب ، يقول الحق جل جلاله لكل هؤلاء : ﴿**ليس بأمانيكم** ﴾ أى ليس الموضوع بالتمنيات والأحلام وإنما هو

بالإيمان والأعمال ، ويضيف القرآن الكريم قائلاً : ﴿ **مَن يَعمَل سُوءاً يُجزَ به ولاَ يَجد لَهُ من دُون الله وَليًا وَلاَ نَصيراً * وَمَن يَعمَل منَ الصَّالحَات من ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤمنٌ فَأُولَئكَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظلَمُونَ نَقيراً** ﴾ . ويروى أن المؤمنين اغتموا وركبهم حزن شديد حين نزل قوله تعالى : ﴿ **مَن يَعمَل سُوءاً يُجزَ به** ﴾ فطمأنهم رسول الله ﷺ وقال لهم : « إن الله تعالى يبتلى المؤمن فى الحياة الدنيا فيمحو بهذا البلاء سيئاته وحتى الشوكة تشوكه يكفر الله بها الخطايا ، أما الكافر فهو الذى يوافى بذنبه كاملا ليكون عقابه على قدر خطاياه » .

**سادساً** : ثم يختتم الله جل وعلا الآيات بأن الأعمال الصالحة لا تقبل إلا من المؤمن ، أما الكافر فعمله مردود : ﴿ **وَمَن يَعمَل منَ الصَّالحَات من ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤمنٌ فَأُولَئكَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظلَمُونَ نَقيراً** ﴾ والنقير : هو ثقب صغير في ظهر نواة الرطب أو التمر ﴿ **وَمَن أَحسَنُ دينًا مّمَّن أَسلَمَ وَجهَهُ لله وَهُوَ مُحسنٌ وَاتَّبَعَ ملَّةَ إبرَاهيمَ حَنيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إبرَاهيمَ خَليلاً** ﴾ أسلوب من الاستفهام فى غاية العذوبة يفيد النفى ومعناه : لا أحد فى الدنيا أحسن دينا ممن توجه بكليته إلى الله ، وسلك سبيل الإحسان يعبد الله ويتقيه وينفق من أجل مرضاته آناء الليل وأطراف النهار كأنه يرى ربه ، ثم يذكر القرآن أن الدين عند الله هو الإسلام ، إنه ملة إبراهيم الذى وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما كان من المشركين ، فكان أن أعلى الله مكانه واتخذه من بنى البشر خليلاً ـ أى حبيباً ـ اختصه من بين جميع الرسل بهذا اللقب العظيم الشريف .

# منهج الإسلام فى الجهاد

من خرج مجاهداً فى سبيل الله ؛ وجب عليه أن يسقط عرض الدنيا من حسابه ، ولا يجعل الغنائم هدفاً من أهدافه . من خرج مجاهداً فى سبيل الله فعليه أن يجعل هدفه الوحيد أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الله هى كلمة التوحيد وما يتبعها من أوامره الحكيمة وأحكام دينه الحنيف ، ومن ثم فإن على المجاهد فى سبيل الله ألا يتعجل فى قتل أى إنسان ، بل عليه أن يتبين ويتثبت لعل هذا الإنسان يهتدى ، فينطق بالشهادتين وإذ ذاك ينتقل من لقب عدو كافر إلى لقب أخ مؤمن ويعظم دمه وماله إلا بحق الله وحق الإسلام ، وهذه آية واحدة من سورة النساء وضعت منهج الإسلام فى الجهاد ، وهو منهج حضارى يجعل الهدف الأسمى من الجهاد نشر دين الله وتوحيده ، وما ينطوى عليه منهج الإسلام من الهدى والحق والعدل والإحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ [ النساء : ٩٤].

هذه هى الآية العظيمة، وهذه بعض إشاراتها الحكيمة :

**أولاً** : جاء فى مناسبة نزول هذه الآية : أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا فى سرية ليقاتلوا قوماً من المشركين فرأوا رجلاً من القوم فى غنيمات له ، فأقبل عليهم وقال لهم : السلام عليكم مبيناً لهم بإلقاء السلام أنه وإن كان من القوم فإنه مسلم يكتم إسلامه مخافة شرهم لكن أحد المسلمين واسمه محلم لم يقتنع وقتل الرجل واستاق غنيماته يعتبرها

غنيمة ، فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ تألم كثيراً ، وغضب غضبة شديدة، وساق دية الرجل ورد الغنيمات ودعا على محلم ، ويروى أنه قال: « هلا شققت عن قلبه لتعرف أمؤمن هو أم لا ؟! » .

فلم يلبث محلم أن مات بعد سبعة أيام . ويروى أصحاب السير أن محلماً وجد بعد دفنه وجثته فوق الأرض وأعيد دفنه بعدئذ مرتين وفى كل مرة يجدون جثته فوق الأرض ، وإذ ذاك ألقوا به فى أحد الشعاب ، واعتبر الصحابة تلك الظاهرة العجيبة تحذيراً شديداً من الله للمسلمين أن يعودوا لمثل هذا العمل ؛ لما فيه من انتهاك لحرمة كلمة السلام ولما فيه من التسرع فى قتل الأبرياء وتطلع إلى العرض الأدنى من المغانم الدنيوية الزائلة ، نزلت هذه الآية العظيمة توضح فى سطوع مشرق عظم الجريمة لكل من لم يتثبت قبل إيقاع العقوبة .

**ثانياً** : قرأنا أن ولى مصر فى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى عمر يقول : إن دخول القبط فى الإسلام قد أضعف الدخل المستفاد من الجزية ، والبلاد فى حاجة إلى عمران وإنفاق ، فكتب عمر إلى الوالى يقول له : إنما بعثنا رحمة وهداة ولم نبعث جباة ، إن إسلام رجل واحد أفضل عندى من كل الجزية ، والرزق فى خزائن الله ، وعند الله مغانم كثيرة ، وكان لهذا الكتاب أثر فى دخول آلاف من القبط فى دين الله .

**ثالثاً** : بدأ الله جل وعلا الآية بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ليذكر المؤمنين والمجاهدين بنعمة الإيمان التى من الله بها على الأمة وليفتح القلوب للاستجابة والطاعة . وقوله تعالى : ﴿ **إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ أى إذا خرجتم للجهاد فى سبيل الله فلا تستعجلوا بالقتل قبل أن تتبينوا؛ لأن رسالة المجاهد المسلم أن يدعو إلى الإسلام قبل أن يلجأ إلى السيف ،

وتمضى الآية الكريمة : ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مُؤمنا تَبتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةَ الدُّنيَا** ﴾ أى لاتقولوا لمن يستسلم لكم ويسلم بتحية الإسلام لست مؤمناً طامعين فى ماله الذى هو متاع وعرض زائل ، وعليكم أن تعلموا أن رزق الله ليس محدوداً في الغنائم ، فعند الله جل وعلا مكاسب كثيرة ، ومغانم عظيمة فى خزائن ملكه العظيمة .

**رابعاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **كَذلكَ كُنتُم مِّن قَبلُ فَمَنَّ الله عَلَيكُم فَتَبَيَّنُوا** ﴾ يذكرهم الله أيام كانوا مستضعفين فى مكة يكتمون إيمانهم فمن الله عليهم بقوة الإسلام ، أو يذكرهم بأيام الجاهلية وما كان فيها من فتك من أجل الغنائم، وقتل غرضه السلب والنهب ، وتسرع فى سفك الدماء البريئة مما ملأ الحياة بالشارات السوداء . وفى الآية إطناب تكرار لتوكيد المعنى والاهتمام فقد أعاد كلمة ﴿ **فَتَبَيَّنُوا** ﴾ مرة أخرى ، ثم يختم الآية بخاتمة مهيمنة على المعنى الذى قبلها وهى قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الله كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ أى لا يخفى عليه من أعمالكم شيء فعليكم أن تراقبوا الله فى أعمالكم وتصرفاتكم ؛ لأنه لا يخفى عليه من أعمالكم شيء .

**خامساً** : كثيرون من النصارى والبوذيين الذى يقيمون بيننا فى هذه الأيام إذا خالطوا ذوى الدين والأخلاق من المواطنين ، وسمعوا الذكر الحكيم ، وفهموا الأوامر الحكيمة فى هذا الدين ، تراهم وقد دخل الإيمان فى قلوبهم وأظهروا رغبة فى الإسلام . هؤلاء يكتفى منهم فى أول الأمر أن ينطقوا بالشهادتين ، ثم يفهمون أركان الإسلام الخمسة وأركان الإيمان الستة ، وركن الإحسان ، ويعلمون الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فإذا شرعوا شيئا فشيئا فى أداء شعائر الإسلام قبل منهم هذا وتركت سرائرهم إلى الله ، وعلى المتصلين بهم أن يكرموهم ويظهروا لهم شعور الأخوة ،

ويبتهجوا لإسلامهم وألا يقال لهم : أنتم تسلمون لكى تظلوا فى هذه البلاد ؛ لأن كلمة من هذا النوع تنال من معنوياتهم ، فلقد كان رسول الله ﷺ يكتفى ممن يعلن إسلامه بالشهادتين ، ويعلمه أهم أوامر الدين ، ثم يترك السرائر لله جل وعلا ، وكان يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإن فعلوا ؛ فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الله وحق الإسلام » ، وإنها لفرصة سانحة لصاحب عمل يعمل لديه نصارى ، أو رب بيت تعمل فى بيته خادمات نصرانيات أو بوذيات أن يظهر التزاماً بالحق ، وزهداً فى الحرام ، ورعاية لمن جعلهم الله تحت يده ، فيعاملهم بالإحسان ، ويسمعهم طيب الكلام ، وألا يظهر منه جشع يحمله على أكل الحرام . فإذا تأثر بأخلاقه ومعاملته عماله وخادماته وهداهم الله على يديه فقد كسب من دنياه ما لا يقدر بمال . ففى الحديث الشريف : « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» .

# اليهود بلاء الإنسانية

ما ذكر القرآن الكريم قوماً وكرر ذكرهم وحذر من غدرهم ونده بعنادهم وكفرهم بمقدار ما ذكر اليهود ، ولعل الحكمة الإلهية فى ذلك علم الله الأزلى بأن اليهود سيكونون فى كل زمان ومكان بلاء الإنسانية وسبب شقائها بما يدبرون لغيرهم من مكائد وما يمشون به بين الناس من دسائس وإفساد . وهذه آيات كريمات من سورة النساء تمثل حلقة من سلسلة جرائمهم المنكرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء : ١٥٥ ـ ١٥٨] .

أقول وأستلهم الله السداد والصدق والقول الثابت :

**أولاً** : موضوع هذه الآيات الأسباب التى استحق بها اليهود اللعنة والمسخ والذلة والمسكنة والغضب إلى يوم القيامة وقد ذكر الله جل جلاله فى هذه الآيات الأسباب الأتية :

أ ـ نقضهم الميثاق وخصوصاً ذلك الذى أخذه الله عليهم بأن يبينوا للناس صفات محمد ﷺ ويؤمنوا به ويدعو الناس للإيمان به ، فكان أن حرفوا الكتاب وبدلوا فيه طبق أهوائهم ، وقد استمر التحريف فى اليهود حتى بلغ من كذبهم على الله أن ألغوا التوراة ، واتخذوا لهم كتاباً من تأليف شياطينهم اسمه التلمود

وهو كتاب يحث على الشر وسفك الدماء ، والبطش بكل من هو غير يهودى ، واستباحة أعراض غير اليهود وأموالهم . وقد أصبح نقض العهود شريعة لليهود ، فهم ما أبرموا عهدا مع المسلمين فى فلسطين إلا نقضوه ، وكان العرب قد عقدوا معهم هدنة فى عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف فنقضها اليهود مئات المرات حتى وصلوا عن طريق الغدر والخيانة ونكث العهود إلى تأسيس دولتهم الآثمة على حطام الأخلاق .

ب ـ قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ زيدت (ما) لتوكيد معنى الغدر فيهم ونقض العهود ، فقوله تعالى ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ** ﴾ أشد توكيدا مما لو قيل: فبنقضهم ميثاقهم ، ومتعلق الجار والمجرور محذوف ؛ لأنه ذكر أكثر من مرة حتى أصبح معلوما ، وتقديره فبما نقضهم ميثاقهم : لعناهم ، أى طردناهم من الرحمة ، وفى الآية يذكر ثلاث صفات أخرى من أخلاق اليهود وهى : كفرهم بآيات الله ؛ فقد كان موسى عليه السلام يأتيهم بمعجزات من الله فلا تزيدهم الآيات إلا كفرا ، لقد طلبوا منه أن يسقيهم فى الصحراء فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وأنزل الله المن والسلوى وهما من أفخر الطعام ، فطلبوا بدلها الثوم والبصل والعدس ، وطلبوا منه أن يريهم الله فصعقوا حينما تجلى فلما أفاقوا كفروا واتخذوا العجل بدلاً من عبادة الله وحده . ومن صفات اليهود أن كانوا يقتلون الصالحين ويقتلون الأنبياء ، فكم من أنبياء الله خر شهيداً على حرابهم وسكاكينهم ، بل لقد كانوا ينشرون الأنبياء بالمناشير . وذكرت الآية صفة لئيمة لهم : أنهم يسدون آذانهم ويغلقون عقولهم عن كل دعوة إلى التوحيد أو الإصلاح ، وما زالوا إلى هذه الآيام مقفلين عن كل دعوة إصلاحية منعزلين بأفكارهم الدنسة عن الناس . وقد روى أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ كلما دعاهم : ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ أى عقولنا مغلقة غير مستعدة

للفهم . فيرد الله عليهم بقوله : ﴿ بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيهَا بِكُفرِهِم فَلاَ يُؤمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

**ثالثاً** : من أعظم ما جر اللعنة على اليهود ما يفترونه على مريم رضى الله عنها وما يفترون على المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فهم يرمون مريم بالزنا برجل كان معروفا بالصلاح والتقوى اسمه يوسف النجار ، ويرون بذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان نتيجة لتلك العلاقة (شلت ألسنتهم ولعنوا بما قالوا ) ، ويقولون مفاخرين فى تبجح ووقاحة (أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وإنهم صلبوه بعد ما قتلوه ) وهذه المسألة وأعنى قتل المسيح وصلبه لا يؤمن بها كل النصارى ، بل هى قضية مشكوك فيها عندهم ، والقرآن الكريم يكذب اليهود ويعلن أنهم ما قتلوه وما صلبوه ، ولكنهم قتلوا وصلبوا رجلاً يشبهه ، والغريب أن النصارى يعرفون عقيدة اليهود الخبيثة فى عيسى عليه السلام وفى والدته رضى الله عنها ، ولكنهم رغم هذا يؤيدون اليهود المفترين ويناصرونهم على المسلمين الذين يقولون عن مريم : إنها الطاهرة البتول التى أحصنت فرجها من كل سوء، ويعتقدون فى عيسى إنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وأنه عبد الله ورسوله وأنه من أولى العزم من الرسل ومن أعظمهم معجزات ، مما يدل على أن المسيحيين يقعون الآن طوعاً أو كرها تحت نفوذ اليهود .

**رابعاً** : جاء فى قصة وفاة عيسى عليه السلام أنه بات هو وحواريوه الأحد عشر فى منزل فعرف اليهود مكانهم فانتقل جمع غفير منهم صوب البيت بقيادة زعيمهم يهوذا فلما وصلوا إلى المنزل حاصروه وهنا قال عيسى لحوارييه : من منكم يلبس ثيابى ويعطيه الله لونى وشكلى يخرج إلى اليهود فيقتلوه ويصلبوه ويكون معى ورفيقى يوم القيامة ؟ فتطوع منهم

شاب فلبس ملابس المسيح عليه السلام وألقى الله عليه شبهه ، فقتله اليهود ، أما عيسى عليه السلام فتوفاه الله ، وأرسل ملائكة رفعوه بعد وفاته إلى السماء الثالثة . وهذه القصة نفسها مذكورة فى إنجيل كنت اطلعت عليه وهو غير الأناجيل الأربعة الرسمية وهو إنجيل (برنابا) الذى حاربه رجال الدين من النصارى وحرقوا نسخه لكن نسخاً منه نجت من الحرق ، ولا يزال موجوداً عند بعض الناس وفيه وصف دقيق صادق لمحمد ﷺ وهو الوصف الذى حرفه اليهود فى كتبهم الأخرى .

**خامساً** : وفاة عيسى عليه السلام قيل فيها : إن الله استوفى أجله ورفعه إليه، وقيل : إن الله أماته كما يموت البشر ، ثم أحياه ورفعه إلى السماء ، لينزل إن شاء الله فى آخر الزمان ، وسيصلح فساد الدنيا ، ويزيل رجسها، ويقتل الدجال ، ويكسر الصليب وكسره للصليب ، يعنى أن عقيدة الصلب خرافة خاطئة ، وسيؤمن به كل الناس ويكون إيمانهم بعيسى عوداً إلى شريعة الإسلام ، ولله العزة والقدرة على كل شيء كما أن له الحكمة البالغة فى قضائه الحكيم وكان الله عزيزاً حكيماً .

## تفنيد عقيدة التثليث

هاتان آيتان كريمتان من سورة النساء فى خطاب النصارى وموضوعهما تفنيد عقيدة التثليث التى تجعل من عيسى ووالدته شريكين لله جل جلاله . أسلوبهما من النوع الإقناعى الهادئ الذى يرشد إلى الحق فى رفق وتوجيه تربوى حكيم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ [النساء : ١٧١ ـ ١٧٢] .

أقول وأسال الله مدداً مضاعفا متصلاً من العون وعزيمة الرشد والهداية :

أولاً : التوحيد الخالص من كل شوائب الشرك هو الذى تُقبل به الأعمال وتغفر به الذنوب وتنال به جنة الله ورضوانه ، فمن مات لا يشرك بالله شيئاً كان قد أدى حق الله على العبيد واستوجب حق العبد على الله وهو أن يدخل من لا يشرك به الجنة ؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقف بالمرصاد لكل من تبدر منه أية بادرة شرك كأن يحلف بغير الله أو يصرف عبادة إلى غير الله، أو يرجو الشفاء أو الشفاعة من غير الله ، أو يعمل عملاً يشرك فيه أحداً مع الله ، أو يعلق خيطا أو حلقة يرجو بهما الشفاء ، أو يقرب لغير الله قربانا أو يقول أستعين بالله وبك ؛ ليكون الدين كله لله

ويتحقق بذلك التوحيد الخالص ، ومن ثم كان التوحيد فى الإسلام سهلا إذ هو يتلخص فى أن الله جل جلاله ـ واحد لا شريك له من ملك ولا رسول ولا ولى ، وكل ما سوى الله عبد ، وأكرم العباد أتقاهم ، وأن محمداً ﷺ وعيسى عليه السلام وإبراهيم خليل الله وموسى وجبريل وميكائيل وجميع الملائكة المقربين ما هم إلا عبيد لله جل جلاله ، وسبب كرامتهم عند الله أنهم أتقى لله ، وأشد خشية له ، وأكثر طاعة وعبادة ، لكنهم لا يخرجون عن منزلة العبيد أو العباد ، وما يجوز بحال من الأحوال أن يطلب من هؤلاء المقربين مغفرة ولا شفاعة ولا رزق ولا يصرف إليهم دعاء ؛ لأنهم هم أنفسهم يدعون الله ويطلبون منه العطاء ويبتغون إليه الوسيلة بالعمل الصالح .

**ثانياً** : كل الملوك قد يغتفرون لأى مواطن ذنوباً وخطايا وجرائم ظلموا بها أنفسهم أو أجرموا بها فى حق غيرهم ، ولكن ذنبا واحداً لا يغفره الملوك: أن يعطى المواطن ولاءه لملك آخر غير مليكه أو يعمل لصالح دولة غير دولته ؛ إذ ذاك تكون الخيانة العظمى التى عقوبتها الإعدام ولله جل جلاله المثل الأعلى فإنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لكل موحد أسلم ولاء قلبه لربه ، لكنه لا يغفر لمن أشرك به غيره ، فالشرك عنده يحبط جميع الأعمال ولا يقبل معه صرف ولا عدل ولا مصير لصاحبه غير جهنم .

**ثالثاً** : النصارى بجميع مذاهبهم تختلط عقيدتهم بالشرك ، فهم يقولون : إن الله جوهر له ثلاثة أقانيم ـ أى أشكال أو صفات : الآب والابن وروح القدس ، ويرون أن عيسى عليه السلام له طبيعتان : لاهوت يجعله إلها ، وناسوت يربطه بالناس ، وأن مريم عليها السلام وعاء الألوهية وهى روح

القدس ، ومن هنا فالتوحيد عند النصارى مختلط وغير مفهوم ، فهم يطالبون من يبشرونه بالمسيحية أن يعتقد بأن الواحد يساوى ثلاثة والثلاثة يساوون واحداً ! ومن ثم فكثير من مثقفيهم الذين ناقشناهم رأيناهم غير مقتنعين بأن هذا الذى عليه النصارى هو توحيد ، وكثير ممن آمنوا بدين محمد أعلنوا أن سبب إسلامهم هو بساطة عقيدة التوحيد ، فالمعبود واحد وهو الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **يَا أهلَ الكتَابِ لاَ تَغلُوا فِي دِينكُم** ﴾ أى لا يحملكم الغلو فى احترام عيسى عليه السلام أن تتجاوزوا منزلة العبودية وتشركوه بالله الواحد القهار ، فالغلو هو بداية الشرك ، ولقد كان النبى ﷺ يحذر أصحابه أن يغلوا فى اعتياد قبره أو مخاطبته بغير العبودية لربه ، فلقد أنكر على من قال له ما شاء الله وشئت ، وأوضح له أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا أولياء فنصب قومهم لهم تماثيل ليتذكروا أخلاقهم ويقتدوا بهم ثم لم يلبثوا أن عبدوهم من دون الله .

**خامساً** : فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرِيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحٌ مِّنهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيراً لَّكُم إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً** ﴾ .

عرف الله عيسى المسيح بأنه ابن مريم ، ومن كان ابن مريم فلا يمكن أن يكون إلها ؛ لأنه ابن امرأة من البشر وهو بذلك مُحْدَث والمحدث لا يمكن أن يكون إلها . وفى التفاسير ملاحظة أن الله جل وعلا لم يذكر فى القرآن كله اسم امرأة صريحاً إلا مريم ؛ إذ من عادات الملوك أن يكنوا عن الزوجات بقولهم الأهل أو العائلة ويصرحون بأسماء جواريهم ، لكن

الله جل وعلا ذكر اسم مريم قرابة ثلاثين مرة ويقول القرطبي رحمه الله: إن لأشياخنا في هذا الأمر كلاماً ذكروا فيه حكمة ذكر اسمها بأن النصارى حين قالوا فيها وفي ابنها ما قالوا من الألوهية والشطط والغلو ، ذكر اسمها وصرح به ليثبت للنصارى أن عيسى ما هو إلا بشر وأمه امرأة اسمها مريم ، وليثبت لليهود أنهم كذبوا حين نسبوا عيسى عليه السلام إلى بشر هو يوسف النجار ، فالمسيح هو ابن مريم فقط ولا أب له ، وقد أتم الله جل وعلا تعريف عيسى بأنه رسول الله كسائر الرسل وأنه كلمة الله أي أوجده بكلمة ﴿ كن ﴾ كما أوجد آدم وأنه روح الله ، وهذه الكلمة هي التي ضل من حولها النصارى فوهموا أن روح الله فيها معنى الألوهية ، والحقيقة أن كلمة الروح لها عدة معان من بينها المعجزة كما جاء في قوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] أي معجزة وهي القرآن ، ثم يخاطب الله أولئك النصارى بقوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ومعناها : اجعلوا إيمانكم بأن الله واحد وأن عيسى رسوله ، أو آمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ وما أخبركم عنه من حقيقة عيسى عليه السلام ولا تقولوا : إن هناك ثلاثة آلهة هم الآب والابن وروح القدس ، فما من إله إلا الله سبحانه جل جلاله أن يتخذ ولداً وهو رب السموات والأرض، وما دام هو مالك السموات والأرض فإذن هو يملك عيسى وأمه عبدين له ، والمملوك لا يمكن أن يكون إلها ، فالله إذن هو الإله الواحد وكفى به وكيلاً أي موكلاً بكل شؤون العباد . ويحذرهم من هذا الشرك الأكبر بقوله ﴿انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ ﴾ وهو أسلوب يخلط التهديد بالتبشير وكلمة ﴿ خيراً ﴾ خبر لكان المحذوفة مع اسمها، والتقدير انتهوا يكن خيراً لكم .

سادساً : في قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ إشارة إلى أن العبودية لله جل وعلا شرف عظيم ،

فالعبودية لله ليست كالعبودية لمخلوقاته. وقد كان بعض الناس يتخذون الملائكة أرباباً ؛ ولهذا يعلن الله تبارك وتعالى أن عيسى والملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله بل هم يتشرفون بالعبودية لله ، وكل من يربأ بنفسه عن عبادة الله ويستكبر عنها ، فسوف يرى قيمة نفسه حين يحشر ويرجع إلى الله ، فيتمنى حينئذ لو أن الله يرتضيه عبداً من عبيده . إنه حينئذ لن يحظى بشرف العبادة والعبودية ، لكنه سيكون بعض حصب جهنم يردها هو وكل الآلهة الطواغيت .

اللهم أنت ربنا لا إله إلا أنت خلقتنا ونحن عبيدك ، اللهم فأعنا على حسن عبادتك وألحقنا بعبادك الصالحين .

# المنافقون شرٌّ من الكافرين

إذا كان يوم القيامة رأى الناس فى ساحة الحساب قوماً لاهم مع الكافرين ولاهم مع المؤمنين ، لا ينالون من ربهم نظرة اهتمام ، ولا يقام لهم فى الناس وزن، يحاسبون حساباً عسيراً ، ثم يجرون إلى عذاب أشد من عذاب الكفار ، أشد من عذاب اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ؛ لأن كل الكفار أشرف منهم. لقد عاشوا فى الحياة بلا شرف ولا مبدأ ولا شجاعة ، عاشوا فى قلوبهم مرض خبيث ، فى نفوسهم غرض لئيم ، لقد عاشوا مذبذبين لا إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين فكانت عقوبتهم فى القيامة أن ينبذوا من رحمة الله ، ويطردوا من بين المؤمنين وراء سور فى باطنه المؤمنون حيث الرحمة والرضوان ، وظاهره عذاب يتقلب فيه أولئك المجرمون الذين نسوا الله فنسيهم ، وهذه ثلاث آيات من سورة النساء تبين حال أولئك الحقراء فى الآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إنَّ المُنَافقِينَ فى الدَّرْكِ الأسفَلِ منَ النَّارِ ولَن تَجدَ لَهُم نَصيراً * إلاَّ الَّذينَ تَابُوا وَأصلَحُوا وَاعتَصَمُوا بالله وَأخلَصُوا دينَهُم لله فَأولَئكَ مَعَ المُؤمنينَ وَسَوفَ يُؤتِى الله المُؤمنينَ أجراً عَظيماً * مَا يَفعَلُ الله بعَذَابكُم إن شَكَرتُم وَآمَنتُم وَكَانَ الله شَاكراً عَليماً** ﴾ [النساء : ١٤٥ ـ ١٤٧]

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض أسرارها ومكنونات بلاغتها :

**أولاً** : النار كما يبدو فى الآية الكريمة أدراك أو دركات بعضها تحت بعض، وقد ورد أن أسماءها حسب الأعلى فالأسفل : جهنم ، ولظى ، والحطمة، والسعير ، وسقر، والجحيم ، والهاوية ، ولجهنم سبعة أبواب يدخل منها المجرمون ، ويخصص لكل باب من جهنم جزء مقسوم من الكفار والمجرمين بحيث يتناسب هذا الباب مع نوعية جرائمهم ، الجزاء

عند الله جل جلاله من صنف العمل ، والمنافقون هم أشد المجرمين غدْراً بالمؤمنين وأكثرهم غوائل وشروراً؛ وذلك لأنهم يخالطون المؤمنين ، ويطلعون من أسرارهم على مالا يطلع عليه الأعداء الكفرة . إنهم عدو داخل البيت وفى المثل : ألف عدو خارج البيت ولا عدو داخله ؛ ولهذا جاءت عقوبتهم متناسبة وغلظ كفرهم . إنها الطبقة السفلى من النار ؛ لأن أخلاقهم هى السفلى من بين الأخلاق . وإذا كانت محصلة أخلاق الكافر هى العناد والإعراض عن الحق والعمى عن طريق الإيمان ، فإن محصلة أخلاق المنافق هى الغدر والغش والكذب والجبن والنذالة؛ ولهذا ذكر المنافق في معرض العذاب قبل الكافر والمشرك . قال الله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب : ٧٣] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ يشير إلى أن القلوب كلها تنفر من المنافقين وقد لا تعدم مؤمنا يرثى لحال كافر ويأسف لانغلاق عقله كما يعطف كثير من المسلمين مثلاً على أبى طالب ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة نظراً لما كانوا يتمتعون به من رجاحة عقولهم ؛ ولأن الأول ناصر رسول الله ﷺ، بينما الآخران لم يشتركا مع عصابات المستهزئين والمؤذين كأبى جهل ، لكنك لن تجد من يعطف على المنافق؛ لأن المنافق كتلة من الكيد والأذى والتدبير اللئيم ؛ ولهذا لن تجد لهم نصيراً أو شفيعاً فى الآخرة ، كما لم يكن لهم من يطيقهم أو يألفهم فى الدنيا .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ فيه استثناء عجيب جداً ؛ إذ هو يشتمل على عدة احتياطات مشددة قبل أن

تقبل توبة المنافق. إن قبول توبة المشرك والكافر أهون من قبول توبة المنافق؛ إن كلمة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، تكفى فى المرحلة الأولى من توبة الكافر ، فإذا أتبعها بشواهد الإيمان والعمل الصالح فقد تاب الله عليه . قرأنا فى سورة الفرقان آيات كريمات ذكر الله فيها معاصى من أكبر الكبائر : الشرك بالله ، والقتل بغير الحق ، والزنا ، وقال بعدها : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]. أما فى هذه الآيات التى تصف المنافقين ، فيبدو مقت الله لهم . إنه لا يريد أن يذكر مغفرته للمنافق . إنه جل وعلا يقول بعد أن ذكر فظاعة عقاب المنافقين : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ ولم يقل بعد هذا : أولئك سيرحمهم الله ، أو سيغفر لهم الله ، وإنما قال : فأولئك مع المؤمنين ، ثم قال : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ . لقد اشترط فى توبة المنافق أن يندم على الذنب ويقلع عنه، ويتبع ذلك بالإصلاح والصلاح ، ويتمسك بعدئذ بدين الله، ويخلص العمل والدين لوجه الله ، عندئذ ينضم إلى عموم المؤمنين ، ﴿ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ لم يقل الله تعالى : سيغفر لهم الله ؛ نظراً لغضبته العظمى على تصرفاتهم اللئيمة، وإنما قال : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

**رابعاً** : فى قوله تعالى :﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ استفهام فى غاية اللطف والطرافة ومعنى الآية : إذا أنتم شكرتم نعمة الله وآمنتم فماذا يفعل الله عندئذ بعذابكم ؟! إن العذاب عنده ليس مما يروقه ؛ لأنه جل جلاله أهل العفو والتقوى والمغفرة ، وهو

جل شـأنه يشكر من يشكره ، إنه شكور حليم ، وشـاكـر عليم بأفـعـال العباد، والاستفهام هذا يفيد التعجب ، وينفى أن يكون العذاب هواية . وقد قرأنا فى كتب اليهود : أن إلههم يحب سفك الدماء والبطش ، وحرق أعداء اليهود ، بينما تتجلى صفات الله العلا فى القرآن الكريم رحمة تسع كل شيء ، ومغفرة لا تضيق بالذنوب ، ودعوة إلى العفو والصفح الجميل ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٦] ؛ ولهذا نرى الآية الثالثة من الآيات التى ذكرناها تعلن أن الله ليس فى حاجة إلى عقوبة عباده ، وهم إذا شكروا نعمته وآمنوا بوحدانيته فسوف يجدونه أعظم الشاكرين .

اللهم إنا نسألك واسع رحمتك ، وكريم عفوك، وعظيم مغفرتك ، يا شاكر يا عليم ، يا عفو ياكريم ، يا ذا الجلال والإكرام .

# الإسلام دينُ الوفاء

سورة المائدة يمكن أن نقول : إنها ذات موضوع واحد هو ( الوفاء بالعقود) ، فقد اشتملت على أكبر عدد من مسائل الحلال والحرام ، كما اشتملت على طائفة عظيمة من أحكام الشريعة : فى الفقه ، والعقيدة ، والحدود ، والتعامل مع النصارى واليهود ، ومن ثم كانت بحق مسك ختام القرآن الكريم ، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سورة المائدة تدعى فى ملكوت الله المنقذة ، تنقذ صاحبها من أيدى ملائكة العذاب » . والحديث يشير ـ والله أعلم ـ إلى أن من يتمسك بما فيها من أحكام ينجو بإذن الله من العذاب . وروى عن النبى ﷺ أنه قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال : « يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » . ويبدو أنها ليس فيها منسوخ كما يشير الحديث الشريف . وسوف أسجل الآيات الثلاث الأولى من هذه السورة العظيمة ، ثم أشير فى إيجاز إلى عظمة الأحكام الواردة فيها إن شاء الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَيَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا

ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَستَقسِمُوا بِالأَزلاَمِ ذَلِكُم فِسقٌ اليَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُم فَلاَ تَخشَوهُم وَاخشَونِ اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضطُرَّ فِي مَخمَصَةٍ غَيرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ١ ـ ٣] . أقول وأسأل الله أن يخلص أقوالنا وأفعالنا لوجهه الكريم :

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالعُقُودِ ﴾ إيجاز قصر ؛ لأن ﴿أوفُوا بِالعُقُودِ﴾ تعنى أن يقوم المؤمن بالوفاء بكل عقد عقده مع ربه أو عقده مع الناس فى غير معصية الله .

إن المسلم منذ ارتضى الإسلام دينا فقد عقد مع ربه عقوداً كثيرة خلاصتها أن يحل ما أحل الله ويحرم ما حرمه ، وأن يوحد الله ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ومن ثم كانت كلمتا ﴿ أَوفُوا بِالعُقُودِ ﴾ شاملتين لجميع أوامر الإسلام وأحكامه ، وقد بدأ يفصل هذا الإجمال على النحو الآتى :

أ ـ الأنعام حلال إلا ما مات منها دون تذكية أى ذبح شرعى . والأنعام ثمانية أزواج : الخروف ، والنعجة ، والتيس ، والعنز ، والجمل ، والناقة ، والثور، والبقرة، وهى الثمانية الأزواج المذكورة فى سورة الأنعام .

ب ـ الصيد حلال إلا على المحرم ، فالمحرم يحرم عليه صيد البر ، وإذا حل إحرامه يصطاد ، والله جل جلاله هو الذى يحكم فى الحلال والحرام طبق إرادته الحكيمة .

ج ـ لا يجوز أن تنتهك شعائر الله ، فتستعمل لغير ما خصصت له ، وشعائر الله هى أنعام كانت تعلم بعلامة تشير إلى أنها لوجه الله فلا يجوز عندئذ أن يتصرف فيها لغير ما خصصت له ، وشعائر الحج أيضا أعمال الحج وأماكنها التى تؤدى فيها كالطواف والمطاف ، وكالسعى والمسعى ، وكالوقوف والموقف ،

وكرمى الجمار والمراجم ، كل هذه يجب أن تظل حراما ولا تنتهك .

د ـ الشهر الحرام والأشهر الحرم كلها والهدى المسوق إلي الكعبة وبخاصة القلائد وهى : النياق التى وضع فى رقابها قلائد لتقدم فى البلد الحرام ، وهذه أعظم الهدى وأجله ، كل هذه لها عند الله حرمة لا يجوز أو تحل أن تنتهك ، وحجاج بيت الله وعُماره الذين يطلبون رزق الله يلتمسون رضوانه ، هؤلاء لا يجوز أن يتعرض لهم أو يستحل شيء من دمائهم أو أموالهم أو متاعهم .

هـ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا** ﴾ معناه : لا يجوز أن تحملكم كراهية قوم على العدوان عليهم، لا يجوز أن تعتدوا حتى على المشركين الذين منعوكم حج بيت الله.

و ـ على المسلمين أن يتعاونوا على كل عمل فيه طاعة لله ومخافة من مقامه وخير وإحسان لأمة محمد ، أما الإثم والعدوان فلابد من الإحجام عنهما والابتعاد عن شرورهما ، وأن تكون تقوى الله على كل حال شعارهم ؛ لأن من لا يخاف الله ، فقد أعد الله له عقاباً شديداً .

ز ـ فى قوله تعالى : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ** ... ﴾ فى الآية يفصل الله جل جلاله بعض ما حرمه من اللحوم ، إما لخبثها أو لضررها أو لتقزز النفس منها . وقد لا يدرك العقل أحيانا حكمة التحريم وإذ ذاك لابد من الاستسلام بقول : سمعنا وأطعنا ، وقد ورد فى الآية الكريمة تحريم الميتة ، وهى التى تموت حتف أنفها بدون ذبح ، وحرم الدم المسفوح ، ولكن وردت السنة المطهرة بتحليل ميتتين ودمين : السمك والجراد ، والكبد والطحال . والدم المتبقى فى الذبيحة فى العروق وبين العظام حلال .

ومن المحرم من اللحم : لحم الخنزير لخبثه وضرره ، وكل ما ذكر اسم غير اسم الله عليه فهو حرام ، وإن أسوأ سوء الأدب أن يذكر غير اسم الله على

الذبيحة ؛ مع أن الله هو الذى خلق وأنبت لها طعامها وأحلها لبنى آدم ، ثم يأتى بعض الكفرة الظالمين ليهلوا بها لغير الله . ومن المحرمات المنخنقة : وهى التى تموت خنقا بحبس نفسها أو فى غاز أو دخان ، والمتردية : وهى التى تسقط من شاهق إلى حضيض فتموت ، والنطيحة : وهى التى تنطحها بهيمة فتموت ، وما أكل السبع أى التى يفترسها وحش فيقلتها ، لكن هذه الأصناف الخمسة الأخيرة إذا أدركت وهى حية وذبحت وسال دمها فإنها تصبح حلالا ، ومن اللحم المحرم ما ذبح على الأصنام قربة لها . وعندى أن ما يذبح قربة لقبور بعض الأولياء يأخذ هذا الحكم . وإذا لعب قوم القمار أو استقسموا بسهام الميسر وذبحوا ذبيحة يكسبها بعض اللاعبين ويخسر الآخرون فهى حرام ؛ لأن القمار حرام وفسق .

**ثانياً** : ما أحلى وأجمل قول الله تعالى: **﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾** إنها بشرى وتهنئة من الرب جل وعلا بأن بنيان الدين قد اكتمل ورسا بنيانه على أسس التقوى ، وشمخ صرحه على أنقاض الكفر والطغيان ، بعد أن داس تحت أقدام المؤمنين خرافة الوثنية ، وعمايات الجاهلية ، ودعوات العصبية ، وربوبية الحجارة والمخلوقات الضعيفة ، وفوضى الجنس ، وظلم الضعيف ، ووأد البنات ، وحرمان النساء ، ومحنة الأخلاق بالخمر والميسر والتبرج ، نعم لقد علا بنيان الإسلام وصرحه العظيم ولن يستطيع الكفر ـ بإذن الله ـ أن ينال من خلوده وعظمته وطهره ؛ لأنه دين الإنسانية إلى يوم القيامة . لقد كانت تلك اللحظات من يوم عرفة عيد الإنسانية حين أرسلها الحق من السماء بشرى فيها السعادة ورضاء الله وتجليه بإكمال الدين وإتمام النعمة ، ومادام قد رضى لنا الإسلام دينا ، فإن على أمتنا فى كل زمان ومكان أن ترضى ما ارتضاه لها ربها فى التوحيد والتشريع والأخلاق ؛

لتظل كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس لقد فرح المؤمنون بآخر آية نزلت من القرآن وبكى بعضهم ؛ لأنها إيذان بوفاة رسول الله ﷺ ، وكان ممن بكى عمر رضى الله عنه لعلمه أن إكمال الدين معناه : أن محمداً ﷺ قد أنجز ما أرسل به من منهج الإسلام ، وأدى الأمانة وأشهد عليها الله فلم يبق إلا الرفيق الأعلى . وما أعظم رحمة الله جل جلاله حين شرع قاعدة الضرورة رحمة بالأمة ، فالضرورات التى يخشى منها على حياة المرء أو ذهاب ماله أو عرضه تبيح له المحظورات الواسعة . فالحمد لله الذى أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته ورضى لنا الإسلام دينا ، وعسى الذى أكرمنا برسالة محمد أن يكرمنا بشفاعته.

# كلُّ طيِّبٍ حلال

هاتان آيتان من سورة المائدة تشتملان على طائفة أخرى من الحلال وقد نزلتا إجابة لسؤال بعض الصحابة عن حكم ما يصطادونه بالكلاب والطير .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٥٤ ].

أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين صدق المقاصد واحتساب الأعمال :

**أولاً** : الصيد بالكلاب والفهود وجوارح الطير حرفة وهواية ومتعة عرفها الناس منذ القديم ، وقد سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ، إنا نصيد بالكلاب والبزاة ، وإن الكلاب تفترس البقر وحمر الوحش والظباء ، فمنها ما ندرك ذكاته ومنها ما لا ندرك وقد حرم الله الميتة ، فماذا يحل لنا ؟

**ثانياً** : الإجابة الإلهية أرسلت أولاً عامة ، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾ فكل طيب فى الإسلام حلال ، وكل خبيث حرام ، ثم أجاب عن السؤال الخاص بالصيد الذى تصطاده الكلاب والبزاة ونحوهما، وأفتاهم أنه حلال ، وجاء فى تفصيل ذلك : أنك إذا علّمت

كلباً أو صقراً أن ينطلق بإشارتك ويصطاد وعلمته أن يتوقف عن ضرب الفريسة متى أشرت إليه ، وعلمته كيف يتركها لك بمجرد الإشارة ، وألا يأكل منها شيئاً ؛ عندئذ يصبح مكلبا ـ أى معلماً ـ وما عليك حين تريد أن تصطاد إلا أن تذكر اسم الله على الفهد أو الصقر أو الكلب المعلم ثم تطلقه ، فإذا أمسك شيئا من الصيد وألقى به إليك فهو حلال سواء تمكنت من تذكيته بالذبح أو لم تتمكن . ولقد كره الفقهاء الصيد بالكلب الأسود البهيم ؛ لأن النبى ﷺ وصفه بأنه شيطان ، وأباحوا الصيد بكلب يهودى أو نصرانى أو مجوسى ؛ لأن الأمر كاستعارة شفرة منهم للذبح .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ ختم الله جل شأنه الآية بهذه الخاتمة مذكرا المؤمنين أن عليهم ألا يتساهلوا فى أمر حلال الأطعمة وحرامها ؛ لأن الله جل جلاله حماه محارمه ، فمن انتهك أى أمر من أوامره ؛ فهو يحاسبه ، وقد يعجل له بالعقوبة ؛ لأنه سريع الحساب . وهنا يمكن أن أتوجه إلى من يسافرون إلى ديار أهل الكتاب فى أوروبا بأن يتحروا المآكل والمشارب فيبتعدوا عما حرمه الله .

**رابعاً** : فى الآية الثانية ، يسوق الله ما قرره فى الآية الأولى من القاعدة الكبيرة الشاملة فهو جل جلاله يقول فى الآية الأولى : ﴿ **قل أحل لكم الطيبات** ﴾ وفى هذه الآية الكريمة ، يكرر قائلاً ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ﴾ وهو إطناب تكرار لتقرير هذه القاعدة التى وصف بها رسول الله ﷺ فى التوراة والإنجيل ، كما جاء فى سورة الأعراف : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ**

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

**خامساً** : ومن سماحة الإسلام وامتداد آفاقه الوضاءة الجميلة أنه ينظر إلى الإنسانية نظرة واسعة ، إنه يريد للناس أن يتعارفوا حتى ولو اختلفت معتقداتهم لتتفيأ المجتمعات الإنسانية روح الأمن والطمأنينة ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ** ﴾ يريد الإسلام التزاور بين المسلمين وأهل الكتاب من يهود ونصارى ، لعل تلك الزيارات الودية تفتح القلوب المقفلة على حقائق الإسلام الخالدة . إذا دعاك يهودى أو نصرانى إلى بيته وكان من المسالمين لا المحاربين الغادرين فكل ما يقدمه إليك من لحم ، ولا تسأل إن كان ذكر اسم الله عليه أو لم يذكر ؛ لأن الآية الكريمة لم تطالبك بهذا ، فقط تجنب الخنزير ، ثم إنه يجوز لك أن تدعو اليهودى والنصرانى إن لم يكونا مؤذيين محاربين وتطعمهما من طعام المسلمين ، إن هذا الحكم يوضح أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يصلح لحكم مجتمع مختلف المعتقدات .

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ** ﴾ استمرار لإيضاح النظرة الإنسانية العظيمة الشاملة ، فالعفيفات المحصنات المحافظات على أعراضهن من نساء النصارى واليهود حلال للمسلمين ؛ على أن يتم الزواج على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأن يدفع المهر ، وأن تكون العلاقة هى الزواج الشريف دون مقدمات من العلاقات المشبوهة ، إنها علاقة مسلم شريف عفيف بكتابية محصنة عفيفة . إن هذه المصاهرة ترمى إلى رفع معنوية أهل الكتاب وتوثيق العلاقة بين أهل النوايا الحسنة وبين

المسلمين، لقد علمت أن كثيراً من أتباع المذاهب فى المسيحية لا يتنازلون أن يتزوجوا من نساء المذهب الآخر ، فالكاثوليكى قد يحرم على نفسه زواج البرتستانتية أو الأرثوذكسية ، أما المسلم فيتزوج دونما حرج من الكتابية ويحترمها ويربأ بها عن علاقات الفوضى الجنسية ، ويختار لها أن تكون زوجة عفيفة محترمة .

**سابعاً** : أما لماذا لم يبح الإسلام للمسلمة أن تتزوج الكتابى ؟ فذلك لأن الزوجة قد تتحول إلى دين زوجها ، وإذا تحولت الكتابية إلى دين زوجها المسلم، فقد أضيف بإذن الله إلى أهل الجنة إنسان ، أما إذا تحولت المسلمة إلى دين زوج نصرانى ، فإن معنى ذلك أن سكان جهنم زادوا عضواً جديداً ، والحق أن الذين درسوا الإسلام والمسيحية واليهودية من أهل الكتاب اعترفوا أن دين الإسلام أصفى توحيداً ، وأعظم تسامحاً ، وأوسع أفقاً من سائر الأديان .

**ثامناً** : قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ ؛ يعنى أنه بعد إكمال الدين وتمام النعمة ، فقد أودع الله أمة محمد أمانة الحفاظ على صرح الإيمان ، وكل أمة محمد مطالبون أن يتمسكوا بالإيمان ، ويعتصموا بالعروة الوثقى ، وينشروا دين الهدى والحق فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومن هنا كان كل من يفرط من أمة محمد فى هذه الأمانة الربانية الماجدة الخالدة محروماً من الحسنات ، حابط الأعمال ، وسيأتى يوم القيامة وقد تحطمت كل أعماله وحسناته على صخرة الخيانة ، وذلك هو الخسران المبين . أما من ورث الكتاب بالإحسان وصان أمانة الإيمان بالعمل المخلص لوجه الله ، وأحل الحلال، وحرم الحرام ، كما تركه نبى الإسلام ، فهذا هو الذى نال الحسنى وسعد فى الآخرة والأولى .

# جزاء الحرابة

الخروج على الأمن ، أو قطع الطريق على المسافرين ، أو الخروج على الحاكم المسلم المطبق لشريعة الله ، كل هذه جريمة يسميها الفقهاء (الحرابة) وهى جريمة خطرة ؛ لأن عصابة واحدة صغيرة إذا عاثت فى الأرض فساداً ، فلربما روعت البلاد كلها ؛ ولهذا شرع الدين لهذه الجريمة عقوبة مروعة ؛ كى يضرب الحاكم المسلم على يد كل عابث بأمن المسلمين . وهاتان الآيتان من سورة المائدة تحددان عقوبة الجريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أن يَقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أيديهِم وأرجُلُهُم مِّنْ خلافٍ أو يُنفَوا مِنَ الأرضِ ذَلكَ لهم خزىٌ فِى الدُّنيَا ولَهُمْ فِي الآخرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبلِ أن تَقْدِرُوا عَلَيْهِم فَاعلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٣ ـ ٣٤].

هاتان هما الآيتان وهذه بعض الإشارات البلاغية والأسرار الحكيمة فيهما :

**أولاً** : يلاحظ أن الأسلوب القرآنى فى الآية الأولى صارم يتفجر سخطا على تلك الشراذم الآثمة التى تتخذ من ترويع الآمنين مصدر رزق لها ، وقد كانت غضبة النبى ﷺ عارمة مجتاحة على العابثين بأمن الدولة الإسلامية ، فقد جاء فى الصحاح والسيرة النبوية أن قوماً من قبيلة عكل ـ وقيل من قبيلة عرينة ـ قدموا على رسول الله ﷺ فأصابهم مرض فى بطونهم ، فأمر النبى ﷺ لهم بلقاح ـ أى نياق ذات حليب ـ وأمرهم أن يخرجوا إلى البر فيشربوا من ألبانها فلما فعلوا ذلك صحُّوا ، فانقضوا على راعى الإبل الذى أرسله معها رسول الله ﷺ فقتلوه وساقوا الإبل هاربين

بها ، فبلغ النبى ﷺ خبرهم ، فغضب غضبة الحليم ، وأرسل فى إثرهم، فما ارتفع الضحى حتى أتوا بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ولم يحسم جراحهم لينقطع الدم وألقى بهم فى الحرة حتى ماتوا .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَه** ... ﴾ الآية، استعمل القرآن كلمة ﴿ **إِنَّمَا** ﴾ للحصر ، فقد حصرت عقوبتهم فى القتل والصلب والقطع من خلاف والنفى وهى عقوبات هائلة ، وذلك حتى لا تلتمس لهم أية عقوبة أخرى . وفى قوله تعالى : ﴿ **يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ أسلوب بلاغى مجازى ، فهم أقل شأناً أن يحاربوا الله أو يسلوا سيفاً على رسول الله ﷺ ، لكن فى الأمر إشارة إلى من يخرج على أوامر الحاكم المسلم المطبق لشريعة الله فهو محارب للشريعة ، ومن ثم فهى حرب معلنة على الله ورسوله ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال : ١٣].

**ثالثاً** : وصفهم القرآن الكريم أنهم يسعون فى الأرض فساداً ﴿ **ويسعون** ﴾ معناها يركضون ؛ مشيراً بذلك إلى سرعة انتشار شرهم المستطير ، وأنهم إذا تركوا استفحل فسادهم وإفسادهم فى سرعة هائلة ، ومن هنا وجب أن يؤخذوا بمنتهى الشدة والقسوة ردعاً لغيرهم ممن يغريهم الشيطان ويعللهم بأحلام الغنى من المال الحرام .

**رابعاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **أَن يُقَتَّلُوا أَو يُصَلَّبُوا أَو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم مِّن خِلَافٍ أَو يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ** ﴾ أربع عقوبات صارمة وقد اختلف الأئمة فى تطبيقها ، فقال بعضهم : يكون الحاكم مخيراً أن يطبق أيها شاء ، و وقال آخرون : بل تكون العقوبة على النحو التالى :

١ ـ إذا قتلوا المسافرين فقط ؛ قتلوا .

٢ ـ إذا قتلوا المسافرين وسرقوا أموالهم ؛ قتلوا وصلبوا ليرى الناس مناظرهم

المرعبة، فيعتبروا بمصيرهم .

٣ ـ إذا سرقوا الأموال ونهبوا المتاع دون أن يقتلوا ؛ قطعت أيديهم اليمنى وهى عقوبة السارق وقطعت أرجلهم اليسرى لترويع الطريق وقطع حبل الأمن .

٤ ـ إذا لم يقتلوا ولم ينهبوا ، وإنما نشروا الذعر فقط ؛ نفاهم الحاكم خارج حدود بلادهم فلا يزالون فى دار غربة مروعين لا مأوى لهم ولا صدر حنون . وقيل يكلف أمراء الأقاليم بسجنهم .

**خامساً** : إن هذه العقوبة هى فضيحة لهم وخزى فى الحياة الدنيا ؛ لأنها عقوبة ظاهرة لكل عين سواء أكانت قتلاً أو صلباً أو قطعاً لأيديهم وأرجلهم من خلاف أو نفياً وتشريداً لهم ، ومع هذا فقد وصف عذابهم فى الآخرة بأنه عظيم؛ وذلك لأن جرائمهم تكون شنيعة تقشعر لها الأبدان . وكلمة (ذلك) تشير إلى الجزاء ، وفى الآية طباق جميل فى قوله : ﴿ **لَهُم خِزىٌ فِي الدُّنيا وَلَهُم فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم** ﴾ .

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ **إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبلِ أن تَقدِرُوا عَلَيهِم فَاعلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيم** ﴾ معناه : إذا تابت العصابة المجرمة عن إجرامها ، وهى فى كامل قوتها قادرة على الاستمرار فى الإفساد واستسلمت للدولة طائعة حقنا للدماء وإيذانا بالتوبة ؛ فإن مغفرة الله لا تضيق بهم ، ورحمة الله وسعت كل شيء ، وهذا يعنى أن تقبل الدولة عودتهم ليكونوا عناصر خير وبناء بعد أن كانوا مصادر خوف ومعاول هدم ، وقد لوحظ أن أسلوب هذه الآية الكريمة فى غاية الرقة والرفق ، يتألق فيها التشجيع على التوبة والإنابة كما يتلألأ فيها حث الدولة المسلمة على انتهاز الفرصة الذهبية بمجرد أن يبدى أهل الحرابة رغبة فى التوبة والأوبة ؛ لأن الله جل وعلا من عليا سمواته يفرح بتوبة عبده ؛ ولأنه عز وجل يتقرب إلى

عبده ذراعاً إذا رآه يتقرب إليه شبراً .

إن سبب الرقة والعذوبة والحلاوة فى الآية أنها تريد أن ترسم جواً لتحول السلوك الإنسانى من أفظع الجرائم إلى وضاءة التوبة ، الضد يظهر حسنه الضد، وإن شئت فتصور مواطنا كان بالأمس يقطع الطريق فيقتل ويسرق ويهتك ثم إذا هو نفسه تائب منيب يحارب الجريمة ويعبد الله ويبنى المجتمع ، تلك لعمر الحق تربية ربانية لكل من الحاكم المسلم والمؤمن العاصى ، وهى تربية تفتح أمام المنحرفين أبواب الأمل الجميل . فى مغفرة الله ورحمته ، كما تعلم الحاكم المسلم كيف يتألف القلوب فى ظلال النوايا الكريمة المتألفة بالصفح الجميل وقد تساءل أشياخنا: إذا استسلم أهل الحرابة وتابوا وهم فى كامل قوتهم ولكن بعد أن قتلوا ونهبوا وسرقوا فهل تطالبهم الدولة بدفع قيمة ما سرقوه وسوق دية من قتلوه ؟ والجواب والله أعلم أنهم فى مقابل حقنهم للدماء وعودتهم إلى الحق وتوبتهم عن الإجرام والحرام تكتفى الدولة منهم أن يدفعوا حسب طاقتهم مما جمعوه من مال ، ثم تتحمل عنهم ما عجزوا عن أدائه ، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ نسأل الله لمجتمعنا المسلم حياة يزينها الأمن والإيمان والبركة والإحسان والعدل وحكم القرآن .

# عقوبـــة الســـارق

يزعم أعداء الإسلام أن فى العقوبات الإسلامية قسوة تبدو فى منظر الإنسان مسحوباً إلى القصاص ليقطع رأسه أو تقطع يده أو يجلد وأن هذه المناظر تقشعر لها الأبدان ويرخص بها الإنسان ! ونسوا أن هذا الإنسان المجرم هو الذى أرخص نفسه بالجريمة بعد أن كرمه الله على سائر مخلوقاته بالطاعة ونسوا أن هذا الإنسان قد أهان الإنسانية فروعها بالقتل أو السرقة أو اغتصاب الأعراض ، نسوا أنه أزهق أرواحاً ترتب على إزهاقها ثكل وآلام وأيتام وأرامل . إن أعداء الإسلام رأوا بأم أعينهم كيف أن القوانين الوضعية قد ساعدت على شيوع الجريمة حتى أصبح القاتل عندهم يمشى فى جنازة القتيل ، وأصبحت الجنايات الفظيعة عندهم تختفى بذلاقة محام أو ذكاء مجرم محترف .

إن عقوبة السرقة فى الإسلام منصوصة فى هاتين الآيتين من سورة المائدة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقطَعُوا أيديَهُمَا جزَاءً بمَا كَسَبَا نكَالاً مّنَ الله وَالله عَليمٌ حكيمٌ * فَمَن تَابَ من بَعد ظُلمه وأَصلَحَ فَإِنَ الله يَتوبُ عَلَيه إنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ** ﴾ ، [المائدة : ٣٨ ـ ٣٩] وإلى القارىء الكريم هذا البيان بما اشتملت عليه الآيتان من بلاغة وتشريع حكيم :

**أولاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقطَعُوا أيديَهُمَا** ﴾ تقديم يقصد به توكيد المعنى وبيان عنوان الحكم ، ولو قال : اقطعوا يد السارق والسارقة ما كان للتركيب من التوكيد مثل ما للآية الكريمة ، وقد لاحظ المفسرون أن القرآن الكريم قدم فى حد السرقة ذكر الرجل وتلاه بالأنثى، بينما فى حد الزنا قدم ذكر المرأة وتلاها بالرجل ، وهذا التقديم حكمته والله أعلم : أن الرجل أشد فتكا من المرأة فى جريمة السرقة وذلك لما يتمتع به من قوة يمكن أن يستخدمها إذا استلزم الأمر ، أما المرأة فأكثر

سرقاتها احتيال بدون إراقة دم ، أما فى جريمة الزنا فإن المرأة الزانية تفسد فى المجتمع ما لا يفسده الرجل الزانى ؛ لأنها إذا احترفت الفاحشة فربما تغرى بلداً بأسره ، ثم إن الزنا تظهر ثماره البشعة فى المرأة أكثر مما تظهر فى الرجل ، وخصوصاً إذا حملت وشاع فى المجتمع اللقطاء وأبناء الزنا . وقد قرئت « والسارقَ والسارقةَ » بالنصب على الاشتغال ، وفضل سيبويه هذا القراءة لما يتضمنه أسلوب الاشتغال من التوكيد .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **فَاقطَعُوا أيدِيَهُمَا** ﴾ بدلاً من أن يقول : فاقطعوا يديهما، أسلوب شائع فى كلام العرب فتقول لرجلين : سوف أختبر عقولكما بدلاً من عقليكما . ويقول الله جل وعلا يخاطب عائشة وحفصة : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ بدلا من قلبيكما ، ويبدو والله أعلم أن العرب استعملوا هذا الأسلوب للتخفيف فهم يقولون : حضر الشيخان أنفسهما ، ويرون ذلك أخف من قولهم : حضر الشيخان نفساهما ، ويكون القطع من الرسغ فى اليد ومن الكعب فى الرجل على عكس رأى الخوارج الذين يرون أن القطع من المنكب ، ويجب أن يحسم الجرح بعد القطع أى يعالج بما يقطع نزيف الدم ، ولا يجوز فى القطع كسر العظم .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله** ﴾ ثلاث إشارات معنوية موجزة فى غاية من الإيجاز البليغ معناها كالآتى ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَسَبَا** ﴾ يعنى جزاء لهما مناسبا لما كسباه من الجريمة ، أى من جنس جريمتهما

ويقول أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب طيب الله ثراه : إنه جزاء يناسب الجريمة جسمياً ونفسياً ، فالسارق تكون نفسيته مريضة جشعة لا تقنع بما رزقها الله من حلال ، بل تريد الاستكثار بأى طريقة، فإذا قطعت

أيديهما ؛ كان ذلك درساً لهما بأن الاستزادة من الحرام يتسبب عنها نقص من الحلال ؛ وذلك لأن ضياع أيديهما سيجعل كسبهما الحلال لا يأتى إلا بمشقة ، وأما ملاءمة العقوبة للجريمة جسمياً، فإن السارق أكثر ما يعتمد على يده ؛ بها يكسر الأحراز، وبها يحمل المسروقات، وبها يبطش إذا كشف أمره ، فكان من المناسب أن تقطع هذه اليد الآثمة التى استخدمت كوسيلة للحرام والإجرام والترويع، ولا شك أن السارق بعد قطع يده لن يتمكن أن يفعل ما كان يفعله إذ يده فى عافية . وقوله: ﴿ نكالاً ﴾ أى عقوبة ﴿ من الله ﴾ للعبرة ، فكل من شاهد السارق اعتبر بعقوبته الفاضحة . وقوله ﴿ من الله ﴾ معناه: أن هذا الحكم هو من عند الله .

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فى ختام آية القطع يعنى أن الله جل وعلا يشرع تشريعه السماوى من منطلق عزته القاهرة وحكمته البالغة الباهرة وقدره الحكيم العادل ، وقد روى أن قارئا قرأ على الأعرابى «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ـ وختم بقوله : والله غفور رحيم » فقال الأعرابى : لا يكون الرحمة والغفران عند القطع ، فلما نطقها : ﴿والله عزيز حكيم ﴾ قال الأعرابى لقد عز فحكم : يكون ؛ لأن القطع دليل على عزة الله وقدرته ، وعلى عظمة قضائه وحكمته.

**خامساً** : من رحمة الله بعباده أنه يقدر ظروفهم ، فالذى يسرق لشدة احتياجه ويسرق على قدر سد رمقه لا يقطع ، وقد أوقف عمر رضى الله عنه كثيراً من أحكام القطع عام الرمادة ، كما أنه لا يقطع من لم يكسر حرزاً ، ولا قطع فيمن سرق أقل من ربع دينار ، ومن كسر باب سيارة وشغلها وسرقها يقطع ؛ لأن السيارة موقفها الشارع وحرزها زجاجها ومفتاحها ، وقال الفقهاء : لا يقطع من سرق مصحفا ليقرأ فيه ، ويدرأ

حد السرقة بالشبهة فإذا عدل السارق عن اعترافه ولم تكن ثمة بينة لا يقطع .

**سادساً** : إذا كرر السرقة ؛ قطعت أولاً يمينه ، ثم رجله اليمنى ، ثم يساره، ثم رجله اليسرى ، وإذا سرق بعد أن تقطع أطرافه ، قيل : يقتل ، وقيل : يعزر بالضرب والسجن ، وإذا ترتب على القطع إضرار بالسارق كأن كسر له عظم أو قتله النزيف ، فإن بعض الفقهاء يرون أن تدفع الدولة ديته لأهله ، وقال آخرون: ليس به دية؛ لأن الحاكم طبق حكم الله وهو بذلك فاعل خير ثم هو لم يقصر.

**سابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **فمن تَابَ من بَعد ظُلمه وَأصلَحَ فَإنَ الله يَتُوبُ عَلَيه إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيم** ﴾ يفتح أمام العصاة باب الرجاء مهما ظلموا أنفسهم، والسارق الذى مرد على السرقة وتعود عليها إذا استيقظ ضميره فى ومضة من ومضات الصحوات الفكرية ، فقد يفكر فى التوبة عن فعله القبيح بعد أن يصبح فى وحشة من الجريمة وتقزز من سوء الفعل ، وهنا نرى الشارع الحكيم لا يؤيسه ، بل يفتح أمامه باب التوبة على مصراعيه ؛ على أن يتبع التوبة بالإصلاح وكلمة ﴿ **وَأصلَحَ** ﴾ موجزة ، لكنها هائلة المعنى، فالمطلوب من السارق الذى ظلم نفسه وظلم الناس أن يتوب ويندم ويقلع عن السرقة ، ثم يتبع ذلك بالإصلاح ، كأن يسلك فى الناس سلوك الصالحين ، ويضاعف من عبادته لله رب العالمين ، ويرد الحق إن استطاع إلى من سرق حقوقهم ، وإذا ستر الله عليه أعماله الماضية ورآه الناس وقد سلك سبيل الهدى والتقى ، فإنه جل جلاله سوف يستره فى الآخرة ؛ لأن الله الذى أمر عباده بستر المسلمين ، هو ستار العيوب ، وغفار الذنوب ، وما أوسع صدر الإسلام الرؤوم حين ينادى فى أهل المعاصى : « لو أتيتم بقراب الأرض خطايا ثم لقيتم ربكم لا تشركون به شيئاً لقيتكم بقرابها مغفرة ».

# حكم محالفة أعداء الإسلام
# من اليهود والنصارى

إنى مورد هنا آيتين من سورة المائدة تكشفان أن الكفر ملة واحدة ، وأن اليهود والنصارى والمشركين يقفون صفاً متحداً تحت لواء الكفر حين يكون الإسلام طرفاً فى نزاع . لقد قرأنا فى التاريخ أن جيش المغول بقيادة «هولاكو» حين أقبل على فلسطين وجد للنصارى الصليبيين بقايا وجود هناك ، ووجد لهم حصوناً متفرقة ، فلم يمس حصونهم بسوء ، وجعل أكبر همه سحق المسلمين والمسلمين فقط ، واليوم نجد الصهيونية والصليبية تقفان صفا واحداً للقضاء على الإسلام والمسلمين . وحسبك ما كشفته الأحداث فى هذه الأيام من أن النصارى كانوا منذ زمن طويل على صلة باليهود ، لكنهم كانوا يستترون وراء العروبة ، حتى إذا قويت شوكة اليهود كشف النصارى عن وجوههم وإذا السبت أخو الأحد ، والبوق أخو الناقوس ، وإذا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ! وأخيراً رأى الناس بل رأت الدنيا فى وضح النهار شراذم من النصارى يذبحون المسلمين فى مخيماتهم على مرأى ومسمع وحراسة من جيش اليهود.

وإلى الأخ القارىء هذه الآيات الثلاث من سورة المائدة تكشف حقائق غطاها النفاق ردحاً من الزمن :

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**

**فَيُصْــبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾** [المائدة : ٥١ ـ ٥٣] .

هذه هى الآيات الكريمات وهذه بعض أسرار بلاغتها ودلائل إعجازها :

**أولاً** : قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾** نداء من الله جل جلاله لجميع المؤمنين ألا يتحالفوا مع اليهود والنصارى فيناصروهم ويطلبوا النصر منهم ، فكلمة **﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾** معناها حلفاء وأنصاراً وأصدقاء . إن محالفة اليهود والنصارى واتخاذهم أنصاراً والركون إليهم وائتمانهم كل هذه تدل على ردة ؛ لأن الذى يحالف هؤلاء الكفار حلف مناصرة يكون يائسا من نصر الله للمؤمنين فاقداً الثقة فى الجماعة الإسلامية ، ومن ثم فهو يقيم علائق مع الفئة الكافرة، خائفاً من تقلبات الأيام يخشى أن تدور الدائرة على المؤمنين ؛ ولهذا يسارع ويسابق لوضع يده فى يد الكفار متعاونا معهم على كل شر يصيب الأمة .

**ثانياً** : جاء فى سبب نزول الآية : أن قبيلة يهودية اسمها بنو قينقاع كثرت تحدياتهم للمسلمين وأساؤوا أدبهم مع رسول الله ﷺ وأمعنوا فى إهانة المسلمات اللاتى يردن سوقهم ، حتى عبثوا بإحدى المسلمات فكشفوا عورتها ، وقام على إثر ذلك نزاع قتل فيه مسلم ويهودى فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، فأقبل زعيم المنافقين عبد الله ابن أبى بن سلول ، فأخذ بحجزة رسول الله ﷺ وطفق يقول : أحسن فى موالى . فغضب منه رسول الله ﷺ وأنكر عليه ومحالفة أولئك الخونة وقال له : « أرسلنى » فقال المنافق : والله لا أتركك تقتل حلفائى ، إنى امرؤ أخشى الدوائر ، ولم يزل يرجو رسول الله ﷺ حتى قال له النبى

الكريم : « وهبتهم لك » فنزلت الآيات التى نحن بصددها .

**ثالثاً** : ينتشر فى العالم العربى عدد هائل من عملاء المستعمرين يكنون للأعداء احتراما وثقة أعظم من الذى يظهرونه للمؤمنين . هؤلاء دأبهم أن ينشروا فى المجتمع الإسلامى أن العدو قوى ، وأنه ذو حضارة وأننا لا يمكن أن نستغنى عن أسلحته ومناصرته ، فيعيشون حياتهم على خيرات وطنهم وولاؤهم مرتبط بالأعداء ، كأنهم طفليات على شجرة زكية يمتصون منها عصارة الحياة ويمنحونها جراثيم الموت . هؤلاء علينا أن نعاملهم كما أمرنا الله أن نعاملهم بقوله: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُم فَإِنَّهُ منهُم** ﴾، حكم الله أن نعامله معاملة اليهود والنصارى . أما أن نتركهم يجولون فى مجتمعنا كما يسرى السم فى الجسد ، ينهبون خيراتنا فى السلم ، وينصرون أعداءنا فى الحرب ، فذلك ظلم عظيم ؛ ولهذا ختم الله الآية بقوله : ﴿ **إنَّ اللهَ لاَ يَهدى القَومَ الظَّالمين** ﴾ إن قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُم فَإِنَّهُ منهُم** ﴾ هو حكم بالردة على كل أذناب المستعمرين، ولقد رأيتهم رأى العين والقلب إذا ذكرت مجتمعات الأجانب أو أدب الأجانب أو تراث الأوروبيين يتمايلون هياماً بكل أجنبى حتى ولو كانت حضارة أوروبا انحلالاً ، وأدبها خرافة ، وتراثها وثنية ، فى حين إذا سمعوا كلاما عن مجتمعنا الإسلامى أو أدبنا العربى ، أو تراثنا الحضارى، تراهم ينغضون رؤوسهم ، ثم يعرضون كأنهم حمر مستنفرة هؤلاء كفروا بتعشق الأجانب من حيث لا يشعرون ، وإن أرادوا برهانا فليقرؤوا قوله جل جلاله : ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُم فَإِنَّهُ منهُم** ﴾ .

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **فَتَرَى الذين فِي قُلُوبهم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخشَى أن تُصيبَنَا دَائرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأتِىَ بالفَتحِ أو أمرٍ مِّن عنده فَيُصبِحُوا عَلَىَ مَا أسَرُّوا فِي أنفُسِهِم نَادِمِين** ﴾ يفضح النوايا الحقيقية

لأذناب الكفار وهى توقعهم المستمر لانتصار الكفر على الإيمان ، وهنا يفاجئهم القرآن الكريم فيذكرهم بمصيرهم المظلم إذا خيب الله رجاءهم فنصر عباده المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، هنالك يندمون على نواياهم الخبيثة حين تزل بهم القدم ثم لا ينفع الندم . وهذا المصير هو الذى لقيه المنافقون من أهل المدينة حين نصر الله عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، ودمر على المشركين فى مكة ، واليهود فى المدينة وخيبر.

**خامساً** : إذا جاء نصر الله والفتح ، وانكشفت صفحة العملاء ، وارتكس الكفر وأذنابه ، تتكشف للعملاء فضائح كثيرة كانوا يخفونها ، وتتكشف وجوه جديدة لم تكن تخطر للمؤمنين ببال ، يرون عناصر من مرضى القلوب كانوا يظهرون الإخلاص للمجتمع الإسلامى ويحلفون بالله معظمات الأيمان إنهم سيجاهدون وينصرون دين الله ، هنالك يدهش المؤمنون حين تفتضح شخصيات كانت بالأمس موضع احترامهم وهى اليوم بعد نصر الله مهتوكة أستار الرذيلة ، هذه الصورة هى التى جاءت فى قوله تعالى : **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾** نعم لقد ضاعت كل أعمالهم ومخططاتهم هباء ، وأصبحوا خاسرين دنياهم ودينهم . اللهم ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك . اللهم ائت بالفتح من عندك ليصبح العملاء والمنافقون على ما أسروا فى أنفسهم نادمين .

# حكم اليمين وكفارته

هذه آية من سورة المائدة أود أن يحفظها ويعرف أحكامها كل مسلم ؛ لأن الناس فى أيامنا هذه يكثر منهم أن يحلفوا ويحنثوا ؛ أى لايوفوا بما حلفوا عليه وهنا يوقعهم الحلف فى معصية الله ؛ إن لم يعرفوا أحكام اليمين ويؤدوا ما عليهم من حقها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لاَ يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فِى أيمَانِكُم وَلَكِن يُؤاخِذُكُم بمَا عَقَّدتُمُ الأيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوسَطِ مَا تُطعِمُونَ أهْلِيكُم أو كِسْوَتُهُم أو تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّم يَجِد فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أيمَانِكُم إذَا حَلَفتُم وَاحفَظُوا أيمَانَكُم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ** ﴾ [المائدة : ٨٨] .

هذه الآية الكريمة واسعة الأحكام ، حتى لقد ذكر القرطبى ـ رحمه الله ـ فى تفسيرها سبعاً وستين مسألة ، ولكنى مورد هنا خلاصة مركزة فأقول وبالله التوفيق:

**أولاً** : كثرة الحلف بالله ولو صدقا منقصة للمؤمنين ؛ لأن الواثق بنفسه، الوازن لكلامه ، العارف لمنزلته فى الناس ، يورد الحقائق بلا حلف حتى لا يكون حلافا ، وقد قرن الله جل وعلا كثرة الحلف بالمهانة لأن الحلاف فى نظر الناس محتقر يستغل اسم الله استغلالاً غير مؤدب .

**ثانياً** : الحلف بغير الله ممنوع لأنه شرك ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف بالآباء وبأى شيء غير الله وصفاته مهما عظم حتى الحلف بالكعبة الشريفة ؛ وذلك إمعاناً منه ﷺ فى حماية حمى التوحيد من أي شائبة شرك .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **لاَ يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فِى أيمَانِكُم** ﴾ ؛ يعنى مثل قول الإنسان أثناء مناقشة عادية : لَا والله ، وإى بَالله ، والله أوحشتنا فى

غيبتك ، والله ما بيننا تكلف ... وهكذا ، ومثل هذا اللغو يغفره الله بواسع عفوه ولا يؤاخذ صاحبه .

**رابعاً** : قيل فى سبب نزول الآية : إن جماعة من الصحابة سمعوا خطبة عظيمة التأثير هائلة الوعيد من رسول الله ﷺ فعادوا يبكون خطاياهم ، واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون رضى الله عنه حيث قرروا أن يهجروا لذائذ الطعام، ويهجروا النساء فنزلت هذه الآية والآيتان اللتان قبلها : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة : ٨٦ ـ ٨٧] .

**خامساً** : ما كل يمين يقتضى أن تنفذه وتوفى به ، فبعض الأيمان يكون الحنث بها واجبا والوفاء بها حراما ، ومثل هذه الأيمان كثيرة فى هذه الأيام . ففى نوبة من نوبات الغضب وسيطرة الشيطان قد يقول رجل لامرأته : والله لا رأيت أمك بعد اليوم أو والله لادخلت بيت أبيك بعد الآن ، أو يقول : والله لا أدخل بيت أخى ولو أن فيه ترياق الحياة ، والله إن لقيت فلانا لأضربنه ، أو يقول : والله لا أذوق الأكل إذا ذبحت لى ذبيحة ، والله لا أدخل المسجد الذى إمامه فلان ، والله إن لم تطلق امرأتك فلن أكلمك ، والله إن حضرت أختى إلى بيتنا لأوصدن الباب فى وجهها ، والله لا أساعد فلانا بعد اليوم ولو بريال واحد ، كل هذه الأيمان حرام تنفيذها وواجب أن تحنث بها وتكفر ؛ لقول رسول الله ﷺ « من حلف أن يعصى الله فلا يعصه » .

**سادساً** : ومن الأيمان التى لا تكفر ولكنها إثم يجب التوبة عنها ما تحلفه على ماضى من الحوادث كأن تقول : والله اشتريت السيارة بعشرين ألفا ، وأنت قد اشتريتها بأقل أو أكثر ، وكقول البائع : والله بعت أمثال هذه السلعة بمائة وهو لم يبعها بمائة ، وكقول التاجر للزبون : والله راعيتك

فى هذه السلعة بعشرة ريالات وهو لم يراعه ، مثل هذه الأيمان لا تكفر بمال يدفع ، أو بصوم ولكن تكفر بالتوبة والإنابة والإقلاع عن الأيمان .

**سابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيمَانَ** ﴾ وقرئت «عَقَدتُم الأيمَان » بتخفيف القاف ، وكلمة ما هنا مصدرية ، فيكون المعنى ولكن يؤاخذكم بعقدكم الأيمان أى بالأيمان المقترنة بنية التنفيذ كأنها إبرام عقد فهذه التى تستوجب الكفارة .

**ثامناً** : اليمين الغموس هى التى يحلفها الإنسان وهو بها كاذب لكى يأكل مال أخيه بغير حق ، كما يفعل أحد المتخاصمين حين يحلف كاذبا ليأكل حق الآخر ، وكما يحلف التاجر كاذباً ليكسب ربحا طائلاً بالحرام ، وهذه اليمين فى أصح الأقوال ليس لها كفارة من صدقة أو صوم لكنها من أكبر الكبائر لما روى البخارى فى صحيحه عن عبد الله ابن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ سأله أعرابى عن أكبر الكبائر فقال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس » وهذه اليمين لا كفارة لها إلا التوبة الصادقة ، وإرجاع ما اقتطع بها من الحقوق إلى أصحابها.

**تاسعاً** : من حلف قائلاً : أكون خارجاً من الإسلام إذا كلمت فلاناً ، فعليه أن يكلمه ، وعليه الكفارة ، وعليه التوبة النصوح عن مثل هذا اليمين الذى تقشعر له أبدان العقلاء .

**عاشراً** : اليمين يجوز فيه التذكير والتأنيث فتقول : كفر عن اليمين الذى حلفته ، كفر عن اليمين التى حلفتها .

**أحد عشر** : قوله تعالى ﴿ **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ** ﴾ يقتضى أن تجمع عشرة مساكين فتطعمهم وجبتين أو أن تحمل الطعام إلى بيوتهم ، وقد يسأل كثير من الناس : إن الفقراء فى هذه الأيام بفضل الله قلائل جداً ويصعب

جمعهم للطعام ، والجواب : أنه يمكن أن يرسل إلى عشرة من الفقراء كل واحد عشرة ريالات كما يمكن أن يعطى بعض العائلات المستورة أو الأيتام بعض السكر والأرز والسمن والمأكولات المعلبة .

**اثنا عشر** : كلمة ﴿ **أهليكُم** ﴾ جمع أهل وهو ملحق بجمع المذكر السالم ويعرب إعرابه ، وكِلمة كسوة تقرأ بكسر الكاف وضمها ، وعلى من يريد الكفارة أن يطعم المساكين من أحسن ما يطعم أهله أو يكسو كل فرد منهم الكسوة الشائعة فى المجتمع كما يكسو نفسه أو أحد أولاده .

**ثلاثة عشر** : لا تعطى الكفارة لغنى ، ولا يكفى أن يطعم المكفِّر جيرانه ، كما لا يجوز أن يصرفها إلى أرحامه الذين تجب عليه إعالتهم ، ولا يجب إعطاؤها إلى مسكين واحد دفعة واحدة ، فمن الأحسن أن يكون جزء للمساكين وجزء للفقراء وجزء للأيتام .

**أربعة عشر** : إذا مات الحالف ولم يكفِّر ؛ وجب إخراج الكفارة من رأسماله قبل قسمة التركة .

**خمسة عشر** : من لم يستطع الكفارة يصوم ثلاثة أيام متتابعات أو غير متتابعات، على خلاف بين الأشياخ .

**ستة عشر** : قوله تعالى : ﴿ **وَاحفَظُوا أيمَايكُم** ﴾ أى احترسوا ولا تكثروا الحلف، ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم وإذا حلفتم فاحفظوها بالكفارة السريعة الوافية .

اللهم ارزقنا الإيمان بك والوفاء بعهدك ، والعمل بكتابك وسنة نبيك .

# كثرة الأسئلة فُضول

الإسلام يكره التنطع فى الأسئلة وابتكار الأسئلة الخيالية التى لا تمس الواقع ، وتتبع الدقائق العميقة التى سكت القرآن عنها فى التشريع . وقديما طلب نبى الله موسى من بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة ، فلم ينفذوا أمر الله فى الحال ، ولو ذبحوا أى بقرة بمجرد الأمر لأجزأت ، لكنهم لم يزالوا يتنطعون فى السؤال عن ماهيتها وأوصافها حتى فرضت عليهم بقرة بعينها لم يكن فى البلد مثلها ، فاضطروا أن يشتروها بثمن باهظ ؛ لأن أصحابها غالوا فى ثمنها ، ولله فى كل شيء حكمة.

إن الإسلام يربى أبناء الأمة المسلمة على الذوق ويربأ بهم عن الفذلكة والتنطع ومازلت أذكر حين كنت أعمل فى التعليم كيف أن طلابا من غير الأذكياء كانوا يتنطعون فى توليد الأسئلة ويضيعون الوقت دون طائل فأغضب منهم ويسميهم زملاؤهم : الفلاسفة أو أهل الجدل البيزنطى . وإلى الإخوة القراء هذه الآيات الثلاثة من سورة المائدة حول موضوع التنطع فى الأسئلة:

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين * ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفوا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ [ المائدة : ١٠١ ـ ١٠٣] .

أقول وأستعين الله وأستهديه وأسأله مواهب الإخلاص والفتوح :

أولاً : جاء فى مناسبة هذه الآيات أن كثيراً من المسلمين كانوا يسألون النبى ﷺ أسئلة إما غير واقعية ، وإما أنها قد تفضح مستوراً ، وإما أن يترتب

على إجابتها تشديد على العباد ، فقد روى أنه لما نزلت الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] قام رجل فقال : أفي كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه ثم عاد فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فمن القائل ؟ » قالوا : فلان .

قال : « والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لما أطقتموها، ولو لم تطيقوها لكفرتم » .

وفى صحيح مسلم : أن عبد الله بن حذافة السهمى سأل رسول الله ﷺ : من أبى ؟ (وكأنه يشير إلى أنهم كانوا حديثى عهد بالجاهلية والله أعلم بآبائهم ) ، فقال له رسول الله ﷺ : « أبوك حذافة » ونزلت هذه الآية الكريمة . وكان رسول الله ﷺ ينهى عن الأسئلة المشددة . وفى صحيح مسلم ـ رحمه الله ـ أن النبى ﷺ قال : « ذرونى ما تركتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » ، وفى الحديث الصحيح ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم ـ غير نسيان ـ فلا تسألوا عنها » ، وفى صحيح مسلم أيضاً : قال رسول الله ﷺ : « إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته » .

ثانياً : قوله : ﴿ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تذكير للناس أنهم يعيشون فى زمن الوحى وأن رسول الله ﷺ إذا سأل الوحى عن المسائل الشديدة وأجاب بالإيجاب ، فإن هذا مما يصعب أمور الدين مع أنها ميسرة ، ويكون التشديد بسبب تنطع السائلين، وفى الحديث الشريف : « لا تشددوا فإن من قبلكم شددوا

فشدد عليهم » .ويقول ﷺ : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » . وقوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنهَا ﴾ إشارة من الله جل وعلا إلى أنه أهل العفو وأهل التيسير وأنه يعفو عن كثير رحمة بعباده وتيسيراً عليهم . هذه التربية الحليمة الجديدة تريد من المؤمن أن يكون سوياً بعيداً عن الوسوسة والتنطع وكثرة السؤال . وختام الآية قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيم ﴾ إشارة إلى أن الإطار العام لدين الإسلام ولمعاملة الله للعباد هو الحلم والمغفرة ، فلينتهز العبد حلم الله ومغفرته ليعبده بما شرع ويبتعد عن إثارة أمور سكت عنها الشارع الحكيم .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ قَد سَأَلَهَا قَومٌ مِّن قَبلِكُم ثُمَّ أَصبَحُوا بِهَا كَافِرِين ﴾ إشارة إلى ضعف النفس الإنسانية أمام التكاليف . إن من يشاد الدين فإن الدين يغلبه؛ لأن العبد لو عبد ربه ليل نهار ما وفاه حقه ، وأمر الإسلام تسديد ومقاربة واستعانة بأوقات النشاط . ولقد كان اليهود يسألون أنبياءهم أسئلة عجيبة فإذا نزلت أجوبتها وتكاليفها ؛ كفروا بها ، والقرآن يحذرنا من أن نتبع سنن من قبلنا فى أمور التشديد والعادات الذميمة ، وكثرة الأسئلة على الأنبياء .

**رابعاً** : كانت قريش قد حرمت على نفسها أشياء ما شرع الله تحريمها فحرموا منها أنفسهم وهى حلال ، وتوارثوا تلك العادات عن آبائهم دون برهان ولا سلطان ، فهذه ناقة بحيرة تبحر أذنها أو تشق ويقال هذه حرام أكلها ولو على جائع وركوبها ولو للتعب المعيى ، وسبب تحريمها : أنها ولدت أربع إناث متتالية ، والعرب يحبون إناث الأنعام لأنها تنمو وتتكاثر ، فإذا ولدت بعد الأربع فحلاً بحروا أذنها وسموها بحيرة ، وهذه ناقة سائبة سيبها صاحبها أى تركها لأنه نذر إذا رجع من سفر أو برئ من مرض أن يسيب ناقة ، والسائبة من الإبل يحظر الانتفاع بها كالبحيرة ، والوصيلة:

هى التى تولد مع ذكر فى بطن واحد ، والحامى: هو الفحل الذى ينجب من صلبه عشرة أبطن ، وكل هذه خرافات موروثة ما أنزل الله لها تحريماً فى كتبه .

**خامساً** : وقد ختم الآية بقوله : ﴿ **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ مبيناً أن سبب ذلك التحريم المتوارث هو أنهم اتبعوا من كذبوا على الله ، وأن الكفر لا يكون إلا نتيجة لضعف العقول ، فمن جرى وراء المتنطعين يحرم على نفسه ما أحل الله ، فهو مغتر أولاً وقليل عقل ثانياً ، والإسلام دين الصدق ودين العقل المؤمن المستنير .

**سادساً** : كلمة ﴿ **أَشْيَاءَ** ﴾ فى هذه الآية وردت فى قراءة حفص مجرورة بالفتحة على وزن أفعال المختوم بهمزة يجر بالكسرة مثل : أعداء وأحياء وأهواء وأنباء وأرجاء وأبناء وأسماء ، وفى القرآن الكريم ﴿ **أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا** ﴾ [الأعراف : ٧١] ومع أن النحويين خرجوا لها سبباً متكلفاً ، إلا أنها على ما يبدو لهجة من اللهجات التى وردت على قلة فى القرآن الكريم كقوله : ﴿ **عَلَيْهُ اللَّهَ** ﴾ فى سورة الفتح ، و﴿**مُجْرِيهَا**﴾ [هود : ٤١] فى سورة هود و﴿**مامكنى** ﴾ [ الكهف : ٩٥] فى سورة الكهف و ﴿**أتحاجونى**﴾ [الأنعام : ٨٠] و ﴿**وتأمرونى** ﴾ فى [سورة الزمر : ٦٤].

# أول جريمة قتل فى الإنسانية

هذه آيات من سورة المائدة تدور حول أول جريمة قتل حدثت فى الإنسانية يحكى الله جل وعلا قصتها لما ترتب عليها من ويلات عبر تاريخ البشر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَاتلُ عَلَيهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين * إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين * من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ [المائدة : ٢٨ ـ ٣٢]. أقول وأسأل الله عزيمة على الرشد وعونا على الطاعة ومددا متصلا من الفتوح :

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ وَاتلُ عَلَيهم نبأ ابنى آدم بالحق ﴾ أمر من الله لرسوله ﷺ أن يقص على قومه هذه القصة الحقيقية التى لا تمت إلى الأساطير. وواضح من لهجة الأمر أن قريشاً لم يكونوا يعلمون هذه القصة ولا غيرها من قصص القرآن ، وأن محمداً ﷺ أمر أن يتلوها عليهم . ترى من أين جاء بها محمد ﷺ مع أنه ما كان يعلمها هو ولا قومه ؟ لا شك أن الله وحده هو الذى علمه أنباء الغيب ، وهذا هو الإعجاز الإخبارى فى القرآن . إن كثيراً من آيات القرآن الكريم مبدوءة بقوله جل وعلا :

﴿وَاتلُ عَلَيهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَاتلُ عَلَيهم نبأَ إبراهيم ﴾ [الشعراء : ٦٩] ، ﴿ وَاتلُ عَلَيهم نبأَ الَّذى آتيناهُ آياتنا فَانسلَخَ منهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥] وهكذا ، وابنا آدم هما كما أجمع جمهور المفسرين : قابيل وهابيل اللذان حدثت بينهما أول جريمة قتل ، ويبدو أن هابيل كان أول ميت من بنى آدم ، بدليل أن أخاه لم يعرف كيف يدفنه ويوارى سوءته، إلى أن علمه الله كيفية الدفن بما جرى بين الغرابين اللذين قتل أحدهما الآخر ، وطفق يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة وارى بها جيفة أخيه .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ إذ قَرَّبَا قُربَاناً فَتُقبِّلَ من أحَدهمَا ولَم يُتقبَّل منَ الآخَر قَالَ لأقتُلنَّكَ قَالَ إنَّمَا يَتقبَّلُ الله مِنَ المُتَّقين ﴾ ، كان آدم وأبناؤه يعرفون إن كان القربان تقبل أو لم يتقبل ؛ لأن القربان المتقبل كان ساعة تقديمه تلتهمه نار من عند الله ، أما غير المتقبل فيظل كما هو فى وجه صاحبه . وهذا ما طلبه اليهود من محمد كدليل على نبوته ؛ فقد طلبوا منه أن يأتيهم بقربان تأكله النار. لقد أدرك قابيل أن قربانه لم يتقبل فى حين تقبل قربان أخيه ، وهنا ثار فى قلبه الحسد الذى هو داء الإنسانية منذ نشوئها ، وبدلاً من أن يصلح نيته ليقبل الله منه ، تفجر غيظاً وحسداً، وقال لأخيه ﴿ لأقتُلَنَّكَ ﴾ وهنا وعظه أخوه فقال له ﴿ إنَّمَا يَتقَبَّلُ الله منَ المُتَّقين ﴾ ؛ لينبه أن القبول مقترن بالإخلاص والتقوى ، فعليه أن يتقى الله ويخلص عمله لله وإذا ذاك يتقبل منه . ولكى يستعطف قلبه أتم الموعظة بقوله : ﴿لَئن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ لتقتلنى ..﴾ الآية ، أى إذا أنت مددت يدك إلى بالإساءة فلن أرد إساءتك بمثلها ؛ لأننى أخاف الله رب العالمين، وذكره أنه بالقتل يتحمل آثامه وآثام القتيل ويبوء بإثم الاثنين ، وينال جزاء الظالمين الذى هو نار جهنم .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَت لَهُ نَفسُهُ قَتلَ أخيهِ فَقَتَلَهُ فَأصبَحَ مِنَ

**الخَاسِرِين﴾** إشارة إلى أن الحسد يطمس البصيرة ويوقر المسامع ، وأن الحاسَدَ لاهم له إلا أن يفرغ سم نفسه الخبيثة فى المحسود ؛ وذلك لأن قابيل بعد تلك الموعظة المؤثرة غلبته نفسه الأمارة فهونت فى عينه قتل أخيه وسهلته فقتل أخاه فخسر بذلك دينه وآخرته ، وأصبح إماماً لكل سفاح .. وسن بإجرامه تلك السنة السيئة التى أصبح عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » .

**رابعاً** : روى أن قابيل حين قتل أخاه حار فى أمره كيف يوارى جثمان أخيه؟ ولم يهتد إلى طريقة ؛ لأن هابيل كان والله أعلم أول ميت من بنى آدم، فحمل الجثة فى جراب على ظهره مدة طويلة حتى أراد الله بحكمته أن يعلم بنى آدم إكرام الميت بدفنه ، وهنا أرسل غرابين بأمره ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ فاقتتلا على مرأى من قابيل فقتل أحدهما الآخر فطفق يبحث بمخالبه فى الأرض حتى حفر حفرة ثم دفن أخاه فيها. هنالك صاح قابيل متأسفا على سنة من الزمان قضاها وهو يحمل الجثة ﴿ **يَا وَيلَتَى أعَجَزتُ أن أكُونَ مِثلَ هَذَا الغُرَاب فأُوارِىَ سَوءَةَ أخِي فأصبَحَ مِنَ النَّادمين** ﴾ ويخطئ كثير من المتكلمين فيقولون : عجزت عن الأمر بكسر الجيم ، والصحيح عجزت ، والمضارع يعجز بكسر الجيم، والاستفهام البلاغى ﴿ **أعَجَزتُ أن أكُونَ مِثلَ هَذَا الغُرَاب** ﴾ يفيد التحسر والاستصغار .

**رابعاً**: قوله تعالى : ﴿ **من أجلِ ذَلكَ كَتَبنا عَلَى بَنِي إسرَائِيلَ أنَّهُ مَن قَتَلَ نَفساً بغَيرِ نَفسٍ أو فَسَادٍ فِي الأرضِ فكأنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ومَن أحياهَا فكأنَّمَا أحيَا النَّاسَ جَمِيعاً ولَقَد جَاءَتهُم رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إنَّ كَثِيراً**

**مِّنهُم بَعدَ ذَلكَ فِى الأَرضِ لَمُسرِفُون ﴾** معناها : من أجل فداحة القتل ومن أجل كرامة النفس الإنسانية المؤمنة البريئة على الله كتبنا فى حكمنا وشرعنا الشريف، وأرسلنا رسلنا بهذا الحكم العظيم : من قتل نفساً بالباطل والظلم بدون أن يكون القتيل مستحقاً للقتل فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ وذلك لأن القاتل سار فى قافلة القتلة المجرمين يعمق فى الدنيا مفهوم الجريمة ويزين للعصاة اقترافها ويزيد بذلك ركب الإجرام . وأما من ينقذ نفساً إنسانية من القتل كأن ينقذ غريقاً أو يخلص مظلوما من بين يدى سفاحين ، أو يكشف حقيقة طمسها المجرمون للإيقاع ببرىء **﴿ فكَأَنَّمَا أحيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾** ؛ وذلك لأنه أذاق الإنسانية طعم صنائع المعروف ورسم للناس طريق الجرأة فى إغاثة الملهوف وعلم الإنسانية معنى الفرصة العظمى حين ينجو البرىء من البطش الغشوم ، وهو بهذا يعلم الدنيا كلها الشجاعة فى إنقاذ من يعتدى على نفسه وحياته ؛ لأن حق الحياة حق سماوى مشروع يطالب كل إنسان بالدفاع عنه .

ترى من يعلم الدنيا فى هذا الأيام حرمة النفس الإنسانية ونحن نرى كل يوم آلافاً مؤلفة من النفوس البريئة يزهقها جناة ظلمة دونما ذنب جنته ؟! إن القتل الآن مستحر فى معظم أنحاء العالم لا لسبب إلا لتسيل دماء بريئة تحت أقدام طواغيت يقيمون صروح نفوذهم على جماجم الشعوب، ولو قرؤوا القرآن لأدركوا كرامة الإنسانية على خالقها . إن الإسلام لا يبيح إراقة دم المسلم إلا الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه الخارج على جماعة المسلمين ، وبغير هذه الأمور لا يجوز أبداً أى عدوان على الحياة؛ لأنها مقدسة عند ربها ، وفى الحديث الشريف : «لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن » .

# عقيدة النصارى شرك

كثيراً ما أجلس إلى بعض المتعلمين من النصارى فيدور حديث حول التوحيد والشرك ، فيدعى للوهلة الأولى أنه موحد غير مشرك ، ولكن حين أسأله من الإله الواحد الذى تفرده بالعباده ؟ يتلعثم ؛ لأنه بالفعل والواقع وحقيقة الأمر لايعبد إلها واحداً ؛ إذ هو موزع بين الآب والابن وروح القدس . ومع أن الدين الذى جاء به عيسى عليه السلام هو دين التوحيد ، إلا أن النصارى لم يزالوا يغيرون ويبدلون ويغالون فى دينهم حتى تحولوا الآن مشركين على الرغم من مجادلات وفذلكات وسفسطة كلام يحاولون أن يثبتوا بها أن الثلاثة الذين يعبدونهم إنما هو واحد ، والواحد الذى يعبدونه هو ثلاثة ، وهو كلام متناقض لا يقره المنطق ولا يفهمه العقل المستنير . والقرآن الكريم يخاطبهم جميعاً على مختلف مذاهبهم فيدمغهم بالكفر فى منطق يفتح مغاليق العقول ، وأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، وهذه آيات من سورة المائدة تضع حداً لخرافة من أفظع خرافات النصارى ، وهى تأليه عيسى عليه وعلى نبينا وجميع الأنبياء الصلاة والسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُم إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ**

**انظر أنّى يُؤفكُونَ﴾** [المائدة : ٧٢ ـ ٧٥] .

أقول وأسأل الله لى وللمسلمين إيماناً لا نلبسه بظلم ، وتوحيداً مخلصاً يكون لنا نوراً فى القبر والمحشر وعلى الصراط وفى الجنة :

**أولاً** : يفند القرآن الكريم غلو النصارى فى عيسى ابن مريم فيقول : **﴿ لَقَد كَفَرَ الَّذينَ قَالُوا إنَّ الله هُوَ المَسيحُ ابنُ مـــريَمَ وَقَالَ المَسيحُ يَابَنى إسرَائيلَ اعبُدُوا الله ربِّى وربَّكُم إنَّهُ مَن يُشـركِ بالله فَقَد حرَّمَ الله عَلَيـه الجَنَّةَ وَمَأوَاهُ النَّارُ وَمَا للظَّالمينَ من أنصَار ﴾** ومعناها : أن الذين يتخذون المسيح ابن مريم إلهاً هم كفار مرتدون عن دين عيسى عليه السلام ؛ لأن عيسى نفسه ما هو إلا واحد من قافلة الأنبياء ، وجميع أنبياء الله بعثوا بشيء واحد وهو توحيد الله الخالص . والواو فى قوله تعالى : **﴿وَقَالَ المَسيحُ ابنُ مريَم ﴾** ليست عاطفة ، لأنه لايستقيم المعنى أن تقول: لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح ابن مريم : يابنى إسرائيل اعبدوا ربكم ؛ لأن قول عيسى حصل قبل كفرهم؛ ولأن الجملتين ليس مما يجوز بينهما الوصل بواو العطف ، لكن الواو هنا حالية ويصبح المعنى : لقد كفر الذين ألهوا عيسى مع أنه أمرهم بالتوحيد، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم واو الحال قبل الماضى دون أن يقرنها بقد كقوله تعالى : **﴿ حتّى إذَا جَاؤُوهَا وَفُتحَت أبوَابُهَا ﴾** [الزمر : ٧٣] أى وقد فتحت أبوابها .

إن المسيحيين إذ يتخذون عيسى إلها إنما يعصون عيسى نفسه ؛ لأنه أنذرهم أن الله قد حرم الجنة على كل من أشرك مع الله غيره فى العبادة، وأعلن أن كل مشرك لن يدخل الجنة ، ولن يكون له من الله أنصار يمنعونه من عقاب الله . إن النصارى لو قرؤوا الإنجيل لرأوه دعوة إلى

توحيد الله ، فكيف يبعث عيسى عليه السلام داعياً إلى التوحيد كسائر إخوانه الأنبياء ثم يقول للناس : اتخذوني إلهاً ؟! وإلى هذه الحقيقة يشير الله في قوله في سورة آل عمران : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ** ﴾ [ آل عمران : ٧٩] وذلك لأن الله ما آتاه الكتاب والحكم والنبوة ، إلا لينشر التوحيد الخالص فكيف يتحول إلى داعية شرك والرسل جميعاً هم بشراء التوحيد ؟!

**ثانياً** : وكما كفر الذين قالوا : ﴿ **إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ فقد كفرت فرق أخرى تقول : إن هنالك ثلاثة آلهة تدبر أمر الدنيا ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** ﴾ ؛ لأن الكون كله ينطق بدون لسانه أن خالقه إله واحد ؛ إذكل ما في الكون شاهد على وحدانية الخالق ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [ الأنبياء : ٢٢] وهنا يتهددهم القرآن بأنهم إن لم يتركوا هذه الأكذوبة الفظيعة ، فسوف يرسل الله عليهم عذاباً أليماً ، ثم يسوق هذا الاستفهام البلاغي الذي غرضه الحض والحث ﴿ **أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وكلمة ﴿**أفلا**﴾ هي كلمة ألا حرف الحض اتصلت بها فاء العطف، وهمزة الاستفهام من بين حروف الاستفهام تأتي قبل حرف العطف؛ وذلك لأنها رئيسة حروف الاستفهام ، فهي تأتي للتصور وللتعيين. إن حرف (هل) وغيره من أسماء الاستفهام مثلاً لا يتقدم على حرف العطف ، بل يتقدم عليها العطف فتقول : وهل رأيت؟ وتقول : فمن أخبرك ؟ أما الهمزة فتأتي قبل حرف العطف فتقول : أو علمت بالخبر؟ أفتصدق الوشاة ؟وفي القرآن الكريم: ﴿ **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ** ﴾ [يونس : ٥١].

**ثالثاً** : ثم يدمغهم القرآن الكريم فيواجههم بالقرآن القاطع على عدم ألوهية عيسى ؛ وذلك لأنه أولاً انحدر من البشر ؛ ولأن الطبيعة البشرية تتجلى بوضوح فيه وفى أمه فهى امرأة كسائر النساء فضلها الله بتصديقها بآيات ربها وكتبه ، وهو عليه السلام رجل كسائر الرجال فضله الله بالنبوة ، ثم يسوق القرآن الكريم كناية من أعظم الكنايات أدباً وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ** ﴾ ولم يزد على ذلك ، ولكن كل من يأكل الطعام لابد أنَ يتخلص من فضلات البول والغائط ، والقرآن الكريم ينبه بأدب وكناية إلى هذه الحقيقة لكنه لا يذكرها صراحة ؛ لأن للقرآن الكريم مستوىً رفيعاً فى التعبير لاينحدر عنه أبداً . وقوله تعالى عن المسيح وأمه : ﴿ **كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ** ﴾ برهان على أنهما لا يمتازان بشىء عن الطبيعة البشرية وليسا ملكين ، ولو كان عيسى إلهاً؛ لتنزه عن الذهاب إلى الغائط للتخلص من الفضلات ، ثم يختم الآية الكريمة خاتمة تكشف ضيق أفقهم وضعف عقولهم فيقول جل جلاله: ﴿ **انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ ومعناها : تأمل يا محمد كيف نبين للنصارى دلائل الوحدانية ، وبراهين التوحيد الواضحة البينة ، لكنهم رغم سطوع البراهين ينصرفون عن منطق العقل، وعن صفاء التوحيد لينحرفوا إلى الشرك المردى الذى يحبط الأعمال ولا تقبل معه التوبة ، ولو أن لهم عقولاً يفقهون بها ؛ لعادوا إلى رحاب الإيمان الخالص والتوحيد الصافى ولأيقنوا أن المسيح ابن مريم ما كان سوى نبى كسائر الأنبياء والرسل ، وأمه ما كانت سوى صديقة كسائر الصالحات من النساء .

# من لم يحكم بما أنزل الله
# فهو كافر ظالم فاسق

لعل أهم دعامة من دعائم المجتمع الإسلامى دعامة لا يستقيم أمره إلا بها ، بل ولا يستحق اسم إسلامى إلا إذا أقامها وحرسها وحمى حماها . إن دعامة المجتمع الإسلامى بل إن قوامه وعماده أن يكون الحكم فيه بما أنزل الله ، فإذا فقد المجتمع الإسلامى هذا العماد فتلك قاصمة الظهر ، ومصيبة المصائب . وإنى مورد هنا آيات من سورة المائدة توضح أن الحكم بغير ما أنزل الله هو كفر بالله ، وظلم من الحاكمين وفسوق عن أمر الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إنَّا أنزلنَا التَّوراةَ فيـهَا هُدىً ونُورٌ يَحكُمُ بهَا النَّبيُّونَ الَّذينَ أسلَمُوا للَّذينَ هَادُوا وَالرَّبَّانيُّونَ والأَحـبَارُ بمَا اسـتُحـفظُوا من كتَاب الله وَكَانُوا عَلَيه شُهَدَاءَ فَلاَ تَخشَوُا النَّاسَ وَاخشَوْن وَلاَ تَشتَرُوا بآيَاتى ثَمَناً قَليلاً وَمَن لَّم يَحكُم بمَا أَنزَلَ الله فَأُولَئكَ هُمُ الكَافرُونَ * وَكَتَبنَا عَلَيهم فيــهَا أَنَّ النَّفسَ بالنَّفس وَالعَينَ بالعَين وَالأَنفَ بَالأَنف وَالأُذُنَ بالأُذُن وَالسِّنَّ بالـسِّن وَالجُرُوحَ قصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ به فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحـكُم بمَا أَنزَلَ الله فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ * وَقَفَّينَا عَلَى آثَارهم بعيسَى ابن مَريَمَ وَآتينَاهُ الإنجيلَ فيــه هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقــاً لمَا بَينَ يَدَيه منَ التَّوراةَ وَهُدىً وَمَوعظَةً للمُتَّقينَ * وَلَيَحكُم أهلُ الإنجيلَ بمَا أَنزَلَ الله فيــه وَمَن لَّم يَحكُم بمَا أَنزَلَ الله فَأُولَئكَ هُمُ الفَاسقُونَ** ﴾ . [المائدة : ٤٤ ـ ٤٧] أقول وأفوض أمرى إلى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين :

**أولاً** : تتعرض هذه الآيات لأخطر أمور المنهج الإسلامى ، وهى الحكم بما أنزل الله ، ويلفت النظر فى الآيات أن الإسلام ينظر إلى جميع الكتب المنزلة

من السماء نظرة إجلال وتصديق ، فالتوراة بنص القرآن فيها هدى ونور ، والإنجيل فيه هدى ونور ، وكل من التوراة والإنجيل فيهما حكم الله ، فلماذا لا يحكم اليهود بما أنزل الله فى توراتهم ؟ ولماذا لا يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه؟ إنه الهوى الذى عدل بالأمم السابقة عن منهج الله فتركت حكم الله من أجل ثمن قليل ومن أجل مخافة الناس . والإسلام باحترامه للكتب السماوية يثبت أنه الدين الصالح لهذا العالم كله إذ فى نظره أن من يحكم بالتوراة غير المحرفة فقد حكم بما أنزل الله، ومن يحكم بالإنجيل غير المحرف فقد حكم بما أنزل القرآن ، وما القرآن إلا كتاب من الكتب السماوية له ميزة عظيمة وأنه يشتمل على كل ما فيهما ويصدق كل ما جاء من أحكام الله فيهما.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ معنى الآية : أن الكتب السماوية مصدرها واحد وشرعها واحد ، فالله هو الذى أنزلها كلها ، وقد أنزل التوراة فيها هدى يهدى به الله عباده سبل الخير والسلام ، وفيها نور هو الإيمان والأحكام العظيمة . والتوراة نزلت ليحكم بها الأنبياء بين الناس ، ووصف الأنبياء بقوله : ﴿ **الَّذِينَ أَسْلَمُوا** ﴾ مشيراً إلى أن جميع النبيين دينهم الإسلام ، ثم إن النبيين حين توفاهم الله أورثوا الكتاب علماء الأمة ، وبذلك حملوا أمانة حفظ الكتاب ونشره والشهادة على من اتبعه ، وعند هذه النقطة يلتفت إلى خطاب أمة محمد فيقول لهم : لا تفعلوا بقرآنكم كما فعل أحبار اليهود بتوراتهم ، فلقد بدلوها وحرفوها إما خوفاً من الناس أو طمعاً فى ثمن بخس من حطام الدنيا ﴿ **فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً** ﴾ كما

فعل أصحاب الكتب السماوية من قبلكم وهنا يقرر الحقيقة العظيمة التى ترسم المنهج القرآنى لكل حاكم ومحكوم ، فيقول جل جلاله : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ وهو حكم من الله جل جلاله بأن كل حاكم يميل عن شريعة الله إلى القوانين الوضعية فهو كافر ؛ وذلك لأنه لم يرض ما ارتضاه الله له من منهج حكيم عادل وعدل عنه إلى قوانين من وضع البشر .

**ثالثاً** : وتوكيداً لاحترام الإسلام للتوراة يلقط منها لقطة حول القصاص والنفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ويزيد قائلاً : ﴿ **فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ** ﴾ ؛ أى أن من تنازل عن حقه لأخيه فى أمر القصاص فتلك كفارة لذنوبه ، ثم يختتم بهذه الخاتمة الدامغة لكل حاكم ينحرف عن منهج الله ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ وقد فسر أشياخنا الآيات التى تدين من لم يحكم بما أنزل الله بأنهم كافرون ، وظالمون ، وفاسقون بأن الحاكم الذى يحكم بغير بما أنزل الله يكون كافراً إذا أنكر الحكم بما أنزل الله وأنكر مشروعيته ، ويكون ظالماً إذا لم يحكم بما أنزل الله خوفاً من الناس ، ويكون فاسقاً إذا لم يحكم بما أنزل الله من أجل طمع دنيوى .

**رابعاً** : وبعد أن انتهى من ذكر التوراة وحث على الحكم بما فيها ، عرض للإنجيل الذى أنزل على عيسى ابن مريم وقال : ﴿ **فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ وقال فى ختام ذكر الإنجيل: ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ .

**خامساً** : قيل فى سبب نزول الآيات : إن اليهود طلبوا من رسول الله ﷺ أن يلغى حد الرجم وأخفوه من كتابهم حتى فضحه بعض أحبارهم فكشفوا

الحقيقة ، وقيل : إن بنى قريظة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يعتبر القتيل من بنى قريظة باثنين من بنى النضير ؛ جرياً على تقليد ظالم درجوا عليه فى الجاهلية ، فنزل القرآن ينهى عن الحكم بالهوى ، ويصدر حكمه على كل من حكم بغير ما أنزل الله أنه مرتد عن شريعة الله إلى الكفر .

**سادساً** : إن أمتنا العربية هى بفضل الله شعوب مسلمة ، وغير المسلمين فى الأمة العربية قلائل جداً لا تكاد نسبتهم تذكر ، والشعوب العربية كلها تتطلع فى شوق ولهفة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ؛ وذلك لما تحققه من انتشار الأمن والعدالة والرخاء والمساواة ، والسؤال هو : ما الذى يمنع أن يطبق حكم القرآن على جميع شعوب أمتنا خصوصاً وأن القرآن يحكم فى غير مواربة على كل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله بأنه كافر وظالم وفاسق ؟! ومثل هذا الحكم ينطبق على المفكرين من الأمة الذين ينادون بتطبيق القوانين الوضعية وترك أحكام الله، بل وينطبق على كل مواطن فى بلاد الإسلام لا يرتضى حكم الله ولا يسلم له تسليماً . إن الآيات الواردة فى هذا الأمر العظيم مخيفة جداً ومن منا يرضى أن يجد اسمه يوم القيامة فى سجلات الكافرين ؟! إن هذا الأمر مخيف حقاً ، ولا أظن أن أى حاكم أو محكوم فى ديار العروبة والإسلام يرضى بعد أن أكرمه الله بالإسلام أن يوصم بالكفر والظلم والفسوق ويكتب عند الله فى سجل الكافرين . نسأل الله أن يهدى أمتنا وقادتها إلى حكم القرآن لنتفيأ ـ بإذن الله ـ ظلال الأمن والإيمان .

# شهادة الحق وأداؤها

هذه ثلاث آيات من سورة المائدة وصفها بعض المفسرين بأنها من أصعب وأشكل آيات القرآن الكريم فى المعانى والإعراب موضوعها ( وصية من يموت فى ديار غربة وله مال ) وقد رأيت أن أوردها لعلى أتمكن ـ إن شاء الله ـ أن أوضح ما فيها من إشكال .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٦ ـ ١٠٨] .

هذه هى الآيات الثلاث الكريمات وهذا شرح لمعانيها العظيمة :

أولاً : فى هذه الأيام يموت مئات الآلاف من المسلمين فى ديار غربة أو ديار وأوطان لغير المسلمين ؛ وذلك لأن العالم فى هذا العصر قد اختلط ، والمسافات قد طويت ، وانطلق كثير من المسلمين إلى بلاد الناس بين طالب علم وتاجر ومستثمر ومسترزق ، وهؤلاء قد يأتى الكثيرين منهم أجلهُ هناك ، وفى هذه الحال يجب عليه إذا أحس بدنو الأجل أن يوصى، وأن يشهد على وصيته اثنين إما من المسلمين إن وجد من حوله

مسلمين ، وإما من أهل الأخلاق من النصارى إذا لم يجد من حوله مسلمين . وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم** ـ أى الشهادة المطلوبة شرعاً فيما بينكم ـ **إذا حضر أحدكم الموت** ـ أى إذا أحس أحدكم بدنو أجله ـ **اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم** ـ أى شهادة شاهدين عدلين مسلمين أو آخرين كتابيين ـ **إن إنتم ضربتم فى الأرض** ـ أى سافرتم عن دياركم ـ **فأصابتكم مصيبة الموت**﴾ .

**ثانياً** : إذا وجد من حول الميت المغترب اثنان من أقاربه ، فهما أولى بالشهادة على وصيته ، وإلا فاثنان من المسلمين العدول ، وأخيراً يمكن أن تقبل شهادة الأجانب للضرورة ، فيحبس الشاهدان من بعد الصلاة ويحلفهما القاضى ـ إذا لم يكونا معروفين له أو ارتاب فى صدقهما ـ قبل وبعد صلاة العصر ؛ لأن العادة جرت بذلك ، وقيل : بعد أى صلاة ؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والمرء حين ينصرف من صلاته يكون مستشعراً صلته بخالقه ؛ ولهذا يرجى منه الصدق ومراقبة الله فى الشهادة، وإذا كان الشاهدان كتابيين فيشهدان بعد صلاتهما ويستحلفان بأقدس ما يحلفون به فى دينهم أيضاً ، ويكفى القسم بالله دون زيادة ، وإذا رأى القاضى أن يزيد بعد لفظ الجلاله بعض أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ليوقع الخشية فى قلوب الشهداء جاز له ذلك ، ويقسم الشاهدان أن يؤديا شهادتهما بصدق ولا يبيعا عهدهما وذمتهما بعرض دنيوى رخيص، وألا يكتما شهادة الله من أجل مصلحة قريب أو صديق ؛ لأن من يكتم الشهادة ﴿**فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

**ثالثاً** : إذا اكتشف القاضى بتحرياته أن الشهادة خالطها زور بسبب خوف أوطمع أو قرابة أو مصلحة ، فإنه يستدعى اثنين من أقارب الميت الذين

يعرفون معرفة دقيقة أحوال الميت وأمواله وتجارته وممتلكاته ، فيقسمان بالله إن شهادتهما أصدق وأحق من اللذين سبقاهما واستحقا إثماً ، ويقسم هذان الأوليان ألا يعتديا على حق بشهادتهما ؛ لأن الاعتداء على حقوق الورثة أو غيرهم ظلم للعباد .

**رابعاً** : بهذه الطريقة يوصل إلى الحق ويكون الشاهدان الأولان متخوفين من الزور ، فيأتيان بالشهادة على حقيقتها مخافة أن ترد أيمانهم ، ويؤتى بشهود فيكشفون فضيحة التزوير ، ثم يختم الله الآيات خاتمة فى غاية البلاغة ؛ لأن القرآن الكريم لا يكتفى بتشريع الحقوق ، لكنه يخاطب ضمائر المؤمنين ألا يعتدوا على الحقوق ، وبذلك لا يكتفى أن يرد الأمور إلى القانون والعقوبات إنما يمنع انتشار الجريمة بتربية الضمائر ، فيقول جل جلاله فى ختام آيات الشهادة : ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ وَاسمَعُوا** ﴾ أى استمعوا إلى أوامره الحكيمة سماع إيمان وإجابة وقبول : ﴿ **وَاللهُ لاَ يَهدِى القَومَ الفَاسِقِينَ** ﴾ مشيراً إلى أن كتمان الشهادة أو التلاعب بها هو من أخلاق الفاسقين الذين لم يكن الله ليهديهم .

**خامساً** : قيل فى مناسبة نزول هذه الآيات الكريمات : إن مولى لبنى سهم وهم فخذ من قريش ينتمى إليه عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ كان يتردد إلى بلاد الشام فى تجارته فمرض فى إحدى سفرياته ، ولما أحس بالموت ؛ كتب وصيته ولفها فى متاعه ووجد رجلين من المسيحيين متوجهين إلى مكة فى تجارة، ويقال: إن أحدهما كان تميماً الدارى قبل إسلامه ـ رضى الله عنه ـ وأوصاهما أن يوصلا متاعه إلى أهله من بنى سهم ، ولكن يبدو أن تميماً وزميله فتحا المتاع فوجدا فيه جاماً ـ أى وعاء كالإبريق من فضة موشاة بالذهب ـ قيمته كبيرة ، فأخفياه وباعاه بألف درهم ، وأوصلا بقية المتاع إلى أقرباء الميت ، فوقعت فى أيديهم ورقة

الوصية ، فاستحلفا تميماً وزميله ، فحلفا بالله ما رأيا الجام ولاخانا في شيء من المتاع ، ولكن الجام عثر عليه في بعض أسواق مكة؛ فأفاد صاحبه أنه اشتراه من تميم وزميله عدى ، وعندئذ استدعى رسول الله شاهدين عدلين من بني سهم منهما عمرو بن العاص - رضى الله عنه - فشهدا بالله أن ذلك الجام هو نفس جام صاحبهم ، فحكم النبي ﷺ برد ثمن الجام إلى أولياء الميت ، ونزلت الآية الكريمة تؤكد على أن تكون الشهادة من اثنين من أقارب الميت أو اثنين من غيرهم إذا لم يتيسر الأمر لتأتي الشهادة على وجهها .

**سادساً** : على المقيمين في الخارج من المسلمين أن تكون وصاياهم جاهزة حتى لا تضيع الأموال الإسلامية زوراً بين الأجانب ، وعليهم أن يأتمنوا من إخوانهم المسلمين العدول من يضمن إيصال أموالهم إلى ذويهم دون إجحاف بالورثة والأهل .

فسبحان من هو أدرى بمصالح العباد من أنفسهم ، وسبحان من شرع في قرآنه كل ما يضمن سعادة المعاش والمعاد .

# لا تقتل نفسك أسفاً إذا لم يهتدوا

كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يتألم ويهتم ويأسى ويحزن لما يرى من عناد قومه وإعراضهم وتكذيبهم ، وكان كثيراً ما يوغل فى الأسف حتى لقد لامه ربه جل وعلا لما كان يحمل نفسه من الهموم ، فقال جل وعلا في سورة الكهف يخاطبه : ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ [الكهف : ٦] ومعناها : إن من المحتمل أن تموت أسفاً إذا لم يؤمنوا بما جئت به ، وهذه آيات من سورة الأنعام نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى حال من الحزن توشك أن تسلمه إلى الموت ؛ ولهذا تضمنت الآيات الكريمة تعزية ذات أسلوب تأخذ بلاغته بمجامع القلوب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ * وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنعام : ٣٣ ـ ٣٦] .

هذه هى الآيات العظيمات ، وهذه بعض أسرار بلاغتها وإعجازها ومراميها الحكيمة :

**أولاً** : قوله تعالى : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ** ﴾ معناه : نحن نعلم بالتأكيد أنك تحزن كثيراً لما تسمعه من قومك من ألفاظ الشرك والعناد والإعراض . ويلاحظ فى الجملة كثرة المؤكدات مثل كلمة : ﴿**قد**﴾ وإن

ولام التوكيد ، وهنا يسوق الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ عبارة تعزيه في غاية التأثير فيقول له : ﴿ **فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ ومعناها : أن كفار قريش لا يكذبونك أنت ، ولكنهم ينكرون ويكذبون بآيات الله، ولك يا محمد عزاء بحلم الله عليهم ، وإذا كانوا يكذبون كلام ربهم فيقابل تكذيبهم بالحلم، فمن باب أولى أن تصبر أنت على ما يقولون .

**ثانياً** : ساق الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ أربع تعزيات : الأولى تلك التى ذكرناها وهى أن الظالمين لا يكذبون محمداً ، ولكنهم يكذبون بآيات رب محمد ، فاصبر عليهم كما حلم عليهم ربهم ، والثانية : هى من سير الأنبياء وهى قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ ومعناها : لست أول من كَذِّب يا محمد فكثيرون من الأنبياء كذبهم قومهم فصبروا على التكذيب والأذى حتى جاءهم نصر الله ، وسنة الله أن ينتصر الحق على الباطل مهما طالت المعركة ، ولا مبدل لهذه السنة أبداً ، ولقد عرفت يا محمد كثيراً من قصص المرسلين وكيف انتصروا فى نهاية المطاف بعد الصبر والأذى والعذاب . وكلمة ﴿ ما ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ **فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا** ﴾ مصدرية ، والمعنى صبروا على التكذيب والإيذاء . وكلمات الله التى لا تتغير ولا تتبدل هى قضاؤه الحكيم بأن ينتصر الحق على الباطل ، وهى سنة الله التى لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ**

**عَلَى الـهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِين** ﴾ ومـعناه : إذا ثقل عليك أمـر الكافـرين ولم تطق عنادهم وإعـراضـهم عن الهـدى ، وعظم عليك أن تصبر على صدودهم عن الحق، فالتمس لك مفراً ومهرباً من هذا الواقع المرير، وذلك بأن تبحث لك عن نفق تنزل به تحت الأرض ، أو عن سلم تصعد به إلى السماء ، وذلك لتبعد عنهم لتستريح من الكفر والعناد . إن الجملة الشرطية ﴿ **إن استَطَعتَ أن تَبتَغِي نَفَقاً فِي الأرضِ أو سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأتِيَهُم بِآيَةٍ** ﴾ قـد حـذف فـيـهـا جـواب الشـرط والتـقـدير : إن استطعتَ أن تطلب ذلك النفق وذلك السلم فافعل ، ثم يسوق الله جل جلاله في ختام هذه التعزية الربانية البليغة حكمة بالغة وموعظة حكيمة فيقول تبارك وتعالى : ﴿ **وَلَو شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الـهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِين** ﴾ ومعناها : لو شاء ربك يا محمد لهدى الناس جميعاً ، ولكن لربك حكمة في اختلاف الناس وانقسامهم بين الحق والباطل ، إذ لولا هذا الاختلاف ما عرف الناس الحق من الباطل ، ولا الإيمان من الكفر ، ولا الشجاعة من الجبن ، ولا الجهاد في سبيل الله من القتال في سبيل الكفر والطاغوت ؛ ثم كـان مسك الختـام في الآية ذلك النهي البلاغي الرائع إذ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم : ﴿ **فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِين** ﴾ مـوضـحـاً بذلك أن إهلاك الإنسـان نفـسـه وراء الكافـرين والمعاندين والمستكبرين عن الحق هو من أخلاق الجاهلين ، وخير منه الصبر والمصابرة والثبات والصمود للدعوة وعدم المبالاة بما يقول الكافرون والغرض من هذا النفي البلاغي لا يخلو من لوم شديد .

**رابعاً** : ثم تأتي التـعزية الرابعة والأخيرة ونعمت التعزيات تأتي من الرب جل جلاله : ﴿ **إنَّمَا يَستَجِيبُ الَّذِينَ يَسمَعُونَ * وَالمَوتَى يَبعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إلَيهِ يُرجَعُون**﴾ [الأنعام : ٣٦] ومعناها : يا محمد إن الذين يستجيبون لك

هم الذين لهم سمع وفيهم حياة ، وهؤلاء المشركون الذين يعرضون عن دينك هم صم وموتى ، والأصم لايمكن أن يسمع ، والميت لا يمكن أن يعقل ولا يمكن أن يعود الميت حياً إلا إذا بعثه الله إليه وأرجعه للحساب . وقد دأب القرآن أن يشبه الكافر المقفل بالأعمى وبالأصم وبالميت . يقول الله تعالى فى سورة الأنعام نفسها : ﴿ **أَفَمَن كَانَ مَيتاً فَأَحيَيناه وَجعلنَا لَهُ نوراً يَمشي به في النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ في الظُّلُمَات لَيسَ بِخَارِجٍ مِّنهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ومعناها: أفمن كان مشركاً جاهلاً فهديناه للعلم والإيمان وجعلنا لهم نوراً من الإسلام ينير له طريق الهدى هل يستوى هذا ومن ظل أعمى في ظلمات الشرك ؟! ويقول الله جل جلاله موازنا بين المؤمنين والكافرين ﴿**مَثَلُ الفَرِيقَين كَالأَعمَى وَالأَصَمِّ وَالبَصِير وَالسَّمِيع** ﴾ [هود : ٣٤] ويقول الله تعالى : ﴿**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً** ﴾ [يس : ٧٠] أى مؤمناً : ويقول جل وعلا : ﴿ **وَمَا يَستَوِي الأَحيَاءُ وَلاَ الأَموَاتُ إِنَّ الله يَسمَعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسمِعٍ مَّن في القُبُور** ﴾ [فاطر : ٢٢] أى تعزية إلهية رائعة أن يقول الله جل وعلا لنبيه وهو فى أشد حالات الحزن : إنك يا محمد غير مكلف أن تسمع الأصم ولا الميت ، فما أنت إلا نذير لأحياء القلوب والأفهام ؟!

# الإسلام دين الرحمة

ما حظى المستضعفون عبر التاريخ من الرفق والرحمة والتقدير بمثل ما وفره لهم دين الإسلام ، وما أجمل ما قال شوقى ـ رحمه الله ـ وهو يذكر هذا المعنى بقوله مخاطباً رسول الله ﷺ :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى　　فالكل فى حق الحياة سـواء

فلـو أن مخـتاراً تخير شرعـة　　ما اختار إلا دينك الفقـراء

وإلى الإخوة القراء هذه الآيات الكريمات من سورة الأنعام ليروا كيف يمد الإسلام للضعفاء يداً حانية رفيقة تمسح على قلوبهم المنكسرة فيجبر كسرها ويصلح بالها وأمرها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام ٥٢ ـ ٥٤] .

أقول وأدعو الله لى وللمسلمين أن يحسن الأحوال ويخلص الأعمال ويصلح البال والمال :

**أولاً** : جاء فى مناسبة هذه الآيات الكريمات ما روى فى الأحاديث الصحيحة أن مشركى قريش ومعهم بعض المتكبرين من زعماء القبائل كالأقرع بن

حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى قالوا لرسول الله ﷺ: ما يمنعنا من الجلوس إليك إلا أنك تقرب فى مجلسك العبيد والفقراء ـ يعنون أمثال صهيب وعمار وبلال وابن مسعود وأمثالهم ـ فإذا طردتهم من مجلسك جلسنا إليك . ولشدة حرص النبى ﷺ على إسلام هؤلاء الزعماء دخل قلبه كلامهم فقالوا له : اكتب لنا بها صحيفة لتكون عهداً ألا تجلسهم معنا ، فدعا عليه الصلاة والسلام علياً ـ رضى الله عنه ـ ليكتب وبينا هو يستعد للكتابة نزل قول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ.. ﴾ الآية ، فأمسك عن الكتابة ، وضاعف من تقريبهم وإكرامهم ، وكان بعد ذلك لا يقوم من مجلسه حتى يكونوا هم الذين ينصرفون قبله . وكان ذلك الموقف الكريم من الوحى الكريم إيذاناً بأن المال والجاه والمنصب ليست مقياساً للفضل والكرامة ، وأن الإسلام هو شرعة المساواة ؛ فلا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ معناه : أن هؤلاء الفقراء لن يكلفوك شيئاً من رزقهم ولا من جزائهم ، فكل إنسان ملزم بنفسه ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فإياك إذاً أن تطردهم فيكون طردك إياهم ظلماً ، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون ظالماً ، لكن فى الآية دروساً للناس باحترام المستضعفين وصون كرامتهم .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ معناه : أن الله جل جلاله امتحن الناس بإيجاد الفروق بينهم ، فهذا غنى ، وهذا فقير ، وهذا

مغمور، وهذا شهير، وذلك لكى يتساءل كفار المشركين عن المؤمنين المستضعفين ويقولوا : كيف يفضل الله علينا هؤلاء العبيد ؟ ونسوا أن مقياس الكرامة عند الله غير مقياسها عندهم فهو جل وعلا أعلم بالشاكر وبالكافر . وما أجمل الاستفهام البلاغى فى قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ ؟ إنه استفهام يفيد الإثبات ، وأن الله جل وعلا هو الذى يطلع على القلوب ويعرف ما انطوت عليه من شكران أو كفران .

**رابعاً** : وزيادة فى احترام المستضعفين يأمر الله نبيه أن يسليهم ويبلغهم السلام من ربهم ويكرر هو تحيتهم بالسلام ، ثم يبشرهم بواسع مغفرة الله ورحمته ، وأن الذنوب يغفرها الله ويرحم صاحبها بمجرد أن يتوب المذنب وينيب ويتبع ذلك بالصلاح والإصلاح .

إن الرحمة أمر عظيم كتبها الله على نفسه ، وجعلها من أعظم صفاته ، وسمى نفسه الرحمن والرحيم ؛ لترجو كل الخلائق رحمته ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

**خامساً** : بعد نزول هذه الآيات الكريمات أضفى رسول الله ﷺ جناح الرعاية على المستضعفين ، فكان لا يقبل كسر شعورهم من أى صحابى حتى ولو كان أبو بكر ـ رضى الله عنه . روى مسلم فى صحيحه : أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب وبلال ونفر معهم فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ـ يعنون بذلك أنهم لم يشفوا غليلهم من أبى سفيان مع أنه كان زعيم المحاربين للإسلام ـ فسمعهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فقال لهم : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ وبلغ

الخبر رسول الله ﷺ فقال للصديق : « يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » ، وروى أن رسول الله ﷺ كان يجلس إلى المستضعفين ثم يعرض له أمر من الأمر فيتركهم ويمضي لأمره فنزل قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ . وكان رسول الله ﷺ يجلس معهم ولا يقوم حتى يقوموا وعرفوا هم ذلك من رسول الله ﷺ فكانوا يستأذنون قبل وقت كافٍ من الصلاة ولم يعد يغضى عنهم مهتماً بغيرهم ممن أوتى زينة الحياة الدنيا كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، ولا عجب ! فهؤلاء هم الذين يذكرون ربهم على كل حال ؛ وبهم وبأمثالهم يبارك الله الأمة ويرزقها ، أما المترفون الذين أغفل الله قلوبهم عن ذكره ، فأولئك كالمستنقع الراكد لا تنبعث منه إلا الأوبئة ولا يجرون على الأمة إلا الويلات ؛ لأن الترف والمترف من أسباب دمار الأمم . نسأل الله أن يحبب إلينا أولياءه ، ويمنحنا وإياكم قبوله ورضاه .

# آية استقبلها اثنا عشر ألف ملك

هذه آية من سورة الأنعام جاء في الأثر : أنها حين نزلت كان في استقبالها اثنا عشر ألف ملك تعظيما لشأنها ، واحتفاءً بجلال موضوعها ومقاصدها .

وإني مثبت إن شاء الله هذه الآية العظيمة ، ثم متبع ذلك بتعليق على نواحي سموها وبلاغتها .

يقول الله جلّ وعلا : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَاتَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَحَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَيَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] أتصور وأنا أرتل هذه الآية الكريمة أنّ علم الغيب قد حفظه الله جلّ وعلا في خزائن ملكه ، واستأثر تبارك وتعالى بمفاتيح تلك الخزائن ،فما يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فإنه حينئذ يكرمه ببعض غيبه ، لكنه يسلك أمامه وخلفه رصداً من الملائكة تحفظه وهو يبلغ رسالات ربه ، ويؤدى أمانة ما استحفظ من غيبه . كان بعض العرب يأتون العرافين ، ويقصدون الكهان يلتمسون عندهم علم الغيب ، وكان بعض الملوك يتخذون لهم منجمين يدعون أن النجوم تعلمهم علم الغيب. فجاء الإسلام ينكر كل هذا ويعلن أن الغيب لله ، وأن كل من يدعى علم الغيب من دون الله، فهو طاغوت ينبذ ويعادى . والغريب أني رأيت الكثيرين من الرجال ، والكثيرات جداً من النساء يشغلون أنفسهم ويضيعون أوقاتهم في التردد على أبواب دجالين ومشعوذين ، وبعد أن تحفى أقدامهم عند أبواب أولئك الأدعياء يعودون وقد وردوا السّراب ، وتجرعوا العذاب ، وباؤوا بالإثم والخسارة .

وبعد : فهذه بعض الإشارات البلاغية في الآية الكريمة :

**أولاً** : في مطلع الآية أسلوبان من أسلوب الحصر أو القصر أو التخصيص جاء

أحدهما بطريقة تقديم الخبر وهو قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ ﴾ .

وجاء الثانى بالنفى الذى بعده إلا وهو قوله تعالى : ﴿ لاَيَعلَمُهَا إلاَّ هُوَ ﴾ وهذا القصر المزدوج تأكيد من الله تبارك وتعالى أنّ علم الغيب قصر على الله العليم الخبير ، وأن التماس الغيب عند غيره من العبيد جهالة وضلالة وخرافة .

**ثانياً** : قالوا فى مفاتيح الغيب : إنها الخمسة الواردة في آخر آية من سورة لقمان: ﴿ إنّ الله عندهُ علمُ السَّاعَة ويُنَزِّلُ الغيثَ ويَعلَمُ مَا فِي الأرحَامِ وَمَا تَدرِي نَفسٌ مَاذَا تَكسبُ غَداً وَمَا تَدرِي نَفسٌ بِأىِّ أرضٍ تَمُوتُ إنّ الله عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] والحق أن هذه المفاتح أوسع مدلولاً ، وأعظم امتداداً من أن تحد بهذه الخمسة ، فخزائن غيب الله فيها ما قدره جل وعلا من الأرزاق والآجال ، وما أودعه الله من أسرار الوجود فى السموات والأرض والأفلاك والنجوم سبحانه ، يخرج الخبء فى السموات والأرض .

**ثالثاً** : فى قوله تعالى : ﴿ وَيَعلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحرِ ﴾ إيجازٌ قصر فى قمة البلاغة؛ لأن هذه الألفاظ الأربعة أغنت عن ذكر ما اشتمل عليه البر من آلاف الأصناف من الحيوانات والنباتات والجمادات ، وما يضمه البحر من ملايين الأصناف من الحيونات والمعادن والجواهر ، وقريبا سيرى الناس أن فى البحر عجائب غير التى ألفوها ، وأسراراً غير التى كشفوها ، وطاقات كامنةً غير التى عرفوها .

**رابعاً** : لايقتصر غيب الله على عظائم المخلوقات ، فالله جلّ جلاله لا يعزب عنه من مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. أرأيت كم فى الأرض من أشجار ، وكم على هذه الأشجار من أوراق ! إن كل ورقة على أى شجرة لها عند الله سجلٌ ، فما تسقط ورقة عن شجرتها فى ليل أو نهار أو صيف أو شتاء أو نور أو ظلام إلا والله جلّ وعلا يعلمها ، وإذا كان

هذا مدى اهتمام الله بورقة على شجرة فكيف سيكون اهتمامه بالإنسان ، ﴿أَيَحسَبُ الإنسَانُ أن يُترَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦] ، ﴿ أَيَحسَبُ الإنسَان أن لَن نَّجمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : ٣] ، ﴿أَفَحَسِبتُم أنَّمَا خَلَقنَاكُم عَبَثاً وأَنَّكُم إلَينَا لاَ تُرجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥].

**خامساً** : حين تمر على الصحارى تضربها الشمس فى هجير الصيف لا ترى فيها أى أثر لحياة أو خضرة أو نضرة ، لكن هذه الأرض القاسية الجرداء تضم في باطنها وعلى سطحها بذوراً تنام فى التراب ، كأن لا أثر فيها لحياة حتى إذا ساق الله لها غيثها المغيث ، إذا هى تصحو من نومها هنالك تناديها القدرة فلاتبقى حبة فى ظلمات الأرض إلا وتستجيب لنداء الحى القيوم المحى المميت. (ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين) . إنه جل جلاله ليس فقط يعلمها ، ولكن لكل حبة سجلاً فى لوحه المحفوظ يتابع نموها وحركتها وخضرتها وإزهارها ، وحبات بذورها ، وقصة حياتها كاملة دقيقة مفصلة .

**سادساً** : وانظر إلى الإيجاز البديع فى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ رَطبٍ وَلاَيَابِسٍ ﴾ وهو إيجاز يجمله الطباق الجميل . إن كل ما فى الكون يتروح بين رطب ويابس ، وبهذا جمع فى هاتين الكلمتين كل ما انطوى عليه الكون العظيم من أشياء من أحياء وجمادات .

**سابعاً** : ألفاظ الآية جاءت بالأسلوب الفخم ، لأن موضوع علم الغيب يتطلب مثل هذه الألفاظ الفخمة ؛ ولأن هدف الآية ومقصدها السامى هو أن تغرس فى القلوب عظمة الله جل وعلا متجلية فى انفراده بعلم الغيب ، وبحفظه لمفاتح الغيب ، وفى معرفته الدقيقة بغيب مخلوقاته ، وخبء أرضه وسمواته ، من الجبل الشامخ طوده ، إلى الورقة الذاوية ، والحبة الدقيقة ضائعة فى ظلام

الأرض ، لكنها على ضآلتها وضياعها تصنع على عين خالقها . ولها سجل تسجل فيه حركاتها وسكناتها ، وأطوار نموها فى أوديتها وروضاتها ، فسبحان من خلق هذا الكون بيده وبقدرته ، ودبّر الأمر بقدره وحكمته .

# قاهر فوق عباده

إذا اعتقد العبد أنه خلق فى هذه الحياة دونما رقابة وأنه متروك بلا حفظ ولا سجل ولا تعقيب ، فقد سفه نفسه ، وأسقط قدره ، وهون على الدنيا أمره . إن أعظم ما شرف الله به الإنسان أن جعل له معقبات من الملائكة يعقبون على أعماله ، ويحفظونه بأمر ربه ، ثم سخر له كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وحمله الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، وهى أمانة العقل وما فيه من فكر واختيار ترتب عليهما التكاليف الشرعية الهائلة .

وإذا اعتقد الإنسان أنه مخلوق سدى ومتروك مهملاً ، فما قدر نفسه قدرها ولا قدر ربه حق قدره ؛ لأنه عز عزه وجل جلاله خلق الجن والإنس ؛ لتحقيق أعظم رسالة وهى أن يعرفوه بآياته ودلائل قدرته ، ومن ثم أن يعبدوه ويوحدوه مؤمنين بوحدانيته وحكمته .

وهذه آيات من سورة الأنعام تبين مدى رعاية الحق جل جلاله للإنسان وهى رعاية لا يكافئها من الإنسان إلا إخلاص العبادة لوجهه وعظمته .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾ [الأنعام : ٦٠ ـ ٦٢] .

أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين كل عمل صالح يستوجب الرحمة، وكل توبة صادقة تستوجب المغفرة :

**أولاً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وهُوَ الَّذى يَتَوَفَّاكُم باللَّيلِ ويَعلَمُ ماَ جَرَحتُم بالنَّهار** ﴾.

وصف النوم أنه وفاة ؛ لأنَ الله جل وعلا جعل النوم راحة ؛ لأنَ الإنسان إذا نام قبض الله نفسه المتصرفة المفكرة المميزة فغاب عنه الوعى وسقط عـنه التكليف وأصبح فى حكم المتوفى ، حتى إذا جاء النـهار بعثه الله من مرقده ؛ ليستوفى رزقه، وليقضى الأجل المسمى الذى حدده الله جل جلاله لموته ويكون النهار فرصة للجوارح أن تعمل ما يسرت له من خير أو شر ، لكن النتيجة التى يجب أن يؤمن بها العبد أن إلى الله مرجعه وأن ربه لا تغيب عنه من أعمال الإنسان غائبة ؛ ولهذا فسوف يفاجأ الإنسان فى القيامة إذا نبأه الله بكل صغيرة وكبيرة عملها فى حياته .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ **وَهُو القَاهِرُ فَوقَ عِبَاده ويُرسلُ عَلَيكُم حَفَظَةً حتَّى إذَا جَاءَ أحَدَكُمُ المَوتُ تَوفَّتهُ رُسُلنَا وَهُم لاَ يُفرِّطُون** ﴾ معناه أن الله جل وعـلا غـالـب على أمره قـاهر لعبـاده ، إرادته فـوق كل إرادة ، ومن ثم فالإنسان مهما اتخذ الأهبة وشد العزيمة لا يبلغ مراده إلا بأمر ربه ؛ لأن الله جل جلاله قاهر فوق العباد ، وكلمة ﴿ **فوق** ﴾ لا تفيد المكانية وأن الله جل جلاله هو فوق العبـاد فى الموضع والمكان ، ولكنه فوقـهم فى العلو والعظمة ، نعم إنه هو العلى العظيم . إن الإنسان وإن أعطى حرية التصرف بما وهبه الله من اختيار منبثق عن العقل المميز لكنه لا يستطيع أن يبلغ كل مـا يريد ؛ لأن الله جل جـلاله له الخلق والأمـر والقـضـاء الحكيم وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل على كل إنسان حفظة أقوياء الحافظة ، متقنين للكتابة يحصون عليه كل عمله . نعم إن على المرء حافظين كراماً كاتبين ، يعلمون كل ما يصدر عنه من فعل أو تصرف ، وهذه الحقيقة عظيمة كبيرة الأثر فى حياة الإنسانية ؛ لأن الإنسان إذا اعتقد أنه محفوظ بأمر الله ، وأنه مرهون بأجله مسؤول عن عمله ، عندئذ

يكون لديه ضابط لأعماله وتحكم فى سلوكه ، وإحصاء دقيق لكل تصرفاته ، فيلتزم الحسنات ، ويسارع فى الخيرات ويكون منطلق أعماله الإيمان ، ومفتاح أخلاقه الإحسان. أما إذا اعتقد أنه خلق عبثاً وترك سدى وألقى به فى هذه الحياة لقى مهملاً ، فهنالك تسيطر عليه الحيوانية ، وتنطلق أفعاله عشوائية كما يسلك الحيوان الأعجم . ويختم الرب جل وعلا الآية الكريمة خاتمة تملأ القلوب إحساساً بالمسؤولية والتزاماً بالفضائل ، إذ يذكر الإنسان أنه إذا قضى أجله المسمى وأتاه اليقين أرسل الله له رسلاً من الملائكة تتوفاه وتختم سجله فما يفرطون فى صغيرة ولا كبيرة من عمله ، وهذا هو المنهج التربوى فى الإسلام يذكره بدء حياته ونهايتها ، فيربى ضميره على اليقظة الدائمة التى تقف للحرام بالمرصاد .

**ثالثاً** : وأخيراً يختم الله هذه الموعظة الكريمة بذكر اليوم الآخر الذى توضع فيه الموازين القسط ليوم القيامة ، فيرى الإنسان كل صغيرة وكبيرة من عمله خيراً كان أم شراً .

ويلفت النظر فى الأداء القرآنى العظيم للآية الأخيرة ذلك الأسلوب المتألق الشديد السطوع الذى ينفذ إلى القلوب ، فيملؤها بخشية الله والخوف من يوم الحساب : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾.

إنها آية على اختصار ألفاظها فيها من ومضات البلاغة ما يتألق فى كل لفظة ، فقد ذكر من صفات الله المتجلية فى ذلك الموقف أنه هو المولى ، ومعناه السيد المتصرف فى سلطانه ، وأنه الحق ؛ لأن يوم القيامة هو يوم الحقوق ، والله جل جلاله هو الحق يقول الحق ، ويقضى بالحق ، وهو الملك الحق ، وختم الآية بصفة من أعظم الصفات العلا وهى : أنه أسرع الحاسبين ، وحسبك من

سرعة حسابه أنه جل جلاله يحاسب كل قافلة الإنسانية منذ آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يحاسبها فى يوم واحد من أيامه ، وهو حساب دقيق لايغفل ذرة من خير أو شر ، ولو كان مثقال حبة من خردل أتى بها جل جلاله وعلا جده .

وفى قوله تعالى : ﴿ **وكفى بنا حاسبين** ﴾ طرفتان من طرائف الإعراب ، أولاهما : أن الفاعل فى هذه الجملة هو نا فى كلمة ﴿ **بنا** ﴾ وهو فاعل يبدو وكأنه فى محل جر بالباء الزائدة لكنه فى الحقيقة فى محل رفع تقديراً ، وكلمة ﴿ **حاسبين** ﴾ تصلح حالا كما تصلح تمييزاً .

نسأل الله أن يملأ قلوبنا بخشيته ، ويشرح صدورنا بمعرفته .

# احرص على الجليس الصالح

الجليس الصالح ذو أثر تربوى عظيم ؛ هو يذكرك ما تنساه من واجب الله والعبيد وينبهك إلى ما تغفل عنه مما يليق بالأبرار ، وقد يعلمك بعض ما تجهل، هذا إلى جانب ما ينتقل إليك بالمخالطة القريبة من أخلاقه وعلمه ودينه ، وقد شبهه رسول الله ﷺ بحامل المسك ينتقل مسكه إلى جليسه بشكل أو بآخر ، أما جليس السوء فهو أيضاً ذو أثر تربوى عظيم ، ولكنه أثر عكسى ، إذ لابد مع طول مخالطته أن تنتقل إليك عدوى أخلاقه ، وأقل ما يمكن أن ينالك من ضرره أن يعرفك الناس به وينسبوك إلى صداقته ويخشى فى الآخرة أن تحشر معه؛ لأن المرء على دين خليله ، والمرء مع من أحب . وإنى ذاكر هنا آيتين من سورة الأنعام تطيفان برفق حول هذا الموضوع وتدعوان بالحكمة والموعظة الحسنة إلى مقاطعة المستهزئين .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام : ٦٨ ـ ٦٩].

أقول وبالله التوفيق وتمام الصالحات :

**أولاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ أمر من الله جل وعلا لرسوله ﷺ ، وهو أيضاً أمر لكل مسلم ؛ لأن محمداً ﷺ هو الأسوة الحسنة لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً . إنه أمر للرسول الكريم وللمسلمين ألا يجالسوا من يستهزئون بكتاب الله وبدين الإسلام ، وأن يهجروا مجالس أهل الابتداع والتكذيب والسخرية ، ويلحق بهؤلاء عمار مجالس الغيبة

والمجتمعون على معاصى الله ومن يقضون لياليهم عاكفين على اللهو والشراب والعبث . ومما يدخل فى هذا الباب أن لا يرسل المرء أبناءه ليدرسوا فى الخارج من غير ضرورة ملحة ؛ لأن مجالس أولئك الأجانب يشيع فيها المجون والاستهتار والاستهانة بأوامر الحلال والحرام . وقد روى الحاكم بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » .

إن مجالسة أصحاب البدع والمعاصى والمستهزئين بالدين تحبط الأعمال ، وقد يقول قائل : أنا أجلس إليهم ، وأسافر معهم ولكننى لا أعمل أعمالهم ولا أشاركهم ما يخوضون فيه من المعاصى ، وهذا الكلام مردود ؛ لأن القلوب تتقلب وهى بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وللشيطان طرقه اللئيمة فى الدخول من أبواب الشهوات والغزو من ثغرات المعاصى ، ثم إن مجالس الفجور عرضة لغضب الله ، فإذا حلت بها اللعنة شملت جميع من فيها ، بينما مجالس الطاعة والعلم والذكر تحفها أجنحة الملائكة بالرحمة وإذا نزلت عليها الرحمة والسكينة عمت جميع من فيها .

وفى قوله تعالى : ﴿ **يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا** ﴾ استعارة حلوة مشخصة ، فقد شبه القرآن الكريم أهل العبث والاستهزاء والتكذيب بمن يخوضون الغمار معرضين أنفسهم للغرق والهلاك . وفى قوله تعالى : ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ يبيح أن يجلس المؤمن فى مجالس الكافرين ، إذا لم يكن فيها خوض فى آيات الله وتكذيب بها ، وكان فيها حديث غير هذا كدروس العلم الحديث والتخصصات المفيدة فى تعلم الصناعة والسلاح وأساليب الزراعة والرى الحديثين ، هنالك لا بأس أن يجالسهم المؤمن ليخدم إسلامه بما يستفيد من تجاربهم .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ معناه : فانسحب إذا نسيت فجلست مع أهل المعاصى ،

فحالما تتذكر فانسحب من مجالسهم ولا تقعد مع أولئك الظالمين ، والآية تدل على أن النبى ﷺ ، ربما يعتريه النسيان ، ومع أن بعض الأئمة نفى ذلك عن رسول الله ﷺ إلا أن الدليل يدل على جواز صدور النسيان عنه ﷺ ، فقد جاء فى صحيح الحديث عنه ﷺ أنه قال : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى» ، وفيما رواه الترمذى أنه ﷺ قال : « نسى آدم فنسيت ذريته » .

وكلمة إما حرف شرط ويغلب أن يليه توكيد كقوله تعالى : ﴿ **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ** ﴾ [الأنفال : ٥٧]، وكقوله : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً** ﴾ [الأنفال : ٥٨]، ﴿**فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ** ﴾ [يونس : ٤٦] وسبب ورود التوكيد وراءها أن كلمة إما هى حرف شرط مؤكد مكون من إن الشرطية ووراء ما الزائدة المفيدة للتوكيد . وقولك : إما ترين الباطل فغيره ، أشد توكيداً من قولك : إن تر الباطل فغيره .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿**وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ تقدير من الحق جل وعلا لظروف قوم تدعوهم الضرورة إلى مجالسة الكفار لأمر مهم كمفاوضات لإبرام معاهدة تجارية، أو وفد لبحث تعاون ثقافى أو مخالطة لأساتذة من الأجانب للاستفادة من تخصصهم ، ففى مثل هذه الأحوال يقول الله تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ ومعناها : أن الذين يجالسون الكفار لا يتحملون شيئا من أوزارهم فكل محاسب بعمله ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ [الإسراء : ١٥] و﴿**كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ [المدثر : ٣٨] لكن على المؤمن شيئاً واحداً ، إذا اضطرته ظروفه إلى مجالسة الكفار ، وهو أن يذكرهم ذكرى بالإيمان والإسلام والحساب لعل الله يهديهم إلى تقواه وإذ ذاك يكون المؤمن قد أدى واجبه وسلم من الإثم المترتب على مجالسة الكافرين .

# رحلة الإيمان

هذه آيات من سورة الأنعام تدل على أن الفطرة النقية السليمة ، إذا تأملت بالعقل المستنير المتجرد من الهوى ، فإنها تهتدى إلى إلهها واحداً أحداً ﴿ لاَ تُدرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأبصار وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِير ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإذ قَالَ إبرَاهِيمَ لأَبِيه آزَرَ أَتَتَّخذَ أصنَاماً آلِهَةً إنّي أرَاكَ وَقَومكَ في ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلكَ نُرِى إبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالأَرضِ وَلِيَكُونَ منَ المُوقنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيه اللَيلُ رَأَى كَوكَباً قَالَ هَذَا رَبّى فَلَمَّا أفَلَ قَالَ لاَ أُحبُّ الأفَلِينَ * فَلَمَّا رَأى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبّى فَلَمّا أفَلَ قَالَ لَئن لَم يَهـــدَنى رَبّى لأكُونَنَّ منَ القَومِ الضَّالِينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبّى هَذَا أَكبَرَ فَلَمَّا أفَلَت قَالَ يَاقَومِ إنّي بَرِىء ممَّا تُشـركُونَ * إنّي وَجَّهتُ وَجـــهِيَ للَّذى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ حَنِيــفَــاً وَمَا أنَا منَ المُشرِكِين ﴾ [الأنعام : ٧٤ ـ ٧٩] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة المسلمين إيماناً لم يلبس بظلم ويقيناً لا تنهض له وساوس الشياطين :

**أولاً** : كان سيدنا إبراهيم عليه السلام من قبيلة تعرف بالكلدانيين سكنت العراق ، وهناك نشأ وترعرع بين قوم وثنيين كانوا يعبدون الأصنام يتخذونها من الحجارة والأخشاب ، كما كانوا يعبدون النجوم والقمر والشمس . فى تلك البيئة الضالة عاش أبو الأنبياء عليه السلام .

**ثانياً** : من اللحظة الأولى لم يطمئن إبراهيم إلى الأصنام ، ولم تسترح فطرته النقية إلى اتخاذ إله من الحجر أصم أبكم لا ينفع ولا يضر ، فناصب تلك الأصنام وعابديها العداء من أول وهلة وبدأ بأبيه وكان اسمه آزر ،

وورد أن اسمه تارح ، ولا مانع أن يكون له اسمان أو اسم ولقب ، والمهم أنه وجه إلى أبيه هذا السؤال الذى يحمل معنى الإنكار الشديد : **﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾** ولم ينتظر عليه السلام الإجابة فقال : **﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾** أى ضلال أبين وأشد من تأليه حجارة لا تضر ولا تنفع ولا تنطق ولا تسمع ؟

**ثالثاً** : وفى رحلة البحث عن الحقيقة توجه إبراهيم إلى ملكوت الله ، والملكوت هو الملك زيدت عليه الواو والتاء للمبالغة ، كالجبروت ، يريد الوصول بفطرته النقية إلى حقيقة التوحيد عن طريق آيات الله ومخلوقاته ، وليرسو على شاطئ اليقين بعد رحلة فى دلائل قدرة الله وعظمته وهنا بدأ مرحلة التفكير **﴿وَكَذَلِكَ نرى إبراهيم مَلَكوتَ السموات والأرضَ وليكُونَ من الموقنينَ﴾**والتفكير هو من أعظم عبادات الأنبياء قبل بعثتهم ، وكانت تلك عبادة نبينا محمد ﷺ فى الغار، فقد روى أنه كان يديم التفكير فى ملكوت الله ليصل بالفطرة من تيه الحيرة إلى طمأنينة اليقين ، وإلى هذا أشار الحق وهو يخاطبه ﷺ بقوله :**﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾**[الضحى : ٧] .

**رابعاً** : قوله تعالى : **﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَيلُ رَأى كَوكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِين ﴾** هذه الآية واللتان بعدها أثارت خلافاً بين أشياخنا المفسرين ، وخصوصاً قول إبراهيم عن النجم والقمر والشمس ـ **﴿ هذا ربى ﴾** . فالأنبياء ولا شك معصومون من الشرك قبل نبوتهم وبعدها، وقد اطمأننت إلى ماكتبه فى الموضوع أستاذنا الإمام الشهيد المجاهد سيد قطب ـ رحمه الله ـ وخلاصتها : أن قصة إبراهيم مع الإيمان هى رحلة الفطرة النقية المؤمنة من الإيمان الفطرى إلى الإيمان الواعى المبنى على الدليل ، وقول إبراهيم فى كل مرة: **﴿ هذا ربى ﴾** ما

هى إلا فرضيات يمر بها العقل ليصل إلى الحل النهائى للمسألة ، ويبدو أنه كان عليه السلام يشعر قومه المشركين بتلك الفرضيات ؛ ليثبت لهم أن النجم والقمر والشمس ، وكلها من معبوداتهم لا يمكن أن تكون آلهة ؛ لأنه يعتريها الأفول وإذا أفلت فمن يدير الكون فى غيابها ، وما عبد إبراهيم عليه السلام الشمس ولا القمر ولا النجم لكنه تأملها مفكراً ليصل عن طريقها إلى إلهه الحقيقى الواحد ، إنها رحلة التأمل العقلى المستنير تفرض فيها الفرضيات للوصول إلى البرهان ، وقد أنصف بتأمله قومه المشركين حين أظهر لهم أن معبوداتهم كائنات جليلة تستحق التأمل العميق لكنها على جلال قدرها تأفل وتبزغ وتطلع وتغيب وإذن فهنالك من يطلعها ويغيبها جل جلاله.

**خامساً** : يبدو أن إبراهيم عليه السلام كان مأخوذاً بجمال القمر ، وكأنه يراه لأول مرة ؛ ولهذا فوجئ عندما أفل وقال : ﴿ **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ** ﴾ ناسباً الهداية بأسرها لربه الجليل الذى كان الوصول إلى معرفته أعظم الأهداف . وكلمة بزغ الثوب شقه ، وقيل فى الشمس والقمر والنجوم والكواكب : إنها تبزغ ؛ لأنها تشق الظلام .

وما أجمل الصورة فى قوله : ﴿ **جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** ﴾ أى : أظلم من حوله مهيئاً له جواً من الخلوة والتأمل وكأن الليل لا يلف سواه ، واشتقاق الجيم والنون المشددة يدل على التغطية والظلام ومن ذلك الجنان والجنون والجن والجنين وغيرها .

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ معناه : أن

الشمس هى أكبر مخلوقات الله الوثيقة الاتصال بالأرض ، وهى أكبر جرم سماوى أمام عين الإنسان ؛ ولهذا كان أفولها خاتمة مطاف الرحلة ، رحلة الإيمان ؛ إذ أعلن إبراهيم بالدليل العقلى لقومه أنه ما من كائن تقع عليه العين مهما كبر يصلح أن يكون الإله الحق ؛ لأن ما يقع تحت مجال البصر يكون محصوراً ، وإذا كانت العين تستطيع مشاهدة الإله فمن يدير الكون الذى لا تبصر العين منه إلا أقل القليل ؟! إن الإله هو إذن خالق كل شيء من سموات وأرض وشمس وقمر وكواكب ، وكل ما سوى هذا الخالق من شركاء مزعومين فإن إبراهيم عليه السلام براء منهم . إن المؤمن يسلم نفسه وحياته وموته ويوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض، والمؤمن لا يمكن أن يلتبس إيمانه بظلم أى شرك مهما عظم فى عينه الشريك ؛ لأن الله جل جلاله هو القاهر فوق كل عظيم من الخلائق .

وبعد قصة إيمان إبراهيم يذكر الله جل وعلا عدداً كبيراً من قافلة الأنبياء من لدن نوح إلى محمد عليهم السلام ، ثم يأمر محمداً ﷺ أن يقتدى بهم ؛ مشيرا بذلك إلى أن دين محمد هو دين الأنبياء جميعاً إلى قيام الساعة .

## الأمن ينبع من الإيمان

هذه آيات من سورة الأنعام فيها حجاج ، أو مجادلة حصلت بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه بعد أن أعلن لهم إيمانه بالله الواحد القهار ، ونبذه لكل شرك ولكل مشرك .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُم أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَم يُنَزِّل بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَم يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٠ ـ ٨٢] هذه هي الآيات الكريمات وهذه محاولة لجلاء بلاغتها ومعانيها :

**أولاً** : حين أعلن إبراهيم لقومه أنه أسلم لإله واحد لا شريك له ، ونبذ كل ما يعبد سواه ، لم يحملهم كلامه هذا على التفكير المتأني والتبصر المتعقل في تلك الأصنام الهزيلة ، وإنما ثار فيهم عناد المكابر وجدال الجاهل المغرور ، فأقبلوا عليه يحاجونه أي يجادلونه ويقولون له : كيف تترك عبادة آلهتنا ولا تخاف أن تبطش بك وتؤذيك ؟! ومضوا في حرب الأعصاب هذه يقولون له : سوف ترى في وقت قصير ما سيحل بك من غضب هذه الآلهة ، محاولين بهذا إيقاع الرعب في قلبه عليه السلام .

**ثانياً** : هنالك فتح الله جل جلاله على خليله بحجة بالغة تركت الكفار خرساً إزاء تلك الحجة الدامغة التي أدحض بها إبراهيم كل حجج الشرك والمشركين : ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أي : أتجادلونني وتخاصمونني في ربي، مع أنه لا ذنبَ لي ، إلا أنني اهتديت إلى الحق

وأخذ الله بيدى عبر رحلة الإيمان حتى أوصلنى إلى يقين بوحدانية لا يتزعزع ؟!

ثم رد علي حملة التخويف وحرب الأعصاب بقوله : ﴿ **وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ لقد أعلن لهم إبراهيم عليه السلام أن آلهتهم لا تهمه وأنه يتحداهم ولايخشاهم ، وبذلك ضرب تلك الآلهة فى الصميم حين كشف أنها غير قادرة على نفع أو ضرر .

لكن إبراهيم لم ينس مشيئة ربه فى كل الأمور فقال : ﴿ **وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً** ﴾ ومعناها : لست أخاف آلهتكم ، ولكن إذا شاء ربى أصابنى بضر وإذ ذاك يكون هذا بأعمالى وليس بفعل آلهتكم . إن إبراهيم عليه السلام حين تحدى أصنامهم أن تؤذيه كان يعتقد أنه يمكن فى أثناء ذلك أن يصاب بأذى ، ولكن حتى ولو أصيب بذلك فإنه مستمر فى تحدى آلهتهم ؛ لأن الضرر والنفع بيد الله ، والله جل وعلا واسع عليم وسع كل شىء علماً ، ومن ثم فجميع ما يسوقه من نفع أو ضرر إنما يصدر عن علم وحكمة وقضاء وقدر عظيمين .

**ثالثاً** : ويمضي إبراهيم في حجته الدامغة فيقول لهم : ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ وهنا نلاحظ تتابع الاستفهامات البلاغية الرائعة: ﴿ **أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ** ﴾؟ ﴿**وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم** ﴾ ؟ ﴿ **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ** ﴾ ؟ إنها أسئلة أوقعت الكفرة فى الصراع النفسى والإحراج ؛ ولهذه الاستفهامات أغراض بلاغية تحدث حركة فى شغاف القلوب ﴿ **أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ**﴾ أتجادلوننى فى الله ولا تهمة لى

لديكم إلا أن الله هدانى إلى الحق ؟ ! استفهام فيه التعجب والاستنكار ، وهو إنكار يوشك أن يكون تأنيباً .

أما قوله : ﴿ وَكَيفَ أخَافُ مَا أشرَكتُم ولاَ تَخَافُونَ أنكُم أشرَكتُم ﴾ فمعناه: كيف أخاف شركاءكم وآلهتكم من الحجارة والأخشاب ولا تخافون إلهى الواحد الخالق البارئ الذى جعلتم معه شركاء بدون برهان ولا دليل وسلطان ؟! وهو استفهام تعجبى إنكارى أيضاً ، وأما قوله : ﴿فَأَىُّ الفَرِيقَينِ أحَقُّ بالأمن ﴾ ؟ فمعناه أينا أحق بالأمن : أنتم الذين ظلمتم أنفسكم بالشرك ؟ أم أنا الذى أخلصت لله توحيدى وأسلمته حياتى ومماتى ؟ وهو استفهام غرضه إثبات الحقيقة الخالدة : أن الأمن حليف الإيمان وهى الحقيقة التى قررها فى الآية التالية ﴿ الَّذينَ آمَنّوا وَلَم يَلبِسُوا إيمَانَهِم بظُلمٍ أُولَئكَ لَهُمُ الأمنُ وَهُم مُهتَدُون﴾ ومعناها : أن المؤمنين الذين لم يخلطوا إيمانهم بأى شرك ، وهم أهل التوحيد الخالص هؤلاء هم الذين كتب الله لهم الأمن فى الدنيا والآخرة ، أما أمن الدنيا فبما يعمر قلوبهم من سكينة وطمأنينة لقضاء الله وقدره ولما يحقق الله لهم من نصر وتمكين على أعدائهم ، ولما يشمل به مجتمعهم من بركة وسعادة وازدهار ، وأما أمن الآخرة ، فلأن أولياء الله فى الآخرة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون .

**رابعاً** : هنالك مواقف حول هذه الآية توضح كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يتلقون القرآن فى تفهم عجيب ، ويمتثلون له امتثالاً لا حدود له ، فقد روى ابن جرير بسنده أنه لما نزلت الآية : ﴿ الَّذينَ آمَنّوا وَلَم يَلبِسُوا إيمَانَهِم بظُلمٍ أُولَئكَ لَهُمُ الأمنُ وَهُم مُهتَدُون ﴾ أصاب بعض الصحابة منها هم شديد فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ ومن يسلم من ظلم نفسه ،وجاء يسأل أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ : فقال له : « إن الظلم

هنا هو الشرك أما قرأت قوله تعالى على لسان لقمان : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وسأل صحابى اسمه زيد بن صوحان سلمان الفارسى ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أبا عبد الله آية بلغت منى كل مبلغ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ ومن منا لا يخلط الإيمان بظلم ؟! فطمأنه سلمان أن الظلم المقصود هو الشرك ، وسأل كثير من الصحابة رسول الله ﷺ ومن منا لا يظلم نفسه ففسر له النبى الكريم الظلم فى هذه الآية بأنه الشرك ، ويكون معناها الذين آمنوا بربهم إيماناً خالصاً لم يخلطوه بأى شرك ، فأولئك سيرزقهم الله الأمن ويهديهم إلى صالح الأعمال ، نعم لقد كان أصحاب رسول ﷺ أحرص ما يكونون أن ينفذوا كل أمر بل كل إشارة من كلام الله .

**خامساً** : إن العالم كله فى هذه الأيام مروع يبحث عن الأمن ، ينشد لقافلة الإنسانية واحة الأمان ، وقد علق آماله على مجلس الأمن ، فلم يحقق مجلس الأمن شيئاً من الأمن ، بل على العكس من ذلك اجتاحت العالم رغم مجلس الأمن موجات من الذعر والرعب والمذابح تصلاها الإنسانية فى كل أقطار الدنيا، وستظل الإنسانية هكذا مروعة ، ولن يستطيع أن يغنى عنها مجلس الأمن شيئاً ؛ وذلك ؛ لأن من يديرون دفة هذا المجلس ومن لهم حق النقض والإبرام فيه هؤلاء كلهم ينشدون الأمن مجرداً من الإيمان بالله ، وحسبك أن تعلم أن مصير الدنيا واقع فى هذه الأيام فى يد حفنة من المغامرين ممن يملكون السلاح النووى المدمر لكنهم لا يملكون الإيمان بالله الذى هو مصدر الأمن والهداية ، نعم ما أشقى الإنسانية حين يحدو قافلتها أحلاس الإلحاد والابتزاز . إن الإنسانية لن ينقذها إلا عود إلى الإيمان الخالص بالله ربها وإذ ذاك يكون الأمن من منطلق الإيمان .

# حُداة قافلة الإيمان

من أهم خصائص العقيدة الإسلامية احترام الرسل جميعاً والإيمان بهم ، واعتقاد عصمتهم وطهارتهم ، فما يفرق المسلمون بين الرسل فى الإيمان بهم، وإجلالهم والصلاة عليهم جميعاً ؛ ذلك لأنهم جميعاً هم أنوار قافلة التوحيد وهداتها وروادها ، وقد اختارهم الله جل وعلا أوعية طاهرة ممتازة لرسالته لما يعلم من صفاء فطرتهم وعظمة نفوسهم . والله أعلم حيث يجعل رسالته . وهذه آيات من سورة الأنعام ذكر الله فيها ثمانية عشر من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأوصى محمدا ﷺ وأمته أن يقتدوا بهدى الأنبياء جميعاً؛ إيذاناً منه جل جلاله أن محمداً ﷺ جاء بشريعة تامة كاملة تضمنت كل هدى الأنبياء الكرام، ومن ثم فهو خاتم الرسل ودينه خاتم الأديان .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام : ٨٣ : ٩٠] .

هذه هى الآيات التى تعطر الحياة بذكر أعظم أعلام الإنسانية وأجلها وأطهرها وأجملها نفوساً وأخلاقاً ، وهذه بعض إشاراتها الجليلة ومعانيها

المباركة:

**أولاً** : فى هذه الآيات الكريمات ذكر الله جل جلاله ثمانية عشر نبياً كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام ، ومع أن إبراهيم من ذرية نوح إلا أن الله جل جلاله ذكره خاصاً بعد العام ؛ لكثرة ما بعث من ذريته من الأنبياء ، وإلى هذا أشارت الآية من سورة الحديد :﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ** ﴾ .

**ثانياً** : السبعة الباقون من الأنبياء الرسل الخمسة والعشرين الذين ذكرهم الله فى القرآن هم : آدم ، وإدريس ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وذو الكفل ، ومسك ختامهم محمد ﷺ . وهؤلاء الخمسة والعشرون هم الذين قصَّ من أخبارهم على محمد ﷺ ، على أن هنالك آلافاً من الرسل والأنبياء لم يقصص الله من أخبارهم علينا مكتفياً بخمسة وعشرين من النماذج الممتازة . ولله الحجة البالغة والحكمة الجليلة . وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين نعمة عظيمة من الله تستحق شكر الإنسانية لربها ؛ لأن الرب جل جلاله لم يترك أمة إلا وبعث فيها رسولاً منهم أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ ليهدى الإنسانية سبل السعادة والسلام، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

**ثالثاً** : لم ترد أسماء الرسل فى الآيات مرتبة حسب زمان أو مكان ؛ لأن مجال القول يدور حول قافلة الإيمان بعد قصة إبراهيم عليه السلام حين اهتدى بالفطرة المستقيمة إلى الحقيقة العظمى حقيقة التوحيد الخالص الخالد . والأنبياء جميعاً متقدمهم ومتأخرهم هم الحداة والهداة لقافلة الإيمان بغض النظر عن ترتيب الزمان والمكان ، ويلاحظ أن الأنبياء الذين ذكرهم الله جل وعلا جميعهم من ذرية إبراهيم ما عدا نوحاً ولوطاً ويونس ، لكن نوحاً هو من أجداده ولوطاً ابن أخيه ويونس من

نينوى بالعراق وهو من قبيلة إبراهيم ، والكل ينتظمهم قرابة بأبى الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام .

**رابعاً** : وقد ذكر الأنبياء فى أربع مجموعات ولابد أن ينتظم كل مجموعة منهم قاسم مشترك لكننى لم أتوصل إليه ، وهذه المجموعات هى نوح ، وإبراهيم وإسحاق، ويعقوب ، والمجموعة الثانية : داود ، وسليمان ، وأيوب، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، والثالثة : زكريا ، ويحيى ، وعيسى، وإلياس ، والرابعة : إسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . وقد وصف الله جميعهم بالهدى والهداية ، ووصف داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون بالإحسان كما وصف زكريا ، ويحيى ، وعيسى، وإلياس بالصلاح ، وأخيرا وصف إسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطاً بالفضل على العالمين ، والمعنى يحتمل أن كل المذكورين هم أهل الهدى والإحسان والصلاح والفضل ، وجميع أسماء الأنبياء المذكورين ممنوعة من الصرف ؛ لأنهم ليسوا من العرب ، وصرف اسم نوح ولوط لخفة لفظهما ؛ إذ كل منهما ثلاثى ساكن الوسط .

**خامساً** : قوله تعالى : ﴿ **ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** ﴾ معناه : أن ركب الإيمان والتوحيد لم يقتصر على الرسل فقط ، فقد سار على هديهم أعداد من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، هؤلاء جميعاً اختارهم الله أئمة فى ركب الهدى وهداهم إلى صراطه المستقيم صراط الإيمان . ومع أن قلة من أرحام الأنبياء قد كفروا إلا أن الكثيرين من ذرياتهم حملوا لواء الهداية ، كالأسباط من ذرية يعقوب ، وكأبناء نوح الذين نجوا ، وكآل عمران من ذرية هارون وغيرهم كثيرون ، وحسب الإيمان والتوحيد أن يكون فى قافلتهما أمثال هؤلاء المؤمنين ؛ ولتكفر بعدئذ ضالة قريش واليهود فإن

لله عبادا ملأ الإيمان قلوبهم يحبهم الله ويحبونه لا يخافون فى الله لومة لائم .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ** ﴾ معناه : أن أولئك الذين ذكرناهم لك من الأنبياء وأرحامهم وأتباعهم هم الذين أكرمهم الله بالكتاب والحكمة والنبوة ، فإذا كفر بها هؤلاء الشراذم من اليهود وقريش ، فإن لدين الله من الهداة العقلاء قوماً لا يكفرون بأى من آياته ، وفى هذا الأسلوب استهانة بعقول المشركين وأحلامهم وإشعار له أن ركب التوحيد سائر بإذن الله ، ولو نبعت من وراء موكبه منابع الشرك، ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء** ﴾ أى مشركو قريش والكافرون من أهل الكتاب ، فقد وكلنا بها عباداً لنا يزن إيمانهم السموات والأرض، فأين منزلة كفر الكافرين من عظمة إيمان الأنبياء والصديقين وقوافل الإيمان المتلاحقة ؟! .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** ﴾ أمران عظيمان لرسول الله ﷺ أولهما : أن يتخذ من هدى جميع الأنبياء منهاجاً لأخلاقه وقدوة لسلوكه ، والحق أن أخلاق محمد ﷺ كانت خلاصة عطرة لأخلاق جميع الرسل ، إنه سيد أولى العزم فى صبره ، وإذا كان كل نبى من الأنبياء قد اشتهر بطابع خاص يميز أخلاقه ، كالقوة فى موسى ، والحلم فى عيسى ، والصبر فى أيوب ويعقوب ، والعفاف المحتسب فى يوسف ، والثبات المتحدى فى إبراهيم . فجميع هذه الصفات وغيرها قد توفرت فى محمد ﷺ ، ولقد عجب دارسو سيرته عليه الصلاة والسلام من ذلك البحر المتلاطم من فضائله ، ومن ذلك العالم الوضاء المترامى الأطراف

من أخلاقه وسيرته ، لقد اقتدى كما أمره ربه بجميع الأنبياء ، فاستحق هو أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة لكل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، ثم أمره أن يعلن لقومه أنه لا يبتغى من وراء دعوته أجراً أو مكافأة دنيوية ، وما كانت رسالته إلا ذكرى لكل العالمين ، تذكرهم بربهم وتهديهم بإذن الله صراط الحميد الذى تصير إليه الأمور، الذى له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

# من دلائل القدرة والوحدانية

لو اجتمع كل الخلائق على أن يخلقوا ذبابة ما استطاعوا ، ولو اجتمع كل علماء الحياة فى الدنيا على أن يخلقوا ورقة شجر فيها حياة ما استطاعوا ، قد يرسمون وينحتون ويصنعون أشكالاً كإنسان أو شجرة لكن رسومهم هذه مهما أفرغ فيها من الإبداع لا يمكن أن تكون إلا جمادات . ولو أخذت بذرة من بذور البرسيم مثلاً أو أخذت نواة من نوى الزيتون وقد جفت كل منهما ، حتى لم تعد العين تدرك فيهما أى مظهر من مظاهر الحياة ، ثم بذرت الحبة والنواة فى أرض وسقيتهما بالماء إنك حينئذ ترى عجباً عجاباً . ترى الحبة والنواة وقد دبت فيهما حياة ونمو وحركة ودارت فى داخلهما آلاف العمليات وإذا الحبة تنشق وإذا النواة تنفلق وإذا خلايا حية تنمو وتتكاثر بطريقة حيرت العقول ، ثم لا يمضى وقت طويل حتى ترى الحبة ساقاً وأوراقاً وحباً متراكباً أو غير متراكب، وإذا النواة شجرة تموج الحياة فى ملايين الملايين من خلاياها إلى هذه الحقيقة المعجزة تشير هذه الآيات من سورة الأنعام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**

انظُرُوا إلَى ثَمَرِهِ إذَا أثمَرَ وَيَنعِه إنَّ فِي ذَلكُم لآيَاتٍ لقَومٍ يُؤمنُونَ ﴾ [ الأنعام : ٩٥ ـ ٩٩]. أقول وأسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته ويعملون بكل ما فيه :

أولاً : تتعلق هذه الآيات بمعجزة وقفت من حولها العقول مبهورة حائرة تحاول أن تحيط بأسرارها ، فترتد عن آفاقها خاسئة حسيرة . إنها معجزة الحياة؛ معجزة خلق الله تعالى للخلايا الحية التى تنمو وتتكاثر وتتحرك . إنها معجزة لو اجتمعت كل الخلائق على أن يحيطوا بسرها ما استطاعوا بلّه أن يأتوا بمثلها ، وإلى هذه الحقيقة أشار الحق جل جلاله فى أسلوب من التحدى الباهر القاطع إذ يبين عجز البشر وآلهتهم المزعومة عن أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له .

ثانياً : قديماً خلق الله الحى من الميت حين خلق آدم من الطين وخلق كل شىء حى من الماء لا إله إلا هو يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . أرايت كيف تولد أطفال البشر والحيوان صغيرة ضئيلة ثم تغذى بأغذية متنوعة كلها سوائل وجوامد لا حياة فيها ، فماهى إلا أن تدخل هذه الأغذية الجسم حتى تتحول إلى خلايا حية ينمو بها الطفل إلى الشباب !! ترى كيف تحولت الأطعمة الجوامد إلى أعضاء وخلايا تتحرك بالإرادة هذا هو السر الذى أعجز العقول !! الحياة النباتية أيضاً أعجوبة الأعاجيب ؛ فالنبات يتغذى من تراب الأرض ومن الماء ومن الهواء وكلها لاحياة فيها فما هى إلا أن تدخل عالم النبتة حتى تعمل فيها أعمالاً معقدة لا تنهض لفهمها العقول ، وإذا التراب والماء والهواء تتحول بإذن ربها إلى خلايا تنمو بها خلايا الشجرة من أقل من ملليمتر داخل النواة إلى عشرات الأمتار أحياناً . إلى هذه الحقيقة الباهرة يلفت الله أنظار البشر بقوله : ﴿إنَّ الله فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ

الْمَيِّتِ وَمُخْـرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الحَيّ﴾، وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَي ﴾ ذهب المفسرون مذاهب شتى منها البيضة من الدجاجة ، والعالم من الجاهل وعكس ذلك . والحق أننا نرى يومياً فى الأحياء كيف يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؛ يأكل الإنسان كل يوم طعامه ، والطعام جماد فإذا استقر الطعام داخل الجسد ، تحول جزء منه إلى خلايا حية ينمو بها الجسد ، ويعوض عما احترق أثناء العمل ، أما الجزء الآخر فيظل فضلات ميتة تخرج من الجسد ولله الحمد والمنة يعطينا من الغذاء خيره ويقينا شره ، يخرج خلايانا الحية من الغذاء الميت وهذا هو خيره ثم يخرج الفضلات الضارة من الجسد الحى، ومثل هذا يقع فى غذاء النبات ؛ إذ يخرج الخلايا الحية من هذا الغذاء الميت ، ثم لا يلبث كثير من الخلايا أن تموت ، فتتساقط ورقاً وأغصانا قديمة فيخرج بهذا الحى من الميت ويخرج الميت من الحى. إن أى نبتة أو حيوان أو طائر أو حشرة تراها لو أطلعك الله على ما يدور بداخلها من عمليات لا تكل ثانية واحدة لدهشت من خلق معجزة الحياة، ولكن قاتل الله الكفار أنىّ يؤفكون ، وكيف ينحرفون عن الهدى بعد أن سطعت فى أعينهم البراهين ؟!

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ حُسبَانًا ذَلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ معناه : وكما يفلق الله الحب والنوى، فيخرج منهما الحياة ، كذلك يفلق الإصباح من الليل ، فيخرج النور من الظلمات وكما تنبعث الحياة من الحبة والنواة كذلك ينبعث الناس من نومهم ، وهو نوع من الموت حيث كانوا ساكنين هاجعين بالليل ليستقبلوا الحياة والعمل فى النهار وليروا أوضح آيتين سماويتين من آيات الله وهما الشمس والقمر فى حركتهما الدقيقة التى

يتعين بها حساب الأيام والشهور والسنين . ذلك تقدير الله ذى العزة القادرة والعلم العظيم وما أجمل الصورة الجمالية فى قوله تعالى : **﴿فَالِقُ الإصبَاحِ ﴾** وفى قوله : **﴿ وَجَعَلَ الَّيلَ سَكَنًا ﴾** ، يقول أستاذنا الإمام الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ : إن هذه الآيات تنمى فى المسلم الإحساس الجمالى، فكل ما فيها صنعة باهرة فى غاية الجمال ، ألا تراه يقول فى بدايتها : **﴿ فَالِق الحَبِّ وَالنَّوَى ﴾** ثم فى الآية الثانية : **﴿ فَالِقُ الإصبَاحِ ﴾** ثم فى الثالثة : يذكر النجوم متلألئة هادية وفى الرابعة يذكر خلق النفس الإنسانية ثم يختتم الآية الرابعة لافتاً الأنظار أن تتملى جمال الصنعة الإلهية فى الثمار اليانعة معلقة على أغصانها : انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . لقد كنت أنظر إلى البرتقال نواراً وزهراً، وأنظر إليه أخضر منعقداً من النوار حتى إذا أينع راعنى متلألئاً على الأغصان ، كأنه قناديل الذهب فأجد فى الرحلة بين بداية الثمر وينعه متعة العين بالجمال ومتعة القلب بالإيمان .

**رابعاً** : فى قوله تعالى : **﴿ وَهُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لتَهتَدُوا بهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ قَد فَصَّلنَا الآيَاتِ لقَومٍ يَعلَمُون ﴾** يذكر حكمته من خلق النجوم زينة وهداية فى تيه البر والبحر ، ثم يختتم الآية بقوله : **﴿قَد فَصَّلنَا الآيَات لقَومٍ يَعلَمُون ﴾** ؛ لأن معرفة النجوم يتطلب علماً عظيماً وتأملاً عميقاً . ومع أن عالم النجوم قديم لا تتصور العقول اتساعه ، فالآية توحى أنه ما خلق إلا هادياً للإنسان، فسبحان من سخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه .

**خامساً** : وفى قوله تعالى : **﴿ وَهُوَ الَّذى أنشأَكُم مِّن نَّفسٍ وَاحدَةٍ فَمُستَقَرٌّ وَمُستَودَع قَد فَصَّلنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يَفقَهون ﴾** استمرار لقدرة الله وجلال

عظمته فى خلق الحى من الميت ، فقد خلق البشر من آدم وخلق آدم من الطين ، ثم جعل لكل نفس أجلاً يكون بعضه استقراراً على ظهر الأرض بالحياة ثم مستودعاً فى باطنها بالموت . وعظمة القدرة فى خلق النفوس وتقدير آجالها أمر لا يدركه إلا الذين يفقهون ، والفقه معناه العلم العميق بالأمور .

**سادساً** : وفى الآية الأخيرة قمة التربية الجمالية : **﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾** إذا نزل الماء على الأرض نبه كل حبة ونواة فيها فيخرج بالماء نبات كل شىء ويكون كله عند خروجه أخضر ثم لا يلبث بقدرة الله أن تتشكل ألوانه وأصنافه ؛ فهذا حب متراكب كالقمح والشعير وقد بدأ به لأنه العنصر الرئيسى فى الغذاء . وهذه بساتين نخيل وعنب وهما من أهم الفاكهة المغذية وهذا زيتون وهذا رمان والزيتون ضياء والرمان غذاء وما أكثر أصناف الزيتون والرمان تراه مشتبها بعضه مثل بعض وكلنه غير متشابه فى ثماره وطعمها وشكلها ، إنها لآية تبعث الإيمان وخصوصا إذا مضيت فى رحلة الفكر بين أول إثماره وبين ينعه ونضوجه حين يكون فى قمة البهاء والجمال ويتحول نعمة جليلة للأحياء .

# لحظات من الاستغراق الإيمانى

هذه آيات من سورة الأنعام تسمو بالنفس الإنسانية إلى ذروة الإيمان والتوحيد وترقى بها عن كل شرك أو خرافة . إنها آيات يعيش المرء فى ظلالها لحظات من الاستغراق الإيمانى ، والتأمل الخاشع القانت .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُم وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ* وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [ الأنعام : ١٠٠ ـ ١٠٥] .

أقول وأسأل الله أن يملأ قلوبنا بنوره الذى لا يخبو ، ويحييها بصدق الإخلاص وجميل التوكل .

**أولاً** : جميع أنواع الشرك لا تتفاوت فى شرها ، فمن أشرك بالله نبياً أو ملكاً أو ولياً كمن أشرك بالله شجرة أو حجراً أو جناً أو شيطاناً ؛ ولهذا فقد حذر القرآن أمة محمد من كل ضروب الشرك ؛ لأن كل ما فى الأرض والسموات عبيد لله. إن نبى الله عيسى عليه السلام وكل الملائكة المقربين وجميع الرسل والأنبياء والصديقين والصالحين كل يسأل لهم المغفرة والرحمة ولكن لا تطلب من أى منهم المغفرة والرحمة ، إنه لتكريم للإنسانية أن يربط ولاؤها بالله فقط دون وساطة من أى مخلوق

فمن أشرك فقد سفه قدر نفسه . إذا رأيت إنساناً عند قبر ولى من الأولياء أو سرى من آل بيت رسول الله يطلب منهما قضاء حوائجه ، فاعلم أنه أراد لنفسه الإهانة بعد أن أراد الله له الكرامة . هؤلاء الصالحون هم إخوان لك قد تصبح إن شاء الله فى مستواهم فكيف ترفض إكرام الله لك فترفض الأخوة وتختار العبودية ؟! إن التوحيد الخالص هو أعظم درس للإنسانية يعلمها الشجاعة والإباء والكرامة . إن من يعلم أن الجن ما هم إلا عبيد لله يتعلم ألا يخافهم ؛ لأن العبد لا يتصرف إلا بإرادة سيده أما من يختارهم آلهة فقد فرض على نفسه الجبن والهلع من مخلوقات لا تضر إلا بإذن الله .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُم وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيرِ عِلمٍ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يصفُون ﴾ تشتمل الآية عن مجانسة لفظية بين خلق وخرق، وكلمة خرق مشتقة من الخرق أو الحماقة ومعناها : اختلقوا وافتروا بحماقتهم ، فنسبوا لله بنين كعيسى والعزير وبنات كاللات والعزى ومناة. سبحان الله تعالى عن هذه الأوصاف . كيف لخالق السموات والأرض اللذين يطويهما فى يمينه كحبة خردل أن تكون له زوجة حتى ينسب له بنون وبنات ؟! سبحانه هو مالك الملكوت وذو العزة والجبروت .

ثالثاً : ﴿ بَديعُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ ﴾ معناها : خالقهما على غير مثال ومبتكرهما دونما نموذج ﴿ أنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَم تكُن لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ كيف يكون له ولد والعقل يرفض أن يتصور له زوجة ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ ﴾ معناها : أنه خلق كل الأشياء وأحاط علماً بكل دقائقها فما من شيء إلا عند الله خزائنه ، وما من شيء إلا وهو مكتوب فى كتابه ، فأنى لمن هذا حاله أن يتصور وقد اختار من صنع يديه زوجة تنجب له بنين وبنات ؟! وما أجمل هذا الاستفهام المنطقى الذى يفيد

الاستبعاد والإنكار والرفض وهو قوله تعالى : ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ درس للبشرية أن تتخذ من مخلوقات الله وآياته وسائل للاستدلال على وحدانيته وصفاته العلا ، ومن ثم تعبده وحده لا شريك له وتعتقد أنه على جميع خلقه مهيمن متصرف في شؤونهم بحكمته كيف يشاء . إن معرفة الله تتم عن طريق مخلوقاته ودلائل قدرته وبديع صنعه ، وهو لا يريد من خلقه أكثر من أن يفردوه بالعبادة إذ هو ما خلق الجن والإنس والسماء والأرض والليل والنهار إلا شواهد ماثلة على وحدانيته .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ . هذه الآية جليلة القدر مترامية أطراف المعانى ، ثم إنها ذات مستوى بلاغي معجز تلمسه في مقاطعها الثلاثة كلما كررتها : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ تروعك في هذه الآية تلك المطابقة الرائعة بين النفى والإثبات ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ، ويروعك ختام الآية باسمين من أسماء الله الحسنى أولهما وهو اللطيف يناسب المقطع الأول ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ وثانيهما وهو الخبير يناسب المقطع الثانى . إن قوله تعالى : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ تذييل بلاغى جاء تعليقاً على المقطعين السابقين ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ لأنه لطيف ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ لأنه جل جلاله خبير . وكلمة اللطيف فى القواميس ذات مدلولات متعددة من بينها الأمر الدقيق هو الذى يدق عن أن يدركه البصر ، والآية العظيمة تعلن أن كل ما تستطيع العين رؤيته أو إدراكه لا يمكن أن يكون إلهاً ؛ لأن

العين لا ترى إلا الشيء المحدود بحدوده والشيء المحدود لا يصلح أن يكون إلها وإذن فما يكون للإنسان أن يعبد شيئا يستطيع أن يراه ببصره حتى ولو كان السماء ؛ لأن ما تدركه العين لا يمكن إلا أن يكون جزءا من هذا العالم والله جل جلاله هو موجد هذا العالم .

**سادساً** : وفي قوله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ معناه : لقد جاءتكم هذه الحجج والبراهين الباهرة من ربكم ويبقى للإنسان أن يبصر الحق بدلائله المبصرة ، أو يعمى عنه جارياً وراء الهوى والشيطان والرسول لم يرسل مسيطراً على الناس يحفظ عليهم أعمالهم وتصرفاتهم لكنه بشير ونذير والهدى هدى الله . في الآية إشادة بحرية العقل المؤمن المتبصر وحث للإنسان أن يتصرف بالبصيرة والحجة والبرهان وألا يتبع هواه الذى يرديه ويعميه عن الحق .

**سابعاً** : الآية الأخيرة : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ درس لكل معلم أن يكثر من ضرب الأمثال ، ويصرف الأدلة لإثبات القاعدة ، فالله جل جلاله يصرف الآيات أى يوردها واحدة بعد الأخرى ويكرر الأمثال ؛ ليعترف الناس أن محمداً قد درس الآيات ، على الناس ، وقرئت : « درست » أى ذاكرت الناس بالقرآن ، ولنوضح أسرار هذه الآيات لمن عندهم استعداد علمى وفطرة متفتحة للتعليم من أن على المعلم ـ إن أراد أن يكون مخلصاً ناجحاً ـ أن يكثر من تصريف الأدلة والبراهين والحجج ، ولا يتأتى له ذلك إلا بسعة المادة وتنوع المراجع لكى تسعفه المادة بأمثلة متنوعة تكفى لإثبات الحقائق ، وما أجمل أن يحفظ كل معلم قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون** ﴾ .

# قاعدة كبرى فى الحلال والحرام

الحلال والحرام فى الإسلام ينبعثان من قاعدة كبرى خلاصتها : أن كل طيب حلال وأن كل خبيث حرام سواء أكان ذلك من المأكول أو المشروب ، أو القول أو العمل . وقد وصف الله جل جلاله لأهل التوراة والإنجيل محمداً ﷺ بأن لدينه ثلاث خصائص أو مقومات :

**أولها** : أنه يأمر بكل معروف وينهى عن كل منكر .

**وثانيها** : أنه يحل كل طيب ويحرم كل خبيث .

**وثالثها** : أنه يحرر الإنسانية من آصارها وأغلالها التى كانت عليها ، ويلغى الحرج الذى كانت تتعرض له الأمم السابقة من بعض التكاليف ، كأن يقتل المذنب نفسه ليسقط عنه الذنب . وإنى مورد هنا آية من سورة الأنعام اشتملت على أحكام من التحريم يكثر ورودها فى حياتنا المعاصرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٢١]هذه هى الآية الكريمة وهذه بعض أسرارها وأحكامها :

**أولاً** : جاء فى مناسبة الآية أن المشركين كانوا يأكلون الميتة ، فحصل ذات يوم جدال بينهم وبين المسلمين حول هذا الأمر ، فأوحى الشيطان إلى المشركين أن يسألوا المسلمين هذا السؤال : كيف تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله : يعنون بذلك الميتة ؟

**ثانياً** : شياطين الجن لهم أولياء وأنصار من شياطين الإنس وكل منهم يوحى

إلى الآخر ؛ ليجادلوا المؤمنين بقول مزخرف يبدو فى ظاهره المنطق لكنه إذا كشفت أعماقه تكشف عن غرور وزيف وضلال . ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة الناس يصف الشيطان الموسوس بأنه ﴿ **مِنَ الجِنَّة وَالنَّاسِ** ﴾ أى : سواء أكان هذا الشيطان الذى أستعيذ منه من الجن أو من الناس ، وقد قيل لعبد الله بن الزبير أو للأحنف بن قيس ـ رضى الله عنهما ـ: يزعم المختار الثقفى أنه يوحى إليه فقالا : لقد صدق ؛ لأن الشياطين يوحون إلى أوليائهم .

**ثالثاً** : نبحث على ضوء هذه الآية بعض أحكام عن اللحوم المستوردة من بلاد الشرق والغرب . يقول الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَأكُلُوا مِمَّا لَم يُذكَرِ اسمُ اللهِ عَلَيهِ وَإنَّهُ لَفِسق** ﴾ أى خروج على أمر الله وأمر رسوله . ولأشياخنا ـ رحمهم الله ـ حول هذه الآيات أقوال سنتعرض إليها لنصل من خلالها إلى حكم اللحوم التى لا يذكر عليها اسم الله .

**رابعاً** : إذا كانت الذبيحة مما لم يذكر اسم الله عليه لأنها ماتت فتلك حرام بالإجماع ؛ لأن لحم الميتة حرام بنص القرآن الكريم . يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيكُمُ المَيتَةَ وَالدَّمَ ولَحمَ الخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ بِه** ﴾ وقد أحلت السنة المشرفة ميتتين هما السمك والجراد . وسبب تحريم الميتة والله أعلم أن لحمها غير طيب سواء كان موتها من مرض أو كانت مترديه أو موقوذة أو نطيحة ، أو أكل بعضها سبع ؛ إلا إذا لحقها المذكى وفيها حياة فذكاها ، فعندئذ تصبح طيبة لانفصال الدم عن لحمها .

**خامساً** : أما التى لم يذكر اسم الله عليها فلأشياخنا ـ رحمهم الله ـ فيها أقوال كثيرة ، وبما أن الأمر له تعلق باللحوم المستوردة ، فلابد من بسط ما قاله

العلماء فى هذا الأمر ونلخصه فيما يأتى :

أ ـ إذا كان ترك التسمية استهانة بها واستنكافاً عنها وعدم اعتقاد بها وببركتها فأرجح الأقوال أنها لا تؤكل .

ب ـ إذا ذكر الذابح على الذبيحة اسماً غير اسم الله ، أى من أسماء أصنامهم أو معبوداتهم فالذبيحة حرام بالإجماع ؛ لأن تحريمها ورد نصاً فى كتاب الله . يقول الله جل جلاله فى سورة البقرة : ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحمَ الخنزيرِ وَمَا أُهلَ به لغَيرِ الله** ﴾ [البقرة : ١٧٣] ويقول تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **قُل لاَ أجدُ فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يَطْعَمُه إلا إن يكُونَ مَيتةً أو دماً مَسْفُوحاً أو لحم خنَزِيز فإنَّه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به** ﴾ [الأنعام : ١٤٥] .

ج ـ إذا ترك الذابح التسمية سهواً تؤكل ذبحته ؛ لأن النسيان رفع عن أمة محمد . وقال بعض الأئمة لا تؤكل الذبيحة إذا تركت التسمية عليها عمداً أو سهواً . لكن الجمهور من الأئمة وأصحاب المذاهب على خلاف هذا ، فهم يقولون : إذا ترك الذابح التسمية سهواً أو عمداً من غير استهانة بها فذبيحته حلال ، وهذا قول الشافعى ورواية عن أحمد ومالك .

**سادساً** : على ضوء الأقوال التى ذكرناها وعلى ضوء قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **اليوَم أُحِلَ لكُمُ الطَيباتُ وَطَعَامُ الَّذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وَطَعَامُكُم حلٌ لَهُم** ﴾ [ المائدة : ٥] يمكن أن يخلص بالحكم التالى حول الذبائح التى تباع فى أسواق المسلمين مثلجة أو مبردة مستوردة من بلاد غير المسلمين وهى أنها والله أعلم حلال كلها وذلك للأسباب الآتية :

**أولاً** : أن قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ هو من سورة الأنعام وقد نزلت هذه السورة بمكة المكرمة حيث كان المشركون لا يذكرون اسم الله على الذبائح ليذكروا اسم غيره من أوثانهم ، وكانوا أيضاً يأكلون الميتة التى لم يذكر اسم الله عليها ، فنزلت هذه الآية إنكاراً لأفعالهم كما حملها جمهور من المفسرين .

**ثانياً** : نزل بعد هذه الآية بوقت طويل فى سورة المائدة التى هى من آخر ما نزل من كتاب الله نزل قوله تعالى : ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم**﴾، وأهل الكتاب ليس بالضرورة أن يذكروا اسم الله .

**ثالثاً** : لحوم الأنعام والطير أوجدها الله نعمة جليلة للإنسان فحرم الشرع الشريف منها ما ذكر فى كتاب الله والأصل فى الباقى الحل . والتحليل والتحريم فى أمر المأكول والمشروب يكون بالتأكد لا بالشك ، وإذا ثبت أن الأجانب يقتلون الحيوان بغير الذبح على الطريقة الإسلامية كالصعق والغاز فذبائحهم عندئذ حرام ، ونصيحة للمسلم إذا وجد فى السوق دجاجاً مستورداً من بلاد النصارى ، وآخر من إنتاج محلى أن يشترى من المحلى على قاعدة : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وبعد فالوسوسة وكثرة التساؤل على العلماء تفتح مجال التشديد فى الدين ، وهذا الأمر أهلك الأمم من قبلنا .

# المحرم من الذبائح

استكمالاً للمحرم من الذبائح نورد هذه الآية من سورة الأنعام ، ثم نشرحها ذاكرين بعض ما أضافت لها السنة المطهرة من الذبائح .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **قُل لاَّ أجدُ فيمَا أُوحيَ إلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعمٍ يَطعَمُهُ إلاَّ أن يكُونَ ميتَةً أو دَماً مَّسفُوحاً أو لَحمَ خنزيرٍ فإنَّهُ رجسٌ أو فسقاً أُهلَّ لغَيرِ الله به فَمَن اضطُرَّ غيرَ بَاغٍ ولاَ عادٍ فإنَّ ربَّكَ غفُورٌ رَّحيم** ﴾ [الأنعام : ١٤٥] .

أقول وأستلهم الله السداد والفتوح وإخلاص العمل لوجهه الكريم :

**أولاً** : هذه الآية فى السياق تقع رداً على المشركين الذين حرموا على أنفسهم من الأنعام ما لم يحرمه الله ، وجعلوا جزءاً منها لآلهتهم وجزءاً لله بزعمهم ، وحرموا بعضها على الإناث دون الذكور وأطلقوا بعضها يرعى بعد أن حرموا لحومها وركوبها ، فنزلت هذه الآية فى مكة المكرمة بأسلوب الحصر تشتمل على تحريم أربعة أشياء من الذبائح وهى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما يذكر عليه اسم من أسماء المعبودات غير الله جل جلاله .

**ثانياً** : بعد هذه الآية فصلت السنة بعض محرمات أخرى من الذبائح كلحوم الحمير الأهلية التى حرمها رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وكلحوم الجلالة والبغال وكذوات الناب من السباع وذوات المخالب من جوارح الطير . والمؤمنون يؤمنون بما تحرمه السنة فى الأحاديث الصحيحة كما يحرمون ما حرمه كتاب الله ؛ لأن من يطع الرسول ، فقد أطاع الله ، والله جل جلاله يقول : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنهُ فَانتَهُوا** ﴾

وكل من ينكر السنة المطهرة ، أو يشكك فيها فهو جاهل بأصول الأحكام دعيٌ فى حلبة العلم الصحيح .

**ثالثاً** : مما ورد تحريمه فى السنة كل جوارح الطير التى تأكل اللحوم وتمزق فريستها بمخالبها ، وكل السباع المفترسة التى تمزق فرائسها وتكسر عظامها بأنيابها ، فقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مالك رحمه الله : « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » وفى حديث معن بن مالك الذى رواه مسلم : « نهى عن أكل كل ذى مخلب من الطير » ومع أن بعض الفقهاء كالشافعى يحل لحوم السباع ، فالحقيقة أن لحمها ليس طيباً على قول من ذاقوه .

**رابعاً** : هذه بعض مسائل عرض لها الفقهاء فى تحريم بعض اللحوم :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ يفيد أن تحريم هذه الذبائح المذكورة فقط على من يريد أكل لحمها ، أما الجلد والعظم والصوف والشعر والريش ، فهو حلال سواء أكان فى الميتة أو فى الأصناف المحرمة .

ب ـ رخص جماعة منهم الشافعى ـ رحمه الله ـ فى أكل اليرابيع والوبار جمع وبر وهو كاليربوع والضباب والورل والقنفذ ، ولم يسمع عن النبى ﷺ تحريم للحشرات .

ج ـ قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى الفأرة : ما هى بحرام مستندة إلى أن الحرام هو ما حرمه الله وما سكت عنه فهو عفو والراجح تحريمها ؛ لأنها من الفواسق التى أمر النبى ﷺ بقتلها وهى الغراب والحدأة والعقرب والفأر والكلب العقور .

د ـ يحل مالك ـ رحمه الله ـ سباع الطير وينكر حديث معن بن مالك ويرى أن كل الطير حلال إلا أن البعض كرهوا لحم الرخم .

هـ ـ الثعلب والضبع أحلهما بعض الفقهاء ورأى آخرون تحريمهما ، وكانت بعض قبائل العرب تأكل الكلب وهو عند الجمهور محرم ، أما الفيل فيرى بعض الفقهاء أنه حلال إذا ذكى .

و ـ الأرنب عند الكثيرين حلال ؛ لأنها من آكلات الأعشاب ، وروى البعض تحريمها ؛ لأنها تحيض وقد أمر النبى ﷺ بأكلها وقال : « لا أشتهيها ».

ز ـ القرد نهى رسول الله ﷺ عن أكله وأجاز عطاء أكله لكن الجمهور على خلافه ، وحرم بعض الفقهاء بيعه وأجاز بيعه آخرون ؛ لأنه يمكن أن يعلم الحراسة ويمكن أن يسر بألعابه الأطفال .

ح ـ ما نهى النبى ﷺ عن قتله كالنملة ، والنحلة ، والهدهد ، والقرد ، فلحمه والله أعلم حرام ، والحشرات حرام ؛ لأن النفس لا تستحبها .

ط ـ ما قطع من البهيمة الحية يعتبر ميتة ، ولا يجوز أكل أى عضو قطعته من الأنعام وهى حية .

ى ـ نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة من الإبل والبقر والغنم والدجاج والأوز وغيرها وهى التى تتغذى معظم غذائها على الأوساخ وروث الآدمى ، حتى إنه ليظهر ريحه فى لحمها ، فإذا أخذت هذه الجلالة وأطعمت غذاء نظيفاً حتى طاب لحمها ، فإنها تكون حلالا ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن لبن الجلالة وعن ركوبها ، ويبدو ـ والله أعلم ـ أن ذلك لخبث رائحة عرقها .

ك ـ وهنالك قاعدة كبيرة وهى أن أى خبيث من اللحم مما يستخبثه العرب، أو يحتوى على سموم ضارة فهو حرام ، وذلك كبعض الأسماك التى فيها سم وكبعض الطيور البحرية التى لحمها خبيث .

ل ـ الضفدع مما نهى النبى ﷺ عن قتله ، والراجح أن أكله حرام .

م ـ ما ذبحه المجوسى فهو حرام .

ن ـ دود الجبن وسوس التمر لا يرى مالك بأساً إذا أكل مع الجبن والتمر . قال أحمد فى دود الباقلاء : تجنبه أحب إليّ ، وروى أن رسول الله ﷺ أتى بتمر عتيق فجعل يفتشه ويخرج السوس منه وينقيه .

س ـ الخيل أباحها الشافعى وكره لحمها مالك ، والصحيح والله أعلم أن لحمها حلال ؛ لأن الشارع الحكيم سكت عنها أما البغل فلأن أباه حمار وأمه فرس ، فلحمه والله أعلم حرام ، لأن لحم أبيه حرام .

والعبرة فيما سكت الشرع عنه طيبه أو خبثه ، فما كان طيباً مفيداً عند أهل الذوق السليم ، فهو حلال ، وما خبث أو أضَر فهو حرام .

اللهم زدنا بصيرة بديننا ، وارزقنا العمل بما نعلم ، واجعلنا والإخوة القارئين ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

## الوصايا العشر

هذه ثلاث آيات من سوة الأنعام جاء بها كل نبى منذ كانت النبوات ، ولم تنسخ فى أى شريعة من الشرائع ، وقد وصفت بأن عليها خاتم محمد ﷺ . قال الربيع بن خثيم : وقيل : ابن خيثم وهو من فقهاء التابعين لأحد جلسائه : أيسرك أن تؤتى بصحيفة من رسول الله ﷺ لم يفك خاتمها ؟ قال: نعم قال : فاقرأ: ﴿ قُل تَعَالَوا أتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيكُم ﴾ وتلا الآيات الثلاث ، والحق أن الوصايا العشر المذكورة فى هذه الآيات قد اشتملت على ما يحقق خير الدنيا وسعادة المجتمع وثواب الله .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُل تَعَالَوا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيكُم ألاَّ تُشركُوا به شَيئاً وَبالوَالدَين إحسَاناً وَلاَ تَقتُلُوا أولاَدَكُم مّن إملاَقٍ نَحنُ نَرزُقُكُم وَإيَّاهُم وَلاَ تَقرَبُوا الفَوَاحشَ مَا ظَهَرَ منهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقّ ذَلكُم وَصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَعقلُونَ * وَلاَ تَقرَبُوا مَالَ اليَتيم إلاَّ بالَّتى هيَ أَحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزَانَ بالقسط لاَ نُكَلّفُ نَفساً إلاَّ وُسعَهَا وَإذَا قُلتُم فَاعدلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُربَى وَبعَهد الله أَوفُوا ذَلكُم وَصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صرَاطى مُستَقيماً فَاتَّبعُوهُ وَلاَ تَتَّبعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُم عَن سَبيله ذَلكُم وَصَّاكُم به لَعَلَّكُم تَتَّقُون ﴾ [الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣].

هذه هى الآيات العظيمات وهذه بعض نظرات فى معناها الحكيم ونظمها المعجز البليغ :

**أولاً** : اشتلمت الآية الأولى على خمس وصايا تحذر من خمس من الكبائر وهى الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل الأولاد يأساً من رزق الله ،

والزنا وما يكتنفه من فواحش ظاهرة وخفية وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

**ثانياً** : ختم الله جل جلاله هذه الآيات بقوله : ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ ؛ لأن كل العقلاء مجمعون على أن هذه الجرائم من شرك وقتل وعقوق وفاحشة كل هذه لا يستسيغها العقل السليم بل ينفر منها وينكرها ، وأنها لا تصدر إلا عن مرضى العقول وأهل الشذوذ .

**ثالثاً** : الوصايا الأربع التى فى هذه الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ تتعلق بتربية الضمير ، وهذه التربية من أعظم عناصر التربية الإسلامية ، وما يزال المسلم يربى ضميره ، حتى ينفر من كل حرام ويستسيغ كل عمل صالح ، ويكون بعدئذ من آثار هذه التربية أن يصبح المسلم قادراً على الصحوة والتذكر كلما زين له الشيطان الحرام ، وأن يصل إلى قمة التربية الإيمانية وهي التقوى كما قال جل جلاله فى سورة الأعراف : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] . إن الوصايا الأربع الواردة فى الآية الثانية هذه هى : العفة عن مال اليتم واجتناب أكله ، وإيفاء المكيال والميزان ويتبع هذا الأمانة فى كل المعاملات، وكلمة الحق وشهادة الحق حتى على أقرب قريب ولو كانت تضر بمصلحة الشاهد نفسه أو والديه وأقاربه ، والوفاء بعهد الله ، وما أوسع مدلول عهد الله فالرب جل وعلا أخذ على كل مسلم عهداً أن يقوم بفروضه وأن يجتنب نواهيه ، والوفاء بعهد الله يشمل فعل الصالحات كلها واجتناب النواهى جميعها .

**رابعاً** : الآية الأخيرة اختصها الله جل وعلا بوصية واحدة ؛ وذلك لأن هذه

الوصية هى ثمرة لجميع الوصايا التسع الماضيات ؛ ولهذا اهتم بها القرآن الكريم واختصها بآية كاملة هى مسك الختام للوصايا العشر : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ .كان رسول الله ﷺ جالساً بين أصحابه فخط بيده الشريفة خطاً طويلاً واضحاً ثم خط عن يمين الخط الأول وشماله خطوطاً صغيرة متفرعة منه وقال لهم : « هذا صراط الله المستقيم وهذه بنيات سبل » وأخبرهم أن أمة محمد سوف تنقسم على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ألا وهى التى سارت على صراط الله المستقيم واعتصمت بكتاب الله وسنة رسوله ، وإذا كانت أمة محمد ﷺ فى أيامنا هذه تشكو من انقسامها ، فإنه لن يوحدها ولن يقوى على تحقيق تضامنها إلا أن تسير على صراط الله المستقيم وهو طريق واضح أوله عندنا وطرفه فى الجنة ، إذا التزمه الإنسان قاده إلى الجنة ، أما إذا استغوت الإنسان بنيات الطرق فإنه يسقط عن الصراط إلى النار .

إن الطريق الكبير المعبد المعروف تكون على أطرافه معالم هادية وصوى مرشدة ، ولا يمكن أن يتيه من يسلكه لكن الذى يتيه هو الذى يضرب فى بواد متفرعة متداخلة ينقصها الوضوح ، وهذا هو مثل المؤمن الملتزم صراط الله ومثل المبتدع الذى يريد وحدة العرب والمسلمين حول شعارات غير الإسلام وهى شعارات خدع بها المسلمون من مطلع هذا القرن حتى الآن ، فكان أن تاهت أمتنا وتقسمتها الأهواء والسبل المنحرفة .

**خامساً** : من المسائل التى تتفرع من الآيات هذه الأمور :

أ ـ قتل النفس بالحق يكون بالقصاص من القاتل وقاطع الطريق وبرجم الزانى المحصن وبقصاص المرتد وبمحاربة المبتدعين والمرتدين الذين يريدون أن

يغيروا دين الله .

ب ـ قوله : ﴿ قُل تَعَالَوا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيكُم ﴾ دعوة للإنسانية عامة أن تقف عند هذه الحدود العظيمة التى لو أخذت بها الإنسانية ؛ زال منها العداء ورفرف عليها الإخاء والحب والسلام .

ج ـ يلاحظ ذكر حق الوالدين بعد حق الله جل جلاله ؛ لأنهما أحق أهل الأرض بحسن الصحابة والبر ، ولأن فضلهما يأتى بعد فضل الله ؛ إذ لولاهما بعد الله لما تمتعت بنعمة الحياة .

د ـ العزل الذى يقصد به تنظيم النسل لسبب وجيه كصحة الوالدة لا شىء فيه ، أما إذا كان يأساً من رزق الله أو كان إجهاضاً فهو كقتل النفس .

هـ ـ يزول وصف يتيم عن الإنسان إذا بلغ الحلم وبدا منه رشد وفهم لمصلحته ، ويجب من حينئذ أن يسلم ماله إذا اجتمع الشرطان ، ومال اليتيم يتصرف فيه وليه بالعدل وتحقيق المنفعة ، ويجوز أن يأكل منه مقابل خدماته ويحرم أن يأكل منه عدواناً بغير حق إنه عندئذ يأكل ناراً .

و ـ التزام الحق والعدل فى الشهادة أمران من أعظم الأمور يفرضهما الإسلام على المسلمين حتى ولو كانت الشهادة على أنفسهم ، والإسلام فى هذا الأمر ينتظم الإنسانية كلها فى سلك المساواة أمام الشرع .

ز ـ ختام الآية الأخيرة التى تحث على التزام الصراط المستقيم : ﴿ ذَلكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تتقُون ﴾ جعل التقوى أعظم ثمار الاعتصام بدين الله وصراطه ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المنزلة تقبل الله أعماله ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِين ﴾ .

اللهم اجعلنا وإخواننا المسلمين من المتقين الذين تتقبل أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة .

# حول حسن الختام فى سور القرآن

من فنون علم البديع فن اسمه حسن الختام وهو يقابل فناً آخر اسمه براعة الاستهلال ، فبراعة الاستهلال أن تطلع على القارئ أو السامع بمقدمة رائعة تشده بها إليك من أول لحظة ، كفواتح سور القرآن وكبعض مطالع القصائد والخطب . أما روعة الخاتمة فهى أن تختم الخطبة أو المقالة ، أو القصيدة بمقطع قوى غاية القوة يترك فى سمع المستمع وقلبه أثراً هائلاً يظل مؤثراً فيه عالقاً بذهنه ، وهذه خمس آيات ختمت بها السورة العظيمة سورة الأنعام تقرؤها فتملأ قلبك خشوعاً وروعة وتفكيراً .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٥] .

أقول وأسأل الله أن يجعل أعمالنا وإياكم مخلصة لوجهه الكريم :

أولاً : هذه الآيات الكريمات من أروع خواتيم السور القرآنية ، وهى مناسبة أروع التناسب لما اشتملت عليه سورة الأنعام من توحيد الله وإحلال حلاله وتحريم حرامه وإخلاص النسك له وترك كل ما يعبد سواه ، فجاءت الخاتمة خلاصة فى غاية من الإيجاز البليغ المعجب الممتع حتى كأنما

يستعرض السورة كلها بهذه الخاتمة استعراضاً خاطفاً لكنه واف يركز أفكار السورة الطويلة فى خمس آيات .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **قُل إنَّنِى هَدَانِي رَبِّى إلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إبرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشرِكِينَ** ﴾ . أمر لرسول الله ﷺ أن يعلن للدنيا ويقول للناس : إن الدين الذى جئت به وهدانى الله إليه هو دين أبى الأنبياء إبراهيم وهو دين قيم حنيف لا يقبل أى شرك بالله ، وهو الصراط المستقيم الذى يهتدى به كل من سار عليه ، إنه دين يجمع الإيمان الخالص ، والاستقامة على الحق والإيمان ، وفى الحديث الشريف : « قل آمنت بالله ثم استقم » وكلمة ﴿ **قيما** ﴾ هى لغة فى كلمة قيما وقد قرئت الآية : « دَينا قيَما ، ودينا قيِّما » وفعل الأمر ﴿**قل**﴾ يحمل معنى الأمر الحقيقى ، والأمر البلاغى ، أما الحقيقى فلأنه يأمر رسول الله ﷺ بتبليغ حقيقة الدين ، وأما الغرض البلاغى فلأنه تعليم وإرشاد وهداية وكلمة ﴿**ديناً** ﴾ تعرب حالاً من ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ وقد جاز أن يأتى صاحب الحال نكرة ؛ لأنه فى حكم المعرفة ؛ إذ إن كلمة ﴿**صراط مستقيم** ﴾ هى علم على الإسلام ومثلها مقاماً محموداً فقد وصفت بالمعرفة فى الدعاء المأثور : «وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته » .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **قُل إنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسلِمِين** ﴾ هاتان الآيتان والتى قبلهما كان النبى ﷺ يفتتح بهن الصلاة بعد تكبيره الإحرام ، فقد جاء عنه أنه كان إذا كبر تكبيره الإحرام استفتح قائلاً ، ﴿ **وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له**

وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . إن هذه الآيات الثلاث إعلان لتوحيد الألوهية ، ففيهن إعلان المؤمن أن كل عبادته من صلاة ونسك، وغيرها خالصة مخلصة لوجه الله ، بل إن كل حياة المسلم ومرده بعد موته إنما هما لله ، والمؤمن عبد ربانى أسلم وجهه وعمله وحياته وموتته لربه لا شريك له . ولا بأس أن يقول المسلم وهو يستفتح بهذا الدعاء : ﴿وأنا أول المسلمين ﴾ التزاماً بنص الأمر فى الآية الكريمة . إن النسك معناه الذبح ، وهذه الآية شرح عظيم لكلمة التوحيد التى معناها بأنه ما من إله يعبد بحق وتصرف إليه كل العبادات دون غيره إلا الله جل جلاله.

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ قُل أغَيرَ الله أبغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ وَلاَ تَكسب كُلُّ نَفسٍ إلاَّ عَلَيهَا وَلا تَزرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى ثُمَّ إلَى رَبِّكُم مَّرجِعكُم فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم فِيه تَختَلِفُونَ ﴾ . جاء فى مناسبتها أن قريشاً قالت لمحمد ﷺ : اعبد آلهتنا وعلينا عهد أن نحمل أعمالك ونسأل عنها ، فنزل هذا الاستفهام الإنكارى الرائع ﴿ قُل أغَيرَ الله أبغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شيء ﴾ ؟ ومعناه : مادام الله جل جلاله هو رب كل شيء فكيف أطلب سواه رباً ؟ إننى حيئذ سأعبد عبداً ؛ لأن كل ما سوى الله ما هو إلا عبد له ومربوب له . ثم إنكم لن تستطيعوا حمل أوزارى ؛ لأن كل نفس مسؤولة عما تكسبه وعليها وزرها لا على غيرها وسوف يسألها الله حين رجوعها إليه عن كل ما عملته وينبئها بمخالفاتها .

خامساً : فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُم خَلاَئِفَ الأرضِ وَرَفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبلُوَكُم فِيمَا آتَاكُم إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم ﴾ خلاصة لقصة الحياة والخلق من بنى الإنسان . لقد

استخلف الله بنى آدم فى هذه الأرض ليعمروها بأمر الله ، وجعل بينهم تفاوتاً وفروقاً فطرية فى قوة الجسم وقوة العقل وطبيعة المزاج والصبر على السعى والجلد على العمل وفى الخلق والرزق والفضل والعلم ؛ وذلك ليختبر كل إنسان فيما آتاه من القدرات والمواهب ، فمن أخفق فى الابتلاء والاختبار فإن ربك سريع العقاب ومن نجح فى الاختبار فإنه جل وعلا لغفور رحيم .

نسأل الله أن يجعل نعمه علينا وعليكم عوناً على طاعته وبلاغاً إلى رضائه ، وأن يجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، ويجعل الموت راحة لنا من كل شر ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

# الإسلام دين واقعى عملى

هذه ثلاث آيات من سورة الأعراف تثبت أن دين الإسلام دين عملى واقعى يأخذ فى اعتباره حاجات الإنسان الجسمية والنفسية ، ويقدر مطالب الغرائز ؛ إلا أنه يهذبها ويربيها ويوجهها وجهة النظام والبناء بحيث لا تطغى الغرائز ، فتتجاوز حدود الله ومعالم دينه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣١ ـ ٣٣].

أقول وبالله التوفيق ، وعليه التوكل ، ومنه العون ، وإليه الرغباء والعمل :

أولاً : السور المكية كلها ذات موضوع كبير واحد هو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة لكن كل سورة من السور المكية لها طريقتها الخاصة فى إثبات هذه الحقيقة العظمى ، وسورتا الأنعام والأعراف كلتاهما مكية وهما أطول السور المكية ، ومن ثم كانتا من أجمل السور المكية شرحاً لحقيقة الإيمان ، بيد أن كلا منهما سلك طريقاً خاصاً يختلف كل الاختلاف عن طريق الآخر ، فسورة الأنعام تعرض لحقيقة الإيمان من خلال آيات الله ومخلوقاته وملكوت السموات والأرض وبدائع صنعه ودلائل قدرته وشواهد وحدانيته التى يراها الإنسان أنى وجه بصره ، أما سورة الأعراف ،

فهى عرض لحقيقة الإيمان من خلال قصص الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وقصته مع إبليس مروراً بقصة نوح وقومه ، وهود وقومه عاد ، وصالح وقومه ثمود ، وشعيب وقومه مدين وموسى وقومه بنى إسرائيل إلى محمد ﷺ وقومه سكان هذه الدنيا من إنس وجن . والحق أن لكل من سورتى الأنعام والأعراف نكهة خاصة وشذى متميزاً كما تتنوع أنواع الطيب فى شذاها وتتوحد فى طيبها . من أراد أن يسلك مسلك التأمل الهادئ والفكر الباحث ، فليعش مع سورة الأنعام ليسير فى أنوار الفكر التى ستوصله حتماً إلى رحاب الإيمان والتوحيد ، ومن شاء أن يتملى مواكب القرون الأولى وقصص الرواد الأول لقافلة الإيمان ، فعليه بسورة الأعراف ليستمتع بقصص القرون الأولى ، تلك القصص التى كانت خاتمة كل منها انتصار الحق وزهوق الباطل ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين ، تلك سنة الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.

**ثانياً** : حين ذكر الله جل وعلا جناية إبليس على آدم وكيف وسوس له وزين له المعصية حتى عصى ربه وغوى فبدت له ولزوجته سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، عند هذه النقطة سنحت فرصة البلاغة والنسق المعجز أن يذكر الله العرب بما كانوا عليه فى الجاهلية من عادات مرتكسة فى الضلال فعلت بحجاج بيت الله الحرام ما فعلته وسوسة الشيطان لآدم ، تلك الوسوسة التى كانت سبباً فى هتك سترة وبدو سوأته.

**ثالثاً** : جاء فى مناسبة نزول هذه الآيات أن كثيراً من الحجيج رجالاً ونساء كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة ؛ لأن تجار الثياب فى مكة المكرمة وضواحيها، وكانوا يدعون الحمس لحماستهم لبيت الله ، قد أوقعوا فى روع الحجيج أنه لا يجوز لحاج أن يطوف بالبيت بثوب عصى فيه ربه

وعلى هذا الحاج أن يشترى ثوباً جديداً من تجار الحمس أو أن يرمى ثوبه ويطوف بالبيت عريان ، وكان بعض العرب يحرمون على أنفسهم فى الموسم أكل أطيب الطعام ، ويحرمون على أنفسهم اللحم والدسم ، فنزل القران الكريم منددا بهذه العادات هاتفاً بالإنسانية: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ** ﴾ .

رابعاً : فى قوله تعالى : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ** ﴾ نداء للناس أن يتنعموا بما أنعم الله عليهم من نعمة اللباس والطعام فى غير سرف ولا مفاخرة ، وفى الحديث الشريف : « كل واشرب والبس وتصدق فى غير سرف ولا مخيلة » . وفى الحديث الشريف : « إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» . وقد ختمت الآية بإطناب تذييل بلاغى وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّه لا يُحِبُّ المسرِفِينَ** ﴾ وهذا المعنى قاعدة جليلة من قواعد الآداب الشرعية إذ الإسراف حتى فى العبادة منهى عنه ؛ لأن أمة الإسلام أمة وسط .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ نقاش منطقى لايدركه إلا المتعلم بدأه الحق جل جلاله بهذا الاستفهام الذى يفيد النفى القاطع قل يا محمد للمشركين الذين يطوفون بالبيت عراة والذين يحرمون أنفسهم فى الموسم من الطيبات واسألهم : من الذى حرم الملابس التى تزين الإنسان وتستره؟ ومن الذى حرم طيبات الرزق ؟ أى شرع وأى دين حرم هذا ؟!. ثم قل لهم : كيف يحرم الله طيبات اللباس والطعام والله جل جلاله هو يسرها

للإنسان وأعطاها فى الحياة الدنيا للمؤمن والكافر والبر والفاجر لكنه فى القيامة والآخرة جعلها خالصة للمؤمنين محرمة على الكافرين ، لو كانت هذه حراماً لما اختص بها عباده المؤمنين فى جنته وظلال رضوانه ؟!

سادساً : فى قوله تعالى : ﴿ **قُل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ . هذه الآية ذات أسلوب دامغ رائع يلفت نظر المشركين أنهم يطلبون الجدل فى شكليات من بدعهم ومنكرات من تقاليدهم ويتغافلون عن الفظائع التى يقترفونها . ذكرهم إذن يا محمد بالمهم من المحرمات، وهى الفواحش ظاهرها وباطنها ومعناها المعاصى ظاهرة وخفية ، والإثم ومن معانيه الخمر ، وظلم العباد بغير حق والافتراء على الله جل جلاله بنسبة الشركاء إليه وزعم البنين والبنات لجلاله ، هذا هو الإثم الذى نلفت إليه أنظاركم، وليس موضوع ثوب تلبسه فى الطواف أو تحرم غيره على نفسك ، ولعل مما يلفت النظر فى الآية أنها ذكرت الإثم وجاءت بعده بظلم العباد مع أنه داخل فى الإثم ؛ وذلك لأن ظلم العباد بغير حق هو الجريمة التى تمحق حسنات صاحبها يوم يرى ميزانه وقد أخذ منه كل حسنات توضع فى ميزان من ظلم بقدر ما ظلم ثم يدخل النار .

# الناس قسمان

هذه أربع آيات من سورة الأعراف تقسم الناس فى القيامة قسمين : الأول عاش كافراً ، ومات على الكفر والمعاندة والاستكبار ، فهذا هو الذى لا يغفر الله له ولا يدخله رحاب رحمته الواسعة ، أما الثانى فأخلص التوحيد والعبادة لله فغفر لهم ولطف بهم فرفع عنهم الحرج وصعوبة التكليف .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ٤٠ ـ ٤٣] .

هذه الآيات الأربع الكريمات اشتملت على طرائف من الفكر والبيان نعرض لبعضها فيما يلى :

**أولاً** : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ** ﴾ معناها : أن كل من يكفر بالله وبدلائل قدرة الله وينكر وحدانيته ويستكبر عن أوامر الله الواردة فى كتابه فقد أجرم وظلم. أجرم بالكفر وظلم بالاستكبار ؛ ولهذا فإن جزاءه هو ألا تفتح له أبواب السماء أى لا يقبل منهم أى عمل صالح ؛ إذ الأعمال الصالحة والكلم الطيب يرفعان إلى الله كما قال تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ**

**الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُه ﴾** وهؤلاء المجرمون الظالمون الكافرون لن يدخلوا الجنة ؛ لأن الله حرم الجنة على كل مشرك ، ولكى يوضح الحق جل جلاله استحالة دخولهم الجنة ذكر شرطاً مستحيلا وربط دخولهم الجنة بحدوثه . وهذا الشرط هو أن يدخل الجمل فى سم الإبرة أى فى ثقبها ، ومع أن بعض المفسرين يفسر الجمل بأنه الحبل الغليظ إلا أن الجمل هو الجمل ولا داعى لتكلف المعانى البعيدة ، وهذا الأسلوب فى ذكر شرط مستحيل يزيد فى حسرة الظالم ؛ لأن خياله حينئذ يسرح مع المستحيل متعلقاً بخيط واه من الأمانى ثم لا تلبث أمانيهم أن تحطم على صخرة الواقع الموئس المرير ، قد يقول قاض لمجرم: لن نعفو عنك حتى تعيد الروح للقتيل فتكون هذه العبارة أنكى من قوله له : لن نعفو عنك، ومن هذا القبيل قول الأستاذ للتلميذ المهمل : ستنجح إذا دخل إبليس الجنة .

وقد استغل أحد الشعراء معنى الآية الكريمة فقال :

ولو أن ما بى من ضنى وصبابة على جمل لم يدخل النار كافر

والبيت يشبه اللغز ، ومعناه : لو أن ما أتحمله من الغمّ ، وألم الحب يوضع على ظهر جمل لظل ينحف وينحل حتى يدخل فى ثقب الإبرة ، وعندئذ يدخل الكفار كلهم الجنة ، والبيت يوضح مدى تأثر الشعراء بمعانى القرآن حتى شعراء الغزل .

**ثانياً** : قوله تعالى : **﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوقِهِم غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجزِى الظَّالمين ﴾** معناه : إن أهل الكفر والإشراك سيكون فراشهم وأغطيتهم من النَار جزاء وفاقاً لظلمهم العظيم الذى هو إشراكهم بالله .

**ثالثاً** : قوله تعالى : **﴿ وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لاَ نُكَلِّفُ نَفساً إلاَّ وُسعَهَا أُولَئِكَ أصحَابُ الجَنَّةِ هُم فِيهَا خَالِدُون ﴾** معناه : إن الذين آمنوا

بوحدانية الله وصرفوا عبادتهم إليه وعملوا جهدهم صالح الأعمال غير مكلفين إلا وسعهم ، فإننا لن نرهقهم ولن نؤاخذهم بما هو فوق طاقتهم ، وسنجزيهم الجنة التى ليس بداخلها إلا النعيم الأبدى والخلود السرمدى .

رابعاً: قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . هذه الآية لها خلفية معنوية جديرة بالوقوف عندها .

إذا رأى المؤمنون نعيم الجنة ومن أهمه نعمة الإخاء فى ظلال جنة الله وأنهارها، فإنهم عندئذ يستصغرون أعمالهم ويقولون : « الحمد لله الذى هدانا لهذا النعيم وأهداه إلينا دون أن يكون لنا من العمل ما يستحق هذا» ، إنهم يجردون أنفسهم من كل فضل ، ويعلنون أنهم ما هدوا أنفسهم بأنفسهم ، وإنما الذى هداهم هو الله ، ولولا هداه جل شأنه ما اهتدوا ، هنالك ترى الملائكة دهشتهم ومفاجأتهم واستصغارهم لأعمالهم فتناديهم : إن هذا الجنة التى أكرمكم بها ربكم ما هى إلا نتيجة لأعمالكم الصالحة وإيمانكم الصادق بالله ، فيكون لهذا النداء رفعاً لمعنوياتهم وإبهاجاً لنفسياتهم ، والحق أن كلام الملائكة للمؤمنين ومدحهم لهم ما هو إلا تفضل من الله جل وعلا ؛ لأنه ما من أحد يدخل الجنة بعمله ، وسئل رسول الله ﷺ : ولا أنت يا رسول الله قال : « ولا أنا ؛ إلا أن يتغمدنى الله برحمته » لكنه رضوان الله جل وعلا يتجلى على المؤمنين بواسع فضل ربهم فتناديهم الملائكة : بل أنتم أهل للإكرام؛ لأنكم عملتم من الصالحات ما جعل ربكم يرضى عنكم ويجزيكم أحسن الجزاء .

نسأل الله أن يرينا منازل الأبرار ويحشرنا مع المصطفين الأخيار

# حوار بين أهل الجنة وأهل النار

هذه آيات كريمات من سورة الأعراف تعرض حواراً طريفاً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار يشارك فيه جماعة يعرفون كلا من الطرفين ، يسمون أصحاب الأعراف . والحوار للعبرة وإبراز المصير الأسود الذى يتنظر كل مشرك وكافر وظالم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأعراف : ٤٤ ـ ٥١] .

أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين مدداً متصلاً من عونه وهدايته وقوته وتأييده :

أولاً : بين الجنة والنار سور يفصل بينهما باطنه مما يلى الجنة رحمة وروح وريحان من شذا الجنة وماء وأنهار ، وظاهره مما يلى جهنم عذاب ولهب

وروائح خانقة من غسلين جهنم ؛ ولهذا السور شرفات تسمى الأعراف ؛ لأنها عالية كأعراف الديكة : هذه الأعراف يقيم عليها رجال كشف الله عن بصائرهم ، فهم يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم من آثار النعيم ، كما يعرفون أهل النار بسيماهم من آثار الجحيم ، ويمكن أن يكون هذ السور هو المذكور فى سورة الحديد ، ففى هذه السورة مشهد من مشاهد القيامة ترى فيه المؤمنين يغمرهم نور عن يمينهم وبين أيديهم ، فيمر عليهم المنافقون وهم يخبطون فى ظلام دامس فيقولون لهم : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ ما يضىء لنا الطريق ، فما يشعرون إلا وقد انتصب بينهم وبين المؤمنين سور عال باطنه فيه نعيم ورحمة وظاهره فيه عذاب وغضب، هنالك يصيحون بأعلى أصواتهم : ألم نكن أقاربكم فى الدنيا، فيجيبونهم : بلى ولكنكم أفسدتم أنفسكم بالنفاق وعشتم فى شك من نصر الله وتربصتم بالمؤمنين الدوائر حتى جاء نصر الله وأنتم تجرون وراء الشيطان الغرور .

**ثانياً** : اختلف المفسرون فى أصحاب الأعراف الجالسين على شرفات السور الفاصل بين الجنة والنار إلى أكثر من عشرة أقوال . والرأى الذى اطمأننت إليه : أنهم قوم لم تؤهلهم أعمالهم إلى جنة ولا إلى نار ، فوضعوا فى هذا المكان بين الجنة والنار كلما نظروا إلى أهل الجنة طمعوا أن يشملهم الله بعفوه ، وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ﴿**ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ ولله جل جلاله المثل الأعلى فى العدل يضع كل عبد فى درجته التى استحقها بعمله .

**ثالثاً** : يدور حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فينادى أصحاب الجنة أصحاب النار قائلين لهم : نحن وجدنا ما وعدنا ربنا من نصره فى الدنيا وجنته فى الآخرة حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم من هزيمة الكفار فى

الدنيا وعذاب النار فى الآخرة حقاً ؟ فيقول الكفار : نعم لقد صدقنا ربنا وعده كما صدقكم وعده ، هنالك ينبعث صوت مناد يعلن حلول لعنة الله على الكافرين ، والكافرون كما وصفهم الله هم الذين يصدون الناس عن طريق الإسلام ويطلبون لهذه الطريق المعايب والنقص والعوج ويكفرون بيوم الحساب وما أكثرهم فى هذه الأيام . إن كثيراً من المتعلمين وممن يسمون أنفسهم رجال الفكر فى هذ الأيام تنطبق عليهم هذه الصفات ، فهم لا يزالون يلتمسون المعايب والعوج للقرآن ويكفرون باليوم الآخر ويخشى أن يلقوا ذلك المصير المظلم الذى يلقاه أولئك المطرودون من رحمة الله فى الآخرة .

**رابعاً** : إذا نظر أصحاب الأعراف إلى أهل الجنة قالوا لهم سلام عليكم طامعين وهم خارج الجنة أن يعفو الله عنهم ويلحقهم بأهل الجنة وإذا نظروا إلى أهل النار استعاذوا بالله من عذابهم ، ودعوا الله أن يباعد بينهم وبين القوم الظالمين وما هم فيه من عذاب عظيم .

**خامساً** : ينادى أصحاب الأعراف رجالاً تبدو عليهم آثار جهنم فيقولون لهم حين يرونهم : إن أموالكم التى كانت تغريكم بالاستكبار لم تغن عنكم وقد كنتم فى الحياة الدنيا تعتقدون أن المال والزينة فى الدنيا ستكون شافعة لكم فى الآخرة ، كنتم تحلفون أن فقراء المؤمنين لا يمكن أن ينالهم الله برحمة ؛ لأنهم فقراء ، انظروا إليهم الآن وقد استقبلتهم الملائكة تقول لهم : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون.

**سادساً** : وفى غمرة العذاب والعطش الشديد يصرخ أصحاب النار من وراء السور طالبين من أصحاب الجنة أن يعطوهم من زائد الماء أو الفاكهة أو رزق الجنة فيرد عليهم المؤمنون : « لقد سبقت من الله كلمة الله أن

شراب الجنة وثمارها حرام على الكافرين » ، والكافرون الذين حرم عليهم ماء الجنة وثمرها هم الذين اعتنقوا اللهو واللعب ديناً لهم ، وغرتهم نعمتهم فى الحياة الدنيا فنسوا ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ونسوا يوم الحساب الذى يلاقون فيه ربهم . ومع أن الله جل وعلا لا ينسى إلا أنه يقول فى هذه الآية .﴿ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ ، وحاشا لله جل وعلا أن ينسى ولكنه عبر عن حالة الاحتقار التى يعانى منها الكفار يوم القيامة ، وكأنها نسيان لهم وذلك من قبيل تشبيه الجزاء الذى يلقونه بالعمل الذى كانوا يعملونه وهو نسيان اليوم الآخر والغفلة عما فيه من حساب .

**سابعاً** : فى قوله تعالى : و ﴿ **نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ** ﴾ يلاحظ فى ذكر الجنة قوله تعالى : ﴿ **قد وَجَدنَا مَا وَعَدَنَا ربنا حقاً** ﴾ بينما فى ذكر النار يقول على لسان المؤمنين مخاطباً الكافرين : ﴿ **فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً**﴾ ولم يقل : ما وعدكم ربكم حقا ؛ وذلك لأن الله جل جلاله لم يعد أى إنسان أن يدخله النار وذلك لاحتمال التوبة ، بينما وعد أهل الأعمال الصالحة الجنة .

**ثامناً** : فى قوله تعالى على لسان أصحاب الأعراف يخاطبون الكافرين المغرورين المستكبرين ويشيرون إلى المؤمنين : ﴿ **أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ** ﴾ استفهام يفيد التهكم كما يفيد الإنكار عليهم أن يحصروا رحمة الله ، وفى الآية نفسها إيجاز حذف فقد حذف جملة كاملة وتأويلها لقد قالت لهم الملائكة : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون .

**تاسعاً** : قوله تعالى على لسان أصحاب جهنم مخاطبين أصحاب الجنة : **﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾** يشير الحق جل جلاله إلى أن سقى الماء من أفضل الأعمال ، فكل من سقى عطشان شربة ماء يرجى أن يغيثه الله بما يطفئ عطشه يوم القيامة . وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله ـ جل جلاله ـ غفر لرجل سقى كلباً شديد العطش ، فى حين أدخل النار امرأة لأنها حبست هرة فى الجوع والعطش .

# فى وصف النبى ﷺ وطبيعته ورسالته

هذه آية من سورة الأعراف تسجل وصفاً لمحمد ﷺ ولطبيعة رسالته ، هذا الوصف ورد فى التوراة كما ورد فى الإنجيل ، وكان أهل الكتاب يعرفون محمداً ﷺ ويدركون أوصافه ، كما يعرفون أبناءهم وكانوا مجمعين على انتظار نبى يختتم به موكب الأنبياء ، ولكن الحسد والمصالح الدنيوية ونزوات النفوس جعلتهم ينكرون ما عرفوا من الحق ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف ١٥٧] هذه هى الآية العظيمة وهذه بعض أنوارها الظليلة وظلالها المنيرة :

**أولا** : يصف الله جل وعلا القوم الذين كتب لهم واسع رحمته فيقول : ﴿**ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾ [الأعراف ١٥٦ - ١٥٧].

**ثانياً** : أول وصف فى التوراة والإنجيل لمحمد ﷺ ، أنه الرسول النبى الأمى أى : أنه نبى ورسول يبعث من العرب ؛ لأن كلمة الأميين كانت علماً على العرب . الوصف يدل أيضاً على أن محمداً ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب،

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتلُو مِن قَبله من كتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمينكَ إذاً لأرتَابَ المُبطلُون** ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ، وقوله تعالى: ﴿ **الَّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل**﴾ دليل على أن كلاً من موسى وعيسى عليهما السلام قد بشرا بمحمد ونطق بتلك البشرى التوراة والإنجيل ، وبالفعل كان اليهود يستفتحون على مشركى المدينة بمحمد ﷺ ويقولون لهم : غداً يبعث النبى المنتظر فنتبعه فيفتح الله علينا باتباعه ونغلبكم به . نعم لقد كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا : ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا به فَلَعنَةُ الله عَلَى الكَافرينَ** ﴾ .

**ثالثاً** : الوصف الثانى لمحمد ﷺ أنه يأمر أمته بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ومن ثم فإن أمته تتبعه فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبهذه الخاصية إلى جانب إيمانها بالله تكون خير أمة أخرجت للناس . إن المجتمع الإسلامى بهذا الوصف مجتمع نظيف لا يسمح للمنكر أن يظهر فى المسلمين لكنه يشجع كل معروف ويضع حداً لكل منكر . ويضرب على أيدى أهل المنكر بيد قوية حتى لا يفسدوا ذلك المجتمع الطاهر المتميز بالهدى والحق والعدل والمساواة . والحق أن أمة محمد إذا أرادت أن تبقى فى منازل الأفضلية على سائر الأمم فإن عليها أن تحتفظ بخاصيتها العظيمة ألا وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

**رابعاً** : أما الصفة الثالثة من أوصاف محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل ، فهى أنه يحل كل طيب ويحرم كل خبيث ، فكل طيب تستسيغه الأذواق السليمة والبصائر المستقيمة من المطعم والمشرب والقول والعمل فهو حلال، وكل خبيث تمجه الأذواق السليمة وتنكره من القول والعمل والمطعم والمشرب فهو حرام ، وبهذا الحكم يمكن أن يحكم على كل

ما يستجد من الأشياء مما لم يكن موجوداً على عهد محمد ﷺ ؛ ففي الحكم على الدخان وشربه مثلا يبحث عن طيبه وخبثه ، فإذا ثبت أن ليست له أية خاصية طيبة وأنه على العكس خبيث فى رائحته وضرره الصحى والمادى والمعنوى ، فعندئذ يحكم بأنه حرام ؛ لأن محمداً ﷺ يحل الطيبات ويحرم الخبائث . والدخان بإجماع العقلاء والأطباء والعلماء خبيث وضار فهو بالقياس حرام ؛ لأن كل خبيث حرام ، والحق أن المدخنين كريهون وخصوصاً إذا ركبوا مع الناس فى حيز مقفل كسيارة أو حافلة أو طائرة ، إنهم حين يطلقون من أفواههم ذلك الدخان الخانق الكريه الرائحة يتعرضون إلى موجة من السخط المكتم أحيانا والمصرح به أحياناً أخرى ونصيحة مخلص أوجهها لكل مدخن أن يتقى الله فى نفسه وكرامته فلا يدخن أبداً فى سيارة أو قطار أو حافلة أو طائرة؛ لأنه من حيث لا يشعر يتلقى لعنات مستنكرة إما من القلوب وإما من الشفاه المتمتمة .

خامساً : ومن صفات محمد ﷺ المثبتة فى التوراة والإنجيل أنه بعث رحمة للأمة يضع عنها أثقالاً من التكاليف ويحرر الأمة من أغلال وقيود كان تقيد الأمم من قبلهم . إن شريعة الإسلام هى شريعة اليسر والسماحة والوضوح . إنها الحنيفية السمحة والمحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . لقد حرم الله على الأمم السابقة طيبات أحلت لهم ، وذلك قصاصاً لهم على ظلم ارتكبوه ، أو مجادلات وتساؤلات أزعجوا بها أنبياءهم ، أو لأنهم شددوا على أنفسهم وفرضوا عليها عبادات ما كتبها الله عليهم كالرهبانية ، فقد كان المجرم فى شعائر دين اليهود يؤمر بقتل نفسه ، ومن الأشياء الشاقة فى شرائعهم أن عقوبة القتل الخطأ كانت القصاص وليس الدية ، وكان المذنب إذا اقترف ذنباً بيده أمر

بقطعها ، وكان من شريعتهم إذا أصاب ثوب أحدهم بول أن يقص الجزء الملوث بمقص ولا يقبل تطهيره بالماء وكانوا يكلفون بإحراق الغنائم ، ومن ذلك تحريم العروق فى اللحم ، وتحريم العمل يوم السبت وغل الأيدى إلى الأعناق أثناء الصلاة ، فجاء رسول الله ﷺ بدين الإسلام شعاره اليسر والسماحة ورفع الحرج والسطوع التام فى أوامره ، وبذلك حرر الإنسانية عليه الصلاة والسلام من آصارها وأغلالها .

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ بشرى ومدح لأمه محمد وتعليم لها فى الوقت نفسه ؛ أما أنه مدح وبشرى فلأن أمة محمد مبشرة فى كل زمان ومكان بالفلاح ، والفلاح كلمة موجزة تنطوى على الخير كله ، ففيها السعادة والهناء وفيها النصر والنجاح وفيها الفوز برضاء الله فى الدارين وحين ينادى المنادى : حى على الفلاح ، فإنه يدعو كل مستمع أن يقبل على عبادة الله حيث الفلاح كله وسعادة الدارين ، وأما أن الآية تعليم لأمة محمد ؛ فذلك لأنها تفيد أنه لا يكفى أن تعلن إيمانك بمحمد ﷺ وبدينه القويم بلسانك فقط لكن لابد أن يستتبع هذا القول أن تقوم بتعزير محمد ﷺ ونصره واتباع ما ورد فى القرآن من تشريع وأمر والانتهاء عما زجر عنه القرآن .

**سابعاً** : فى كلمة ﴿ **النُّورَ** ﴾ من قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ استعارة تصريحة فى غاية الجمال فالمقصود بالنور هنا هو القرآن ، ووجه الشبه بين القرآن والنور هو الهداية ؛ فكلاهما يهدى إلى صراط الحميد وهو طريق السعادة صراط الذين أنعم الله عليهم ، وليس طريق الذين غضب الله عليهم وأضلهم .

**ثامناً** : من ظن أن دين الإسلام يقيد الحريات فقد سفه الحقيقة وتجنى على الحق ؛ وذلك لأنه من يدرس دراسة مقارنة موازنة بين دين الإسلام والشرائع السابقة يجد أن شريعة محمد ﷺ قد أنقذت البشرية من التشديد وحذرت من أن تشدد الأمة فيشدد عليها ، لقد كانت المرأة فى الشرائع السابقة إذا حاضت اعتبرت نجسة أو حتى شيطانة يبتعد عنها الناس ولا يسمح لها أن تمد يدها على طعام ولا شراب ، فلما جاء الإسلام أشعر الإنسانية أن الإنسان مكرم عند الله وأنه لا ينجس بالحيض ، أو الجنابة ، والحائض والنفساء تخالطان بل ولا مانع أن ينام الزوج وزوجته الحائض أو النفساء فى فراش واحد ، وليس من مانع أن يؤكل ممن تعده الحائض والنفساء من الطعام والشراب ، نعم لقد بعث محمد ﷺ ليرفع عن الإنسانية كل إصر وحرج وغل لتستروح بدين الله شذا السعادة والكرامة .

# القرآن كتاب الله المقروء
# والكون كتابه المنظور

هذه آيات من سورة الأعراف موضوعها الإيمان تبدأ بذكر القرآن وما فيه من وعد ووعيد وبشرى وإنذار ، ثم تمر بك على ملكوت السموات والأرض ؛ ليكون إيمانك بالله من رافدين عظيمين آيات الله المنزلة وآيات الله المشاهدة حتى إذا ملأ نور الإيمان أرجاء نفسك توجهت إلى إلهك العظيم بالدعاء متوجهاً إليه ومتوكلاً عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** [الأعراف : ٥٢ ـ ٥٦] .

أقول وأدعو الله لي وللمسلمين أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه .

**أولاً : في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾** وصف الله جل جلاله القرآن بوصفين عظيمين

أولهما : أنه يفصل الآيات والحقائق ويعرضها عرضها علمياً خالياً من الغوغائية واستثارة أهواء الجهلة ، فهو من نبع العلم الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو خطاب مباشر للعقل ؛ ولهذه يعقله العالمون ويؤثر أكثر ما يؤثر فى العلماء ، والوصف الثانى : أن هذا القرآن إذا تدبره العلماء كان لهم هداية ورحمة لأنهم يجدون فيه المنطق السليم ، والصراط المسقيم . إن هذا الآية ترسم للقرآن الكريم جواً علمياً يحكم فيه العقل ، ويتحقق به الهدى والرحمة ويستنير نبراسه العلماء .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ **هَل يَنظُرُونَ إلاَّ تَأويله يَوم يَأتى تَأويله يَقُولُ الَّذين نَسُوهُ من قَبل قَد جَاءَت رُسُلُ رَبِّنَا بالحَقِّ فَهَل لَّنَا من شُفَعَاءَ فَيَشفَعُوا لَنَا أو نُرَدُّ فَنَعمَلَ غَيرَ الَّذى كُنَّا نَعمَلُ قَد خَسرُوا أنفُسهم وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُوا يَفتَرُون**﴾ . معناه : ألا ينتظر الكافرون أن يأتيهم تأويل القرآن أى أن يتحقق جهاراً ما فى القرآن من إنذار بالقيامة والحساب ؟! إن تأويل القرآن معناه قيام الساعة وتحقق الوعيد . ماذا سيفعل الكافرون إذا جاء تأويل القرآن وقامت الساعة ورأى المنكرون أعمالهم حسرات عليهم إذ ذاك سيقول الذين أغفلوا القرآن ونسوه صائحين : أما من شفعاء يشفعون لنا؟ ألا يمكن أن نعطى فرصة نعود بها إلى الحياة فنعمل الصالحات؟ بعد أن تكشفت لنا الحقائق ؟! هنالك تقع عليهم الخسارة الفادحة ولا يرون شركاءهم الذين افتروهم وزعموهم حينما يرى منكرو القرآن ومنكرو البعث موازين الأعمال والثواب الجزيل من الله على صالح الأعمال يتمنون لو يعودون إلى الحياة ولو ساعة ، لكن أنى لهم ذلك وقد مضى أمر الله ألا عود بعد الموت ! يقول الله تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ **حَتَّى إذَا جَاءَ أحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ رَبِّ ارجعُونَ * لَعَلِّى أعمَلُ صَالحاً فيمَا تَرَكتُ كَلا إنَّهَا كَلمَةٌ هُوَ قَائلُهَا وَمن وَرَائهم بَرزَخٌ إلَى يَوم**

يُبعثون﴾[المؤمنون ٩٩ـ ١٠٠] في موقف الحسرة يوم القيامة يقال للمشركين والكفار ومنكرى الحساب: اسجدوا لله لعله يحسب لكم هذه السجدة وثوابها العظيم ، فإذا حاولوا السجود لم يستطيعوا ووجدوا أجسامهم كالخشب لا تنثنى هنالك يندمون على ضياع أعمارهم فى الكفر حين لا ينفع الندم . ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [ن : ٤٣ ـ ٤٣] .

**ثالثاً** : بعد أن عرض الحق جل جلاله الإيمان من خلال القرآن ، وإعجازه وما انطوى عليه من علم أخذ يعرض فى هذه الآية الإيمان عن طريق آيات الله ومخلوقاته العظيمة : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ومعنى هذه الآية الجليلة: أن إلهكم المعبود بحق هو الذى دلائل قدرته ماثلة أمامكم ، فقد خلق الكون فى ستة أيام واستوى على عرش الكون استواء يليق بكماله وجلاله ، استواء لا تحصره الجهات ولا تتصوره العقول وبدت دلائل عظمته فى أنه يتابع بين الليل والنهار ، فتجد الليل يغشى النهار ويلاحقه دون كلال فى حركة دائبة سريعة لاتنى ، وتجد الشمس والقمر والنجوم مسخرات للإنسان فيها يتعاقب عليه الليل والنهار حيث يسكن الإنسان ويسعى، فتبارك وتعالى هذا الخالق العظيم الذى هو رب كل شيء ، وخالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل .

**رابعاً** : وبعد أن تم جلاء الإيمان من طريقيه العظيمين : طريق القرآن الذى

عرض الإيمان عرضا علميا منطقياً يهتدى بسناه العلماء والعقلاء ، ومن طريق الآيات والمخلوقات التى تنطق بغير لسان أن خالقها إله واحد لا شريك له ، عندئذ لفت أنظار العباد إلى لون من ألوان العبادة هو من أعظم العبادات إنه الدعاء الذى هو مخ العبادة ؛ لأن الذى يدعو الله معناه أنه عرف ربه فآمن بقدرته، ووثق بخزائن رزقه ورحمته ، وآمن بعفوه وكرمه ومغفرته ؛ ولهذا فهو يرفع يديه إلى ربه بالدعاء متأكداً أن له رباً يغفر الذنوب جميعاً : **﴿ ادعُوا ربَّكُم تَضرُّعاً وَخُفْيَةً إنَّهُ لاَ يُحبُّ المُعتَدينَ * وَلاَ تُفسدُوا في الأرضِ بَعدَ إصلاَحِهَا وَادعُوهُ خَوفاً وَطَمَعاً إنَّ رَحمَةَ الله قَرِيبٌ مّنَ المُحسنين ﴾** . إن هاتين الآيتين معناهما: ادعوا ربكم فى خشوع وقنوت وإخلاص ، واجعلوا أكثر دعائكم خفياً ؛ لأن الله يعلم السر وأخفى ، وقوله جل جلاله : **﴿إنَّهُ لاَ يُحبُّ المُعتَدينَ﴾** إشارة إلى أن من أراد أن يدعو ربه ويتضرع إليه ، فليحرص على أن يتجنب الظلم والاعتداء ؛ لأن الله لا يقبل دعاء الظالم المعتدى ومن أراد أن يقبل دعاؤه فليخلص نفسه من ظلم العباد والعدوان عليهم وإفساد ما صلح من أمر الأرض والخلائق ، إذ ذاك يتجلى الرب جل جلاله برحمته ويستجيب دعوة الداعى الذى استجاب لربه وآمن به ، فأصبحت رحمة الله جل جلاله قريباً منه .

**خامساً** : رفع الأيدى بالدعاء اعتبره بعض العلماء بدعة وأيده بعض العلماء لما جاء فى الحديث الصحيح : أن النبى ﷺ رفع يديه فى الاستسقاء . ومن أدب الدعاء أن يكون خفياً كما فعل نبى الله زكريا عليه السلام : **﴿ إِذْ نَادَى ربه نداءً خفياً ﴾** [مريم : ٣] فاستجاب الله دعاءه ، ووهبه يحيى ، ومن أهم آداب الدعاء أن يقبل الداعى على ربه وقد تخلص من ظلم الناس والعدوان عليهم والإفساد والحرام ؛ لكى يتقبل الله الدعاء الصالح

الذى لم يخالطه ظلم للعباد .

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ لم يقل : إن رحمة الله قريبة من المحسنين ، وهذا أسلوب شائع فى كلام العرب فقد جاء فى كلامهم : الدار بعيد ، بهجة الصبا جديد وفى قول جميل : ألا ليت أيام الشباب جديد . وهم يخبرون عن الجمع بمثل هذا المفرد من وزن فعيل فيقول الأحباب بعيد عنك والهموم قريب ، والحساد كثير وساعات الهناء قليل ، والحق أن تعبير القرآن ﴿ **إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ** ﴾ أبلغ مما لو قيل : إن رحمة الله قريبة ، فلفظ قريبة بالتأنيث ترسم حدوداً محدودة بالرحمة نتيجة لهذا التأنيث ، أما قوله تعالى: ﴿ **إن رحمة الله قريب** ﴾ فيضفى على الرحمة اتساعاً وقرباً كأنه يقول : إن رحمته عطاء.

# العلم علمان

جاء عن رسول الله ﷺ قوله : « العلم علمان : علم بالقلب ، فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على ابن آدم » ومعنى هذا القول الشريف : أن العلم قد يكون فى بعض القلوب نوراً وهدى كما يكون فى قلوب أخرى طمعاً وهدى وتجارة بالعرض الأدنى .

وهذه آيات من سورة الأعراف وددت لو حفظها كل طالب علم واتخذها منهجاً لسلوكه ومناراً لوجهته .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ الَّذى آتَينَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منهَا فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ منَ الغَاوِينَ * وَلَو شئنَا لَرَفَعنَاهُ بهَا وَلَكنَّهُ أَخلَدَ إلَى الأَرضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلب إن تَحمل عَلَيه يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث ذَلكَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً القَومُ الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا وَأَنفُسَهُم كَانُوا يَظلمُونَ * مَن يَهد اللهُ فَهُوَ المُهتَدى وَمَن يُضلل فَأُولَئكَ هُمُ الخَاسرُونَ * وَلَقَد ذَرَأنَا لجَهَنَّمَ كَثيرًا منَ الجنِّ وَالإنسِ لَهُم قُلُوبٌ لاَّ يَفقَهُونَ بهَا وَلَهُم أَعيُنٌ لاَّ يُبصرُونَ بهَا وَلَهُم آذَانٌ لاَّ يَسمَعُونَ بهَا أُولَئكَ كَالأَنعَامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولَئكَ هُمُ الغَافلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٥ _ ١٧٩] .

أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعل ما تعلمناه من العلم حجة لنا لا حجة علينا :

أولاً : إذا جلست إلى عالم فرأيت كلامه ينفذ إلى قلبك ، فيقشعر من خشية الله ويلين إلى ذكر الله ويوجل من عذاب الله ورأيت دمعك وقد أصبح قريباً مما عرفك من الحق ، ورأيت للرجل مهابة تتدفق من نواحيه منبعثة

من سعة علمه وحلاوة وعظه ونورانية سمته ، فاعلم أنك بإزاء عالم ربانى طلب العلم خالصاً لوجه ربه الكريم على نية أن يعرف به ربه ويخشى به ذنبه ويرشد الناس به طريق الهدى والحق والخير ، وينهاهم به عن الفحشاء والمنكر والبغى . أما إذا جلست إلى عالم فرأيت فى وجهه طيوف الدنيا ، وحذلقة الشطار ، ورأيت كلامه لا ينفذ إلى قلبك ولا يحرك فى ضميرك مخافة ربك ، فاعلم أنك بإزاء عالم طلب بعلمه دنيا يصيبها واتخذ من علمه حبائل يصطاد بها المصالح والمطامع ، وطلب العلم ليفاخر به وليقال : عالم ، إنه عالم السوء الذى تسعر النار أول ما تسعر فيه وفى أمثاله حين يدعوه الله على رؤوس الأشهاد ، فيبلو سريرته ويحصل ما فى صدره ثم يفضح نوايا كان يكتمها بمكره الذى لا يخفى على الله ، هنالك يقول له : إنما طلبت العلم ليقال : عالم فقد قيل اذهبوا به إلى النار .

**ثانياً** : إذ امتحن الله عبداً فآتاه آياته فُتح أمامه طريقان : أولهما : محفوف بالمصاعب والحرمان وشظف العيش ووعثاء الجهاد واستهزاء السفهاء ، والآخر : مفروش بورود الدعة والراحة وعرض الدنيا وبريق الجاه والمنصب واحترام العامة ، فطوبى لمن اختار طريق العاملين ويا لخسارة من سخر علمه للطمع المهين .

**ثالثاً** : كل من عالم الخير ، وعالم السوء قد آتاه الله آياته ، واختبره بشرف علمه ، فاحتفظ عالم الخير بأمانة العلم وحرص على تأمل تلك الآيات وتدبرها والعمل بها ، أما عالم السوء فانسلخ منها ففقد بذلك الانسلاخ مهابته ، وكشف بالتخلى عن الآيات سوأته وهنا طمع الشيطان في إغوائه وتسلط عليه بإغرائه فانقلب على عقبيه وكان من الغاوين ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ

نبَأَ الَّذى آتيناه آياتنا فانسلَخَ منها فأتبعَهُ الشَّيطَانُ فكَانَ من الغَاوين ﴾ .
وانظر إلى الصورة الرائعة فى الآية الكريمة التى تمثل إنساناً كساه الله حلة وضاءة جميلة من العلم الشريف فلم يزل يتنكر لها حتى انسلخ منها فعاد عارياً تشمئز من منظره النفوس .

رابعاً : قيل فى سبب نزول هذه الآية : إنها نزلت فى الشاعر الجاهلى أمية بن أبى الصلت فقد كان شاعراً حكيما يصدر فى شعره عن حكمة وأخلاق وكان قد أوتى علماً من الكتب السماوية السابقة ، فلما بعث رسول الله ﷺ ثارت فى نفسه نار الحسد وبدلاً من المسارعة إلى الإيمان به على ضوء ما عرف من الحق تولى معرضاً ، فكان النبى عليه الصلاة والسلام إذا سئل عنه يقول : « آمن لسانه وكفر قلبه » وقيل : بل نزلت فى رجل من بنى إسرائيل عاش أيام موسى ، وقيل: نزلت فى أبى عامر الراهب الذى بنى من أجل مكائده مسجد الضرار بالمدينة المنورة .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ ولَو شئنا لَرفَعناهُ بهَا ولَكنَّهُ أخلَدَ إلَى الأرض واتَّبَعَ هوَاهُ فَمثَلُه كَمثَلِ الكلْبِ إن تَحمل عَلَيه يلهَث أو تتركهُ يلهَث ذَلك مثَلُ القَومِ الَّذين كَذَّبُوا بآيَاتنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعلَّهُم يتفكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا وأَنفُسَهُم كَانُوا يَظْلمُون ﴾ . هذا مثل أو تشبيه عظيم ضربه الله للعالم الذى اشترى بعلمه ثمناً قليلاً ، وبدلاً من أن يطلب بعلمه معالى الأمور ويتطلع إلى جنة ربه فى السماء التصق بالأرض والحطام الأدنى وتبدل الهوى بالحق فأصبح فى مكابدة دائمة كأنه الكلب تراه يلهث سواء طاردته أو تركته ، والمعروف أن الحيوانات لا تلهث إلا إذا تعبت ما عدا الكلب، فإنه يلهث على جميع أحواله وهذا هو شأن طالب العلم الذى أغفل قدر العلم فتحول من مدارج الأولياء ومنازل العلماء إلى درك الكلاب ، هذا هو مثل العالم

الذى أضاع علمه فى الركض وراء الحطام الفانى ، وما ظلم بهذا إلا نفسه ولا جنى إلا على شرفه وحياته . وهنا يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقص قصص الأمم الغابرة لعلها تبعث فى القلوب ذكراً ، ولعلها تنبه حملة العلم إلى عظمة الأمانة التى حملوها والتى إذا قدروها حق قدرها رفعتهم إلى منازل الصديقين وإذا سفهوها وفرطوا فيها تحولوا كلاباً ينبحون وراء قافلة الحياة ويتمرغون فى حمأة الخيبة والخسران على أرض المطامع ومستنقع الشهوات .

سادساً : قوله تعالى : ﴿ **سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ استمرار فى وصف علماء السوء من أحلاس المصالح والمتاجرين بالعلم الشريف يبيعونه بثمن بخس ، وقديما قال القاضى عياض رحمه الله : لأن آكل الدنيا بالدف والمزمار أحب إلى من آكلها بدينى . ومعنى كلامه أن امرءاً يشتغل طبالاً وراقصاً أشرف من طالب علم متظاهر بالدين ينصب علمه ودينه شركا يصطاد به حطام الدنيا ، ومعنى الآيتين السابقتين : ما أبشع المثل الذى ضرب لمن كذبوا بعلمهم، وظلموا بهذا التكذيب أنفسهم . ثم يعقب الحق جل جلاله على ذلك التشبيه العظيم بقوله : إن المهتدى هو من هداه الله فسلك إلى السعادة طريق الإيمان ، وأما الضال فهو الذى سلك سبيل الهوى والشيطان ، فخسر وخاب وأظمأه السراب .

**سابعاً** : ثم يختتم الحق بهذه الآية العظيمة التى تصف سكان جهنم وصفاً يصورهم أصدق تصوير : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ**

**يَسمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعَامِ بَل هُم أضَلُّ أولَئِكَ هُمُ الغَافِلُون ﴾** تقول الآية الشريفة : إن الله جلا وعلا أعطى بنى آدم عقولاً وأعيناً وآذاناً ؛ ليصلوا عن طريق استخدامها إلى الإيمان بالله حين يفكرون ويبصرون ويسمعون فيدلهم تفكيرهم وبصرهم وسمعهم على عجائب ملكوت الله وآياته فى السموات والأرض ، لكن فريقاً من بنى آدم عطلوا عقولهم ، وأغمضوا عيونهم وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، فلم يعودوا قادرين على تفكير أو سمع أو بصر . وعندئذ استبدت بهم الغفلات ، وعميت عليهم المواعظ ، وصمت آذانهم عن الذكر فأصبحوا أضل من الغنم والإبل البقر وذلك لأن الإبل والبقر والغنم لم توهب ما وهبه الله لبنى آدم من عقل مفكر وبصر متأمل وسمع متفهم ، ثم إنها أدت رسالتها فيما سخرها الله له من خدمة الإنسان .

أما أصحاب النار من بنى الإنسان ، فقد ضيعوا أمانة الله وكندوا فضله وطمسوا نعمه ، وغفلوا عما أمدهم به من مواهب فضلهم بها على العالمين ، وفى مقدمتها نعمة العقل الذى يستوعب العلم ، وبهذا الكنود أهلوا أنفسهم لدخول النار وتبوؤا منزلة دون مستوى الدواب ، وما أجمل قوله تعالى فى وصفهم : ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُون** ﴾ ، إنها صرخة من أعماق ولائى للعلم والعلماء أقرع بها أسماع طلاب العلم ليقدروا علمهم حق قدره ، ويدعموه بتفكير العقل ومشاهدات البصر واستماع أحسن القول ليرتفعوا بفضل العلم إلى معارج العلماء ويربؤوا بأنفسهم عن دركات العجماء .

# الإسلام دين العقلاء

يقــوم دين الإســلام على منطق العــقل السليم ، وعلى أسس من العلم الصحيح ، فهو يدعو إلى أن يعمل المرء فكره وعلمه ، ويستفتى فهمه وعقله ، وقديماً عرف النبى ﷺ البر ، « بأنه ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب وأن الإثم مـا يحيك فى الصـدر » ، ومـعناه : مـا ترتاب فيـه القلوب التى فى الصدور والقلب فى اللغة العربية كناية عن العقل .

وهذه آيات كـريمات من سورة الأعـراف سـداها العلم المتـبصـر ولحـمتـهـا التفكير المتدبر تؤيد ما ذكرناه من أن الإسلام هو دين العقلاء .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِـهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٤ ـ ١٨٦] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة القراء ، ولإخواننا المسلمين أن يملأ قلوبنا بنور الإيمان ، وعزيمة الرشد والإحسان ، ويرزقنا حبه وحب رسوله والقرآن :

**أولاً** : حينمـا نزل الوحى على رسول الله ﷺ ودعـا قومه إلى مـا نزل به الوحى قال كثير من المشركين : إن هذا الذى نزل على محـمـد ما هو إلا جن وقد جن محمد ، لكن العقلاء للوهلة الأولى قالوا : كيف يكون مجنوناً من يأمر بالحق والعدل والخير وينهى عن الشرك والخرافة والظلم ؟!

**ثانياً** : حين أشـاع المشـركون على محـمـد أنه شـاعر وساحر ومجنون وكـذاب وكـاهن لم يزد محـمـد ﷺ عن أن دعـاهم أن يخلوا بأنفـسـهم ، ويطلقـوا

العنان لتفكيرهم ويستعملوا عقولهم ، وهذا ما توضحه الآية الكريمة من سورة سبأ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سَبأ : ٤٦] وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف أسلوب من التعجب البلاغى فى جملة الاستفهام : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ومعناها عجباً لأمر هؤلاء لماذا لا يعملون تفكيرهم ؟ إنهم لو خلوا بأنفسهم وتفكروا فقط ؛ لتركوا الهوى واستعملوا العقل المتفكر ولأدركوا أن محمداً ليس به جنة ، ولكنه رسول ينذر الظالمين عذاب الله ويحذرهم عاقبة الظالم.

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآية استمرار لعقلانية الإسلام واعتماده على التفكير ، فهو هنا يعيد الاستفهام : لماذا لا يتفكر هؤلاء فى ملك الله العظيم ، وما يرونه من السموات والأرض ، وكل ما خلق فيها من أشياء معجبة رائعة؟ ثم أو لم يخشوا أن يكون أجلهم قد اقترب فيموتوا وهم على عنادهم وعمايتهم ، فمن أين لهم بعدئذ أن يؤمنوا بدين كالإسلام وكلام كالقرآن ؟ وما أبلغ الاستفهام الجميل فى قوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ إنه استفهام يفيد النفى ومعناه : أن من يعرض عن القرآن فلن يؤمن بأى كلام غيره مهما يكن مقنعا ؛ لأن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والتأثير والإقناع ، ومن ثم فإن من لم يتأثر ويقتنع بالقرآن فقد ختم على قلبه ولن ينفتح لغيره ؛ لأن كل كلام غير القرآن هو دونه فى

البلاغة والإعجاز والاقناع .

**رابعاً** : اختلف العلماء فى موضوع التأمل والتفكير فى هذا الكون وما فيه من عجائب خلق ودلائل قدرته : هل يكون هذا النظر والتأمل قبل الإيمان أم بعده؟ هل يؤمن المرء أولاً ثم يتفكر أو يتأمل ويتفكر أولاً ليصل عن طريق النظر والتفكر والتأمل إلى الإيمان ؟ والحقيقة أن النتيحة واحدة ؛ لأن من يطل النظر والتأمل فى عجائب خلق الله وملكوت السموات والأرض فإنه قد يصل بهذا التأمل والفكر إلى الإيمان بالله ، وكذلك فإنه من يهتدى إلى الإيمان عن طريق تصديق الرسل ، فإن الإيمان نفسه سيزجيه ويحثه على النظر والتأمل ، ومن ثم فإن التفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار سيزيده إيماناً ويرسخ جذور اليقين فى أعماق قلبه ، وبذلك يوصله التأمل إلى الإيمان ويحثه الإيمان على التفكر .

**خامساً** : يقول بعض أهل الشطحات من المبتدعة والمتصوفة : نحن ننظر فى جمال النساء ؛ لنصل عن طريق هذا الجمال إلى الاستغراق فى الذات الإلهية والإيمان بالخالق الذى خلق هذا الجمال ، وروى عن بعضهم أنه كان إذا رأى امرأة جميلة يصعق ! والحق أن فى كلامهم مغالطة واضحة، فالنظر إلى جمال امرأة أجنبية معصية لله ومقدمة للفساد وذريعة للفاحشة، ولا يمكن أن يصل المرء إلى الإيمان عن طريق المعصية واتباع الهوى ، والإنسان بما أودعه الله من غريزة الجنس لا يكاد يقع بصره على امرأة محرمة حتى ينسى النظر والتأمل والتفكر ، ويطير تفكيره متحطماً على صخرة الشهوة التى أردت العصاة من قبلهم وأوردتهم موارد الضلال والفاحشة والهلاك ، ولو كان فى النظر إلى وجوه النساء ما يعين

على الإيمان لما قال الله جل جلاله : ﴿ قُل للمُؤمنينَ يَغضُوا من أبصَارِهم وَيَحفَظُوا فُروجَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] ولما قال : ﴿ وَقُل للمُؤمنَات يَغضُضنَ من أبصَارِهنَّ وَيَحفَظْنَ فُرُوجَهُن ولاَ يُبدين زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهرَ منهَا﴾ [النور : ٣١].

**سادساً** : قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ من شَيء ﴾ يفيد بأن التفكير فى كل شىء من خلق الله هو مما يعمق الإيمان ، وقد جاءت كلمة ﴿ شيء ﴾ نكرة لتدل على العموم ، ففى كل شىء لله جل جلاله آية تدل على أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

**سابعاً** : ثم يختتم الحق جل وعلا هذه الآيات بقوله : ﴿ مَن يُضلِلِ اللهُ فَلاَ هَادىَ لَهُ ويَذَرُهُم فِى طُغيَانِهم يَعمَهُون ﴾ . هذا الكلام العظيم فيه إراحة لضمير محمد ﷺ ، فالله جل جلاله يخبره أنه لا يستطيع أن يهدى من كتب الله عليه الضلالة ؛ وذلك لأن الله عز وجل منذ خلق الخلق علم بعلمه الأزلى أن هنالك نفوساً مقفلة لا ينفع معها وعظ ولا يفتح مغاليقها إرشاد ، ومن ثم فإن على الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى الدعاة رضى الله عنهم أن يؤدوا واجبهم فى الدعوة إلى الله ، ثم إذا رأوا على قلوب أقفالها تركوها وتلوا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا عَلَيكُم أنفُسَكُم لاَ يَضرُّكُم مَن ضَلَّ إذَا اهتَدَيتُم ﴾ [المائدة : ١٠٥] إن هذه الآية الكريمة تكسب المؤمن اعتقاداً أنه ما اهتدى بقدرته ولا وفق إلى الخير بعلم عنده لكنه اهتدى ؛ لأن الله هداه ووفق ؛ لأن الله جل جلاله هيأ له التوفيق ، ومن ثم تجده دواماً يبرأ من حول نفسه وقتها ويلجأ إلى حول الله وقوته ، ومن ثم كانت كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله

كنزاً من كنوز الجنة ؛ لأنها تملأ نفس المؤمن بتعظيم ربه وباعتقاد أن الفضل بيد الله يؤتيه من شاء والله ذو الفضل العظيم .

**ثامناً** : أن رحلة العقل فى طريق الإيمان كفيلة إن شاء الله أن توصله إلى رحاب الأبرار ؛ لأن العقل هو الزمام النورانى للنفس الإنسانية يزجيها إلى الهدى والتقى والعفاف ، ويقدعها عن مزالق الهوى ، والشهوة وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة وهى تحدث عن أهل الضلال والكفر ﴿ **وَيَذَرُهُم فِي طُغيَانِهِم يَعمَهُونَ**﴾ ومعناها : أنهم يطغون أى يتعدون حدود العقل الهادى والمَهدى ، ومن ثم يعمهون أى يتيهون فى الحيرة ؛ لأنهم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وطمسوا مصباح الهداية الذى وهبه الله لهم ، فعاشوا يخبطون فى تيه الغفلات حتى حل بساحتهم أجل الله الذى إذا جاء لا يؤخر ، وعندئذ انتهبوا على صوت العقل ولكن بعد أن زلت القدم ﴿**وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ [سبأ : ٥٢].

## كل إنسان يولد على الفطرة

هذه آيات من الصفحات الأخيرة من سورة الأعراف ، يمر عليها كثير ممن يقرؤون القرآن ، دون أن يسألوا عن إشاراتها ، مع أنها باعتراف المفسرين لا تخلو من عمق الدلالة ، وصعوبة التأويل ، وإنى موردها إن شاء الله ، وآيتين بعدها ، ثم مستخرج منها ما يفتح الله به .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١ ـ ١٧٤] أقول وبالله التوفيق والسداد :

**أولاً** : هذه الآية تدل على أن بنى آدم إلى يوم القيامة ، حين كانوا فى عالم الذر خلقوا جميعاً على الفطرة ، التى هى التوحيد ، فالله جل جلاله حين خلق آدم واستخلفه فى الأرض ، كان ومازال يعلم كل من سيولد من ذريته ، فهم ، على شكل ذر أو ذرات ، فى خزائن علم الله ، وهم مسجلون فى لوحه المحفوظ الذى ما فرط فيه من شىء .

**ثانياً** : يفهم من الآية أن الله جل وعلا ، جمع ذرية آدم وهم فى عالم الذر ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٢٩] حتى إذا اجتمعوا كلهم من لدن آدم، وإلى أن تقوم الساعة نادى فيهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوا بلسان واحد : ﴿بلى﴾ فأخذ عليهم عهداً ، بأنه جل جلاله هو ربهم ، وأن لا إله غيره . وهذا مضمون حديث أخرجه الترمذى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

**ثالثاً** : وإلى هذا القول ذهب الذين يقولون : إن أطفال الكفار فى الجنة ؛ لأن كل مولد يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، يقول أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ : بعد أن شهدت ذرية آدم بوحدانية الله ، أشهد عليهم السموات والأرض ، فما من أحد يولد إلى يوم القيامة ، إلا وقد أخذ عليه العهد بالتوحيد . وفى القرآن الكريم أن الإسلام هو فطرة الله صبغته . يقول الله تعالى فى سورة البقرة ، بعد أن ذكر الإسلام ملة إبراهيم : ﴿ **صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٨] ويقول الله جل جلاله فى سورة الروم : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠].

**رابعاً** : وعلى هذا يكون الكفر هو التكلف ، والتنطع ، والالتواء ، ويكون الإيمان والتوحيد والإسلام هى : الفطرة النقية التى يرشد إليها العقل ، والحق أن العقل المستنير المتجرد من الهوى ، يدرك بالنظرة الأولى وحدانية الخالق ، يدركها من الشواهد الماثلة أمام عينيه ، وهى التى نصبها الحق جل وعلا شاهدةعلى أنه الواحد المهيمن الذى لا شريك له، فكل شىء فى هذا الكون حين تراه يقول لك بلسان الحال ، وهو أبلغ من لسان المقال : أعبد الله الذى خلقنى ، وخلق السموات والأرض وما فيهما ، ولا تشرك به ، أى : إله مزعوم؛ لأنه ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ [الأنبياء : ٢٢] نعم ﴿ **وَإِن مِّن شىءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، ﴿ **أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَد عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [النور : ٤١].

**خامساً** : يقيم الله على عباده حجته فيقول لهم : نذكركم بعهدكم الذى أخذناه عليكم ، حتى لا تقولوا يوم القيامة : لقد غفلنا ونسيناً ، فلم يذكرنا أحد ، وقد وجدنا آباءنا مشركين فورثنا عنهم الشرك ناسين ، أو غافلين ، فكيف نعذب بغفل آبائنا الذين اتبعوا الباطل ؟! إن كلام الله جل وعلا يقطع على الكفار أعذارهم هذه ، معلنا أن الإنسان حتى وهو فى ظهر آدم ، قد خلق لأمر عظيم عاهد الله عليه ، وهو فى عالم الذر ، وأشهده الله على ذلك العهد ، ففى هذه الآية العظيمة ، تذكر للإنسانية برسالتها التى سِرُّ كرامتها ، وفيها ـ كما هو واضح ـ أن المؤمن المسلم الموحد، هو الذى وفى بعهد ربه ، وظل على صلة بذلك العهد وتلك الرسالة ، أما من كفر أو أشرك ، فهو الذى أعقل حواسه وعقله ، فانحدر إلى أقل من درك الحيوان ، وفى الآية التى تلى هذه الآية يعلن الحق تبارك وتعالى ، أن من ينسلخ من عهد الله ، فهو كالكلب ، وبعد هذه الآيات بقليل يعلن أن من أغفل فكره وضل عن رسالته العظمى هو كالأنعام بل هو أضل أولئك هم الغافلون .

**سادساً** : أن هذه الآية ومثيلاتها من آيات التوحيد يفضلها الله جل وعلا لعباده ليكون معالم على طريق الحياة ، تهدى إلى الإيمان ، كلما تاهت قافلة الإنسانية وجاء ركبها فى مهالك المادية والشرك ، ولله ما أحلى هذه الخاتمة : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَـاتِ وَلَعَلَّهُم يَرجِعُون** ﴾ اللهم أذقنا حلاوة الإيمان ، وأنلنا مراتب الإحسان ، وأخلص توحيدنا من همزات الشيطان ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

# الرسول لا يعلم الغيب إنما هو بشير ونذير

كان رسول الله ﷺ يلقى من قومه عنتاً شديداً حين يطلبون منه أن يأتيهم بآيات أو معجزات ، فيقول لهم عليه الصلاة والسلام ما أمره ربه أن يقوله : ﴿إنما الآيات عند الله ﴾ العنكبوت : ٥٠] ، ﴿ إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ [الأنعام : ٣٧] ، ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ [الكهف : ١١٠] ، ﴿ سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء ٩٣]وهاتان آيتان من سورة الأعراف توضحان موقفا من مواقف العنت التى كان النبىﷺ يلقاها من قومه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يَسألُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أيَّانَ مُرسَاهَا قُل إنَّمَا علمُهَا عندَ رَبِّى لاَ يُجلِّيهَا لوَقتِها إلاَّ هُوَ ثَقُلَت فِي السَّموَاتِ وَالأرضِ لاَ تَأتِيكُم إلاَّ بَغتَةً يَسألُونَكَ كَأنَّكَ حَفِيٌّ عنهَا قل إنَّمَا علمُهَا عندَ الله ولَكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ * قُل لاَّ أملكُ لنَفسِي نَفعاً وَلاَ ضَرًّا إلاَّ مَا شَاءَ الله وَلَو كُنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاَستَكثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إن أنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤمِنُون** ﴾ [الأعراف : ١٨٧ ـ ١٨٨] .

أقول وأسأل الله أن يجعل خير أيامنا يوم لقائه ، وأن يعاملنا بعفوه وعظيم آلائه :

**أولاً** : من أركان الإيمان .. الإيمان بقيام الساعة وما بعدها من اليوم الآخر أو الحساب والجزاء : ﴿ **ذَلكَ بأنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأنَّهُ يُحيِى المَوتَى وَأنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * وَأنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيبَ فِيهَا وَأنَّ الله يَبعَثُ مَن فِي القُبُور** ﴾ [الحج : ٦ ـ ٧] .

لكن موعد قيام الساعة سر من الأسرار الإلهية لا يعلمه إلا الله وقد احتفظ الحق جل جلاله بهذا السر ؛ ليظل الناس على تخوف من قيامها وتوقع لأهوالها واستعداد لها بالعمل الصالح ، وقد جاء فى مناسبة الآية الأولى وهى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٢] أن اليهود كانت تقول لرسول الله ﷺ : إنْ كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة ، وروى أن قريشاً قالوا له : إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا بوقت الساعة .

ثانياً : فى قوله تعالى : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ تعبير بيان رفيع يصور الساعة ، وكأنها سفينة تسير فى بحار الملكوت والحكمة والإرادة والقدرة والقدر الحكيم حتى يأمرها ربها بالرسو ، والحق أن قارئ هذه الآية يحس أنه وكل هذا الكون سائرون فى رحلة الحياة وسوف تستمر هذه الرحلة إلى أن يأذن الله لها بالرسو، وتكون عندئذ قد وصلت إلى مستقرها .

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ .

يلاحظ تتبع أسلوب القصر فقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ أسلوب قصر أداته إنما وهى تفيد قصر علم الساعة على الله جل جلاله وفى قوله : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ أسلوب قصر أى لا يبين وقتها بصدق ووضوح إلا هو ، فقد قصر جلاء الساعة ووقتها عليه جل جلاله ، وفى قوله تعالى : ﴿ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ أسلوب قصر ثالث .

ولعل السبب فى تتابع أساليب القصر : توكيد حقيقة عظيمة على الناس أن يعلموا أن علم الساعة مرده إلى الله وحده ، وعلى الخلائق أن يظلوا على أهبة لها دون الإكثار من السؤال عن وقتها . وقد لوحظ أسلوب القصر والتوكيد حينما تكلم الله جل جلاله عن توقيت الساعة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ

علمُ السَّاعَة ﴾ [ لقمان : ٣٤]وقوله : ﴿ إلَيه يُردُّ علمُ السَّاعة ﴾ [فصلت : ٣٧] وقوله : ﴿ إلَى رَبّكَ مُنتهَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٤] وكقوله جل جلاله : ﴿ ومَا أمرُ السَّاعَة إلاَّ كَلَمحِ البَصَر أو هُوَ أقرَب ﴾ [ النحل : ٧٧] وكل هذه الأساليب تقصد إلى تعظيم وقتها ، وإثارة الاستعداد لها ، وكف الألسنة عن السؤال عنها .

أما قوله تعالى : ﴿ ثَقُلَت فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرض ﴾ فمعناها أن للساعة آثاراً ثقيلة على السموات والأرض ففيها تغيير شامل للسماء وتغيير شامل للارض ؛ وبذلك لتناسب الحياة الآخرة التى لا تعتمد على قضاء حاجات الأجساد الفانية، وإنما تهيىء لقضاء حاجات الأرواح المجنحة الخالدة .

رابعاً : ﴿ يسألُونَكَ كأنَّكَ حفِيٌّ عَنهَا قُل إنَّمَا علمُهَا عندَ الله وَلَكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ ﴾ معناه : أن القوم يسألونك ويكررون السؤال عن الساعة ، كأنك عالم بها ومستقص لأخبارها ، مع أنك لم تعط علمها ولا أعطى علمها أى بشر مثلك أو بعدك . أجبهم إذن بالجواب الحق : ﴿ إنَّمَا علمُهَا عندَ الله ﴾ وأن أمر الساعة مما اختص الله جل جلاله بعلمه .

خامساً : قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أملكُ لنَفسي نَفعاً وَلاَ ضَرًا إلاَّ مَا شَاءَ الله وَلَو كُنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاَستَكثَرتُ منَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إن أنَا إلاَّ نَذيرٌ وَبَشِيرٌ لقَومٍ يُؤمنُونَ ﴾ . فى هذه الآية إعلان من الرب جل وعلا أنه ما من مخلوق فى الأرض وحتى محمد ﷺ ـ رحمة الدنيا وخاتم الأنبياء ـ يملك أن يضر أو ينفع إلا بمشيئة الله ، وهى حقيقة إن أُشربها القلب خلا من كل شرك وأخلص التوحيد لله الواحد الذى بيده الخير ، وبيده النفع والضر ، وهو على كل شيء قدير .

إن محمداً نفسه ﷺ مأمور من الله جلا جلاله أن يعلن للناس أنه لا ميزة له

على أى بشر إلا بهذا الوحى وما فيه من بشرى وإنذار ووعد وعيد لها أثرها في نفوس المؤمنين . ويا للحكمة العظيمة في قوله تعالى آمراً نبيه : ﴿ قُل لاَّ أَملِكُ لِنَفسِي نَفعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَو كُنتُ أَعلَمُ الغَيبَ لاَستَكثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ إنه درس لكل من يعقد رجاءه على عبد . إن أى عبد فى الدنيا لا يمكن أن يعلم الغيب ولا يمكن أن يحمى نفسه من السوء إذا جرى به القضاء الحكيم وإذا كان بعض الجهلاء يرجون النفع والضر من بعد الموت فقد دفع محمد ﷺ عملهم ، وأدحض حجتهم حين أعلن أنه هو نفسه لا يملك نفعاً أو ضرا إلا بمشيئة الله .

**رابعاً** : إن من يكتبون عن عبقرية محمد ﷺ ويسندون إليه عبقرية عسكرية فى الغزوات وعبقرية سياسية فى غزوة الحديبية ، إذا قصدوا أن العبقرية هى الإلهام بالوحى ، فذلك مقبول ، أما إذا كان قصدهم أن محمداً ﷺ كان يمارس القتال والأحكام والمعاهدات بذكائه العبقرى الشخصى ، فذلك هو الشطط ؛ لأن محمداً ﷺ أعلن بأمر الله للناس أن ميزته الوحيدة هى الوحى ﴿ قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثلُكُم يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِد ﴾ [الكهف : ١١٠] .

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُم عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعلَمُ الغَيبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُم إِنِّى مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَى ﴾ [الأنعام : ٥٠].

﴿ قُل لاَ أَملِكُ لِنَفسِي نَفعاً وَلاَ ضَراً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَو كُنتُ أَعلَمُ الغَيبَ لاَستَكثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِن أَنَا إِلاَّ نَذِير وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

وخلاصة القول أن محمداً ﷺ بشر أمى ذو فطرة صافية نقية طاهرة ، اختاره الله وعاء للرسالة هاديا ومبشراً ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، أما كلمة عبقرى فقد استغلها المستشرقون ليروجوا أن كل تصرفات محمد ﷺ

وكل ما جاء به إنما صدر عن ذكائه وعبقريته بما فى ذلك القرآن الكريم ! وهو قول أرجف به المشركون والكفار فى حياته عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : ٤ ـ ٦].

خامساً : فى الآية الأخيرة حلية لفظية فيها ثلاثة طباقات فى غاية العذوبة أولها: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾ والثانى : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ ، والثالث : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾.

وفيها إطناب احتراسى وهو قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ وفيها تقديم بلاغى فقد قدم ﴿ نَفْعاً ﴾ على ﴿ ضَرّاً ﴾ ؛ لأن الإنسان إذا ملك سلطانا جعل أكبر همه أن ينفع نفسه قبل أن ينتقم من غيره وفيها ، أسلوب قصر بليغ قصر محمداً ﷺ على الرسالة فما هو إلا بشير ونذير أرسله الله جلا جلاله لينذر من كان حى الضمير حى الفهم مستنير العقل ويحق القول على الكافرين . اللهم اجعل نبيك محمداً ﷺ قدوتنا فى الدنيا وشفيعنا فى الآخرة .

# حلم الله وسفه الإنسان

إن أعظم درس فى الحلم والكرم : هو ذلك الذى يستفيده الإنسان حين يذكر موقفه من ربه ، وموقف ربه منه ، فالله جل جلاله يتحبب إلى العبد بالنعم ، والعبد يتمقت إلى ربه بالمعاصى ، يرى العبد نعم الله السابغات ويبصر آياته البينات ، ومع كل هذا يصرف عبادته أو جزءاً منها إلى شركاء لا يضرون ولا ينفعون ، خير الله عز وجل نازل فى الليل والنهار ، ويده مبسوطة للتائبين فى كل حين والعبد يقابل هذا الخير بشروره ، ويعرض عن اليد العظيمة المبسوطة بجهله وغروره ، ما أعظم الله فى كرمه وحلمه وما أكفر الإنسان فى سفهه وسوء فهمه . إن هاتين الآيتين من سورة الأعراف تعرضان طرفاً من موقف الإله الحليم الكريم الغنى الحميد القاهر القادر وموقف الإنسان الضعيف المقهور الفقير إلى رزق ربه ورحمته .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الأعراف ١٨٩ ـ ١٩٠].

أقول وأسأل الله جل وعلا أن يكتبنا وإياكم فى الشاكرين ، ويجعل نعمه عوناً لنا على طاعته .

**أولاً** : جاء فى مناسبة هذه الآية أنها نزلت فى آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة ، وأن حواء قد حملت فلما قاربت الولادة جاءها إبليس متخفياً ولم يزل يغريها وزوجها حتى أقنعهما أن يسميا المولود عبد الحارث وبذلك أزلهما عن

الحق وأوقعهما فى الباطل . والحق أن هذه الآية عامة فى كل زوجين يرزقهما ربهما ذرية وينجي الزوجة من متاعب الحمل وأخطاره حتى إذا مرت بالحمل على خير ووضعت مولودها نسيت هى وزوجها فضل المنعم المتفضل ، وغفلت عن رعاية الله للجنين فى ظلماته الثلاث ، ولم تبال أن تنشئه تنشئة غفلة لا يذكر فيها ربه ولا يعطى فيها ولاءه لمن أوجده من العدم .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفسٍ وَاحدةٍ وَجَعَلَ منهَا زَوجَهَا**﴾، النفس الواحدة هى آدم وقد خلق من هذه النفس حواء ؛ لتكون له سكنا وراحة، وهناء ، وواحة هدوء يأوى إليها كلما أرهقته صحراء الحياة .

والحق أن أعظم راحة للإنسان هى سكنه إلى زوجته حين يأوى منها إلى كنف رحيم يعطف عليه ، ويشاركه سراءه وضراءه ويحمل عنه نصف همومه ، وينور له بالبسمة العطوف آفاق الرجاء بعد أن أظلم من حوله اليأس .

فى مجلس يقرأ فيه القرآن هو الاستماع والإنصات ، فإذا لم يكن فى المجلس استماع ولا إنصات فالظاهر من الآية أن رحمة الله لا تنزل على أهل ذلك المجلس إلا إذا كفوا عن اللغو وأقبلوا على القرآن استماعاً وتدبراً .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَت حَملاً خَفِيفاً فَمَرَّت به** ﴾ معناه: فلما كان بينه وبينها ما يكون بين الزوجين حملت فى أيامها الأولى حملا يسيرا لا ألم فيه ولا ثقل ، ومرت بتلك الفترة الأولى فى يسر وسهولة وبالفعل فإن المرأة تحمل من حيث لا تشعر ، وتمضى الأيام الأولى من الحمل فى خفة ونشاط .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشرِكُون** ﴾ معناه : فلما ثقل الحمل على الأم بدءا يستشعران الخطر والمرض ، ومضاعفات الحمل ، هنالك صحوا على خطر محدق ،

فتوجها إلى الله بالدعاء : لئن نجيت الأم من خطر المخاض ورزقتنا ذرية طيبة لنكونن من الشاكرين . والإنسان فى الشدائد لا يجد مناصا من التوجه إلى ربه، **﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴾** [الزمر : ٨] .

**خامساً** : قال الفقهاء إن المرأة إذا أثقلت وبدأت فى الشهر السادس من الحمل انطبقت عليها بعض أحكام المريضة فلا يجوز مراجعتها من طلاق ؛ لأنه لا يجوز مراجعة المريضة ، ولا يجوز لها أن تتصرف فى مالها فى أكثر من الثلث الذى هو الحد الأعلى للوصية ؛ لأنها تعد مشرفة على الخطر ؛ ولأن فى أحشائها مولودا له ميراث إذا نزل من بطنها حيا .

سادساً : قوله تعالى : **﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشرِكُون ﴾** .

معناه فلما رزقها ربهما وبدأ سليما قوى البنية تام الأعضاء ، واطمأن الزوج على صحة الوالدة ، واطمأنت هى على صحتها وزال وقت الضر والشدة جعلا لله شركاء فى هذا الولد ، فانحرفا بتربيته عن التوحيد ولم ينشئاه على مخافة ربه الذى رعاه فى الرحم . إن على الوالدين أن يعلما أن جهدهما فى خلق المولود لا شيء إذا قيس بقدرة الله فى خلقه ، فالله جل جلاله هو الذى رعى المولود فى الأصلاب والترائب وحرسه نطفه ، فعلقه ، فمضعة ، فعظاما ، وصنع من القدر الباهرة الحكيمة كل جزىء من دمه وكل عرق وخلية من عروقه وخلاياه، وإلى هذا يشير قوله تعالى : فى سورة الواقعة : **﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى مالا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾** [الواقعة : ٥٨ ـ ٦٢] . ومن ثم فإذا ولد

الولد كان على الوالدين أن يعتبراه لله وأن يوقعا فى روعه مخافة الله على جميع أحواله ويربياه على طاعة ربه وامتثال أوامره ، فإذا انحرفا عند ذلك فقد جعلا لله شركاء فيما آتاهما .

إن بعض الأباء والأمهات إذا رزقهم الله الذرية جعلا أكبر همهما أن يتبعا فى تربية الطفل طرقا يستوحيانها من مفكرين ملحدين ، أو يقلدا فى تربية الأولاد أنسا يدعون الحضارة بعيدا عن الدين ، مع أن أبسط قواعد الأدب والذوق تقتضى أن يعترف المرء بنعمة الإله المتفضل الذى أوجد الطفل من عدم، ومن ثم أن يربى الطفل ترية ربانية تصله بربه ؛ لأن الله جل جلاله خلقه على فطرة الإيمان ، وما على الوالدين إلا أن يرعيا هذه الفطرة بالعناية والاهتمام والإحساس بالمسؤولية ؛ لا أن ينحرفا عن الفطرة لكونهما هما اللذين يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، أو يعلمانه مبادىء الظلال والإلحاد .

**سابعاً** : فى الآيتين إشارات تستوقف نظر الباحث كقوله تعالى عن النفس الإنسانية ممثلة فى آدم عليه السلام ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ فالمرأة خلقت من الرجل ، ومن ثم فالرجل هو الأصل . ومن أقوال الحكماء : إن الله تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم الشمالية ؛ لتكون قريبة من قلبه ، ودواما إلى جنبه ، وتحت ظلال جناحيه ، ولعمر الحق ما تنال المرأة سعادتها إلا إذا اعتبرت زوجها أصلا ، واعتبرته عليها قواما واستمتعت بقيامه على الأسرة بمواهبه وقدرته ، ومهابته على الأبناء .

وهنالك كنايات فى غاية الجمال كقوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وهى كناية عن آدم عليه السلام . وفى قوله تعالى ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ كناية عن كل ما تحققه الزوجة الصالحة من الهناء والهدوء والطمأنينة والاستقرار . وفى قوله : ﴿ **فلما تغشاها** ﴾ كناية مهذبة فى غاية الأدب عما

يكون بين المرأة وزجها من لقاء الغريزة .

**ثامناً** : ختمت الآية الثاية خاتمة فى غاية الموافقه للسياق ، وذلك بأنه لما استعرضت قدرة الله المتمثلة فى خلق البشر من ذكر وأنثى ، وفى شريعة الزواج الحكيمة التى تجعل كلا من الزوجين سكنا للآخر ، ثم فى رعاية الأجنة فى الأرحام لحظة بلحظة إلى أن يصبحوا خلقا سويا فى أحسن تقويم ذكرت بعد ذلك كنود الإنسان متمثلا فى سوء توجيه طفله وفى الانحراف بتربيته عن التربية الإسلامية وكأن الوالدين قد فضلا على أوامر الله أوامر غيره واعتبرا غيره أحق منه بأن يطاع فى أمر التربية ! هنالك ختم الحق جل جلاله الآية بقوله : ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ مشيرا إلى البون الشاسع بين عظمة خلق الله وتدبيره وبين عجز الشركاء وضعفهم حتى عن نفع أنفسهم ﴿ **سبحان الله وتعالى عما يشركون** ﴾ [القصص : ٦٨] .

# آية تجمع مكارم الأخلاق

فى آخر صفحة من سورة الأعراف ، شدتنى هذه الآيات الأربع ، أذكرها ـ إن شاء الله ـ ثم أتبعها بما يفتح الله من فقه بلاغتها ومعانيها : بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾** [الأعراف : ١٩٩ ـ ٢٠٢] أقول وبالله التوفيق والفتوح :

**أولاً** : فى الآية الأولى : **﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾**

قال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ : أمر الله تعالى نبيه بمكارم الأخلاق فى هذه الآية ، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية ، وتفسيرها فى أبسط صورة : اقبل من الناس ميسور أخلاقهم ، ولا تنتظر منهم الجهد والكمال ، وأمر بكل جميل ومعروف يعترف به العقل ويقره الشرع ، وإذا سفه عليك السفهاء فأعرض عنهم ؛ لأن السفيه لا يجارى ، فهو غالبا ما يغلب العقلاء إذا جادلوه ؛ لأن السفاهة لديه حرفة، والعقلاء لا يتقنون لغة السفاهة، فلم يبق إلا السكوت عليه والإعراض عنه .

وقد أورد القرطبى قصة فى حلم رجل من آل بيت رسول الله ﷺ ، تستحق أن يترسمها كل من التمس القدوة الصالحة فى الحلم عن الجاهل ، وخلاصتها : أن رجلاً من مناوئي على بن أبى طالب رضى الله عنه اسمه عصام بن المصطلق حدث فقال : دخلت المدينة فرأيت الحسن بن على رضى الله عنهما فأعجبنى سمته ، ومنظره ، وحسن روائه ، فثار فىَّ الحسد الكامن فى

صدرى على ابنه ، فدنوت منه وقلت له : أنت الحسن بن على ؟ قال : نعم . فأقبلت عليه أسبه ، وأسب أباه سباً مقذعاً ، حتى لم يبق لدى ما أضيفه ، فنظر إليَّ نظرة عاطف رؤوف ، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ **خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** ﴾ فقرأ الآيات الثلاث ، وقال : أستغفر الله لى ولك ، خفى عليك أنك لو استعنتنا أعناك ، ولو استرفدتنا أرفدناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ، فتوسم فى وجهى الندم ، فقال : ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٢] ثم سألنى : أمن أهل الشام أنت ؟ قلت : نعم . فقال : حياك الله وبياك وآداك ، وبياك معناها : أدام لك التحية والرضا ، وآداك معناها : قواك وساعدك ، انبسط لنا فى حوائجك وهمومك، تجدنا ـ إن شاء الله ـ عند أفضل ظنك ، قال عصام : فضاقت على الأرض بما رحبت وودت أنها ساخت بى ، وتسللت منه لواذا وما عندى فى الأرض أحب إليَّ منه ومن أبيه .

وغضب عمر ـ رضى الله عنه ـ على أعرابى خاطبه بأسلوب جاف ، فقال له بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين : أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ فما زاد عمر على أن توقف واستغفر ، وكان ـ رضى الله عنه ـ وقافا عند كتاب الله .

**ثانياً** : سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام : وما أصنع بالغضب فنزل قول الله تعالى : ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ومعناها : إن علاج الغضب حين يستفزك سفيه ، ويغريك به الشيطان ، هو أن تستعيذ بالله من الشيطان ، وأن تتذكر أن الله جل وعلا سميع يسمع سفاهة السفيه ، وهو تبارك وتعالى حليم بما تكتم من غضبك ، وتكظم من غيظك ، وتتحمل من خصمك الجاهل السفيه الظالم ، وكلمة ينزغ معناها ينخس بإبرة ونحوها ، ويقول العامة : ينغز

بتقديم العين على الزاى .

**ثالثاً** : من أروع ما فى القرآن من صور فنية ، قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ** ﴾ فالقارئ لهذه الآية العظيمة ، يتصور أنَ الشيطان يطيف بالرجل الصالح ، فلا يزال يوسوس له حتى يرسم من حوله جواً من الظلام ، والعمى عن منهج الله ورسوله، لكن هذا التقى لا يلبث أن يتذكر كلام الله جل وعلا ، ويتذكر سلوك رسول الله ﷺ وإذا نور هذه الذكرى يفتح عينيه وإذا هو مبصر قد تبدد من حوله ظلام الوسواس الخناس . لكن شياطين الإنس والجن لا يلبثون أن يعودوا إلى محاولة إغوائهم ، وإضلالهم ، ثم هم لا يتوقفون عن ذلك ، ولا ينقطعون .

وفى هذا إشارة إن يظل المؤمن دائماً على حذر من وساوس الشيطان ؛ لأن الشيطان إذا طردته بخنس ؛ إذ من صفاته أنه خناس ، لكنه لا يقصر عن إغوائه فيعود للوسوسة بطريقة أخرى .

**ثالثاً** : أكثر ما يتسلط على المصلين ، إذ ما يكاد المصلى يحرم للصلاةحتى يهجم عليه الشيطان بخيمله ورجله ، فيذكره بتجارته ، ونقوده ، وديونه ، وشئونه وفى مثل هذه الحال على المصلى أن يستعيذ بالله ولكنه بعد فراره، يعاود هجم الوسوسة ؛ لأن أعيظ ما يعيظ الشيطان صفوف الصلاة ، خصوصاً إذا كانت متلاحمة بالجسم والروح ، والاعتصام هناك لا يكون فى صفوفها ثغرة من فرقة أو بغضاء ، أو بعد بالأجساد ، والشيطان يدخل من بنى الفرج فإذا سد المصلون فرج صفوفهم تراصهم ، واستوائهم ، وتحابهم ، واتحاده ، هنالك يريد الشيطان عن حماهم المحروسى ، خاسئا وهو حسير .

# في رحاب القرآن والذكر

كثيراً ما ترى وتسمع مذياعاً يقرأ القرآن والناس من حوله يلغون ويتكلمون ويتصايحون ، وربما يدخنون ويلعبون الورق ، وفي مشهد آخر قد ترى قارئا ندى الصوت وقد اجتمع من حوله قوم لا هم لهم إلا الطرب ، فإذا قرأ القارئ آية من آيات الوعيد وهول الحساب صاحوا بأعلى أصواتهم في نشوة غامرة من الفرحة والطرب !

وفي مشهد ثالث قد ترى قوماً يمضي عليهم نهار كامل وليل كامل لا يرطبون ألسنتهم بكلمة من ذكر الله ، فتكون النتيجة أن يرين على قلوبهم مزيج من الغفلة والاضطراب والقسوة .

إن كل هؤلاء الفئات ما قدروا القرآن حق قدره ، ولا انتفعوا بالذكر والذكرى كما ينتفع المؤمنون . وهذه آيات من سورة الأعراف تهدى المؤمنين إلى أقرب طريقة لجلاء القلوب وطمأنتها ، وإيقاظها من غفلتها وتليينها من قسوتها ، وهذه الآيات هي مسك ختام السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤ ـ ٢٠٦] .

أقول وأسأل الله أن يجعلنا والإخوة القراء وسائر المسلمين من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته ويعملون بأحكامه وآدابه :

**أولاً** : كان الكفار إذا سمعوا القرآن صاحوا وأحدثوا ضجيجاً وصخباً ولغواً وضوضاءً ؛ خشية أن تنفذ معانيه من أسماعهم إلى قلوبهم ، وقد أوصى

بعضهم بعضا بذلك ، فقال تعالى يصف حالهم تلك فى سورة فصلت : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالغَوا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغلبُونَ﴾ [فصلت : ٢٦] وفعلهم هذا أكبر دليل على إعجاز القرآن وعظمة تأثيره فى النفوس ، ولا غرو فقد كان أعند المعاندين من قريش إذا أنصت إلى القرآن وروعة معانيه ومبانيه لا يملك إلا أن يتأثر بصدقه وبلاغته وعظمة أحكامه .

والحق أن أى مجلس من المجالس إذا قرئ القرآن فيه فلم ينصت أهله إلى التلاوة، ولم يتدبروا آيات الله الباهرة وشغلوا أنفسهم عن ذلك بأحاديث وأسمار ولعب وضجيج فقد ارتضوا لأنفسهم أن يتشبهوا بالمشركين حين تواصوا أن يلغوا فى القرآن ويتجنبوا استماعه ويقابلوا تلاوته بالصخب والضوضاء !

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ ﴾ إشارتان معنويتان جديرتان بالتأمل أولاهما : أن مجرد الاستماع لا يكفى حتى يقترن بالإنصات، والإنصات إلى الكلام لا يكون إلا من اهتمام به وانتظار لمعلومات مهمة متوقعة منه ، ومن ثم فمن التأدب مع كلام الله أن تصغى إليه بسمعك وتنصت إليه بفكرك وعقلك رجاء أن تصل من ذلك إلى الاهتداء بنوره والاستنارة بهديه ، أما الإشارة المعنوية الأخرى ففى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ ﴾ وفيها ما يفهم أن شرط رحمة الله فى مجلس يقرأ فيه القرآن هو الاستماع والإنصات فإذا لم يكن فى المجلس استماع ولا إنصات فالظاهر من الآية أن رحمة الله لا تنزل على أهل ذلك المجلس إلا إذا كفوا عن اللغو واقبلوا على القرآن استماعا وتدبرا .

**ثالثاً** : ورد الفعل مبنياً للمجهول فى قوله تعالى : ﴿ وإِذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاستَمِعُوا لَهُ ﴾ وذلك للتعميم ، فالاستماع إلى القرآن واجب من أينما قرئ سواء قرأه الإنسان نفسه ، أو استمع إليه من أى هاتف أو قارئ أو مذياع وسواء أكان قريباً من القارئ أو بعيداً منه .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

أمر من الله جل وعلا لنبيه وللمقتدين بنبيه وهم المؤمنون أن يداوموا على الذكر بكافة أشكاله وفى جميع الأوقات وذلك حتى لا يكتب الإنسان فى الغافلين ، وليظل على صلة متصلة بربه لا تنقطع ، والذكر أنواع فكل ما يذكرك بربك ويبعدك عن ذنبك فهو ذكر ، التأمل فى آيات الله وملكوته ذكر . يقول الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] والقرآن الكريم ذكر ، قال الله تعالى فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [ القمر : ٢٢] والصلاة ذكر قال الله تعالى فى سورة طه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] هذا إلى جانب المأثور من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والثناء على الله بآلائه . إن أهل السلوك وصلوا إلى عليا مراتب الإيمان بمداومة الذكر ؛ لأن الذكر يجدد علاقة العبد بربه وينهاه عن ذنبه. يقول الله جل جلاله في سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] وأصح التفاسير لهذه الآية ـ والله أعلم ـ أن الصلاة بتوقيتها الحكيم تنهى المسلم عن المعصية ؛ لأن أوقاتها موزعة على أوقات النهار والليل توقيتا حتميا فالمسلم يصلى الفجر مستقبلا النهار ويصلى الظهر منهيا فترة سعيه الأولى ويصلى العصر مستقبلا الفترة الثانية من سعيه ، ويصلى المغرب وهو يستقبل الليل ويصلى العشاء مودعا نهاره قبل يومه؛ ولهذا لا يكون لديه وقت للغفلة والمعصية وخصوصاً حين يتدبر ألفاظ الصلاة من قرآن وتسبيح ودعاء . أما قوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فمعناه أن ذكر الله ومداومته ينهى عن الفحشاء والمنكر أكثر مما تفعل الصلاة ، وذلك ؛ لأن الصلاة تكون فى أوقات معينة أما ذكر الله جل

جلاله فيكون فى جميع الأوقات وإذا عرضت للعبد فتنة، أو معصية بين الصلاتين فإن ذكر الله فى هذه الحال وتذكر عظمة الله وقدرته على العباد وترداد كلمة التوحيد فى مواطن ثورة الشهوات ، كل هذا مما يصغر حجم الشيطان ، ويطفئ ثورة الفتنة ، ويهدئ ثورة الغريزة . وقديما هم يوسف عليه السلام فذكر الله فرأى برهان ربه وعف فى الموطن الذى لا يطيق العفاف فيه إلا عظماء الرجال .

ونعود إلى آية الأعراف : **﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾** هذه الآية فيها لطائف معنوية فى غاية الفائدة: إنها تعطى وصفة هى أعظم الوصفات لدواء الغفلة وإيقاظ القلب إذا غفل ، وطمأنته إذا اضطرب ، وقد فصلت الآية ما يجب أن يرافق الذكر من أمور تجعله مؤثرا مؤتياً ثماره **﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾** معناه : أجعل ذكر الله يملأ أرجاء نفسك ، ولا تجعله مجرد تمتمة على لسانك . إن ذكر الله فى النفس رائع ولو لم يتلفظ به اللسان ، وقوله تعالى: **﴿تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ﴾** معناه : اجعل ذكرك لله جل جلاله من منطلق التذلل إليه ، والخشوع لعظمته ، والخضوع لقدرته ، والخوف الشديد من بطشه وعذابه ، فإذا امتزجت هذه المشاعر فى ضميرك آتى الذكر أحسن الثمار ، قوله تعالى : **﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** معناه بحيث تسمع نفسك ، وفلا يكن ذكرك عجيجاً وضجيجاً ، فإنك تخاطب أسمع سميع وأبصر بصير وأعظم عليم خبير ، ومن ثم فإن ما يفعله بعض المتصوفة من حلقات ذكر ترتفع فيها الأصوات ما هو إلا ابتداع يخالف آداب الذكر التى جاء بها كتاب الله وسنة رسول الله .

وقوله تعالى :**﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾** معناها طول النهار وجاء فى آيات كريمة أخرى حث على الذكر فى الليل . وقال الله تعالى : **﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ**

وَسَبِّحهُ لَيلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان : ٢٦] وقال جل جلاله : ﴿ وَسَبِّح بِحَمد رَبِّكَ قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ وقَبلَ غُرُوبِهَا وَمِن آنَاء اللَّيلِ فَسَبِّح وأَطرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرضَى ﴾ [ طه : ١٣٠] وفى قوله تعالى : ﴿ ولاَ تَكُن مِّنَ الغَافِلين ﴾ إيضاح بأن ذكر الله تبارك وتعالى: هو أعظم دواء لداء الغفلة ، ومما يذكر أن كلمة تضرعاً فى قوله تعالى ﴿ وَاذكُر رَبَّكَ فِي نَفسكَ تَضَرُّعاً ﴾ يجوز فى إعرابها أن تكون حالاً مأولة بالمشتق ، وأن تكون تمييزاً ؛ لأنها تميز الذكر بأنه تضرعاً وأن تكون مفعولاً مطلقاً ؛ لأنها تبين نوع الذكر ، وأن تكون مفعولا لأجله ؛ لأنها تبين سبب الذكر .

**خامساً** : فى الآية الأخيرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِه ﴾ الآية فيها سجود تلاوة وهى أول سجدة فى سورة المحكم ، فليس فى البقرة ولا آل عمران ، ولا النساء ، ولا المائدة ، ولا الأنعام سجدة تلاوة ، وأول سجدة هى التى ختمت بها سورة الأعراف ، وفى القرآن الكريم خمس عشرة سجدة وقيل هى أقل من ذلك ، وإذا استمع المسلم إلى سجدة تلاوة ، أو قرأ القرآن فوصل إليها ، فمن السنة أن يسجد وخصوصاً إذا سجد القارئ ، فيسجد بسجوده المستمعون مقتدين به ، ويشترط لسجود التلاوة تمام الطهارة فى أصح الأقوال ويرفع يديه ويكبر عند ابتدائه ويكبر عند الإمام مالك حين يرفع منه ويقول فى تسبيحه ما يقوله فى تسبيح الصلاة ، ويستحب أن يدعو الله فيه قائلاً : اللهم احطط عنى بها وزرا ، واكتب لى بها أجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا . نفعنا الله إياكم بالذكر الحكيم .

# من صفات المؤمنين

هذه الآيات الأربع هى مطلع سورة الأنفال ، وتسمى عند بعض الأئمة سورة بدر ؛ لأن معظمها حكاية لقصة تلك المعركة العظيمة التى كانت فرقانا بين الباطل متمثلا فى الشرك المتغطرس ، وبين الحق يحمل لواءه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ١ ـ ٤] .

أقول وأسأل الله لى وللإخوة المستمعين علما نافعا يزكيه العمل ويحليه الإخلاص ويتوجه القبول .

**أولاً** : جاء فى سبب نزول هذه الآيات أن الصحابة الذين شهدوا بدراً لم يكن لهم عهد بتقسيم غنائم الحرب ، فلما نصرهم الله على الأعداء انقسموا على أنفسهم فى أمر تقسيم الأنفال ، وهى جمع نفل وهو العطية والهبة والنعمة ويقصد بها فى الآية غنائم بدر فقال قسم من أهل بدر : نحن استولينا أول الناس على معسكر المشركين وأسلابهم ، فالأنفال لنا ، وقال آخرون : نحن تتبعنا آثار الأعداء نصليهم ونثخن فيهم لكى لا يتمكنوا من العودة فالأنفال لنا، وقالت فئة ثالثة : نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وردد‍نا عنه غدر الأعداء ، وخطرهم فنحن أولى بالغنائم ، فنزلت هذه

الآيات الكريمات تعلن أن أمر الأنفال موكول لرسول الله ﷺ ، فقسمها عندئذ رسول الله ﷺ بين جميع من شهدوا القتال .

**ثانياً** : في قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ معناه : يسألك الصحابة عن الغنائم التي نفلها الله المسلمين ببدر وهو سؤال يقع لأول مرة ، فأخبرهم يا محمد أن حكم الأنفال أن تترك لله ورسوله ؛ لأن النصر من عند الله ، والرسول ﷺ هو سبب الهداية والنصر ، وإذن فعليكم أن تتقوا الله ولا تختلفوا على العرض الأدنى وعليكم أن تصلحوا ذات بينكم بترك الخصومة والجدل حول الغنائم ، ثم عليكم أن تمتثلوا لأمر الله ورسوله مهما قضى في أمر الغنائم أو غيرها .

**ثالثاً** : يلاحظ الإيجاز الرفيع المستوى في السؤال والجواب ، فالسؤال ثلاث كلمات والجواب ثلاث كلمات تشكل حكماً عاماً ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ** ﴾ ثلاث كلمات وراءها حذف يفهم من السياق تقديره ـ من يستحقها وكيف تقسم وهل هي حلال ؟! إلى آخر مضمون السؤال . وجاء الجواب أيضاً ثلاث كلمات : ﴿ **الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ وهو جواب يشكل حكماً إلهيا حاسماً كله حكمة وعدل .

**رابعاً** : بقية الآية الكريمة توجيه إلهي لأهل بدر اشتمل على ثلاثة أوامر إذا نفذوها كان ذلك إيذانا بقبول توبتهم وتكفير خصومتهم واختلافهم ، وتلك الأوامر هي أن يتقوا ربهم فلا يبطلوا أعمالهم بالانقسام وأن يصلحوا ذات بينهم بترك الخصومة والمجادلة ، وشتات الرأي ، وأن يقبلوا ويمتثلوا ويطيعوا أمر الله ورسوله وحكم الله في أمر الأنفال .

**خامساً** : في قوله تعالى بعد الأوامر الثلاثة : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم**

مُؤْمنِين ﴾ يفيد أن شرط الإيمان هو تقوى الله ، وصلاح القلوب ، وطاعة الله ورسوله ، وهنا يتيح السياق أن يبسط القرآن الكريم صفات المؤمنين وهى خمس صفات الثلاث الأولى منها من شعب الإسلام ، والاثنتان الأخيرتان من أركان الإسلام : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُمْ إِيمَاناً عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ . وهنا يجدر بالمؤمن أن يطبق الصفات على نفسه ، ويتساءل إلى أى مدى تنطبق عليه هذه الصفات ؟! فطوبى له إن كان الجواب بالإيجاب ويالخسارة العمر إن كان الجواب بالنفى . هذه هى الأسئلة :

هل يخشع قلبك ويخاف إذا استمعت إلى ذكر فى تلاوة القرآن أو الصلاة أو مجالس العلم والذكر ؟

هل إذا سمعت آيات الله ازددت إيماناً إلى إيمانك ؟ والإيمان عند أهل العقيدة يزيد وينقص ، فهل تحس أن إيمانك يزكو ويرسخ كلما سمعت القرآن الكريم ؟

هل أنت متوكل على الله ، معتمد عليه ، واثق بعطائه وجوده ورزقه وخزائن رحمته ؟ هل تعد كل عدة العمل وتستعد له وتبذل كل جهدك فى إنجاحه ، ثم بعد هذا تعتقد من كل ضميرك أن التوفيق كله بيد الله وأن العبد لا حول له ولا قوة ؟

وهل أنت ممن يقيمون الصلاة ؟! وإقام الصلاة غير مجرد أدائها ، فإقام الصلاة معناه أداؤها على خير أوجه الأداء وشهود الجماعة والاستغراق الفكرى فى فى أذانها وكافة حركاتها وسكناتها وجميع ألفاظها وما اشتملت عليه من الكلم الطيب .

وأخيراً هل تؤدى حق الله بأداء الزكاة كاملة غير منقوصة وهل تنفق مما

رزقك الله سراً وعلانية ؟! إن كنت كذلك ، فقد استحققت ما وعد الله به المؤمنين وما وصفهم إذ يقول : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ أى مديح أشرف من أن يصفهم ربهم بأنهم المؤمنون حقاً . وكلمة **﴿حقا﴾** مفعول مطلق لعامل محذوف ، وأى وعد أكرم من هذا الوعد الإلهى الجليل : أن يرفع الله درجات المؤمنين فى مراتب الجنة وأن يشملهم مغفرة واسعة وأن يعد لهم رزقاً كريماً فى الدنيا والآخرة ؟!

اللهم اجعلنا من المؤمنين حقاً الذين لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

# الله يحق الحق ويبطل الباطل

هذه أربع آيات أخرى من سورة الأنفال تشرح موقفاً آخر من مواقف اختلاف الرأى التى كانت أحياناً تقع من بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم إذا قضى الله ورسوله الأمر زال الجدال ، وكان الامتثال ، وحل السمع والطاعة محل الخصام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيـتكَ بالحَقِّ وَإنَّ فَرِيقاً مِّنَ المُؤمنينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادلُونَكَ فى الحَقِّ بَعدَ مَا تبيَّن كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوت وَهُم ينظُرُونَ * وَإذ يَعدُكُمُ الله إِحدَى الطَّائفتَين أَنَّهَا لكُم وَتوَدُّونَ أَنَّ غَيرَ ذَاتِ الشَّوكَة تكُونُ لَكُم وَيُريدُ الله أن يُحقَّ الحَقَّ بكَلمَاته وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمُونَ ﴾ [الأنفال ٥ ـ ٨] .

أقول وأسأل الله لى ولإخوانى المسلمين صلاح الأحوال وقبول الأعمال وحسن المآل :

**أولاً** : هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن الكريم بالمدينة المنورة ولم يكن القتال قبل بدر قد كتب على المؤمنين ، بل الأوامر النبوية أن يكف المؤمنون أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ؛ وذلك لأن المسلمين لم تكن أوضاعهم العسكرية تسمح لهم بخوض المعارك الضارية ، كانوا كما وصفهم القرآن : قليلاً مستضعفين فى الأرض فآواهم الله وأيدهم فيما بعد بنصره ، وقبيل نزول هذه الآيات نزلت آيات القتال فاستقبلها بعض المسلمين بخوف شديد وصفه الله جل وعلا فى سورة النساء بقوله: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنهُم يَخشَونَ النَّاسَ ( أى

المشركين ) كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [ النساء ٧٧ ـ ٧٨] وتشير الآيات التى نحللها اليوم إلى أن بعض المسلمين كرهوا خروج رسول الله ﷺ للاستيلاء على قافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان وأن بعضهم جادلوه أيضاً حين عزم على القتال بعد أن هربت القافلة صوب البحر وأفلتت من قبضة المسلمين ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون * يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ ومعنى هاتين الآيتين الكريمتين : أن المسلمين يجادلونك فى أمر القتال ببدر كما كرهوا فى المدينة خروجك للقاء القافلة ، مع أن كلا من الخروج والقتال حق وأمر من الله جل جلاله ، وفى الآية تقديم وتأخير إذا التقدير يجادلك المسلمون فى الحق وهو القتال بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم يشاهدونه كما كرهوا خروجك من قبل لاعتراض القافلة .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ يشير إلى أن النبى ﷺ جمع الصحابة وأخبرهم أن الله جل جلاله وعده نعمة من نعمتين : إما أن يغنم المسلمون القافلة الكبيرة العائدة من الشام، وإما أن يجمعهم وجهاً لوجه بالمشركين ، ليقاتلوا أقطاب الشرك ويهزموهم ، وفى أثناء الحديث سألهم رسول الله ﷺ : «هل تحبون أن نغنم القافلة ؟ أم تحبون ذات الشوكة والقوة والمنعة » وهى

المعركة العظيمة التى ينصر الله فيها جنده ويركس فى الهزيمة أعداءه؟!
فقال كثير من المسلمين : يارسول الله نحن نود القافلة ؛ لأننا فى فقر واحتياج . لكن الله جل وعلا أصدر إرادته بأن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين فى معركة الإسلام الكبرى معركة بدر ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَإِذ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ أى القافلة أو المعركة المنتصرة ﴿أَنَّهَا لَكُم وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ ﴾ أى القافلة التى لا قوة فيها ولا بطولة ولا جهاد ﴿ تَكُونُ لَكُم وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِه وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِين ﴾. وهذا هو الذى جرى به قدر الله ونفذ به أمره فقد أفلتت القافلة وكانت المعركة والنصر .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمُون ﴾ معناه :
أن الله تعالى اختار لكم المعركة دون القافلة ليكتب للإسلام نصراً مؤزرا يثبت به الحق والإيمان ويرسى قواعده ويزلزل به الكفر والشرك والباطل ، ويفضح باطلها، ولو كره أقطاب الإجرام كأبى جهل ومن على شاكلته .

**رابعاً** : فى قوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِل ﴾ مقابلة طباقية فى غاية الجمال ، وفى الكلمات الأربع إيقاع عذب تطرب له الأذن ؛ لعذوبة اللفظ ، ويطرب له القلب بسبب التقابل المعنوى الرائع ﴿ لِيُحِقَّ الحَقَ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ ﴾ ، وفى قوله تعالى ﴿ لِيُحِقَّ الحَق ﴾ جناس جميل وكذلك فى قوله : ﴿وَيُبْطِلَ البَاطِلَ﴾ ؛ لأن كلمة ﴿ يُحِقّ ﴾ معناها : يثبت الحق ويفرضه ويرسى بنيانه ، وكلمة ﴿ يبطل ﴾ معناها يمحو ويزيل ويمحق ؛ وبهذا يظهر فى العبارتين ﴿لِيُحِقَ الحَقَّ ، وَيُبْطِلَ البَاطِلَ﴾ جناسان فى غاية الجمال .

**خامساً** : فى قوله تعالى : ﴿ وَلَو كَرِهَ المُجرِمُون ﴾ إطناب يفيد تمام الفوز

وشفاء القلوب ، وقمة النصر ؛ لأن الغلبة التى سيحرزها المسلمون ، ستكون رغماً عن أنف المتغطرسين الكفرة الذين أجرموا شتى الجرائم فى معاملة المؤمنين بمكة من ظلم وقهر وتعذيب وفتنة ، فاليوم يقهر الله رغباتهم ، ويكبتها حسرات فى قلوبهم حين يرون الحق الذى قاوموه بأرواحهم وبذلوا لإطفائه أموالهم ، وقد شمخت منارته وعلت فى الأرض كلمتة ، ويرون الباطل الذى بذلوا له الأموال والأرواح ، وقد ركمه الله ، وجعل بعضه على بعض فى جهنم .

**سادساً** : فى الآيات عبرة يجدر بالمسلمين فى أيامنا هذه أن يقفوا عندها وقفة طويلة من التأمل والموعظة والاعتبار ، وهى أن طريق النصر شاق على الأنفس مليء بالمصائب والمصاعب ؛ ولهذا فقد تتقاعس عنه بعض النفوس وتكرهه لكن خاتمة الطريق دائماً روضات عزة ، أو روضات جنان .

أسأل الله أن يولينا والإخوة المسلمين إحدى الحسنيين ويكرمنا بإحدى المكرمتين : إما نصر مؤزر ننال به منازل الماجدين أو استشهاد شريف نحرز به مقامات الخالدين .

# من جند الله فى معركة بدر

هاتان آيتان كريمتان من سورة الأنفال يمكن أن نستطرد أثناء شرحهما إلى كثير من المسائل التاريخية والعقيدية المتعلقة ببدر على أيامها الماجدة الغراء أزكى السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **إذ يُغَشّيكُمُ النُّعَاس أمَنَةً مِّنهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم مِّنَ السَّمَاء مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذهِبَ عَنكُم رِجزَ الشَّيطَانِ وَلِيَربِطَ عَلَى قُلُوبِكُم وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقدَامَ * إذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعبَ فَاضرِبُوا فَوقَ الأَعنَاقِ وَاضرِبُوا مِنهُم كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ [الأنفال : ١١ ـ ١٢] .

أقول وأسأل الله لأمة الإسلام أياما كيوم بدر ، وإيماناً كإيمان أهل بدر ، ودرجات عنده كدرجات أهل بدر :

**أولاً** : حين قضى الله ورسوله أمر القتال سار المهاجرون والأنصار نحو الأعداء حتى أشرفوا على ماء بدر ؛ ولأنها أول معركة يخوضها المسلمون وجهاً لوجه أمام قريش ، فقد كان المسلمون فى حاجة إلى شىء يؤمن قلوبهم ويسكن روعهم ، ويرفع من معنوياتهم . وقد باتوا ليلتهم على مشارف بدر ، وكانت طبيعة الأرض من حولهم ترابية ناعمة التراب جداً، فكانت أقدامهم تغوص فى التراب ويثور من حولهم غبار عند أية هبة من الريح ، وهنا كان لطف الله وفضله حين نزل على المسلمين مطر غزير مدراراً سالت على أثره الأودية والشعاب ، وتماسك تراب الأرض فبدت كأنها معبدة . ومع أن قلوب المسلمين كانت مشغولة بتوقع ساعة القتال الفاصلة ، فقد ساق الله للمسلمين نعاساً عقد أجفانهم ، فكان فى تلك النومة الهنيئة الهادئة استراحة لأجسامهم وأمن لقلوبهم ، وكان الليل من

حول المسلمين ساجياً هادئاً ، حتى لقد قال على رضى الله عنه : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح .

وكم كانت معنوية المسلمين عالية ، وكم كانت قلوبهم مطمئنة حين طلع عليهم الصباح فنهضوا والماء عن حولهم غزير ، فأقبل بعضهم يتوضأ وبعضهم يغتسل ، وإذ ذاك استأنفوا مسيرتهم على الطريق الرئيسى إلى مكة وهو يمر بماء بدر ، حتى إذا صاروا على مقربة من ماء بدر أمر القوم بالنزول ، وهنا أراد النبى ﷺ أن يطمئن على أمر يشغله باله وهو : هل المهاجرون والأنصار راضون عن هذا الاقتحام ، والتصدى للمشركين مع ما يحمل من أخطار مروعة حقا ؟! فقال رسول الله ﷺ : « أشيروا علىّ أيها الناس » فتكلم أولاً سراة المهاجرين أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو رضى الله عنهم ، فكلهم أيد القتال وكان مما قاله المقداد بن عمرو: والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ وهو موضع بالحبشة ولعله عاصمتها ـ لجالدنا معك من دونه .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « أشيروا علىّ أيها الناس » موجهاً القول إلى الأنصار رضى الله عنهم ، فقد كانوا قرابة مائتين وثمانين ولم تكن بيعتهم بالعقبة لرسول الله ﷺ تنص على أن يقاتل بهم الناس خارج المدينة ، وهنا نهض زعيم الأوس سعد بن معاذ ، وزعيم الخزرج سعد بن عبادة فأعلنا أن الأنصار آمنوا برسول الله وأيدوه ونصروه وأنهم معه أينما توجه وكان مما قالاه : امض يارسول الله إلى ما أمرك الله به ، فو الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. وهنا اطمأنت نفس رسول الله على وحدة الكلمة والتحام الصف ، فقال: « سيروا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وسار عليه الصلاة

السلام بالمسلمين حتى إذا أشرف على الماء نزل وأمر الناس بالنزول ، فقال له الحباب بن المنذر رضى الله عنه : أهذا منزل أنزلكه الله تعالى فما يكون لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟! فقال عليه الصلاة والسلام : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال الحباب رضى الله عنه : إن هذا ليس لك بمنزل فامض بنا إلى آخر ماء مما يلينا وأول ماء مما يلى المشركين فننزله ونغور ما وراءه من الآبار والقرب حتى لا يبقى لهم ماء يشربونه ، ثم نبنى على الماء حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون . فاستحسن رسول الله ﷺ رأى الحباب ونفذ ما اقترحه ، وفى اليوم التالى كان اللقاء الحاسم الكبير حيث نصر الله المؤمنين نصراً مؤزراً فقتلوا من أقطاب الشرك سبعين وأسروا سبعين وشفى الله صدورهم ونقلهم من مرحلة المسالمة المنطلقة من منطلق الضعف ، إلى مرحلة القوة التى ترد العدوان بالعدوان.

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ **إذ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أمَنَةً مِّنهُ ويُنَزِّلُ عَلَيكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ويُذْهِبَ عَنكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ويُثَبِّتَ بِهِ الأقْدَامَ** ﴾ بين الحق جل جلاله أنه أكرم المؤمنين بنعاس كان أمناً لقلوبهم ، والحق أن النوم سبات تسكن فيه النفس وتنسى فيه الأفكار المقلقة ، ومن ثم يحرص الأطباء أن ينام المريض لينسى آلامه ، ﴿ **أمَنَةً** ﴾ تعرب مفعولاً لأجله كما تعرب مفعولاً مطلقاً نائباً عن المصدر . ثم بين الله تبارك وتعالى فوائد المطر الذى أنزله على المؤمنين فى أسلوب يتميز بروعة التقسيم : ﴿**لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ويُذْهِبَ عَنكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ويُثَبِّتَ بِهِ الأقْدَامَ** ﴾ ، نعم لقد أفادهم المطر فوائد جليلة ، فقد توضؤوا به وتطهروا وكان بعضهم قد أحدث فى النوم حدثاً أكبر فاغتسلوا ، وكان الشيطان قد انتهز من المسلمين غرة

التعب والغبار والقلق ، فطفق يوسوس لهم ، فلما نزل المطر خنس الشيطان ؛ لأن المطر كان إكراما للمسلمين فلم يملك الشيطان إلا أن ينهزم حين صفت بالرحمة أفكارهم وارتفعت معنوياتهم، وبذلك ذهب عنهم رجز الشيطان أى وسواسه وربط الله على قلوبهم ، بأن عمرها بسكينة ثبتهم ، فما كادوا يستحمون ويتطهرون حتى شعروا أن فى قلوبهم عزماً حديداً ، وبأساً شديداً ، وأملاً جديداً ، وكما ثبت الله قلوبهم بطرده الشيطان ، فقد ثبت أقدامهم حين تحول الرمل والتراب أرضاً متماسكة قوية التمهيد.

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ إذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئكَة أَنِّي مَعَكُمْ فثبتوا الذين آمنوا سأُلقي في قُلُوب الَّذينَ كفَرُوا الرُّعبَ فَاضْربُوا فَوقَ الأعناقِ وَاضربُوا منهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ يشير إلى أن الملائكة نزلوا بأمر الله فثبتوا قلوبهم ، وشدوا عزائمهم ، وأمرهم الله أن يضربوا المشركين ضرباً يشل حركتهم كضرب أعناقهم ، وقطع أصابعهم ومن قطعت أصابعه لم يستطع أن يمسك السيف ، أو يقاتل .

ويرى بعض المفسرين أن مهمة الملائكة كانت تثبيت قلوب المؤمنين ، وتقوية العزائم وترسيخ الإيمان ، ولكنهم لم يقاتلوا قتالاً فى صف المسلمين ، وأن نزول الملائكة ، لم يكن إلا بشرى بين يدى النصر ولتطمئن قلوب المسلمين ﴿وَمَا النَّصرُ إلاَّ مِن عِند العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

نسأل الله أن يمدنا وإخواننا المسلمين بروح باعثة من عنده توقظ قلوبنا وتحشد عزائمنا ، وتقوى إيماننا لنعيد عزة الإسلام ، ونهزم جحافل الكفر المتألبة على الإيمان ، كما نصر الله جل جلاله ثلاثمائة من المؤمنين على ألف من أعداء الله ، إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو جل وعلا بالإجابة جدير .

# من أكبر الكبائر .. التولى يوم الزحف

هذه آيات من سورة الأنفال ، فيها بيان لحكم من يفر من المعركة حين يلتحم الجيشان ، ونحن فى أيامنا هذه فى أمس الحاجة إلى ما يبعث الثبات والعزيمة وروح التضحية فى القلوب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال : ١٥ ـ ١٨]

أقول وأسأل الله أن يجزل لنا وللإخوة القارئين، ولجميع المسلمين مواهب الخير والفتوح، ويشملنا وإياهم بعنايته التى فى رحابها الأمن والسعادة:

**أولاً** : عدّ النبى ﷺ يوماً السبع الموبقات، ويعنى بها الكبائر التى توبق العبد ، أى تهلكه فذكر الشرك فى أولها، وذكر من بينها التولّى يوم الزحف، والزحف وإن كان فى الأساس الحبو على الركبتين ، إلا أنه أطلق على السير إلى القتال. فكل من يفر من المعركة يوم اللقاء فقد ارتكب كبيرة موبقة مهلكة من المعاصى هى من الكبائر السبع التى تلقى بصاحبها فى حمأة الهلاك.

**ثانياً** : ما رأيت تعبيراً أشد ولا أعتى على نفس الشريف من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ ؛ لأن المؤمن يكون أحرص شىء على عرض نفسه وكرامتها ، وأغضب ما يغضب الحر إذا امتدت يد إلى موضع العفاف

من جسده ولو مزاحاً، حتى إن الشريف يفضل أن يموت قبل أن يعبث عابث بموضع الشرف والعفاف منه ؛ ولهذا كان تعبير الآية الكريمة : ﴿ **فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** ﴾ تذكيراً للمؤمنين بأن المتولى يوم الزحف وهو يدير ظهره إلى العدو فراراً من الموت ، يكون قد فر من الموت الشريف ، إلى موضع من العار لا يعرف مداه . فالعدو الذى امتلأ قلبه غلا وحقداً، إذا تحكم فى عدوه لم يبال أن يهتك أخص خصائص الشرف فى خصمه، وإذن فالتعبير الوارد فى الآية . ﴿ **وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ** ﴾ معناه الحرفى : ومن يحكّمهم فى موضع العفاف من نفسه ، والحق أن المتولى يوم الزحف يترك فى ساحة المعركة شرفه وشرف أمته ، ويمكن للعدو أن يهتك من العرض والشرف ما يحلو له .

**ثالثاً** : يجوز فى حالتين اثنتين أن يولى المقاتل فاراً من وجه العدو : إذا كان متحرفاً لقتال ، أو كان متحيزاً إلى فئة ، ومعنى الأولى: أن يكون فراره مغيراً موقعه لخطة قتالية مرسومة تقتضى أن يوجد فى مكان آخر ، أو أن يرى قطعة من الجيش الإسلامى قد تكاثر عليها العدو فينحاز إليها ليقوى موقفها ويساعدها على الدفاع والثبات ، وفى غير هذين الموضعين لا يكون هنالك عتبى فى الانسحاب .

**رابعاً** : عد بعض أشياخنا موقفاً ثالثاً يجوز فيه الانسحاب ، وهو إذا وجد المسلمون عدوهم أكثر من ضعفيهم فيجوز لهم أن ينسحبوا ، لينضموا إلى الاحتياطى الذى من وراءهم ، أما إن كان العدو ضعف الجيش المسلم فلا يجوز أن ينسحبوا ؛ لأن الله تعالى يقول فى سورة التوبة : ﴿ **وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ** ﴾ [الأنفال : ٦٦] ولكن إذا بلغ الجيش الإسلامى اثنى عشر ألفا فلا يجوز له أن يولى فراراً من أى جيش

كافر مهما بلغ عدده ؛ لأن رسول الله ﷺ قال في حنين : « لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة » . ويرى بعض الأشياخ أن يثبت الجيش المسلم ولو كان قليلاً ، لأن الله جل جلاله يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وقد صادم أهل بدر أعداءهم المشركين وهم ثلاثة أضعافهم وصمد في اليرموك جيش الإسلام للروم، وكانوا أكثر من أربعة أضعافهم ، وكان جيش المسلمين في فتح الأندلس ألفين بقيادة طارق تصدوا لأكثر من سبعين ألفاً من جيش العدو وهزموهم بإذن الله .

خامساً : قوله تعالى في توعد المتولي يوم الزحف : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أسلوب في غاية العنف ، فقد أعلن أن جزاء المتولي أن يرجع من ذلك الانسحاب ، وقد غضب الله عليه وكتب له جهنم وهي أتعس مصير يصير إليه العصاة . وفي هذا الوعيد ما يربط على قلب المؤمن ويجعل الانسحاب بالنسبة إليه أمراً غير وارد ولا معقول ، فما عنده جواب لنفسه إذا هالها الموقف إلا أن يقول لها : مكانك تحمدي أو تستريحي . وقد جرب العرب في حروبهم الحديثة مع اليهود أوامر الانسحاب ، فما كان من نتيجتها إلا أن ضاعت مقدساتهم ، وقتلت ذراريهم ، وديست كرامتهم ، وذبح شيوخهم ونساؤهم ، وأقسم غير حانث : لو صمدوا لعدو الله وتثبتوا بصدق اليقين والإيمان لما نالهم من عدوهم ذلك الإذلال الذي جعل اليهود الأذلة المساكين يتبجحون بأن جيشهم هزم عدة جيوش !

سادساً : قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

**ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِين ﴾** ، معناه : أن المسلمين إذا انتصروا عَلَى أعدائهم، وقتلوهم فَإن الذِى قتلهم حقيقة هو الله ؛ لأن الآجال بيده جل جلاله ، وكل سهم أو قذيفة إذا انطلقت من جيش المسلمين فأصابت الأعداء، فإن الذى سدد فأصاب هو الله جل وعلا، ولكن نشوب المعركة وجهاد المسلمين ما هو إلا لكى يمتحن صبر المسلمين، ويرى مدى استجابتهم لأمر الله وإذعانهم لقضائه .

**سابعاً** : ما أحوج المسلمين والعرب فى هذه الأيام أن ينقشوا فى قلوبهم قول الله تعالى الذى هو وعد الحق من لدنه ألا وهو قوله : **﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِين ﴾** إنه وعد من الله تبارك وتعالى للمسلمين بأنهم إذا جاهدوا لتكونَ كلمته هى العليا ، فإنه سيضعف خطط عدوهم ويفسد عليهم مكائدهم مهما تألب من حولهم أعوان الشيطان وأملى لهم أعداء الإسلام ، وفى هذا يقول جل جلاله في سورة غافر : **﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾** [غافر : ٥١].

# الحياة الحقة فى الاستجابة لله وللرسول

هاتان آيتان من سورة الأنفال ، يمكن أن يخاطب بهما المسلمون فى هذه الأيام ؛ لأنهما تلمسان جرح الأمة بالبلسم الشافى ، وتجلوان الحقيقة التى حاول العدو تحويل أنظارنا عنها ليصرفنا عن الطريق الصحيح للعزة والكرامة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٤ ـ ٢٥] .

هاتان هما الآيتان الكريمتان الحكيمتان ، وهذه بعض إشاراتهما البلاغية والمعنوية :

**أولاً** : لابد من وقفة تأمل طويلة عند مطلع هذه الآية ؛ لأنها بالفعل آية عجيبة التأويل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هذه الآية نزلت فى سياق غزوة بدر ، والأمر الذى دعا إليه رسول الله ﷺ المسلمين هو جهاد الأعداء ، وهنا تأتى وقفة التأمل الطويلة : كيف يصف الله القتال أو الجهاد بأنه يحيى مع أن المستجيب إلى دعوة الجهاد يذهب إلى الموت، والطريق المروع المخوف ؟ الجهاد فى ظاهره طريق من طرق الموت والخطر، فكيف يقول الله تعالى للمؤمنين : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟ إنها عبارة من أروع وأجل الصور البلاغية فى النظم القرآنى المعجز ، نعم إن الجهاد هو أعظم حياة للأمة وذلك أن المجاهد فى سبيل الله لا يلقى فى الميدان إلا إحدى اثنتين كلتاهما حسنى ، فإما أن ينتصر فيحيا وأمته حياة عزيزة

تسر الصديق وتغيظ العدو ، وإما أن يقتل فى سبيل الله فيكون فى مواكب الشهداء الذين هم أحياء فى الجنة عند ربهم يرزقون ، وإذن فالجهاد وإن كان فى ظاهره قتلاً وقتالاً وموتاً ، فهو فى حقيقته حياة للأمة التى تقدم مواكب الشهداء وحياة للشهداء ، وما أجمل ما قال شوقى رحمه الله :

وما يبنى الممالك كا لضحايا ... ولا يدنى الحقوق ولا يحق

ففى القتلى لأجيال حياة ... وفى الأسرى فدى لهمو وعتق

وما أحلي وأجل وأسمى تلك العبارة القرآنية التى تأخذ بمجامع القلوب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، أى حياة أعلى وأسنى وأشرف من حياة أمة يعلو فيها علم الجهاد البطولى الشريف ؟!

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عبارة تحمل معنى التهديد لكل إنسان لا يستجيب لداعى الشرف فى ساح الفداء ، وقد جاء هذا التهديد على هيئة تذكير للمؤمنين بأن الله مقلب القلوب ، وأنه قادر أن يفقد المرء سيطرته على عقله وقلبه ، وفى هذا إشارة لطيفة بأن من يترك الجهاد ، ولا يستجيب لداعيه فهو عرضة أن يزيغ قلبه بعد الهدى، ويفقد بذلك أثمن ما يدخره، وهو الإيمان الذى يعمر القلوب ، وعندئذ يحشر المتخلف عن الجهاد إلى ربه ، وقد فقد أثمن كنز يلقى به المؤمن ربه ألا وهو كنز الإيمان ، إذن فعلى تاركى الجهاد المتخلفين عن ندائه أن يعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه يحشرون ، وأن ترك الجهاد قد يتبعه زوال الإيمان من القلب ، وبهذا يلقى الجبان ربه وقد سلب من قلبه الإيمان .

ثالثاً : فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ كناية عن

تصرف الله فى القلوب كيف يشاء ، فمن آمن بالله هدى له قلبه ، ومن زاغ إلى الشيطان ودروبه أزاغ الله قلبه ، يقول الله جل جلاله : ﴿ **وَمَن يؤمن بالله يَهد قَلبَه** ﴾ [التغابن : ١١] ، ويقول تبارك وتعالى : ﴿ **والّذين اهتَدُوا زَادَهُم هُدى وآتاهُم تقواهم**﴾ [محمد : ١٧] بينما يقول فى أهل الزيغ والضلال: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أزَاغَ الله قُلُوبَهُم وَالله لاَ يهدِى القَومَ الفَاسقِين** ﴾ [الصف : ٥].

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَاتّقُوا فتنَةً لاَ تُصيبَنَّ الّذينَ ظَلَمُوا منكُم خَاصّةً وَاعلَمُوا أنَّ الله شَديدُ العقَاب** ﴾ هذه الآية جديرة أن تقف عندها الأمة الإسلامية فى هذه الأيام وقفة اعتبار ، فمن الثابت فى الأحاديث الصحيحة أن الله جل جلاله إذا صدرت إرادته الحكيمة بإهلاك أمة ، شمل الهلاك عصاتها وطائعيها ثم يبعث يوم القيامة كلاً على نواياهم وأعمالهم . روى مسلم رحمه الله أن أم المؤمنين زينب رضى الله عنها سألت رسول الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم إذا كثر الخبث» ، والأمة التى تترك الجهاد وتترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مهددة أن تعمها فتنة أى عذاب لا يقتصر على العصاة فقط بل يشمل العاصى والطائع ، ولا غرو ؛ فالله جل جلاله أليم البأس شديد العقاب حين تحق كلمة العذاب منه على الكافرين . يقول الله تعالى فى سورة هود : ﴿**وَكَذَلكَ أخذُ رَبّكَ إذَا أخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إنَّ أخذَهُ أليمٌ شَدِيد** ﴾ [هود : ١٠٢].

**خامساً** : إن العقلاء أو أهل الرأى فى الأمة لا يكتفى منهم أن يلزموا أنفسهم ويتعهدوا أعمالهم ثم يتركوا أهل المعاصى والمنكر يعيشون فى المجتمع كيف يشاؤون ؛ لأن الفتنة ، أى العذاب إذا حلت بأمة لم تصب أهل

الفساد فقط، وأنما تعم الصالح والطالح ، وقديماً ضرب النبى ﷺ لتضامن المجتمع الإسلامى مثلاً فشبه المجتمع المسلم بسفينة مكونة من دورين ، وقد اقتسم ركابها الدورين فأقام ناس فى أعلاها ، وآخرون فى أسفلها ، وكان الذين فى الأسفل إذا أرادوا أن يستقوا صعدوا إلى أعلى ، ومعهم حبل ودلوا فيدلون الدلو فى ماء النهر ، ويستقون ويعودن إلى دورهم الأسفل ، وهنا صور لهم ترفهم وقصر نظرهم أنهم لو خرقوا فى نصيبهم خرقاً ينفذ إلى ماء النهر ، فإن ذلك يريحهم من الصعود والنزول. ترى لو أن أهل الأعلى قالوا : مالنا ولهم فليفعلوا به ما يشاؤون أيكون هذا منطقاً ؟ من البديهى أن فى هذا الرأى دماراً لا يقتصر على الذين فى أسفل السفينة بل يعم جميع من فيها ؛ ولهذا فإن القرآن الكريم يحذر أمة محمد ﷺ من أن يربع كل إنسان على نفسه وينسى مسؤوليته تجاه أمته فيترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

**سادساً** : استعمل القرآن الكريم ثلاثة أساليب فى تحذير المسلمين من القعود عن الجهاد ، ولكل واحد من هذه الأساليب وقع هائل من التأثير :

**الأسلوب الأول** : تهديدهم بأن يطمس قلوبهم ويحجب عنها أنوار الهدى والإيمان إذا هم أصموا آذانهم عن داعى الجهاد .

**الأسلوب الثانى** : أن يعمهم بفتنة لا تبقى صالحاً ولا طالحاً .

**الأسلوب الثالث** : هو قوله تعالى : ﴿ **وَاعلَمُوا أنَّ الله شَدِيدُ العِقَاب** ﴾ إذا حاق عقابه بالظالمين فليس إلا الخسف والحاصب والصيحة والصواعق والريح الصرصر والغرق .

نسأل الله بكرمه ألا يحرم مجتمعنا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله والجهاد لإعلاء كلمته .

# بين نهى وأمر ووعد من الله

هذه ثلاث آيات من سورة الأنفال ، تتحدث عما يكرم الله به الأمناء من فضل ورحمة ونصر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُم وَأَنتُم تَعلَمُونَ * وَاعلَمُوا أَنَّمَا أَموَالكُم وَأَولاَدكُم فتنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عندَهُ أَجرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجعَل لَّكُم فُرقَانًا وَيُكَفِّر عَنكُم سَيِّئَاتِكُم وَيَغفِر لَكُم وَاللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ** ﴾ [الأنفال : ٢٧ ـ ٢٩] .

أقول وأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى لى ولإخوانى المسلمين أن يكتبنا فى أهل الأمانة والتقوى :

**أولاً** : جاء فى كتب السيرة أن أحد الصحابة واسمه : أبو لبابة بن عبد المنذر ـ رضى الله عنه ـ كانت له مصالح مع اليهود وله أولاد يشاركونهم ، فلما انتهت غزوة الخندق وهزم الله الأحزاب بريح وجنود من عنده ؛ أراد النبى ﷺ أن يحاسب يهود بنى قريظة على خيانتهم وانضمامهم إلى صفوف الغزاة المشركين فذهب إليهم ، ومعه عدد كبير من الصحابة فناداهم : « يا إخوة القردة والخنازير » ـ فقالوا له من حصنهم : ما عهدناك يا أبا القاسم فحاشاً ، فذكر لهم خيانتهم وقت الشدة وطلب منهم أن يقبلوا حكمه فيهم فقالوا : بل نقبل حكم سعد بن معاذ ، وكانت لهم معه محالفة ومصلحة ، فظنوا أنه سيصدر عليهم حكماً مخففاً ، وهنا كان أبو لبابة واقفاً خلف رسول الله ﷺ ، فأشار إلى اليهود إشارة الذبح كأنه يقول لهم : إذا رضيتم بحكم سعد بن معاذ فهو

الذبح، ولم يكد يكمل الإشارة حتى ركبه خوف شديد ، حتى لقد قال هو عن نفسه : والله ما زالت قدماى حتى علمت أننى خنت الله ورسوله، وبالفعل لما عاد أبو لبابة إلى المدينة ربط نفسه فى عمود من أعمدة المسجد ، وقال : والله لا أفك نفسى حتى يقبل رسول الله ﷺ توبتى ، واستمر على ذلك حتى أخبره رسول الله بقبول توبته ـ رضى الله عنه ـ هذا وما تزال السارية التى ربط أبو لبابة نفسه فيها معروفة ماثلة إلى الآن فى نفس موضعها من الجزء القديم من المسجد الشريف .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ عبارة مخيفة يجب أن يعيها كل فرد من أمة محمد ﷺ ، وهى أن كل من يقيم صلة متعاطفاً مع العدو الغادر وبخاصة اليهود فقد خان الله ورسوله وخان الأمانة ، مهما انتحل من أعذار ومهما كان له معهم من مصالح الدنيا ؛ لأن مصلحة الإسلام فوق كل اعتبار وما قرر الإسلام هذه الحقيقة قسوة منه على اليهود ، وإغلاقاً لباب الدبلوماسية معهم ، ولكن الحكمة هى علم الله الأزلى أن حقد اليهود على الإسلام لا تعالجه الملاينة ، وأنه لا يعيد إليهم عقولهم إلا تأديبهم بالعقوبة التى يستحقونها ، وإذا كان الله قد تاب على أبى لبابة بن عبد المنذر ، فذلك لأن توبته حصلت فى الحال ، وأثبتها رضى الله عنه بربط نفسه فى السارية ، ولم يصر على فعله لحظة واحدة كما يبدو من قولته : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله . ومعناه: ما خطوت بعد فعلتى أول خطوه حتى شعرت بالخيانة ، ثم إنه رضى الله عنه ذو سابقة فى الجهاد هو وأخوه ، حتى روى أن أحدهما كان أحد النقباء فى بيعة العقبة الثانية . ولقد جرب بعض السياسيين سياسة الملاينة

مع اليهود، ورجوا من اليهود أن يعيدوا الحق بمناشدة الضمير ، فما كان من اليهود إلا أن تمردوا ، وعتوا عتواً كبيراً، ونهبوا وسلبوا الحقوق فى رابعة النهار ، وإذن فالحكم الإلهى الذى أصدره الله جل جلاله على كل من يتصل باليهود المعتدين ، هو حكم نابع من حكمة بالغة منطلقة من علمه جل وعلا بالنفسية اليهودية اللئيمة الحاقدة على الدين والقرآن والرسول ﷺ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُم تَعلَمُون ﴾ إطناب بليغ يدل على أن المسلمين جميعاً كانوا يعلمون بالتجربة والمشاهدة حقد اليهود ولؤم نفسياتهم ، ومن ثم فإن من يتعامل معهم على عدوانهم فقد خان الله ورسوله والأمانة على بصيرة وعلم . وقد روى أن علياً رضى الله عنه ذهب إليهم ومعه نفر قليل قبل أن يغزوهم الرسول ﷺ رجاء أن يسمع منهم اعتذارا أو تبريراً أو عذراً لا يعلمه ، فما كان منهم لما رأوا النفر القلائل إلا أن ردوا أبشع رد وسبوا رسول الله ﷺ وعلياً ومن معه - رضى الله عنهم - عندئذ لم يبق إلا تأديبهم ، ونزلت هذه الآيات .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَاعلَمُوا أَنَّمَا أَموَالُكُم وَأَولَادُكُم فِتنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظِيم ﴾ دراسة نفسية عميقة للقلوب الإنسانية ، فإن أكثر ما يميل بالقلوب عن الجادة طمع الدنيا والتعلق بالأموال والأولاد . والحق أن أعظم سلاح يستعمله اليهود فى هذه الأيام هو المال ، يشترون به الذمم ويبيعون به حرماتهم، وهنا فى هذه الآية يربى الله ضمائر أمة محمد على أعظم خصال الرجولة والإيمان ، وهى جعل مصلحة الأمة الإسلامية فوق كل المصالح الدنيوية من مال وولد ، وتفضيل أجر الله وثوابه على كل عاجل من العرض الأدنى بالغاً ما بلغ . إن المال والأولاد كثيراً ما تكون امتحاناً صعباً يورد الإنسان مهاوى السقوط ، أما الذخر الذى لا ينفد فى

الدنيا ، ويتبع الإنسان إلى الآخرة ، فهو أجر الله الذى يجزله لأهل العمل الصالح . وقد قدم الأموال على الأولاد فى معرض الفتنة ؛ لأن المال أقدر على فتنة العبد إذ به تتهيأ المعاصى ويتبرج الغرور، وحسبك أن تلاحظ سلوك رجل ذى أولاد ولكنه فقير، وسلوك رجل آخر ذى مال كثير ولو كان قليل الولد لترى مدى فعل المال فى فتنة النفوس .

**خامساً** : وفى الآية الأخيرة يرسم الحق جل جلاله طريق النصر والكرامة ، والمغفرة وسعادة الدارين ، فيعلن أن الطريق الوحيد لهذا كله هو تقوى الله جل جلاله ، ومخافته على كافة الأحوال ومراقبته بالطاعة والامتثال ، فإذا حصل ذلك على مستوى الفرد والجيش ؛ جعل الله لأمة محمد فرقاناً ، أى نصراً مؤزراً يفرق بين الحق والباطل ، ويعز الله به الإسلام والمسلمين ، ثم يتبع ذلك بنعمة أخرى وهى تكفير السيئات وغفران الذنوب ، وشمول الأمة بفضله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾. ويلاحظ أن الله جلَ جلاله ذكر تكفير السيئات وأتبعه بالمغفرة جزاء لأهل التقوى ، والتقوى كلمة موجزة تنطوى على كل فضائل الإيمان ، وتكفير السيئات سترها ومحوها ، والمغفرة أعم وأشمل ، وكل هذا تأكيد من الحق جل وعلا لحقيقة الكرم الإلهى الذى ينتظر كل من خاف مقام ربه .

اللهم اجعلنا والإخوة المسلمين ممن يخاف الله ويتقيه ويتبع رضاه .

# للنصر شروط وأسباب

هذه ثلاث آيات من سورة الأنفال ، ذكر الله جل جلاله فيها شروط النصر وأسبابه ، فمن طلب نصر الله وتمكينه وتأييده ، فلينظر مقدار ما توفر له من هذه الشروط والأسباب .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال : ٤٥ ـ ٤٧].

أقول وأسأل الله لأمة محمد أن يرزقهم أسباب النصر ، ويبعد عن صفوفهم عناصر الهزيمة :

**أولاً** : ذكر الله جل وعلا عناصر النصر فى هذه الآيات الثلاث وهى ستة عناصر، وعلى أمة الإسلام أن تتدبر كل عنصر منها لترى هل توفر لنا أثناء القتال أم كان غائباً عن الساحة ؟ فإن كانت الأولى حمدنا الله واستزدنا ، وإن كانت الثانية فلنعلم أن الله جل جلاله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأنه جل جلاله ينصر من ينصره .

**ثانياً** : فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . ذُكر اثنان من عناصر النصر وأسبابه وهما الثبات فى وجه العدو ، وذكر الله كثيراً فى جبهة القتال ، وقد أكد الله الثبات فى سورة الأنفال بأسلوب الأمر وأسلوب النهى ، فقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ وهنا

يقول تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ وتكرار الحث على الثبات بصيغ مختلفة ما هو إلا لتأكيد الثبات وإظهار أهميته.

والحق أن الجيش الإسلامى إذا لقى الأعداء لا يمكن أن يتصور الانسحاب؛ لأنه موعود بإحدى الحسنيين ، إما نصر مؤزر ، أو استشهاد ماجد شريف .

وقد كان من العجيب حقاً فى تاريخ الإسلام ما رأيناه فى الحروب الأخيرة من انسحاب الجيوش المسلمة من وجه زحف اليهود ، مع أن اليهودى موصوف فى كتاب الله تعالى بشدة خوفه من المسلمين وبذله وصغاره ومسكنته وجبنه ، ولكن عجبنا يزول إذا تذكرنا أن الحرب من أساسها لم تعلن إسلامية ، وإنما داخلتها نعرات القومية والعلمانية .

أما العنصر الثانى من العناصر المذكورة : وهو ذكر الله كثيراً فى الجبهة فهو عنصر فعال حقاً يفعل بالقلوب فعل السحر ، فمن ذكر الله وعظمته هان فى عينه كل من عداه ، ثم إن ذكر الله به تطمئن القلوب وبه تسكن من اضطرابها وقلقها . هذا إلى جانب أن ذكر الله جل جلاله فى الجبهة يشيع فى الجيش الاستقامة والأخلاق والمحبة فى الله ، وتلك أمور تجعل الجيش ربانياً ينتمى إلى حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون .

وبمناسبة ذكر الله تبارك وتعالى فى جبهات القتال نذكر أن صلاح الدين الأيوبى ـ رحمة الله ـ كان فقيهاً شافعياً كثير التهجد والقيام سريع البكاء من خشية الله محباً لأهل الدين ، وكان يتحرى أن يخوض المعركة فى موعد صلاة الجمعة ليوافق القتال دعوات المسلمين ، وكان كثيراً ما يمرغ وجهه تواضعاً لله جل جلاله ، فكان أن نظر الله إليه بالنصر ، وليس من قبيل التجنى إذا قلت : إن جبهات القتال لم تكن على شىء من هذا المستوى فى حروبنا الأخيرة ، حتى لقد سمعت بعض وسائل الإعلام وهى تهتف أثناء القتال : إن فلاناً

وفلانة من الفنانين معكم فى الميدان ، واستمعنا قبل المعركة ضابطاً مسؤولا فى أحد الجيوش الإسلامية ، وهو يقسم باسم الشعب أن يشرب الخمر فى عاصمة الأعداء ، نقول هذا ونحن نذكر العنصر الثانى من عناصر النصر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ ﴾ .

**ثالثاً** : الآية الثانية من الآيات الثلاث تشتمل على ثلاثة عناصر ، أو أسباب من عناصر النصر وأسبابه ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ العناصر الثلاثة المذكورة فى الآية : أوله: طاعة الله ورسوله وينطوى تحتها طاعة أوامر القيادة المسلمة الرشيدة ، والثانى : وحدة الكلمة واجتناب النزاع والتفرق والانقسام الذى به تشتت الجهود ، وتهذب الريح . والريح كناية عن القوة ، تقول : ذهبت ريح القوم : ضعفوا وتفرقوا وهزموا.

أما العنصر الثالث ، فهو الصبر ؛ لأن النصر لا يأتى إلا مع الصبر ، ومن سنن الله تعالى ألا يحقق النصر لرسله وأنصار دينه إلا بعد أن تبلغ الشدة غايتها: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ولا نظلم الحقيقة . إن طاعة الله ورسوله فى جبهات القتال فى حروبنا الأخيرة لم تكن على المستوى المطلوب ، بل إن قائداً كان ذا شأن خطير اعترف أنه فى ليلة المعركة الحاسمة ، كان الكثيرون من رؤوس الجيش المسلم يحيون ليلة ساهرة فيها لهو وشراب وحفل فنى !

أما عنصر الاتحاد وترك التنازع بين الجبهات العربية المختلفة فقد كان مفقوداً ، وقد مكن هذا للعدو أن يلقى كل قطعة من الجيوش العربية على انفراد ، فيهاجمها بكل جيشه والجبهات الأخرى ساكتة متفرجة .

هذا إلى أن كل جيش من الجيوش العربية قد دخل بنية تختلف عن

تخطيط الجيش الآخر ، وكان ما كان بين العرب من تنازع وانقسام ذهبت معه الريح .

وأما العنصر الخامس فهو الصبر ، فقد كان من العجيب أن يسأم العرب من القتال والمقاومة ، فى حين يصبر اليهود ستة وثلاثين عاماً ، وهم يعيشون فى دوامة من الرعب والخوف والخراب الاقتصادى والاجتماعى .

إن الصبر من أهم عناصر النصر ؛ لأن الحرب كما هو معروف ضحايا ودمار ودماء وقد تطول ، ومن العجيب أن حرباً تقوم الآن بين فئتين مسلمتين صبر فيها الطرفان صبراً عجيباً ، فى حين أن الحروب التى دارت بيننا وبين أعداء الله من اليهود، كان ينفد فيها صبرنا فى أيام قلائل حتى إن إحداها أفقدت العرب مقاومتهم وأراضيهم ومقدساتهم فى ستة أيام ، ولو صبر العرب وجالدوا وصابروا ورابطوا لوجدوا أن الله مع الصابرين .

**رابعاً** : أما العنصر السادس والأخير من عناصر النصر ، فهو الذى اشتملت عليه الآية الثالثة وهو أيضاً من أهم أسباب النصر وأعظمها ألا وهو أن يخلص الجند المسلمون نواياهم لله ، ويجعلوا هدف جهادهم أن تكون كلمة الله هى العليا تاركين وراء ظهورهم كل بهرج الدنيا ، ومظاهر الرياء والسمعة ؛ لأن الله جل جلاله مطلع على القلوب عالم بما تضمره الضمائر ﴿ **وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ يحذر الله الجيش الإسلامى أن يتخلى عن نية الإخلاص أو أن ينفذ إلى قلبه البطر والرياء ، بل يجب أن يكون الجهاد على نية واحدة ، وهى أن تكون كلمة الله هى العليا .

ذكر أهل السير أن جيش قريش الذى سار لإنقاذ القافلة كانت نيته أول الأمر إنقاذ القافلة ، ولكن حين بلغه أن القافلة نجت ، قال العقلاء : إذن نعود

إلى مكة مادامت قافلتنا قد سلمت ، لكن أبا جهل وبعض أهل السفه والنزق قالوا: لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، فنشرب الخمر ، وننحر الجزور ، ونقيم ثلاثة أيام ليتسامع العرب بتحدينا ، ونغرس فى قلوب العرب مهابتنا ، وهنا أصبحت نيتهم فى الخروج هى البطر ورئاء الناس ، والبطر هو استعمال النعمة فى المعاصى والظلم ، فكان أن أركسهم الله فى بدر ، ولم يغن عنهم البطر والرياء شيئاً ، وهنا يحذر الله المسلمين أن يفعلوا كما فعل المشركون فيجعلوا خروجهم بطراً ورئاءً، ونعود إلى حربنا الحديثة مع العدو ليعلن أن النوايا التى كانت تغمر قلوب جيوشنا كانت شتى ومتنوعة ، ولم تكن تخلو من المظاهر ، وقليلون جداً أولئك الذين جعلوا هدف جهادهم الأسمى هو أن تكون كلمة الله هى العليا .

نسأل الله أن يهدى أمتنا لأسباب النصر ، ويجنبها مزالق الهزيمة ، ويخلص نوايانا وأعمالنا لوجهه الكريم .

## من أسباب النصر : إعداد القوة

هاتان آيتان من سورة الأنفال ، وددت لو أن أمة محمد اتخذتهما شعاراً وكتبتهما فى كل محفل وبخاصة الكلمات الست الأولى من الآية الأولى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ، إنهما آيتان تعالجان أزمات الأمة الإسلامية مهما استعصت ، والحق أنه ما ذهبت ريح أمتنا إلا بعد أن غفلت عن الحقائق الكبرى فيهما .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال ٦٠ ـ ٦١].

هاتان هما الآيتان وهذه بعض الأحكام والحكم العظيمة فيهما :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ أمر عظيم للأمة الإسلامية أن تعد كل ما فى استطاعتها من الأسلحة والتدريب ووسائل القوة بأنواعها ؛ لتظل دائماً أمة مرهوبة الجانب ، جديرة بحمل رسالة الإسلام وحمايتها ونشرها ، وتذليل كل عقبة تقف فى طريق امتدادها وانتشارها . ويلاحظ فى هذا المقطع من الآية أن كلمة ﴿ قُوَّةٍ ﴾ جاءت نكرة ؛ لتفيد الشمول والعموم ، ولتعني كل أنواع القوة فى كل زمان ومكان . وفى قوله تعالى : ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ يفيد كل ما تطيقون ، ولكثرة الأموال الإسلامية فى هذه الأيام ، فإن الاستطاعة بفضل الله أصبحت لا حدود لها إذ تستطيع الأمة الإسلامية فى هذه

الأيام لو صدقت النوايا ، أن تجهز جيشاً مكوناً من عشرين مليونا من الرجال ، وتوفر له كل أنواع الأسلحة فى البر والبحر والجو ، وتخزن له احتياطياً لا ينضب من المؤن والذخائر ، وكل هذه داخلة فى قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ لأن هذا بفضل الله مستطاع ، وداخل فى استطاعة الأمة الإسلامية ، وعندئذ أين تذهب شراذم اليهود ، والأعداء من هذا الزحف المبارك المؤمن ؟!

وأخيراً يلاحظ فى هذا المقطع من الآية ذكر نوعين من القوة ، وهما الرمى ورباط الخيل ، فقد قال رسول ﷺ فيما رواه مسلم وهو يتلو هذا المقطع : « ألا إن القوة الرمى » يكررها ثلاث مرات . وعنه ﷺ أنه قال يحث على رياضة الرماية: « ستفتح عليكم أرضون ويكفيكهم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» ، وفى تحبيب رياضة الرماية والفروسية يقول النبى ﷺ : « كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله » . وقال رسول الله ﷺ : « يا بنى إسماعيل ارموا فإن أباكم كان رامياً » واهتمام النبى ﷺ برياضة الرماية نبوءة منه ﷺ ، بأن كل الحرب سوف تتحول إلى رماية كما هى الحال فى هذه الأيام ، إذ الرماية هى أساس الحروب سواء أكانت رماية من البر أو البحر أو الجو.

أما عن رباط الخيل ، فالحق أن الفروسية من أعظم الرياضة ؛ لأن ممارستها تقوى الجسد كله ، ثم إن الخيل لاتزال من عدد الحرب العظيمة وبخاصة فى مناطق الجبال ، حيث لا تغنى السيارات شيئاً ، وعندى أن أعظم ثلاث رياضيات تخدم الإنسان فى حربه وسلمه هى تلك الرياضات التى ذكرها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وهى السباحة ، والرماية ، وركوب الخيل ، أما كرة القدم التى شغل بها الناس فى هذه الأيام فهى غير لا تغنى فى الحرب شيئاً .

**ثانياً** : تمام الآية الأولى وهو قوله جل جلاله : ﴿ **تُرهِبُونَ به عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُم وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لاَ تَعلَمُونَهُم الله يَعلَمُهُم وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيكُم وَأَنتُم لاَ تُظلَمُون** ﴾ معناه : أن الإعداد العسكرى والاستعداد الحربى ، وحشد القوة لمواجهة الأعداء ، كل هذه تغرس فى قلوب الأعداء مهابة أمة المسلمين ، سواء أكان هؤلاء من الكفار والمشركين ، أو كانوا من المنافقين الذين يختفون بين صفوف الأمة فلا يعلم المسلمون كيدهم ولا يكشفون صفحتهم إلا حين ينتصر الأعداء ، وتختم الآية الشريفة مفيدة أن المال من أعظم وسائل القوة ؛ لأن به يشترى السلاح والركائب والذخيرة ، ومن ثم فختام الآية حث على الإنفاق فى سبيل الله ؛ لأن الله جل وعلا يوفى المتصدقين والمنفقين أجرهم ويجزيهم عنه أكرم الجزاء .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلمِ فَاجنَح لَهَا وَتَوَكَّل عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيم** ﴾ يدل دلالات عظيمة منها أن الإسلام يؤيد السلام الذى لا تغمط به حقوق ، ولا تسلب به حريات ، ولا تعرقل به دعوات الحق والخير ، ومن ثم فالإسلام دين حضارى يتطلع إلى سلام يغمر الإنسانية، ويرفرف عليها بالأمن والسعادة ، وقد استغل البعض هذه الآية حين برروا بها محاولة البعض أن يسالموا اليهود ، والحق أن الآية لا تنطبق على ما حصل فى معاهدة السلام المزعومة المخجلة التى فرضها اليهود على بعض العرب ، من منطلق الأمر الواقع والقوة الغشوم ، فاليهود لم يجنحوا للسلم، ولا أظهروا لحظة واحدة أنهم يريدون السلام بل على العكس من ذلك ملؤوا الدنيا تبجحاً وتحدياً ، وإهانة للمسلمين وأمعنوا فى الذرارى ذبحاً وتنكيلاً ، وحرقوا المقدسات ، واغتصبوا الأرض، وحولوا معالمها

الإسلامية إلى معالم كفر ، ومازالوا يسمعون من العرب هديل الحمائم تحمل فى مناقيرها أغصان الزيتون ، ويسمعون العرب عواء الذئاب المتعطشة للدماء تخضب مخالبها بالدماء .

الله تعالى يقول : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجنَح لَهَا ﴾ ولم يقل جل وعلا : قابلوا عدوان اليهود وإجرامهم بالبحث عن سلام معهم ؛ ولهذا كانت الفتيا التى أصدرها بعض علماء الأزهر حول المعاهدة المخزية فتيا باطلة ؛ لأنهم استندوا فيها إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجنَح لَهَا وَتَوَكَّل عَلَى الله ﴾ وغفلوا عن قوله تعالى فى سورة محمد : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ [محمد : ٣٥] ومن ثم فذلك الاجتهاد كان ؛ لأن العدو لم يجنح إلى السلم ، وإنما استغل تفرق الأمة، فبنى للمجرمين مستوطنات ، وسلحهم فيها بأقوى الأسلحة ، وأمرهم أن يقتلوا المسلمين ، ويذلوهم ويكسروا عليهم نفوسهم ، ومن ثم فإن الذى ينبطق على موقف اليهود ليس هذه الآية ، وإنما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُم غِلظَةً وَاعلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣]. نسأل الله أن يكرم أمة محمد بنصر مؤزر يعز به المؤمنين ويذل به اليهود والصليبيين والكافرين .

# بعض أحكام الأسرى فى الإسلام

هاتان آيتان من سورة الأنفال تتعلقان ببعض أحكام الأسرى فى الإسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَا كَانَ لنبيٍّ أن يكُونَ لَهُ أسرَى حتَّى يُثْخِنَ فِي الأرضِ تُريدُونَ عَرَضَ الدُّنيَا وَالله يُرِيدُ الآخرَةَ وَالله عَزِيزٌ حكيم * لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُم فِيمَا أخَذْتُم عذَابٌ عظِيم ﴾ [الأنفال : ٦٧ ـ ٦٨] .

أقول وأسأل الله لى ولسائر المسلمين استسلاماً لله بالتوحيد الخالص وانقياداً لله بالطاعة المخلصة وخلوصاً من كل أنواع الشرك :

أولاً : هاتان الآيتان الكريمتان كان لنزولهما قصة طريفة تستحق أن نسردها فى إيجاز ووضوح . روى مسلم ـ رحمه الله ـ فى صحيحه ما معناه وما خلاصته : أن رسول الله ﷺ حين عرض عليه الأسارى يوم بدر وكان عددهم سبعين من أشداء قريش وصناديدهم ، قال لأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ « ما ترون فى هؤلاء الأسارى » ؟! فقال أبو بكر : يارسول هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » فقال عمر : لا والله يارسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من أخيه عقيل فيضرب عنقه ، وتمكننى أنا من صهرى هذا فأضرب عنقه ؟ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده ، فمال رسول الله ﷺ إلى رأى أبى بكر، ولم يهو ما ارتآه عمر .

قال عمر : وفى اليوم التالى جئت وإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان قلت : من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟ فقال رسول الله ﷺ ما معناه : لقد عرض علىَّ أصحابك أن أقبل الفداء فملت إلى رأيهم وقد نزل قول الله تعالى بغير ما رأوا : ﴿ ما كَانَ لنبيٍّ أن يكُونَ لَهُ أسرَى حتَّى يُثخنَ فِي الأرضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حكِيم ﴾ ولقد عرض علىَّ عذاب هؤلاء أدنى من هذه الشجرة لكن الله سلم ونزل بعدها قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ كتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُم فِيمَا أخَذتُم عَذَابٌ عَظِيم ﴾ . والحق أن رسول الله ﷺ لم يكن من رأيه أن يستبقى صناديد الكفر ، ولكن مفاجأة النصر باغتت المسلمين فاستاق كل صحابى أسيره ، وهو يطمع أن يقبض فديته ، ولما رأى رسول الله ﷺ رغبة الصحابة فى أخذ الفدية ، كان ما ذكرناه من استشارته لوزيريه رضى الله عنهما ، لكن القرآن الكريم نزل مؤيداً لرأى عمر ؛ لائماً المسلمين الذين كان اتجاههم عموماً هو أخذ الفدية ، لقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ شبه واثقين أن رسول الله ﷺ سيسمح لهم أن يأخذ كل منهم فدية من أسيره .

ومن طريف ما يثبت ذلك : أن رجلاً من الأنصار اسمه : أبو اليسر مر على مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ وهو يسوق أسيره وكان أسيره أخاً لمصعب بن عمير يقال له : أبو عزيز ، فلما رأى الأسير أخاه مصعباً قال له : أنا أخوك فلم يرد عليه ، وإنما وجه الكلام إلى أبى اليسر وقال له : اشدد وثاقه يا أبا اليسر فإن أمه غنية ، وأبشر بفدية عظيمة ، فقال أبو عزيز لأخيه : تقول هذا وأنا أخوك، فقال مصعب رضى الله عنه : أنت لست أخى وإنما هذا هو أخى دونك.

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لنبىٍّ أن يكُونَ لَهُ أسرَى حتّى يُثخنَ فِي الأرض﴾ معناه : ما كان ينبغى لمحمد ولا لأى نبى من قبله أن يبقى على الأسرى أو يأخذ منهم فدية ، وإنما عليه أن يضرب أعناقهم ليرهب بهم الكفار ، وليثبت دعائم الدين حتى إذا تكرر الانتصار وأثخن النبى فى الأعداء ، أى أمعن فيهم تقتيلا وأعمل فيهم السيف فأدال منهم وأذلهم ، فهناك يمكن أن يتخذ أسرى يفاديهم أو يمن عليهم .

وهذا هو ما نزل في سورة محمد ﷺ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ ﴾ ( أى بالغتم فى قتلهم ) ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ * فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : ٤] هذه الآية فيها ما يفيد أنه يمكن إطلاق سراح الأسير ، أو أخذ فدية منه ، ولكن بعد أن يكون السيف قد أخذ مأخذه فى المشركين ، وأدبهم وأوقع فى قلوبهم مهابة المؤمنين ، والأسرى جمع أسير وقد يجمع على أَسارى وأُسارى بفتح الهمزة وضمها ، والضم أفصح .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حكِيمٌ﴾ فيه لوم للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومعناه : أنكم بقبولكم الفدية تطلبون متاع الدنيا وحطامها ، والله جل جلاله حين يأمركم بضرب أعناق الكافرين يريد لكم الآخرة ، وأوامر الله جل جلاله تصدر من منطلق عزته القادرة القاهرة ، وحكمته البالغة الباهرة .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُم فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ معناه : لولا أن الله جل جلاله له سنن معلومة مكتوبة فى إنزال العقوبة، وتوقيتها ، وظروف إرسالها ؛ لحاق بكم العذاب العظيم الذى أخذ من قبلكم من القرون ، كالغرق الذى أخذ قوم نوح ، والريح

الصرصر التى هلكت بها عاد ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والحاصب الذى اجتاح قوم لوط ، والعقوبات المختلفة التى سيقت لقوم فرعون التى كان آخرها غرقه وجنوده فى اليم وهو مليم أى وهو مخطئ ظالم تقع عليه الملامة .

نسأل الله جل جلاله أن يزيدنا والإخوة المسلمين بصيرة بالقرآن وتمسكاً بالإيمان وعلواً فى مراتب الإحسان .

# آيات تنظم قتال المشركين

هذه ست آيات من مطلع سورة التوبة ، يتفجر أسلوبها كالبركان ؛ لأنها تنطلق من منطلق القوة ، فقد نزلت سورة التوبة بعد أن جاء نصر الله والفتح ، وبعد أن رجع البيت الحرام والبلد الحرام إلى حوزة الإسلام ، وبعد أن حطم رسول الله ﷺ خرافة الأصنام .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : ﴿ **بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : ١ ـ ٦] .

أقول وأسأل الله للإخوة المسلمين فقهاً نافعاً يزينه العمل والإخلاص ونور القلب وخشوعه :

**أولاً** : سورة براءة لم تكتب لها بسملة في المصحف ، والسبب ـ والله أعلم ـ أنها سورة السيف المصلت على رقبة الشرك ، وليس فيها أمان أو مهادنة لأهل الشرك ، البسملة رحمة وأمان ؛ ولهذا لم ينزل بها جبريل قبل

سورة براءة . وسميت سورة براءة الفاضحة ؛ لأنها فضحت المنافقين وعرتهم للعيون ، كما تسمى سورة البحوث ؛ لأنها بحثت أسرار المنافقين، كما تسمى المبعثرة ؛ لأنها بعثرت تلك الأسرار للعيان .

**ثانياً** : من المعروف أن النبى ﷺ فتح مكة فى شهر رمضان سنة ثمان للهجرة ، ثم كانت غزوة حنين فى أول شوال وأعقبها حصار الطائف ، وانصرف عليه الصلاة والسلام بالمسلمين إلى المدينة فى ذى القعدة سنة ثمان ، فأقام الحج فى عام ثمان للمسلمين عتاب بن أسيد ـ رضى الله عنه ـ وحج المشركون على طقوسهم فى ذلك العام ، وأقام المسلمون مع النبى ﷺ بالمدينة ثمانية أشهر ، حيث دعاهم عليه الصلاة والسلام فى شهر رجب من العام التاسع للهجرة إلى غزوة تبوك الموجهة إلى الروم والقبائل المشركة الموالية لهم . وكانت آخر غزوة غزاها ﷺ ، ولما عاد رسول الله ﷺ من تبوك ، كان عليه الصلاة والسلام يريد الحج بالمسلمين لكنه قال: «يطوف بالبيت عراة وأنا أكره أن أرى ذلك » فأناب فى حجة السنة التاسعة أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ ليحج بالناس فتوجه ـ رضى الله عنه ـ إلى مكة .

وفى اليوم التالى دعا النبى ﷺ على بن أبى طالب وأمره أن يتلو على الناس فى الموسم سورة براءة ، ثم ينادى فى الناس معلنا أربعة أمور : ألا يطوف بالبيت بعد هذا العام عريان ، وألا يحج بعد هذا العام مشرك ؛ لأن المشركين نجس ، وأن عهود المشركين منبوذة إليهم ، وأن من ليس له عهد يمهل أربعة أشهر ؛ أى إلى العاشر من ربيع الآخر سنة عشر للهجرة ؛ ثم إذا لم يؤمن عباد الأوثان بعد هذا التاريخ فإن دماءهم مستباحة .

وقد لحق على ـ رضى الله عنه ـ أبا بكر وهو بذى الحليفة فلما سمع أبو

بكر رغاء العضباء ناقة رسول الله ﷺ ، وعرف أن عليها عليا ـ رضى الله عنه ـ توجه يستقبله ، وقال له : آمر أم مأمور ؟ قال : بل مأمور ؛ أى أنه سيكون تحت إمرة أبى بكر ، وهذه الواقعة تدحض ما يعتقده الشيعة أن عليا ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ كان عند رسول الله ﷺ أفضل من الصديق .

وقد أخبر على أبا بكر بالمأمورية التى كلفه بها رسول الله ﷺ وهى : أن يعلن باسم رسول الله ﷺ إلغاء العهود والمواثيق التى بين المشركين وبين رسول الله ، وإمهالهم بعدها أربعة أشهر ليفكروا فى هذ الدين العظيم ، ثم لا يكون لدمائهم بعدئذ حرمة أينما وجدو ، وفعلا تلاها على ـ رضى الله عنه ـ يوم التروية ويوم عرفه ويوم النحر .

ولعل النبى ﷺ قد اختار علياً لإبلاغ الكفار إلغاء مواثيقهم ؛ لأن علياً كان أقرب قريب لرسول الله ﷺ ، وكان من عادة العرب ألا يلغى العهد إلا الذى أبرمه أو أقر به قريب من آل بيته .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ معناه : هذه براءة صادرة عن الله جل جلاله وعن رسوله ﷺ موجهة إلى كل من له معاهدة مع المسلمين ، وإلى كل مشرك يرتبط بميثاق بأن هذه المواثيق والمعاهدات ستكون لاغية فى نهاية أربعة أشهر اعتباراً من العاشر من ذى الحجة فليتمتع المشركون بحرية التنقل والأمن فى هذه الأربعة الأشهر ، لكن نحذرهم بأنهم لن يعجزوا الله وأنهم إن أصروا على شركهم فسوف يخزيهم الله ويركسهم ويمكن المسلمين منهم .

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ

**بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُم فَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَإِن تَوَلَّيتُم فَاعلَمُوا أَنَّكُم غَيرُ مُعجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾** معناه : وهذا إعلان يلقى على المشركين يوم الحج الأكبر ليعلم قاصيهم دانيهم ، ويوم الحج الأكبر هو يوم عرفة ، وقيل : يوم النحر ؛ لأن أكثر أعمال الحج تؤدى يوم النحر ، والإعلان يتضمن أن الله جل جلاله برىء من المشركين ومن رجسهم وشركهم ، وكذلك رسوله ﷺ برىء منهم ، لكن باب التوبة مفتوح لهم فى المدة المعطاة ، فإن تابوا ورجعوا إلى الإسلام أحرزوا الخير كل الخير ، ولكن إن أعرضوا وتولوا عن الإسلام وتمسكوا بالكفر وحلف الشيطان ، فليعلموا أن الله قادر عليهم ، وبشرهم عندئذ يا محمد بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة . وفى قوله تعالى: **﴿وبشر الذين كفروا بعَذَابٍ أَليم﴾** أسلوب قرآنى بلاغى يحمل معنى السخرية بالكفار ، كقوله تعالى فى خطاب الكافر وهو تحت العذاب : **﴿ذُق إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الكَرِيمِ ﴾** [ الدخان : ٤٩].

**خامساً** : قوله تعالى : **﴿ إلاَّ الَّذينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشرِكِينَ ثُمَّ لَم يَنقُصُوكُم شَيئًا وَلَم يُظَاهِرُوا عَلَيكُم أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيهِم عَهدَهُم إِلَى مُدَّتِهِم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾** . موقف حضارى رائع من الإسلام يدل على أن المسلمين أولى بالوفاء من غيرهم ، والآية تدل على أن بعضاً من المشركين من أهل المعاهدات قد وفوا بالمعاهدة وتخلوا عن المشركين ، ولم ينقضوا أى بند من الاتفاقية مع المسلمين ، فهؤلاء يؤمر المسلمون أن يقابلوا وفاءهم بأكثر منه ويتموا إليهم العهد إلى انتهاء مدته .

**سادساً** : والآيتان الأخيرتان معناهما : إذا انتهت الأشهر الحرم والمقصود بها : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، فإن كل من ليس له عهد من

المشركين يقتل حيث وجد ويؤسر ويحصر فلا يسمح له بدخول ديار المسلمين ، لكن إذا دخلوا فى الإسلام ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فإذ ذاك تعود إليهم حريتهم ويخلى سبيلهم ، ثم يعلن الحق جل جلاله أن أى مشرك يأتى إلى ديار المسلمين ويعلن أنه يريد أن يسمع القرآن ويعرف شيئاً عن الإسلام ، فإن على المسلمين أن يسمعوه القرآن ويعلموه الإسلام ، ثم يوصلوه إلى حيث قومه ليكون إسلامه عن قناعة لا عن رهبة .

اللهم انفعنا بسيرة نبيك واجعلها منهاج سلوكنا وأخلاقنا .

# أشرف الطرق لتأديب اليهود

تغلى قلوب المؤمنين حقداً على اليهود فى هذه الأيام ، ويلتهب غليلهم كلما رأوا شرذمة الأذلاء يقتلون ويذبحون ويصادرون ، ويهتكون حرمة المقدسات، ومن حولهم ألف مليون من أمة محمد يتألمون فى قلوبهم ، ويودون لو يشفى الله غيظ صدورهم من هؤلاء المجرمين الذين باءوا بغضب الله إلى يوم القيامة ، وهذه الآيات من سورة التوبة ترشد المسلمين إلى أشرف الطرق لتأديب اليهود ، وشفاء غليل المؤمنين منهم .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ ألاَ تُقَاتِلُونَ قَوماً نَكَثُوا أيمَانَهُم وَهَمُّوا بِإخرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُم أوَّلَ مَرَّةٍ أتَخشَونَهُم فَالله أحَقُّ أن تَخشَوهُ إن كُنتُم مُؤمنينَ * قَاتِلُوهُم يُعَذِّبهُمُ الله بِأيديكم وَيُخزِهِم وَيَنصُركُم عَلَيهِم وَيَشفِ صُدُورَ قَومٍ مُؤمِنِينَ * وَيُذهِب غَيظَ قُلُوبِهِم وَيَتُوبُ الله عَلَى مَن يَشَاءُ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أم حَسِبتُم أن تُترَكُوا وَلَمَّا يَعلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُم وَلَم يَتَّخِذُوا مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المُؤمِنِينَ وَلِيجَةً وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ﴾** [التوبة : ١٣ ـ ١٦] .

أقول وأسأل الله جل جلاله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، أن يرينا فى اليهود يوماً تقر به عيون المؤمنين ، وتسخن به عيون المنافقين ، ويعلو فيه لواء الإسلام ظاهراً على الدين كله ولو كره الكافرون :

**أولاً** : القرآن الكريم يعلن فى أكثر من موضع أن الكفار لا يفهمون إلا لغة القوة ، وأنهم لن يرضوا مهما لين لهم إلا بأن يتحول المسلمون عن

دينهم . قال تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم** ﴾ [البقرة : ١٠٩] ويقول جل جلاله : ﴿ **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٠] ويقول جل جلاله: ﴿ **وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة : ٢١٧] ولهذا فقد دعا القرآن الكريم إلى القسوة على أعداء الله ؛ لأنهم بغير هذه السياسة لن يكفوا عن الأذى والكيد للإسلام والمسلمين ، يقول تبارك وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [التحريم : ٩] ويقول جل من قائل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ [التوبة : ١٢٣] ؛ وذلك لأنهم حين يتمكنون لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة ؛ أى لا يقيمون وزنا لأى عهد أو ميثاق أعطوه للمؤمنين ، وهذا هو ما بلوناه من اليهود أثناء أربعين سنة من إجرامهم وغدرهم.

والحق أن سلوك العرب مع اليهود منذ أول قتال كان سلوكاً لا يخلو من ملاينة ، فلم يعنفوا على اليهود كما أمرهم الله ، وظل لكثير من العرب أمل أن ينشأ لدى اليهود ضمير واحترام للحقوق .

**ثانياً** : انظر إلى الأسلوب القرآنى المهول الهادر الذى يحمل معنى اللوم والإنكار والتحضيض ، وكأنه بركان متفجر : ﴿ **أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ . ومعنى الآية : كيف لا تقاتلون المشركين الذين نكثوا عهد الحديبية بمهاجمة أحلافكم من قبيلة خزاعة وكانت لهم سوابق إجرام حين اجتمعوا لإخراج الرسول من وطنه ؟! ويتساءل فى تعجب ولوم وإنكار : ﴿**أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه**﴾ ؛ لأنه

القادر القاهر الذى لا يعجزه إهلاك الكفار، ما يكون لكم أن تخشوا الكفار ؛ لأن المؤمن لا يخشى إلا ربه .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ . فى هذه الآية أعظم وصفة لشفاء صدور المؤمنين من الكفار وفيها شرح لفوائد قتال المعتدين ، هنا أمر يفيد الوجوب فى حالة عدوان الكفار ، على ديار الإسلام ﴿ **قَاتِلُوهُمْ** ﴾ فعل أمر يفيد الوجوب ، ففى قتالهم عدة حكم وفوائد عظمى ، إن قتالهم من قبلكم هو عذاب من الله لهم على كفرهم ، وإجرامهم وسفكهم للدماء وغدرهم ، ثم هو خزى لهم يكسر عليهم نفوسهم ، ويذلهم ويديل من غطرستهم ، ومن فوائد القتال أن الله جل جلاله ينصر المؤمنين وتلك سنته ، وبذلك يشفى صدورهم التى كانت مليئة بالغيظ على الأعداء وإجرامهم . وأخيراً : فإن قتال المشركين سيخوف فريقاً منهم فيدخلون فى الإسلام ، وبذلك يتوب الله على من يشاء منهم ، كما حدث حين أسلم أبو سفيان ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . والله جل جلاله حين يأمركم بقتال الأعداء يصدر فى أوامره عن علم بنفسيات المجرمين ، وعن حكمة بالغة فى فرض القتال .

رابعاً : وأخيراً يشرح الله للمؤمنين سنة له لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً ، وهى أنه لا يترك المؤمنين دون ابتلاء ، وتمحيص وتصفية للعناصر ليتميز الخبيث من الطيب ، ويعرف المجاهد من القاعد ، ويتبين المخلص من المرائى ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ . ومعناها : أتظنون أن تتركوا بدون اختبار، وابتلاء يظهر فيه

الأبطال المؤمنون الذين لا يوالون ولا يحالفون ولا ينصرون إلا الله ورسوله والمؤمنين ، ثم هم لا يعتبرون لهم مولجاً يلجون إليه ، ويسكنون ويطمئنون إليه إلا الله ورسوله والمؤمنين ، والله جل جلاله خبير بكل الناس وبكل أعمالهم وقلوبهم ، لكنه بالبلاء يقيم الحجة ، ويعرى القاعد والمنافق والموالى للأعداء ، والجبان المتقاعس عن التضحية .

**خامساً** : يلاحظ فى الآيات أساليب الاستفهام البليغة التى تحرك القلوب إلى المشاركة الوجدانية والتأمل العميق ، كقوله تعالى : ﴿ **أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوماً نَكَثُوا أيمَانَهُم وَهَمُّوا بِإخرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُم أوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [التوبة: ١٣] ، وكقوله تعالى : ﴿**أَتَخْشَوْنَهُم**﴾ وهو استفهام من كلمة واحدة ، ولكنها تفعل بالقلوب فعل السحر ؛ لما تبعث فيها من الخجل ثم من العزم والإيمان ، ومن الاستفهام البليغ قوله تعالى فى الآيات : ﴿ **أم حَسِبتُم أن تُترَكُوا وَلَمَّا يَعلمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا منكُم وَلَم يَتَّخِذُوا من دُونَ الله وَلاَ رَسُولِه وَلاَ المُؤمِنِينَ وَلِيجَةً** ﴾ وهو وإنَ لم يشتمل على أداة استفهامَ ، إلا أنه يفيد الاستفهام ؛ إذ يجوز أن يستفهم بدون أداة الاستفهام وينادى بغير أداة النداء ، كقولك لصديقك : وصلتك الأنباء؟ وعرفت ما جرى؟

**سادساً** : أن الآيات الكريمة تشرح أوضاع المسلمين فى أيامنا هذه ، وتهون الحياة على المؤمنين وترغبهم فى البذل والتضحية ليغرسوا كرامتهم ، وكرامة الإسلام فى قلوب الكفار ؛ وذلك لأن السب والإنكار والشجب والإدانة والتجريم ، كل هذه أسلحة كليلة لا تعيد للمجرم صوابه ولا تزيل الحقد من قلوب الكفار إلا قطع رقابهم .

وما أجمل ما قال أبو الطيب وكأنه ينظر إلى الآية :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهب للغيظ ... وأشفى لغل قلب الحقود

# الأعمال ليست بمظاهرها .. وإنما بحقائقها

هذه آيات من سورة التوبة توضح أن الأعمال لا تكون بمظهرها ، وإنما تكون بحقائقها والإخلاص المصاحب لها .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧ ـ ٢٢].

أقول فى شرح هذه الآيات وأسأل الله السداد والفتوح والإخلاص :

**أولاً** : هذه الآيات لها على ما يبدو مناسبة لا تخلو من طرافة ، فقد ورد فى سبب نزولها : أن العباس بن عبد المطلب كان له شرف متوارث فى الجاهلية ، وهو سقاية حجاج بيت الله ، وشيبة بن عبد شمس كان له شرف آخر وهو سدانة الكعبة وعمارتها والاحتفاظ بمفاتيحها ، كما يفعل آل الشيبى فى هذه الأيام ، وهم ينتسبون على ما يبدو إلى شيبة .

وقد روى أن العباس وشيبة وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ اجتمعوا فافتخر كل من العباس وشيبة على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأن العباس قال لعلى : أنا سقاية الحاج تشرفنى وقال شيبة يفاخر

علياً : أنا مفاتيح الكعبة تشرفنى . وروى أن عليا ـ رضى الله عنه ـ قال : أنا يشرفنى الجهاد فى سبيل الله . وزاد بعض كتاب السيرة أنه قال لهما : أنا قطعت خرطوم الكفر بسيفى فلما صار الكفر أمثولة ـ أى أعجوبة ـ أسلمتما ، وقيل : إن هذا الكلام جرح مشاعرهما ؛ لأنه يعنى أنهما أسلما رغماً وبحد السيف ، وأن رسول الله ﷺ انتظر فى هذا الأمر وحياً فنزل الوحى مؤيداً علياً ، ومفضلاً الجهاد لخالص لوجه الله على جميع الأعمال ذات المظاهر مهما كانت أهميتها : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾.

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ يفيد أن على المؤمنين أن يتولوا شؤون المساجد ويمنعوا المشركين من دخولها ؛ لأن المشركين نجس ، والمشركون أنفسهم يشهدون أنهم كافرون ، والمشرك والكافر لا يقبل منهما عمل صالح وتنتظرهما نار يخلدون فى عذابها أبداً . ولقد ساءنى أن يتصرف اليهود فى شؤون المساجد فى فلسطين ، وعلمت أن نساء عاريات من اليهود والأوروبيين يدخلن المسجد الأقصى، ويلتقطن فيه صوراً ، وقد يمر بعضهن بين يدى المصلين فى ألبسة فاضحة ، وهو منظر يغضب الرب جل جلاله ويقطع نياط القلوب المخلصة .

وفى بعض الدول العربية الشقيقة رأيت سائحات بملابس مخجلة يدخلن المساجد ، ويلتقطن صوراً ، وفى هذا ـ لا شك ـ استهانة بحرمة المسجد الذى هو بيت الله وما يجوز أن يعمر مساجد الله إلا مسلم .

أما المشرك فإنه حتى ولو صلى فى مسجد المسلمين ، فإن ذلك لا يغنى عنه شيئاً ؛ لأن الشرك أحبط عمله ونزع من أعماله القبول ، ثم إن خدمة المساجد وعمارتها يجب أن تكون من المسلمين ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ** ﴾ أى بالصلاة أو بالخدمة من آمن بالله واليوم الآخر ـ وهذا هو التوحيد ـ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وهاتان من أركان الإسلام ، ولم يخش إلا الله وهذا هو الجهاد الصابر المحتسب ﴿**فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ وعسى فى كلام الله هى للتأكيد لا للرجاء ، أى هم بإذن الله من المهتدين الذين يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الفلاح والجنة والرضوان .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ **أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ إلى آخر الآيات معناه :

هل تجعلون أهل الأحساب المتوارثة الذين ورثوا بعض الأمور الشريفة عن آبائهم كالعباس إذ ورث السقاية ، وشيبة إذ ورث السدانة ، هل تعتبرون هؤلاء كمن سبق إلى الإيمان والإسلام ، وجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه كعلى رضى الله عنه ؟ وهو استفهام إنكارى بليغ معناه : لا يجوز لكم ولا يليق أن تجعلوا أولئك مثل هؤلاء ؛ لأنهم لا يستوون عند الله ، ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ ، وهو يعنى الذين يعيرون السابقين المجاهدين ، ويرون لأنفسهم الشرف عليهم ، ثم يمضى الحق جل جلاله فيعلن أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، أعظم درجة عند الله من أهل السقاية والرفادة والسدانة ، وأولئك هم الفائزون برضوان الله ونعيم الآخرة ، ثم يرسل الله إليهم فى قرآنه بشارة تحيى القلوب وترفع المعنويات فيقول عن السابقين بالخيرات : ﴿**يُبَشِّرُهُم**

رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

رابعاً : فى الآيات ما يوضح أن الإسلام لا يكترث بالمظاهر بمقدار ما يهتم بالحقائق ومنطق الأعمال ، فرب رجل ذى حسب قديم وشرف تليد لا فخر لديه إلا بجدوده ، إن مثل هذا لا يقيم له الإسلام وزناً إلا إذا أضاف إلى حسبه التالد شرفاً من عمله الصالح وجهاده الصادق المحتسب ، ففى الحديث : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ويؤكد النبى ﷺ هذه الحقيقة فيقول : « من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ».

إن بلالاً وهو عبد أسود متحدر من أمة سوداء ، هو أشرف عند الله من عم رسول الله ﷺ أبى لهب عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان فى الذروة من قريش نسباً وجمالاً ، لكن ذلك لم يغن عنه شيئاً ، وبذلك تحول العبد الحبشى أشرف من الشريف القرشى ؛ لأن الإسلام قلب المقاييس الشكلية القاصرة التى تعارف الناس عليها ، وأعلن على الخليقة أن الناس كلهم من ذكر وأنثى ، ثم دوى بالقاعدة الإلهية الكبرى للكرامة حين جلجل بالعبارة العظيمة الخالدة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

## الولاء لله ولرسوله والمؤمنين

إن من أعظم دعائم التربية الإسلامية ، غرس عادة عظيمة فى قلوب المؤمنين تسمو بهم عن حطام الأرض ، وتعلو بهم إلى أعلى منازل الجنة ، هذه العادة هى حب الله ورسوله وذلك بأن يكون الله ورسوله أحب للمؤمن مما سواهما وأحب إليه من ماله وولده ووالده والناس أجمعين .

يقول النبى ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار » . وهاتان آيتان من سورة التوبة فى هذا الموضوع ترسمان للمؤمنين هذا الطريق المبارك من مدارج السالكين .

بسم الله الرحمن الرحيم : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وَإِخوَانَكُم أَولِيَاءَ إِن استَحَبُّوا الكُفرَ عَلَى الإِيمَانَ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُل إِن كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبنَاؤُكُم وَإِخوَانُكُم وَأَزوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَموَالٌ اقتَرَفتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرضَونَهَا أَحَبَّ إِلَيكُم مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بِأَمرِهِ وَاللهُ لاَ يَهدِى القَومَ الفَاسِقِينَ ﴾** [التوبة : ٢٣ ـ ٢٤].

أقول وأسأل الله لى ولجميع المسلمين أن يجعلنا ممن ذاق حلاوة الإيمان ، وأن يملأ صحائفنا بالبر والإحسان وأن يجنبنا همزات الشيطان:

**أولاً** : قوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُم وَإِخوَانَكُم أَولِيَاءَ إِن استَحَبُّوا الكُفرَ عَلَى الإِيمَانَ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُم فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**

أمر من الله جل جلاله للمؤمنين أن يجعلوا حب الله ورابطة العقيدة فوق القرابة وفوق كل اعتبار . وقد ذكر فى الآية : الآباء ، والإخوة ؛ لأن المرء

يلتمس النصر والعزة فيهم ، أما الأبناء فلم يذكرهم ؛ لأنهم يغلب أن يكونوا تبعاً للآباء ، ومن ثم فالمرء يضمن نصرة أبنائه وولاءهم ، ويتطلع إلى نصرة أبيه وإخوانه ، ويكون معنى الآية أمراً للمؤمنين ألا يتخذوا آباءهم وإخوانهم أنصاراً وأصدقاء وحلفاء ، إذا كان أولئك الآباء والإخوة كفاراً ، أشربت قلوبهم الكفر ففضلوه على الإيمان.

وقدم الآباء على الإخوة ؛ لأن الولاء يتجلى فيهم فى الدرجة الأولى فأسرع من يسارع لنصرة المرء أبوه ، وقدمهم كذلك لأن أكبر حق هو حق الوالدين، لكن هذا الحق يسقط ، وذلك الولاء ينهار إذا كان الأب كافراً معادياً للإسلام آمراً لنبيه بالكفر ، وفى هذه الحال لا تجب طاعته بل إن عصيانه يتحول حسنات لكن إسداء المعروف إلى الوالد يظل واجباً حتى ولو كفر وأصر على الكفر .

قدمت والدة أسماء بنت أبى بكر عليها بالمدينة واسمها قتيلة بنت عبد العزى وكانت كافرة ، فقالت أسماء ـ رضى الله عنها ـ لرسول الله ﷺ : إن أمى جاءت لزيارتى بالمدينة وهى مشركة أفأصلها ، فقال لها : « صلى أمك» ويقول الله تعالى فى سورة لقمان : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ [لقمان : ١٥] ويختم القرآن الآية الكريمة فى سورة التوبة بقوله : ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ أى : أن من يفضل أباه على دينه ويتخذ من أبيه وإخوته الكفار أنصاراً ويرتبط معهم بحلف وذمة فإنه ظالم لنفسه جائر عن أمر دينه .

**ثانياً** : ورد فى مناسبة الآية الثانية أن النبى ﷺ حين أمر المسلمين بالهجرة فراراً بدينهم ، سارع الأبرار السابقون بالخيرات لكن فريقاً آخر عز عليهم فراق آبائهم وأبنائهم وعز عليهم فراق زوجاتهم المشركات ، وعز على البعض

أن يفارق عشيرته إلى غربة قد لا يجد فيها عشيرة تنصره ، وكان بعض الزوجات والأطفال يتعلقون بآبائهم ويقولون : لمن تتركوننا ؟! وهنالك فريق عز عليهم ترك أموالهم ودورهم الواسعة إلى حيث المجهول الذى قد لا يجدون معه المأوى وهنا يرق قلب الوالد فيتخلف عن الهجرة ، ويظل فى دار الشرك ، وهنا نزلت هذه الآية الكريمة مجلجلة مهددة فى أسلوب قاصف كأنه الصاعقة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فى الآية الكريمة تهديد بأسلوب الأمر وهو من أشد الأساليب تخويفاً كقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود : ١٢٢] إنه أسلوب مقرع حقاً أن يقول الله جل جلاله للمسلمين الذين يوالون أقاربهم المشركين ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾: ثم إن ختام الآية ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هو إشارة واضحة بأن من يفضل قرابته على دينه فهو فاسق .

**ثالثاً** : لله جل وعلا غيرة على قلب عبده المؤمن ؛ ولهذا ابتلى إبراهيم بالرؤيا فصدق عليه السلام الرؤيا ، وأثبت أن الحبيب الأكبر مازال هو المتصرف فى قلب خليله ، وأن الابن وإن جاء فى عوز الشيخوخة وبلغ السعى وساعد فى بناء البيت فما هو إلا حبيب صغير يمكن أن يذبح فى مرضاة الحبيب العظيم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ولما نجح إبراهيم فى الابتلاء ، وأتم كلمات الله ممتثلا ؛ ناداه ربه من علياء سمواته : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ونجحت فى أعظم امتحانات الحب الإلهى ﴿ إِنَّا

كَذَلِكَ نَجزِى المُحسِنِين ﴾ [الصافات : ١٠٥] ارفع سكينك وانظر فهذا ذبح عظيم لافتداء صَفيك .

إن حب الله ورسوله لدى أصحاب رسول الله كان سبب انتصارهم ؛ لأن نفوسهم وأهليهم وأموالهم كانت تهون عليهم وكانوا يرون بذلها قليلاً في جنب الله . اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك ، وحب كل عمل يقرب إليك، واكتبنا اللهم في محبيك وأحبابك ، يا من لا تغلق أبوابه ولا يخاف لديه أحبابه .

# النصر بالإيمان واليقين لا بالعدة والعتاد

مما أضر بالمسلمين فى هذه الأيام أن العدو أوقع فى روعهم بأن العدة والأسلحة والصواريخ المختلفة والطائرات الشرسة هى العامل الوحيد فى المعارك وهى السبب الوحيد فى النصر أو الهزيمة ، ومن ثم رهب المسلمون ما يصنعه الأعداء من سلاح فتاك ، وقعدوا يقول قائلهم : لا قبل لنا بما يدعم الصهيونية من أسلحة الصليبية . إن هذا الاعتقاد باطل من أساسه ، فالروح المعنوية فى الجيش أهم من السلاح ؛ والعقيدة تذكى العزيمة ، والسيف مهما كان عضباً لا يعمل إلا فى يدى بطل . لقد كانت أسياف المسلمين فى القادسية صغيرة قصيرة فطولوها بالإقدام والبطولة . وكانت سيوف الفرس مرهفة أغمادها ذهب فما أغنت شيئاً ؛ لأنها لم يكن لها رِدْء من الإيمان ، وهاتان آيتان من سورة التوبة تعلمان المسلمين أن كثرة العدد والعدة ليست السبب الوحيد فى إحراز النصر فثمة الإيمان والمعنوية ، وثمة إرادة الله القادرة القاهرة .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة : ٢٥ _ ٢٦] .

أقول وأسأل الله أن ينزل السكينة فى قلوب المسلمين وينصرهم على القوم الكافرين :

**أولاً** : هاتان الآيتان الكريمتان ترويان قصة طريفة هى قصة حنين ، وحنين : واد معروف قريب من الطائف ، وتعد معركة حنين من أعظم دروس السيرة ؛

لما انطوت عليه من هزيمة أعقبها نصر ومن نقمة أعقبها عفو ؛ ولهذا رأيت أن أقص حكاية حنين ؛ لأنها خير شرح للآيتين : لما فتح الله مكة المكرمة على رسول الله ﷺ كان المنتظر من أهل الطائف أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ فيعلنوا إسلامهم ويعودوا من عنده بكرامة الدارين ، لكن الذى حصل كان عكس ذلك ، فقد ابتلوا بزعيم أحمق اسمه مالك بن عوف من بنى نصر من هوازن أوقع فى قلوبهم أن إسلامهم يعتبر ذلاً وانقياداً ، وأن عليهم أن يقاتلوا محمداً وصحبه ليثبتوا للناس أنهم ذؤابة العرب وأن قبائل قيس عيلان أعز من قريش وتميم ، ولما عارضه قوم منهم دريد بن الصمة الشاعر المعروف هدد أن يقع على سيفه لينفذ من ظهره فتبعته بطون هوازن وثقيف وبعض التعساء من قبائل قيس عيلان ، وتخلفت عنه قبيلتا كعب وكلاب فاجتمع له قرابة ستة آلاف مقاتل وقيل : ثمانية . وكان من تخطيطه المشؤوم أن جمع كل النساء والذرارى والأنعام وجعلها من وراء الجيش ليعلموا أن الهزيمة معناها هتك الأعراض وسلب الأموال وفضيحة الأبد ، وسار الجمع حتى نزل بأوطاس وهو مكان قرب حنين ، وبعث رسول الله ﷺ عيوناً فأخبروه بتحركهم وعددهم فأجمع أمره أن يسير إليهم واستعار مائة درع وقيل : أربعمائة من صفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، واستسلف ثلاثين ألف درهم من أحد أغنياء مكة قضاه إياها عندما عاد .

وسار عليه الصلاة والسلام بحوالى اثنى عشر ألفاً إلى ستة عشر ألفاً وكان منهم بعض من أسلم قبل أيام فقط ومنهم أعراب تبعوا الجيش من سليم وكلاب ومن عبس وذبيان وغطفان ، والمهم أن بعض عناصر الجيش لم يكونوا من ذوى الإسلام الراسخ وقد أعجبهم كثرة الجيش حينما سار فقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة . وأمّر النبى على مكة عتاب بن أسيد من بنى عبد شمس وكان من أفضل الصحابة وأعظمهم إيماناً ، وفى مخرجه من مكة مر

على شجرة رائعة الخضرة فقال له بعض جهال الأعراب : اجعل لنا ذات أنواط كما كان لأهل الجاهلية ذات أنواط . يريدون أن يعبدوها ويعلقوا عليها أسلحتهم كما كان عرب الجاهلية يعلقون أسلحتهم على شجرة يقال لها : ذات أنواط ويعبدونها فقال عليه الصلاة والسلام : « الله اكبر لقد قلتم كما قال قوم موسى : ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ [الأعراف : ١٣٨] لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة ـ أى كما يتبع السهم السهم ـ حتى لو دخلوا جحرضب لدخلتموه » وانطلق الرسول ﷺ بالجيش حتى وصل وادى حنين بعيد الفجر ، وكانت هوازن قد كمنت للمسلمين فى عدوتى الوادى وكانت من أقدر العرب فى الرماية ، فلم يشعر المسلمون إلا والسهام تنهال عليهم كأنها الجراد المنتشر ، ففوجئ المسلمون واستحر فيهم القتل ، وفرت الإبل تدوس الجيش ، ثم فر كثيرون ممن أسلموا حديثاً ، واختلط حابل المسلمين بنابلهم فولوا مدبرين ليقفوا بعيدين عن مرمى النبال ، فكانت هزيمة منكرة شمت بها بعض حديثى الإسلام حتى لقد قال بعضهم : الآن بطل السحر ، والله لن يرد وجوههم إلا البحر .

وهنا فى ذلك الموقف الهائل ثبت رسول الله ﷺ كأنه الجبل الراسخ وثبت من حول بغلته الشهباء أبو بكر وعمر وستة من آل بيته هم على والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر وأسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن الذى استشهد فى ذلك الموقف ـ رضى الله عنهم جميعاً ـ وكان العباس ـ رضى الله عنه ـ جهورى الصوت حتى لقد روى عن قوة صوته أنه ربما صرخ فأسقطت الحامل حملها ، فنادى بأعلى صوته : يا أهل الشجرة يعنى من بايعوا محمداً ﷺ تحت الشجره أقبلوا فهذا نبيكم . ونادى رسول الله ﷺ : « أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب » فانعطف المسلمون عائدين وقد سكنت قلوبهم وعادت عزائمهم وخجلوا من تفرقهم ، وكان قتال عنيف خارت فيه هوازن

وثقيف فنكصوا لايلوون على شىء ، تاركين أموالهم ونساءهم وأطفالهم ، حتى لقد بلغ عدد السبى قرابة ستة آلاف ، وقسم النبى ﷺ الغنائم والسبى بين المقاتلين ، وهنا ندمت هوازن ندماً شديداً ، فأعلنوا إسلامهم وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله آمنا بك وصدقناك لقد ملكت علينا أموالنا ونساءنا وأولادنا ، فقال لهم رسول الله ﷺ فأسجح : « لقد قسمنا المال والسبى بين المقاتلين ، وإن خير القول أصدقه ، فاختاروا إما الأموال وإما الذرارى » فقالوا : اخترنا الذرارى ، وفى الحال تنازل لهم عن نصيبه ونصيب بنى هاشم وتبعه الأنصار ، وامتنع البعض عن رد السبابا وخصوصاً الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس ، فدفع النبى ﷺ لهم تعويضاً وعادت هوازن وثقيف وأحلافهما بذراريهم مسلمين . وحضرت حليمة السعدية أم رسول الله من الرضاعة ـ رضى الله عنها ـ فسر بها رسول الله ﷺ وأكرمها إكراماً عظيماً . ولما رجته فى إطلاق السبايا أجاب رجاءها وأطلقهم وجاءت أخته من الرضاعة بنت حليمة السعدية واسمها الشيماء ، فألقى لها رداءه وأجلسها إلى جواره، وعادت ـ رضى الله عنها ـ من مكة إلى بادية بنى سعد سعيدة بدينها وبما أكرمها به أخوها عليه الصلاة والسلام .

هذه خلاصة لغزوة حنين وما كان من مواقف أثبتت أن رسول الله ﷺ هو قدوة الأخيار فى الثبات ، وقدوتهم فى مواقف الهزيمة والنصر ومواقف النقمة والعفو ومواقف الوفاء والبر .

اللهم اهدنا بهديه ، ونور قلوبنا بنوره ، واملأ صدرونا بحبه ، واكتب لنا شفاعته .

# حول قتال المشركين ونظام الجزية

هاتان آيتان من سورة التوبة تشتملان على أحكام فقهية كثيرة يحسن أن يعرفها المسلمون لتكون لهم ثقافة إسلامية يردون بها شبهات ويوضحون بها حقائق .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٨ ـ ٢٩].

أقول وأسأل الله لى ولسائر المسلمين مغفرة عظيمة لا تضيق بالذنوب ، وستراً سابغاً لا يضيق بالعيوب ، ورحمة واسعة تطمئن بها القلوب:

**أولاً** : حين جاء نصر الله والفتح ، ورأى المشركون أوثانهم يكبها رسول الله ﷺ على وجوهها ؛ دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ولم يبق على الشرك إلا كل من أغفل قلبه وطمست بصيرته وضاع عقله ، ومع ذلك أمهلهم الإسلام أربعة أشهر لعلهم يعقلون ، وعلى ضوء العقول يؤمنون ، فإذا لم يعقلوا ولم يؤمنوا ، فهم إذ ذاك غير جديرين بالحياة ، ومن ثم فحياتهم تكون مستباحة ودماؤهم مهدرة ، وهم غير جديرين أن يخالطوا المسلمين فى معاملة ولا عبادة لأنهم رجس ونجس .

**ثانياً** : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ لا يعنى أن جسد المشرك نجس وأن من سلم على مشرك فعليه أن يغسل يده ، لكن المعنى أن الشرك قد

حول المشرك خبيثاً نجس النفس والقلب والتفكير ، وإنسان هذه نفسيته وتلك عقليته لا يجوز أن يقرب المسجد الحرام حيث المؤمنون طاهرون ظاهراً وباطناً مشرقة بنور الإيمان قلوبهم، وضاءة بجمال الإحسان نفوسهم ، وقيل : نجس المشرك أن يكون جنباً ، وذلك لأنه لا يعرف ولا ينوى إسقاط الجنابة .

**ثالثاً** : قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ يشير إلى أن غياب المشركين عن الأسواق والموسم ينال من تجارة قريش ومعاملاتها واقتصادها خصوصاً وأن البدو كانوا مصدراً رئيسياً للأطعمة بما يجلبونه من مستخرجات حيواناتهم ونبات صحاريهم . وهنا يعد الله المسلمين أنه سوف يعوضهم عما يفقدون ويغنيهم من فضله بمشيئته ؛ لأنه عليم بإخلاص المؤمنين ، حكيم فى قسم الأرزاق ، وكثيراً ما ترى مؤمناً اضطرته ظروف شديدة أن يشتغل فى مؤسسة لا تتحرج من الحرام كمصرف ربوى أو شركة تلجأ إلى الرشوات فتركها ، فرزقه الله رزقاً حسناً ما كان ليتهيأ له لو ظل فى عمله الأول ، وإلى هذا يشير قوله عز وجل : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ .

**ثالثاً** : ومسألة دخول المساجد لغير المسلمين وهل يجوز للمشرك واليهودى دخول مساجد المسلمين ؟ فى هذه المسألة خلاف بين أشياخنا ـ رحمهم الله ـ فقال بعضهم : إن دخول جميع أنواع الكفار مشركين ويهوداً ونصارى مساجد المسلمين ممنوع ؛ لأنهم جميعهم نجس لا يعرفون كيف يتطهرون ثم هم رجس ونجس بكفرهم . وقال الشافعى ـ رحمه الله ـ : لا يمنع إلا المشركون من دخول المساجد أما اليهود والنصارى فيمنعون كالمشركين من دخول المسجد الحرام والحرم أجمع

ولكن لا يمنعون من دخول مساجد المسلمين ، ولعل الحكمة فى ذلك أن يروا صلاة المسلمين وخشوعهم وطهارتهم فيميلوا إلى الإسلام .

**رابعاً** : قوله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ هذه الآية تأمر المسلمين أن يقاتلوا اليهود والنصارى حتى يرضوا أحد اثنين : إما الدخول فى الإسلام ، وإما إعطاء الجزية فى مقابل توفير الأمن لهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية . والجزية : مبلغ من المال يختلف قلة وكثرة حسب ظروف دافعيها وتبعاً لاجتهاد الحاكم المسلم ، يدفعها الذمى المقتدر من اليهود والنصارى لبيت مال المسلمين ، وفى مقابل ذلك يصبح مصون الدم والمال والعرض، وإذا اعتدى عليه مسلم عوقب كما لو اعتدى على مسلم ، ولا يجوز أن تمس أملاكهم أو زروعهم أو ثمارهم بأى سوء وحمايتها فى ذمة الدولة الإسلامية .

**خامساً** : واختلف المفسرون فيمن تقبل منه الجزية من غير المسلمين ، فقال الشافعى وأحمد : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب ومن المجوس أما غيرهم فلا تقبل منهم . وقال مالك وغيره : تقبل من كل إنسان كتابياً كان أو غير ذلك ، اعتماداً على أن عمر - رضى الله عنه - قبل الجزية من مجوس البحرين ، واختلاف الأشياخ فى بعض المسائل الكبرى يدل على أن الإسلام دين واسع الآفاق يتسع لكل ما يجد من مسائل الحياة مهما تعقدت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

**سادساً** : وحول سؤال : من يدفع الجزية من الرجال والنساء والصبيان ؟ قال المفسرون : إنها لا تؤخذ إلا من حملة السلاح من المقاتلين ، ولا تؤخذ من النساء والشيوخ والأطفال ، ولا من العبيد الذين يقاتلون بأمر

مواليهم، ولا تؤخذ من رهبان يلازمون صوامعهم ولا يشتغلون بالقتال .

**سابعاً** : إذا دخل أهل الجزية فى الذمة ووفوا بجزيتهم أعطوا حرية ممارسة شعائرهم الدينية ولا يجوز أن يتعرض لكنائسهم بأذى ويتزوجون ويطلقون حسب شريعتهم ، وإذا عصروا خمراً فعليهم إخفاؤها وإذا شربوا فيشربون سراً، وإذا اتلف مسلم خمراً فى بيت ذمى ؛ لزمه ثمنها ، ويجوز لهم أن يأكلوا خنازيرهم دون أن يظهروها ، وإذا تعاملوا بالربا لم يعاقبوا ، وإذا احتكموا إلى قاض مسلم جاز له أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم وإن حكم بينهم حكم بما يقضى به الإسلام .

**ثامناً** : إذا سرق الذمى أو قطع الطريق حكم بما يحكم به المسلم من الحدود، ومن منع الجزية فلم يدفعها فإن كان غنياً قادراً عوقب ، وإن كان فقيراً يعفى منها ، ولا يكلف الغنى منهم أن يدفعها عن الفقير ولو كان ابنه أو أخاه ، وفى الحديث الشريف الذى رواه أبو داود: « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بدون طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » .

اللهم زدنا بالإسلام بصيرة ، اللهم وأحينا مسلمين ، وتوفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين .

# اختبـــار العســـرة

الشدائد للناس كالنار للمعادن ، وكما تصهر النار المعادن فتصفيها من الشوائب وتخلص جوهرها من الأخلاط ، كذلك تنزل الشدائد بالناس فيتميز بها الخبيث من الطيب ، ويتبين الذين صدقوا ويفتضح شأن الكاذبين ؛ ولهذا كان الله جل وعلا يبتلي أصحاب محمد ﷺ بالشدائد يميز الله بها الخبيث من الطيب ، ثم يجعل الخبيث بعضه على بعض فيكدسه فيلقى به في جهنم ، يقول الله تعالى : ﴿ أم حَسِبْتُم أن تدخُلُوا الجنَّةَ ولَمَّا يأتكُم مثَلُ الَّذين خلَوا من قبلكُم مسَّتْهُمُ البأسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلزلُوا حتَّى يقُولَ الرَّسُولُ والَّذين آمنُوا معَهُ متَى نَصرُ الله ألاَ إنَّ نصرَ الله قريب ﴾ [البقرة : ٢١٤] والآيات الكريمة التى سأوردها هنا تشرح موقفاً من مواقف الشدائد التى لا يثبت لها إلا عظماء الرجال . وإنى إن شاء الله موردها ثم معلق عليها بما يفتح الله عليّ من إشارات البلاغة .

يقول الله تعالى فى أواخر سورة التوبة : ﴿ لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ من بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُم ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم إنَّهُ بِهِم رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَت عَلَيهِمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَت وَضَاقَت عَلَيهِم أنفُسُهُم وَظَنُّوا ألاَّ مَلجَأَ مِنَ الله إلاَّ إلَيهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم لِيَتُوبُوا إنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧ ـ ١١٩] . هذه الآيات الكريمات نزلت فى ذكر غزوة تبوك التى تسمى غزوة العسرة ؛ لشدة ما لقى المسلمون فيها من بلاء وما تحمل فيها الرسول ﷺ وصحبه من جوع وعطش وتعب وحر شديد .

كانت تلك الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ إذ لم يخرج بعدها للغزو مع أصحابه ، ويبدو أن المسلمين بعد فتح مكة ظن كثير منهم أن الجهاد لم يعد له لزوم كما كان الأمر قبل الفتح ، وزاد عدد المسلمين فى أثناء ذلك فظنوا أنهم لن يغلبوا من قلة ، وإلى جانب ذلك تميز المنافقون غيظاً على أثر نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، فأراد رسول الله ﷺ أن يجرى امتحاناً للمؤمنين ، وكان امتحاناً هائلاً شاقاً لا تنهض له إلا العزائم المؤمنة العظيمة، نادى النبى ﷺ فى المؤمنين ، أنه ينوى أن يغزو الروم ، وبين لهم وجهته وما فيها من بعد الشقة وطول السفر وخطورة الحر ، وزاد الأمر شدة أن النداء صدر قبل نضوج الرطب بقليل والرطب فى المدينة متعة أى متعة ، ولم يكن عند الأنصار فى خوابى تمرهم إلا بقايا من إنتاج العام الماضى ، قد تقادم عليها الزمن وكان الحر شديداً لا يطاق ، هنالك وضع النبى الكريم ﷺ كل أهل المدينة فى بوتقة اختبار ، أما المنافقون فكانوا أول من سارع إلى رسول ﷺ لا ليسيروا معه ؛ ولكن ليعتذروا ، كانت أعذارهم كاذبة ، وكان بعضها مهزلة واضحة حتى لقد قال أحدهم : يارسول الله ائذن لى ولا تفتنى فإنى شديد الولوع بالنساء وأخشى إذا رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتتن ، ويعقب الله جل وعلا على هذا وأمثاله بقوله: ﴿ **أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة : ٤٩].

وكان بعض أعذارهم ينم عن جبن وضعف فقد قال بعضهم لبعض لا تنفروا فى الحر ﴿ **قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** ﴾ [التوبة : ٨١] واشتغل المنافقون فى أثناء تجهيز جيش العسرة بتثبيط العزائم ودعوة الهزيمة ؛ لكن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه انطلقوا إلى ديار الروم ،غير آسفين على ظلال البساتين ، ولا ثمار النخيل ، ولا وثير الفرش . وبعد أن فصل النبى ﷺ بالجيش لم يبق فى المدينة، إلا الأعمى والأعرج والمريض والصغير ومع هؤلاء كان

المنافقون يتمتعون بالثمار والماء البارد والنساء دونما حياء من الله ، فكنت تراهم في شوارع المدينة كالخشب المسندة لا فائدة منها لقد أذن النبي ﷺ لهم بالتخلف ولامه ربه على ذلك فقال له : ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [التوبة : ٤٣] .

وحدث أن كان من الذين خلفوا ثلاثة رجال من الأنصار كانوا ـ رضى الله عنهم ـ فضلاء لهم سابقة فى الإسلام والجهاد والصدقة ، ولكنهم تكاسلوا فضاع عليهم الوقت وكان أشهرهم كعب بن مالك وهو صحابى من السابقين الأولين ، كان من أهل العقبة ، وشهد أكثر الغزوات مع رسول الله ﷺ ؛ لكنه ظل يروح ويجيء حتى غادر النبى ﷺ والمؤمنون . وكم كان ألم الصحابة الثلاثة حين رأوا أنفسهم يمشون فى شوارع المدينة ، وليس حولهم إلا المنافقون ، وإلا أصحاب الأعذار ، فندموا ولات ساعة مندم وبكوا على حين لا ينفع البكاء ، وانخلعت قلوبهم خوفاً من غضبة رسول الله ﷺ ، وظلوا يعدون الساعات حتى عاد النبى الكريم وأصحابه وافرين سالمين غانمين ،هنالك دارت بهم الأرض وتفقدوا قلوبهم فلم يجدوها ، ووصل رسول الله ﷺ ، فقدم عليه المنافقون فى وقاحة ضعيفة يسألونه أن يستغفر لهم تخلفهم فكان عليه الصلاة والسلام يقبل عذرهم دون تردد ويستغفر لهم وهو يعلم أنهم كاذبون . أما الثلاثة الذين خلفوا فقدموا عليه ، وقد امتقعت ألوانهم ، وأعلنوا أنهم لا عذر لهم ، وإنما أقعدهم سوء طالعهم وضياع وقتهم ، هؤلاء الثلاثة صدقوا الله ورسوله فابتلاهم الله جل وعلا بامتحان جديد حين أمر النبى ﷺ بمقاطعتهم، وأعرض هو عنهم ، وأمرهم بعدئذ أن يهجروا مضاجع زوجاتهم فما كان منهم إلا البكاء والسمع والطاعة ، حتى إذا ثبت إخلاصهم وصدقهم وتوبتهم ، تاب الله عليهم ومن قبل ذلك تاب على نبيهم الكريم الذى أذن للمنافقين بالتخلف

اجتهاداً ، وتاب على المؤمنين الذين كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وعمت توبة الله جميع أصحاب الرسول الكريم ومعهم الثلاثة الذين خلفوا ؛ لأنهم كانوا مع الصادقين .

وبعد فما أجمل التوكيد في قوله تعالى : ﴿ **لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ** ﴾ فقد أكد الكلام باللام وقد ؛ لكي يطمئنهم على أنها توبة مؤكدة من الله تعالى : كما يلاحظ ترتيب العطف حسب الأقدمية في الإسلام والجهاد في قوله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار**﴾، وفي قوله تعالى عن الصحابة الثلاثة : ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾ استعار كلمة تاب عليهم ليعنى بها ـ عفا عنهم غلطتهم ـ لكي يتمكنوا من التوبة النصوح ، ويموتوا على التوبة والإيمان . وفي نهاية الآيات وجه القرآن الكريم نداء للمؤمنين أن يتحلوا بالصدق مهما جر عليهم من بلاء فذلك أشرف من ابتكار أعذار كاذبة تعفى الإنسان من بلاء الدنيا ، لكنها توقعه في خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

# الفهــــرس

| الموضـــــوع | الصفحة |
| --- | --- |
|  |

| الصفحة | الموضـــــوع |
|---|---|
| ٢٢١ | القرآن الكريم يفضح نفسيات اليهود |
| ٢٢٥ | الحكم فى نظر الإسلام مسئولية يتحملها الحاكم والمحكوم |
| ٢٢٩ | حول الإيمان بالقضاء والقدر |
| ٢٣٣ | الحرب المعنوية وأثرها السيئ على الأمة |
| ٢٣٧ | حكم عمر فيمن رفض حكم رسول الله ﷺ |
| ٢٤١ | الإسلام يفرض على أتباعه التحلى بالمثل العليا |
| ٢٤٥ | حول أفدح جريمة بعد الشرك بالله |
| ٢٤٩ | لطائف حول صلاة الخوف |
| ٢٥٣ | حول عظمة الإسلام وعدالته المطلقة |
| ٢٥٧ | الإسلام دين العمل ولا خير فيمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى |
| ٢٦١ | منهج الإسلام فى الجهاد |
| ٢٦٥ | اليهود بلاء الإنسانية |
| ٢٦٩ | تفنيد عقيدة التثليث |
| ٢٧٤ | المنافقون شر من الكافرين |
| ٢٧٨ | الإسلام دين الوفاء |
| ٢٨٣ | كل طيب حلال |
| ٢٨٧ | جزاء الحرابة |
| ٢٩١ | عقوبة السارق |

رقم الإيداع

٩٧ / ١٤٥٥٣

I.S.B.N. الترقيم الدولى

977-5268-87-7